مكسيم جوركي

الأصدقاء الثلاثة

رواية

ترجمة : وصفي البني

آفاق للنشر و التوزيع
AFAQ BOOKS

مكتبة
Telegram Network
2020
«المكتبة النصية»
قام بتحويل رواية:
(الأصدقاء الثلاثة)
ل- «مكسيم جوركي»
إلى صيغة نصية:
(فريق الكتب النادرة)
تنسيق
ماجدة علي
منصور التميمي

الأصدقاء الثلاثة

رواية

مكسيم جوركي

Three Men

By:

MAXIM GORKY

الأصدقاء الثلاثة

رواية

مكسيم جوركي

رقم الإيداع:

2018 / 20890

الترقيم الدولي: 8 - 199 - 977-765 - ISBN 978

Afaq Bookshop & Publishing House

1Kareem El Dawla st. - From Mahmoud Basiuny st. Talaat Harb
CAIRO – EGYPT - Tel: 00202 25778743 - 00202 25779803

Mobile: +202-01111602787

afaqbooks@yahoo.com :E-mail

www.afaqbooks.com

1شارع كريم الدولة- من شارع محمود بسيوني - ميدان طلعت حرب- القاهرة - جمهورية مصر العربية

ت: 00202 25778743 - 00202 25779803

- موبايل: 01111602787

بطاقة الفهرسة

إعداد الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية إدارة الشؤون الفنية

جوركي، مكسيم.

مكسيم جوركي: الأصدقاء الثلاثة - ترجمة: وصفي البني

ط1 القاهرة - دار آفاق للنشر والتوزيع - 2019 496 ص، 21 سم.

رقم الإيداع 20890 / 2018

الترقيم الدولي 8 - 199 - 765 - 977 - 978 1

- الأدباء (روايات) 2 - جوركي، مكسيم

المقدمة

مكسيم جوركي كاتب روسي عظيم، ومن أبرز الكتاب الواقعيين في القرن العشرين. وقد ألف نتاجه مرحلة كاملة في تطور الأدب الروسي والعالمي. بدأ جوركي طريقه في السنوات التي كان الأدب الروسي فيها لا يزال مجالًا لإبداع كلاسكييه، ليو تولستوي، وأنطون تشيكوف، الكاتبين الذائعي الصيت في العالم بأسره. وقد كان إبداع جوركي الشاب موضع تقدير الكاتبين، وعنه كتب ليو تولستوي: «أنا شخصيًّا أعرف جوركي وأحبه، ليس فقط بوصفه موهوبًا له قدره في أوروبا، بل كذلك بوصفه إنسانًا ذكيًّا، طيبًا لطيفًا». وكانت تربط جوركي بتشيكوف عُرى صداقة وثيقة. وفي الظروف التاريخية الجديدة، طور جوركي تقاليد الأدب الكلاسيكي الروسي، فكان مؤسس الأدب السوفييتي.

وُلد مكسيم جوركي، واسمه الأصلي أليكسي مكسيموفيتش بيشكوف، في 28 آذار (مارس) 1868، في نيجني نوفجورود (مدينة جوركي حاليًا). وقد فقد الكاتب والديه في سن مبكرة، وعاش طفولة صعبة قاسية. فقد اضطر، وهو في العاشرة من عمره، لأن «يشق» طريقه، ويشتغل لكسب أسباب معيشته، فخدم «صبيًّا» في مخزن أحذية، وغسَّال صحون على باخرة، واشتغل لدى رسام، وفي محترف لرسم الأيقونات، وانصرف إلى جَمْع الخرق، واصطياد العصافير، فانكشف لعينيه عالم الظلم ودنيا الجوع. وأدارت له الحياة غير مرة أقسى وجوهها. وفي نفس «نذير عاصفة الثورة المقبل» نضجت الكراهية لـ«قباحات الحياة النكراء»، والمقاومة لأوضاعها الفاجعة، وما كان في وسع شيء أن يخمد اهتمامه بالناس. وقد قال لجوركي ذات مرة مساعد المعلم في محترف رسم الأيقونات، الذي كان يخدم فيه:

«الأمر الحسن فيك أنك قريب لجميع الناس». وكان جوركي في السادسة عشرة من عمره حين جاء إلى مدينة قازان الكبيرة على نهر الفولجا، وقد اعتزم الانتساب إلى الجامعة «لو اقترحوا عليَّ قائلين اذهب وادرس على أن نضربك، مقابل ذلك، بالعصي في ساحة نيقولايفسكايا، كل يوم أحد، لكنت في الأرجح قبلت بهذا الشرط». هكذا كتب جوركي في مذكراته. بيد أن الدراسة في الجامعة لم تتيسر له، وهو الإنسان الذي لا مأوى له؛ فقد كان بانتظاره غير ذلك؛ كانت بانتظاره أقبية بيوت الضواحي، والموانئ النهرية حيث كان يشتغل حمَّالًا، والحلقات السرية، حيث تعرف للمرة الأولى على الثوريين- الماركسيين. كان جوركي يشتغل في النهار، ويدرس ويقرأ ويحاول الكتابة في الليل. وقد أصبح جوركي، الذي سمى نفسه فيما بعد «المتعلم على نفسه من الشعب»، واحدًا من ذوي الثقافة الشاملة في عصره.

وفي عام 1891 قام الكاتب بجولات في أرجاء روسيا، فجاب كل جنوب البلاد، وكل سواحل القفقاس على البحر الأسود. وقد أُوقف في الطريق ذات مرة، فكان جوابه عن سؤال الدركي عن سبب ترحاله: «أود التعرف إلى روسيا». وكانت تفليس، في القفقاس، ختام مطاف جوركي في الدرب الطويل الذي اجتازه في جنوبي روسيا، وفي تلك المدينة كتب قصته الأولى «ماكار تشودرا»، وتمت الموافقة على طبع القصة، ولكن كان ينقصها التوقيع. وكان أن ابتكره المؤلف،

وهو قاعد في مكتب التحرير: جوركي. (جوركي: معناها بالروسية «المر»).

كان جوركي، من حيث مزاجه ومعتقده، مناضلًا ضد الشر والظلم، وقد قال عن نفسه: «جئت إلى الدنيا لكي أعترض»، وبهذه الروح أشبعت مؤلفاته الصادرة في العقد الأخير من القرن التاسع عشر والعقد الأول من القرن العشرين، وهي القصص الرومانتيكية والواقعية: «العجوز إيزيرغيل» و«تشيلكاش» و«كونوفالوف»، و«أغنية عن نذير العاصفة» وغيرها. ومنذ ذلك الحين أكسبته هذه المؤلفات شهرة على نطاق روسيا كلها. وانتقل جوركي من القصص والروايات القصيرة إلى وضع مؤلفات فنية ضخمة؛ ففي عام 1899 كتب «فوما غورديييف». وفي بداية العقد الأول من القرن العشرين ألف جملة من الكتب والمسرحيات البارزة، مثل رواية «الأصدقاء الثلاثة»، ومسرحيتي «البرجوازيون الصغار»، و«في الحضيض».

وقد كان نتاج جوركي الأدبي ونشاطه الاجتماعي مبعثًا لملاحقة من جانب السلطات القيصرية، فخلال السنوات ما بين 1898- 1905 تعرض جوركي عدة مرات للاعتقال. وفي أيام الثورة الروسية الأولى، سنة 1905، التقى جوركي شخصيًّا، للمرة الأولى، بفلاديمير إيليتش لينين، الذي ربطته معه فيما بعد صداقة كبرى. وقد كتب لينين: «إن جوركي لموهبة فنية ضخمة» وهو «بلا شك أكبر ممثل للفن البروليتاري».

وبعد هزيمة الثورة الروسية الأولى رحل جوركي مهاجرًا إلى البلدان الأجنبية. وفي عام 1906، أنهى في أميركا روايته المشهورة «الأم» ومسرحية «الأعداء»، اللتين كانتا بداية للأدب الاشتراكي الجديد. إن رواية «الأم» معروفة لدى القراء في العالم أجمع، وقد تُرجمت إلى جميع لغات العالم تقريبًا، وطُبعت قرابة 300 طبعة. إن كتاب جوركي هذا قد سلح شعوب العالم المناضلة بأهم سلاح، ألا وهو الإيمان بالنصر. وفي نهايتها تقول نيلوفنا، البطلة الرئيسة في الرواية: «لن تخمد نور الحقيقة بحار من الدماء».

وحين كان جوركي في المهجر، بجزيرة كابري، في إيطاليا، كتب مؤلفه الرائع «حكايات عن إيطاليا»، وجملة من القصص عن الحياة الروسية، وبدأ بكتابة الثلاثية عن تاريخ حياته: «طفولتي»، «بين الناس»، «جامعاتي».

«ستكون روسيا أسطع ديموقراطية على الأرض»، هكذا عبَّر جوركي ذات مرة عن إيمانه بمستقبل الشعب الروسي. وبدأ حلم الكاتب يتحقق في الحياة في أكتوبر 1917؛ فقد نشبت الثورة في البلاد. ومنذ الأيام الأولى لوجود السلطة السوفييتية، احتل جوركي مركز الصدارة في حياة البلاد الأدبية. وفي ظروف الدمار الرهيب، الناجمة عن الحرب الاستعمارية، وفي ظروف الحصار والتدخل الأجنبي نشأت ثقافة جديدة. ورغم المرض -نزيف الحنجرة- الذي كان يقتضيه المعالجة الطويلة في إيطاليا، انصرف جوركي للعمل بنشاط إلى جمع القوى المبدعة الناشئة، وبدأ عملًا ضخمًا في مجال نشر الآداب الكلاسيكية الروسية والأجنبية من أجل الشعب، وأنشأ العديد من المسارح، والمجلات، والاستوديوهات الأدبية. وفي تلك السنوات نفسها كتب صوره الرائعة عن رجال الثورة والأدباء الروس -نبذة عن لينين، صور تولستوي، وتشيخوف، والشاعر إيسينين، وغيرهم. وتم إنجاز رواية «آل أرتامونوف»، التي كان تولستوي قد أبدى، في حينه، استحسانه لمشروعها. وعمل جوركي

قرابة عشر سنوات في تأليف «حياة كليم سامغين»، الرواية التاريخية ذات الأربعة مجلدات، ومسرحية «إيجور بوليتشوف وآخرون» الدرامية تُعرض في أحسن مسارح البلاد. وبحق أحدثت مقالات الكاتب الصحفية، في تلك السنوات، دويًّا دوليًّا. وكانت الفاشستية العدو الرئيس له، التي كان الكاتب يسميها «الورم السرطاني للبرجوازية المتفسخة».

وكان جوركي، وهو في مرض الموت، يقود عمل المؤتمر الأول للكُتَّاب السوفييتيين، عام 1934، الذي جاء إليه الكُتَّاب التقدميون من العالم بأسره. وقد ظل حتى أيامه الأخيرة أمينًا عامًّا لاتحاد الكُتَّاب السوفييتيين.

لقد وهب جوركي للشعب كل نشاطه النضالي، وكل مبادراته البناءة، وكل معارفه الشاملة، معارف رجل من أوسع رجال عصرنا ثقافة. وقد كتب: «طوال حياتي كنتُ لا أرى الأبطال الحقيقيين غير الناس الذين يحبون العمل ويحسنونه، الناس الذين يهدفون إلى تحرير جميع قوى الإنسان في سبيل الإبداع، في سبيل تجميل أرضنا وإقامة نظم عليها جديرة بالإنسان». وقد كان جوركي نفسه في الصف الأول من هؤلاء الناس.

* * *

كتب جوركي سنة 1900:

«تتصارع في الإنسان، في الأكثر الأكثر، والأغلب الأغلب، نزعتان متنافرتان، نزعة لأن يكون أحسن، ونزعة لأن يعيش أحسن. والجمع بين هذين المطمحين في بنيان واحد غير ممكن في ظروف تشوش الحياة الحالية».

وفي روايته القصيرة «الأصدقاء الثلاثة» (1901)، كشف جوركي عن هذا التناقض الشديد في الواقع الرأسمالي. أبطال هذه الرواية الثلاثة يقطنون في دار «مغمورة بالتعاسات». إنهم ياكوف فيليمونوف، الهادئ، المضطهد، ابن صاحب المطعم، وباشكا غراتشيف، ابن الحداد، المحكوم عليه بالأشغال الشاقة، ورفيقهما الجديد، إيليا لونيف، القادم مؤخرًا من القرية. إنهم جميعًا يحلمون بانتزاع أنفسهم من شباك الدار الرهيبة، والبدء بحياة جديدة، معقولة. وتنجذب إليهم بكل روحها ماشا، ابنة الإسكافي، التي قُضِي عليها أن تذوق عبث الحياة وتقلباتها في سن جد مبكرة.

وتجري أقدار الأبطال على نحو متباين، ياكوف، الطيب، اللطيف، خائف أبدًا مما يسود العالم من ظلم فظيع. يقول ياكوف: «لكي يعيش المرء في هذه الحياة لا بد أن يكون له جنبان من حديد، وقلب من حديد». وإنه ليحلم بالدير، فيقع بدلًا من ذلك في المطعم، ويقف خلف البوفيه وسط جو من السُّكْر في مؤسسة أبيه.

ولعل إيليا لونيف هو الباحث، بعذاب أشد من الآخرين، عن الجواب عن سؤال: «كيف ينبغي العيش؟» فهو ينطوي على كثير من القوة الحيوية، ومن النشاط.

وهو مؤمن بأنه سيوفق ل «شق طريقه». ويعترف المراهق إيليا لصديقه ياكوف: «وأنت لماذا تريد الابتهال؟ أنا لكي أكون ذكيًّا... وأيضًا لكي يكون عندي كل شيء، كل ما أشتهي!» إنه يحلم بالحياة

«النظيفة» العادلة. و«يوفق» إيليا في البداية، فيكون في عمله ناجحًا وصاحب مبادرة. ويعترف لنفسه قائلًا: «الحظ يؤاتيني، نعم... يجذبني، ويجذبني، أبعد فأبعد». ويود أن يصبح رب عمل. وتستولي عليه أحيانًا أحلام طامحة انتقامية، ورغبة في التسلط والسيطرة. ويفكر لونيف بشراهة الناس وب «كثرة ما يقترف الناس من قباحات في سبيل المال. ولكن يتصور نفسه في الحال، وقد أصبح في حوزته عشرات ومئات الألوف، وكيف سيكون سلوكه حيال الناس؟ إذن لجعلهم يزحفون أمامه على أربع...». وها هو درب إيليا «إلى العلاء» إلى «النظافة» يصبح دربًا إلى الجريمة؛ فقد قتل ونهب العجوز المرابي.

وأصبحت جريمة القتل هذه حملًا ثقيلًا على ضميره. وإنه ليصرخ في يأس: «ما كنت أريد أن أخنق أحدًا، فالقدر نفسه يخنقني أنا!». فالثراء لم يجلب له ما كان ينشد من طمأنينة وراحة نفس. وهناك، «فوق»، في المراتب العليا من المجتمع، يسود أيضًا الكذب، والنفاق، والشقاق. وتنتهي إلى الإخفاق محاولة إيليا البدء بحياة جديدة والتوصل إلى حب عظيم. ثمة متعة واحدة لا يستطيع إيليا منعها عن نفسه: أن يقذف بكلمة الحق في وجه جميع الذين سمموا حياته: «كنت أبحث أنا عن حياة شريفة نظيفة... إلا إنها غير موجودة في أي مكان! كل ما في الأمر أني أفسدت حياتي أنا نفسي... الإنسان الطيب لا يمكن أن يعيش معكم. إنكم تعذبون الناس الطيبين حتى الموت... ألا لو كنت أعلم بأي قوة يمكن سحقكم؟». هكذا كانت تمزق نفس إيليا نزعتان متناقضتان: التعطش إلى الثراء الشخصي، والحلم بالعدالة. «كان في صدره شيء لا يمكن جمعه، مثل الماء والنار». هذا ما يقوله الكاتب عنه. وتنتهي حياة إيليا بثورة يائسة لا ثمرة لها.

ثمة واحد فقط من الرفاق، هو بافل غراتشيف، يتلمس الطريق المؤدية إلى الحياة اللائقة بالإنسان ذات معنى، رغم كثرة ما عاناه من مشاق؛ لقد أكثر من التجوال في أرجاء روسيا بحثًا عن عمل يعيش منه، فاشتغل في مطبعة، وتعرف على المثقفين الطليعيين. إنه له حسابه مع الحياة؛ فهو يسأل صديقه محاولًا إدراك تناقضات الحياة: «ما السبب في أنك إذا كنت شبعان فأنت مقدس، وإذا كنت متعلمًا فأنت على حق؟». لا يسلك بافل إلى طريق إيليا لونيف؛ فالدرب المؤدي إلى أن يصبح «رب عمل» لا يغريه. إن بافل منجذب إلى الثقافة، إلى الفن، إنه في لهفة إلى الحب الذي هو «مثل طاووس»، الحب الذي أنعش حياته الفقيرة. ويجتذبه إليهم أناس من حلقة ثورية مؤلفة من الشباب، يفتحون عينيه على كثير. وإن بافل لعلى عتبة الدرب الذي يسلكه بافل فلاسوف، بطل رواية جوركي الشهيرة «الأم». فكل شيء ينتظره في المستقبل.

استقبل المعاصرون رواية «الأصدقاء الثلاثة» باهتمام كبير، ولقيت تقديرًا عاليًا لدى تولستوي وتشيخوف. وقرأها لينين «باهتمام كبير»، كما ذكر هو نفسه في إحدى رسائله.

ولاحظ جوركي نفسه أن «الأصدقاء الثلاثة» هي مرحلة مهمة في تطور إنتاجه؛ فقد كتب عن هذا الكتاب، سنة 1901: «حين قرأته رحت أقول في نفسي بأسى: لو أني كنت قرأت مثل هذا الكتاب قبل خمس عشرة سنة لكنت تخلصت من كثير من الأفكار المزعجة، الثقيلة بقدر ما هي عقيمة...». وقد طرح الكاتب في الرواية مسائل كانت ذات أهمية حيوية سعى كثيرًا هو نفسه في شبابه من أجل حلها؛ حول تأثير الملكية المدمر على روح الإنسان، وحول عقم الاحتجاج السلبي، وعن الطريق

الحقيقي في الحياة. وهذا هو السبب في أنه كان يحلم بأن يصل هذا الكتاب إلى أوسع جماهير القُرَّاء.

* * *

الأصدقاء الثلاثة

يتناثر وسط غابات كيرجنتس[1] كثير من القبور المنفردة، تتفسخ فيها عظام الشيوخ، أصحاب الإيمان القديم، وعن أحد هؤلاء الشيوخ، أنتيبا، يروون في القرى، على ضفاف كيرجنتس الحكاية التالية:

كان الفلاح الغني أنتيبا لونيف، ذو الخلق الصارم، قد عاش خمسين عامًا في بيئة آثمة، فراح يفكر تفكيرًا عميقًا، واستولت عليه الكآبة، فهجر العائلة، ومضى إلى الغابات. وهناك بنى لنفسه صومعة على حافة وادٍ شديد المنحدر، وأقام فيها ثماني سنوات متواليات، شتاءً وصيفًا، لا يستقبل أحدًا؛ لا من معارفه، ولا من أهله. وكان الناس، التائهون في الغابة، يصلون أحيانًا، مصادفة، إلى صومعة أنتيبا فيرونه قائمًا للصلاة، جاثيًا، عند عتبتها. ولقد كان مخيفًا؛ فهو معروق من الصوم والصلاة، مجلبب بالشعر، كأنه الوحش. فإذا هو رأى رجلًا نهض على قدميه وانحنى له في صمت حتى الأرض. وإذا هو سُئل عن منفذ من الغابة، دل بيده على الطريق من غير أن ينبس بكلمة، وانحنى للرجل مرة أخرى حتى الأرض، ومضى إلى صومعته، فاحتبس فيها. وخلال هذه السنوات الثماني كان الناس يرونه غالبًا، ولكن أحدًا لم يسمع صوته قط. وكان يجيء إليه زوجته وولداه، فيستلم منهم الطعام واللباس، وينحني لهم كجميع الناس، حتى الأرض، وكجميع الناس ما كان يقول لهم أيضًا كلمة.

ولقد مات في السنة التي دُمرت فيها مناسك أهل الدين القديم، وكانت ميتته على هذا النحو:

جاء إلى الغابة رئيس الشرطة تصحبه فصيلة من رجاله، فرأوا أنتيبا جاثيًا وسط الصومعة، يصلي في صمت.

- أنت! -صاح رئيس الشرطة- اخرج! سنخرّب وكرك! -ولكن أنتيبا لم يكن يسمعه.

وكم صاح رئيس الشرطة، فما ردّ عليه الشيخ بكلمة، فأمر الرئيس بجر أنتيبا من الصومعة جرًّا. ولكن الرجال، وقد رأوا الشيخ غير منتبه لهم، متابعًا صلاته في خشوع ومن غير كلل، استولى عليهم الاضطراب أمام صلابة روحه، فما أطاعوا رئيس الشرطة. فأمر الرئيس إذ ذاك بتدمير الصومعة، فراحوا ينزعون السقف بتأنٍ وحذر؛ مخافة أن يُصاب المُصلي بضربة.

كانت الفؤوس تقرع فوق رأس أنتيبا، والعوارض الخشبية تتكسر وتطقطق، متساقطة على الأرض، وصدى الضربات المدوّي يتردد في الغابة، والطيور تحوّم حول الصومعة، وقد أقلقتها الضجة، والأوراق ترتجف على الأشجار، والشيخ يصلي كأنما هو لا يرى ولا يسمع شيئًا... وأخذت تتهاوى عقود الصومعة، وأما صاحبها فكان لا يزال جاثيًا. وحين تداعت العوارض الخشبية الأخيرة، وأقبل رئيس الشرطة نفسه على أنتيبا، فأمسك بشعره، حينذاك فقط شخص الشيخ ببصره إلى السماء، وناجى ربه بصوت خافت:

- رحماك يا رب... اغفر لهم!

وهوى على الأرض، وفارق الحياة.

حين وقع هذا، كان أكبر ولدي أنتيبا، ياكوف، في الثالثة والعشرين من عمره، وأما الأصغر، تيرنتي، فكان في الثامنة عشرة. وكان ياكوف الجميل القوي البنية، وهو لا يزال يافعًا، قد لُقب في القرية بالمتهور، وقبيل وفاة أبيه كان قد بات أول متهتك ومعربد صخَّاب في الناحية كلها. وكان الجميع في شكوى منه: أمه، والمختار، والجيران، فكانوا يحبسونه، ويجلدونه بالعيدان، يضربونه من غير محاكمة، ولكن هذا لم يكن يهذب ياكوف، فكان يشتد ضيقًا بالحياة في القرية، بين المنشقين، المقتّرين، كأنهم الخلد، القساة حيال كل تجديد، المحافظين بعناد على تعاليم الإيمان القديم. فقد كان ياكوف إفرنجيًّا يدخن التبغ، ويشرب الفودكا، ويلبس معطفًا ألمانيًّا، ولا يواظب على الصلوات والتراتيل، وأما حين كان ذوو الوجاهة من الناس يعظونه مذكرين إياه بأبيه، فقد كان يردّ عليهم في سخرية:

- مهلًا، حضرات الشيوخ، لكل شيء حساب. سأرتكب الكفاية من المعاصي، ثم أتقدم للاعتراف! أما الآن فلا يزال في الوقت متسع. لا تلوموني بأبي، فقد ظل يرتكب المعاصي خمسين عامًا، وما تاب واستغفر غير ثمانٍ من السنين! المعصية عليّ كالزغب على فرخ الطير، ثم تنمو المعصية نمو الريش على الغراب، وإذ ذاك يكون قد آن للشاب أن يتوب ويستغفر.

فكانوا يقولون عن ياكوف لونيف: «زنديق!»، ويكرهونه ويخافونه. وبعد عامين من وفاة أبيه، تزوج ياكوف. وكان بحياته العابثة، قد اجتث من الجذور ما جمعه أبوه بجهد استمر ثلاثين عامًا، فما رغب أحد في قريته بأن يزوجه ابنته. فخطب حسناء يتيمة من قرية بعيدة، ولكي يتم عقد الزواج باع خلايا النحل التي خلفها أبوه. وما كان أخوه تيرنتي، الأحدب الصامت المخجول، الطويل الساعدين، يقف عثرة في طريق حياته، وكانت أمه العليلة تستلقي على سطح الفرن فتكلمه من هناك بصوت شرس أبحّ:

- ملعون! أشفق على نفسك! عد إلى الهُدى!

فكان ياكوف يجيبها:

- لا تشغلي فكرك يا أمي! أبي سيشفع بي لدى الرب.

عاش ياكوف مع زوجته، أول الأمر، بسلام وهدوء، طيلة عام كامل تقريبًا، بل لقد أخذ يشتغل، إلا أنه استأنف اللهو من جديد بعد ذلك، وبات يختفي من البيت شهورًا بكاملها، ويعود إلى زوجته مرذولًا، ممزق الثياب، جائعًا... وماتت أم ياكوف. وأثناء العشاء على روح أمه، ضرب ياكوف السكران مختار القرية، وقد كان عدوًّا له منذ وقت بعيد، فشوهه، فكان جزاؤه على ذلك السجن في كهف الاعتقال. وبعد قضاء مدة السجن، ظهر في القرية من جديد، حليق الرأس، متجهم الوجه، شرس الخلق؛ فازدادت القرية كراهية له، شاملة بكراهيتها أسرة ياكوف أيضًا، وبخاصة تيرنتي الأحدب الوديع، فقد كان منذ طفولته عرضة لسخرية البنات والغلمان. كانوا يدعون ياكوف بالمحبوس والشقي، وتيرنتي بالمشوه والجني. وكان الصمت جواب تيرنتي على الشتيمة والسخرية. أما ياكوف فكان يهدد الجميع جهارًا:

- طيب! انتظروا! سأريكم!

كان له من العمر قرابة أربعين عامًا، حين حدث حريق في القرية، فاتُهم بإحداث الحريق، ونُفي إلى سيبيريا.

وعلى عاتق تيرنتي بقيت زوجة ياكوف، وقد فقدت عقلها وقت الحريق، وابنه إيليا، وهو صبي في العاشرة من عمره، متين البنية، أسود العينين، رصين. وحين كان هذا الصبي يظهر في الشارع، كان الصبية يطاردونه، ويقذفونه بالحجارة، وأما الكبار فكانوا، حين يرونه، يقولون:

- أوه، يا للشيطان الصغير! بذرة مجرم! قصف الله عمرك!

قبل الحريق، كان تيرنتي العاجز عن العمل، يتاجر بالقطران والخيوط والإبر وبكل تافهة، ولكن النار التي التهمت نصف القرية، محقت بيت أسرة لونيف وكل بضاعة تيرنتي، بحيث لم يبق لديها بعد الحريق سوى فرس، وثلاثة وأربعين روبلًا من النقود، ولا شيء غير ذلك. وإذ رأى تيرنتي أن لا مجال ولا وسيلة للعيش في القرية، أوكل زوجة أخيه إلى امرأة لا زوج لها ولا أهل للعناية بها، لقاء نصف روبل في الشهر، واشترى عربة عتيقة، وأجلس ابن أخيه فيها، وقرر الرحيل إلى مركز المقاطعة، آملًا بأن يساعده على العيش هناك أحد أقرباء أسرة لونيف البُعداء، بتروخا فيليمونوف، عامل البوفيه في أحد المطاعم.

وبارح تيرنتي مسقط رأسه ليلًا، دون حس، كاللص. وساق الفرس وهو لا يزال يتطلع إلى وراء بعينيه السوداوين الكبيرتين، كعيني العجل، ومشت الفرس بخطوات متناسقة، وراحت العربة تتهزز، وما عتم إيليا، وقد دس نفسه في الحشيش، أن نام نومة الطفل العميقة.

واستيقظ في منتصف الليل على صوت رهيب غريب، أشبه بعواء الذئب. كانت الليلة مضيئة، والعربة واقفة في طرف الغابة، والفرس على مقربة منها تنفخ بمنخريها، وترمّ العشب المكلل بالندى، وثمة شجرة صنوبر كبيرة، متقدمة بعيدًا عن الحقل، واقفة لوحدها، كأنما هي مطرودة من الغابة. راحت عينا الصبي الثاقبتان تبحثان عن العم في قلق، ورنت في هدأة الليل ضربات صماء قليلة من حوافر الفرس على الأرض، ونفخ منخريها المتردد ينتشر كأنه التنهدات الثقيلة، وانداح صوت راجف غير مفهوم حزين النغمة، أخاف إيليا، فنادى بصوت خافت:

- يا... عمي!

- آ؟

- أجاب تيرنتي بسرعة، وانقطع العواء فجأة.

- أين أنت؟

- هنا.. نم، هه!

ورأى إيليا عمه جالسًا على تل في طرف الغابة، أسود كقرمة شجرة منتزعة من الأرض، فقال له:

- أنا خائف.

- ومِمَّ تخاف؟ نحن لوحدنا.

- أسمع عواء!

- سمعت هذا في المنام.

- والله، هناك عواء!

- طيب... هذا ذئب.. إنه بعيد.. نم.

وما استطاع إيليا إلى النوم سبيلًا. كان ما حوله موحشًا ساكنًا، أما في أذنيه فكان يطن هذا الصوت ذو النغمة الآسية الحزينة. وراح يحدق بعينيه في المكان، فأبصر بعمه ينظر إلى حيث تنتصب فوق الجبل، بعيدًا وسط الغابة، كنيسة بيضاء ذات خمس قباب، يسطع من فوقها قمر كبير ممتلئ، وعرف إيليا أن هذه كنيسة طائفة رومودان، وأن قريتهم كيتيجنايا، تقع على بُعد فرسخين منها، وسط الغابة، فوق الوادي، فقال وقد استغرق في التفكير:

- ما ابتعدنا كثيرًا.

- ماذا؟ - سأل العم.

- أقول لو كنا ابتعدنا أكثر... أخشى أن يجيء أحد من هناك.

وأشار إيليا برأسه جهة القرية في كراهية.

- سنبتعد، اصبر.

- قال العم.

وحلّ الصمت من جديد. وراح إيليا، وهو متكئ على حافة العربة الأمامية، يتطلع هو الآخر صوب الجهة التي ينظر إليها عمه. لم تكن القرية مرئية في ظلام الغابة الأسود الكثيف، ولكن كان يُخيَّل إليه أنه يراها بجميع مساكنها وسكانها، ويرى الصفصافة العجوز قرب البئر، وسط الزقاق. وبالقرب من جذور الصفصافة ينطرح أبوه مكبَّلًا بالحبال، وعليه قميص ممزق، يداه مغلولتان وراء ظهره، وصدره العاري ناتئ إلى أمام، وأما رأسه فكأنما هو مثبت على جذع الصفصافة. إنه منطرح بلا حراك، كالقتيل، ينظر إلى الفلاحين بعينين رهيبتين. وهؤلاء كثيرون، وهم جميعًا يصيحون ويشتمون. ولقد أحزن هذا التذكار الصبي، فأحس بغصة في حلقه، وشعر بأنه يوشك على البكاء، إلا أنه ما كان يود إقلاق عمه، فضبط نفسه، منطويًا بقوة متزايدة على جسمه الصغير.

وفجأة انطلق العواء الهادئ في الجو من جديد. سمع أول الأمر من يتأوه ويشهق بمرارة، ثم أخذ ينوح نواحًا حزينًا غير محتمل:

- عو... وو... عو... وو!

فأخذت الصبي رعدة من الهلع، ولبث متجمدًا. وأما الصوت فقد ظل يهتز ويشتد قوة. وصرخ إيليا:

- عمي! هذا أنت تعوي؟

فلم يجب ترينتي، ولم يتحرك من مكانه. وإذ ذاك قفز الصبي من العربة، وهرع إلى عمه، وخرَّ على رجليه وتشبث بهما، وأخذ بالانتحاب هو أيضًا. ومن خلال النحيب سمع صوت عمه:

- طردونا... نجنا... يا... رب. إلى أين نروح؟ آه؟

وأما الصبي، فقد قال وهو يشرق بدمعه:

- انتظر... سأريهم... متى كبرت!

واستولى عليه النعاس بعد أن ذرف كل دمعه، فحمله عمه بين يديه، ومضى به إلى العربة، ثم ابتعد من جديد، واستأنف العواء بصوت ممطوط حزين، كأنه الجرو.

ان إيليا يذكر كيف جاء إلى المدينة، فقد استيقظ في الصباح الباكر، فأبصر أمامه نهرًا عريضًا عكرًا، ومن خلفه، في أعالي الجبل، مجموعة من البيوت ذات سطوح حمراء وخضراء، وبساتين كثيفة. والبيوت ترتفع على منحدر الجبل حشدًا كثيفًا جميلًا متزايد العلو، وتمتد على ذروة الجبل خطًّا مستقيمًا، ومن هناك تتطلع باعتزاز صوب النهر، وصلبان الكنائس وقبابها الذهبية تعلو على الأسطحة، موغلة في السماء، والشمس في مستهل شروقها، وخيوط أشعتها المائلة تنعكس على نوافذ البيوت، والمدينة كلها تشتعل بالألوان الوهاجة، وتشع ذهبًا.

- آ - ياي... يا سلام!

هتف الصبي، وهو يتطلع إلى المشهد الرائع بعينين محملقتين، ولبث متجمدًا في إعجاب صامت، ثم انبثقت في ذهنه فكرة قلقة جعلته يتساءل أين تراه سيعيش، هو الصبي الصغير الأشعث، ذو السروال المنسوج باليد، وعمه الأحدب الأخرق؟ وهل تراهم سيسمحون لهما بالدخول إلى هناك، إلى هذه المدينة الضخمة، النظيفة، الغنية، اللماعة كالذهب؟ وقد خطر له أن عربتهما تقف هنا على ضفة النهر؛ لأن الفقراء من الناس لا يُسمح لهم بدخول المدينة. ولا بد أن عمه قد ذهب يلتمس السماح بالدخول.

وأخذ إيليا يبحث بناظريه عن عمه، والقلق يملأ قلبه. كان يقف قرب عربتهما كثير من العربات؛ تبرز من بعضها أقفاص خشبية لجرار الحليب، ومن الأخرى سلال فيها طيور وخيار وبصل وقفف حبوب وأكياس بطاطا، وعلى العربات وبالقرب منها فلاحون وفلاحات، جالسون وواقفون، غرباء المعالم؛ فقد كانوا يتكلمون بصوت مرتفع ونطق واضح، وأما لباسهم فما كان من النسيج اليدوي الأزرق، بل من النسيج الهندي المرقش، والقماش الأحمر الزاهي، وكانوا كلهم تقريبًا ينتعلون الجزمات، ومع أن ثمة رجلًا كان يتمشى بالقرب منهم وسيفه على جنبه، فما كانوا غير خائفين منه وحسب، بل كانوا، فوق هذا، لا ينحنون لتحيته. وقد أعجب إيليا بهذا شديد الإعجاب، فراح، وهو جالس في العربة، يتأمل اللوحة الحية وقد أضاءتها الشمس بنور ساطع، ويحلم بالأيام التي سيلبس بها

هو أيضًا جزمة وقميصًا من القماش الأحمر.

وظهر عمه تيرنتي بعيدًا، بين الفلاحين. كان يمشي داعسًا بقدميه بقوة على الرمل العميق، رافعًا رأسه عاليًا، كان وجهه مرحًا، وقد ابتسم لإيليا وهو لا يزال على بُعد منه، باسطًا نحوه يده، مشيرًا إلى شيء فيها.

- الرب معنا، يا إيليا! فورًا وجدت ذلك العم... هاك، كل الآن شيئًا.

وأعطى إيليا كعكة، فتناولها الصبي بما يقرب من الخشوع ودسها في عبه، وسأل في قلق:

- ألا يسمحون لنا بدخول المدينة؟

- الآن سيسمحون... سيأتي المعبر، ونذهب.

- ونحن؟

- وكيف لا؟ ونحن!

- إيه! وأنا كنت أظن أنهم لن يسمحوا لنا... وأين سنسكن هناك؟

- هذا غير معروف.

- لو نسكن ذلك البيت الكبير الأحمر.

- هذه ثكنة... هناك يسكن الجنود.

- طيب، في هذا... في ذاك!

- يا سلام عليك! هذا عال علينا!

- لا بأس! -قال إيليا في ثقة ويقين- سنتسلق إليه!

- إيه!

تنهد العم تيرنتي وانصرف من جديد إلى مكان ما.

وكان أن سكنوا بيتًا كالحًا ضخمًا، قائمًا في طرف المدينة، على مقربة من ساحة السوق، تلتصق بجدرانه من جميع الجهات شتى الأبنية الملحقة، بعضها جديد نوعًا ما، وبعضها كالح وسخ مثله. كانت نوافذ هذا البيت وأبوابه محنية مخلّعة، وكل شيء فيه يحدث صريرًا، والأبنية الملحقة، والسياج، والبوابة متهالكة بعضها على بعض، متجمعة في كومة كبيرة من الخشب نصف المتسوس، وزجاج النوافذ أغبش من القِدَم، وبعض العوارض الخشبية على الواجهة ناتئة، فكان البيت من جرَّاء هذا شبيهًا بصاحبه الذي أقام فيه مطعمًا؛ ذلك أن صاحب المطعم هو أيضًا عجوز وكالح؛ فقد كانت عيناه على وجهه الهرم أشبه بزجاج النوافذ، وكان يمشي متكئًا على عصا غليظة، فلا بد أنه كان

ينوء بحمل كرشه البارز.

في الأيام الأولى من السُّكنى في هذا البيت، كان إيليا يتسلل إلى كل مكان، ويتفقد كل شيء فيه. وقد أُدهش الصبي بسعة البيت؛ فقد كان يبدو، لكثرة ما حشي فيه من الخلائق، أن الناس فيه أكثر مما في قرية كيتيجنايا كلها. وكان المطعم يشغل الطابقين كليهما، وهو دائمًا ممتلئ بالناس. وفي العلية كانت تعيش نسوة سكّيرات، إحداهن، وهي الملقبة بماتيتسا، سوداء، جسيمة، خشنة الصوت، وقد أخافت الصبي بعينيها الشريرتين الفاحمتين. وفي القبو، كان يسكن الإسكافي بيرفيشكا مع زوجته المريضة، المشلولة الساقين وبنت في السابعة من عمرها، والشيخ إيرميا جامع الخِرق، والعجوز المتسولة، النحيلة، السليطة اللسان، الملقبة بذات الفم الكبير، والحوذي ماكار ستيبانيتش، وهو رجل في خريف العمر، مسالم، صامت. وفي زاوية من ساحة البيت أُقيمت ورشة حدادة، كانت النار توقد فيها من الصباح حتى المساء، وتحمى أطر العجلات، وتنعل الخيول، وتدق المطارق، والحداد سافيول، الطويل القامة، المتين البنية، يردد الأغاني بصوت غليظ كئيب. وكان يحدث أحيانًا أن تظهر في ورشة الحدادة زوجة سافيول، وهي امرأة قصيرة القامة ممتلئة الجسم، شقراء الشعر، زرقاء العينين. كانت تغطي رأسها دائمًا بمنديل أبيض، فكان غريبًا أن يرى المرء هذا الرأس الأبيض في ثقب ورشة الحدادة الأسود. كانت تضحك ضحكة فضية رنانة، فيجاوبها سافيول بضحكة جهورية، كأنها قرع المطارق، على أنه كان في الأغلب يجيب على ضحكها بالزئير.

كان يقعد في كل شق من البيت إنسان، والبيت يهتز بفعل الصياح والضجيج من الصباح حتى ساعة متأخرة من الليل، كأنما هو مرجل عتيق صدئ يغلي فيه ويُطبخ شيء ما. وفي الأمسيات كان جميع الناس ينسلّون من شقوقهم إلى باحة البيت وإلى المقعد الخشبي الطويل القائم قرب البوابة؛ فيروح الإسكافي بيرفيشكا يعزف على الهارمونيكا، ويخور سافيول بالأغاني، وأما ماتيتسا -إذا هي كانت قد امتلأت بالشراب- فتروح تغني غناء خاصًّا، جد حزين، بكلمات غير مفهومة من أحد، تغني وتبكي على شيء ما مُرّ البكاء.

وفي مكان من فناء البيت، في إحدى الزوايا، كان يتجمع حول الشيخ إيرميا كل ساكني البيت من الصبية، فيجلسون في حلقة، ويتوسلون إليه قائلين:

- عمو! احك لنا حكاية.

فينظر إليهم الشيخ بعينين مريضتين حمراوين يسيل منهما على غضون وجهه سيل لا ينقطع من الدموع العكرة، ويرفع يده إلى رأسه فيضغط بشدة على قبعة صهباء اللون عتيقة، ويروح يترنم بصوت ناعم راعش:

«كان يا ما كان، في بلد من البلدان، أنْ وُلِدَ لأبوين غير معروفين ابن كافر زنديق، كان عقابًا لهما على آثامهما من السيد الرب المطَّلع على كل شيء...».

كانت لحية الشيخ إيرميا الطويلة الشائبة تنتفض وترتعش حين يفتح فمه الأسود الأدرد، ويرتعش رأسه أيضًا، وأما تجاعيد خديه فيظل الدمع يسيل عليها قطرة إثر قطرة.

«وكان هذا الولد الكافر قليل الحياء؛ ما كان يؤمن بالسيد المسيح، ولا كان يحب والدة الإله، ويمر أمام الكنيسة فلا ينحني، ولا يطيع أباه وأمه...».

كان الصبية يستمعون إلى صوت الشيخ الناعم، ويتطلعون إلى وجهه صامتين.

وكان ياشكا[2] الأشقر، ابن صاحب البوفيه بتروخا، يصغي بأعظم قسط من الانتباه، وهو صبي نحيل، حاد الأنف، له رأس كبير على عنق دقيق. وحين يركض يتأرجح رأسه من كتف إلى كتف، كأنما يوشك أن ينخلع. وعيناه أيضًا كبيرتان رجراجتان؛ فهما دائمًا تمران بجميع الأشياء مرورًا راعبًا، كأنما تخافان التوقف على شيء ما، أما إذا توقفتا، فإنهما تحملقان فتكسبان وجه الطفل ملامح وجه الخروف. كان يتميز من كومة الأطفال بوجه نحيل لا دم فيه، وثياب نظيفة متينة، وقد ارتبط معه إيليا بعُرى الصداقة على الفور، ومنذ اليوم الأول للتعارف، سأل ياكوف رفيقه الجديد سرًّا:

- عندكم سحرة كثيرون في القرية؟

- عندنا -أجاب إيليا- كان جارنا ساحرًا.

- أصهب؟ استخبر ياكوف هامسًا.

- أشيب... لهم جميعًا شعر شائب.

- الأشيب... لا بأس... الأشيب طيب. أما الأصهب... يا لطيف! هذا يمص الدم.

كانا جالسين في أحسن زاوية من الباحة وأوفرها راحة، خلف كومة القمامة تحت شجرة البيلسان، وكانت هناك أيضًا زيزفونة كبيرة عجوز، وكان يمكن الوصول إلى هذا المكان عبر شق قائم بين السقيفة والبيت، وكان المكان هادئًا، وما كان يُرى من هذه الزاوية الصغيرة غير السماء فوق الرأس وغير جدار البيت بنوافذه الثلاث، وقد كانت اثنتان منها مغلقتين بألواح من الخشب، وعلى أغصان الزيزفونة كانت تزقزق العصافير، وعلى الأرض عند جذرها، كان يجلس الصبيان فيتحادثان عن كل ما يهمهما.

ظل أيامًا بكاملها يدور أمام عيني إيليا، بصخب وضجيج، شيء شديد الضخامة مبرقش، يبهره ويصم أذنيه، فارتبك أول الأمر واستولى عليه شيء من البله في خضم هذه الحياة المتأجج الصاخب، فقد كان يقف في المطعم، إلى جانب الطاولة التي يقوم عمه تيرنتي بغسل الأواني عليها، عرقان مبللًا، فينظر إلى الناس كيف يأتون فيشربون ويأكلون ويصرخون، ويقبّل بعضهم بعضًا ويتضاربون ويغنون، وسحب دخان التبغ سابحة حولهم، وهم في هذا الدخان يتحركون، كالمجانين.

فكان عمه يقول له وهو يهز حدبته ويرن بالكؤوس من غير كلل:

- هي- هي! ما شغلك هنا؟ رح للساحة؛ لئلا يراك المعلم، فيعيّط.

فيمضي إيليا إلى فناء البيت، مأخوذًا بصخب حياة المطعم، مرددًا بينه وبين نفسه عبارته التعجبية

المألوفة: «آ-ياي... يا سلام!» وأما في الفناء، فقد كان سافيول يقرع بالمطرقة ويتشاجر مع معاونه، ومن القبو تنطلق على هواها أغنية مرحة من الإسكافي بيرفيشكا، ومن فوق تنهمر شتائم النسوة المخمورات وصرخاتهن.

وباشكا، ابن سافيول، يمتطي عصا ينط بها، ويصيح بصوت غاضب:

- هش، يا شيطان!

وكان وجه باشكا الظريف المدور الساخر ملوثًا كله بالوحل والسخام، وعلى جبينه نبرة، وقميصه ممزق، ومن خلال خروقه التي لا تُعد ولا تُحصى يشف جسم متين البنية. إنه أول طائش ومُعارك في ساحة البيت، وقد تمكن مرتين من ضرب إيليا المرتبك ضربًا جد موجع، وحين شكا إيليا لعمه، باكيًا، اكتفى هذا ببسط يديه قائلًا:

- ما العمل؟ تحمَّل.

- طيب، الآن سأهلكه! - توعد إيليا وهو يشرق بدمعه.

- إياك! - قال العم بصرامة- هذا لا يجوز أبدًا!

- وهو ماذا فعل؟

- إنه- هو! هو من هنا... من جماعتهم.. وأنت غريب.

وظل إيليا يهدد باشكا، فغضب وعنّفه، الأمر الذي كان نادرًا ما يحدث له، وإذ ذاك أدرك إيليا على نحو مبهم أن من غير الجائز له أن يكون ندًّا للصبية الذين هم «من هنا»، فاضمر العداوة لباشكا، وتوطدت عُرى صداقته مع ياكوف.

كان ياكوف متزنًا في سلوكه؛ فما كان يتضارب قط مع أحد، بل نادرًا ما كان يرتفع له صوت. وقد كان يكاد لا يلعب، إلا أنه كان مولعًا بالحديث عن اللعب التي يلعبها الأطفال في باحات البيوت لدى الأغنياء من الناس، وفي حديقة المدينة. وفيما خلا إيليا، لم يكن لياكوف من صديق بين جميع الأولاد في ساحة البيت غير ماشا، ابنة الإسكافي بيرفيشكا، البالغة من العمر سبع سنوات، تلك البنيّة الصغيرة النحيلة الوسخة، وقد كان رأسها الصغير المغطى بجعدات قاتمة بارزًا في الساحة من الصباح حتى المساء. وكانت أمها أيضًا تجلس على الدوام بالقرب من باب القبو. إنها طويلة القامة، تتدلى على ظهرها ضفيرة كبيرة، تظل تخيط باستمرار منحنية على شغلها، فإذا هي رفعت رأسها لتنظر إلى ابنتها، رأى إيليا وجهها. كان وجهًا جسيمًا، أزرق، جامدًا كوجه الميت، وعلى هذا الوجه الكريه عينان سوداوان طيبتان، جامدتان هما أيضًا. ما كانت قط تتكلم مع أحد، بل لقد كانت تدعو إليها ابنتها بالإشارات، وفي بعض الأحيان فقط -وكان هذا نادرًا جدًّا- كانت تناديها صائحة بصوت مخنوق أبح:

- ماشا.

راقت هذه المرأة، أول الأمر، لإيليا بعض الشيء، ولكنه حين علم أنها مشلولة الساقين منذ ثلاث سنوات، وأنها على وشك أن تموت، بات يخاف منها.

وإذ كان إيليا ذات مرة مارًّا بالقرب منها، مدت يدها فأمسكت به من قميصه، وجذبت الصبي الخائف إليها، ثم قالت له:

- أرجوك، لا تسيء إلى ماشا.

كان الكلام ثقيلًا عليها؛ وقد راحت تلهث لسبب ما.

- لا تسيء إليها يا حبيبي.

وأفلتت إيليا، وهي تنظر إلى وجهه نظرة حزينة. ومنذ ذلك اليوم أخذ إيليا ينصرف بانتباه، مع ياكوف، إلى العناية بابنة الإسكافي، ساعيًا لوقايتها من شتى منغصات الحياة. وما كان يمكن ألَّا يقدر الرجاء الصادر عن شخص كبير؛ إذ كان الكبار الآخرون جميعًا يأمرون وحسب، ويضربون الصغار دائمًا. كان الحوذي ماكار، حين يقترب الصبية بالقرب منه وهو يغسل العربة، يلبطهم برجليه ويصفعهم على وجوههم بالخرقة المبللة. وكان سافيول يصب جام غضبه على كل من يتطلع إلى ورشته لغير شغل، ويقذف الأولاد بأكياس الفحم. وأما بيرفيشكا فكان يقذف بكل ما يقع تحت يده من يقف أمام نافذته حاجبًا عنه النور... وكانوا في بعض الأحيان يضربون لمجرد الضرب، بدافع من الضجر، ورغبة في مداعبة الأولاد. وكان الشيخ إيرميا وحده لا يدخل في شجار.

وبعد قليل من الوقت بات يبدو لإيليا أن الحياة في القرية خير منها في المدينة؛ ففي القرية يستطيع الذهاب حيث يشاء، أما هنا فقد حظر عليه عمه مغادرة فناء البيت. والمجال هناك أوسع، والجو أهدأ، والناس جميعًا يقومون بعمل واحد مفهوم لدى الجميع، وأما هنا فكلٌّ يعمل ما يشاء، والجميع فقراء، والجميع يعيشون على خبز من صنع الآخرين، لا يُغني من جوع.

وذات مرة قال العم تيرنتي لابن أخيه، وهو يتنهد بحرقة:

- الخريف آت، يا إيليا.. وسوف يعضنا بنابه أنا وأنت. آه، يا رب.

وراح يفكر، وهو يتطلع بنظرة حزينة إلى صحن شوربة الملفوف، وراح الصبي أيضًا يفكر. كانا يتغديان على الطاولة نفسها التي كان الأحدب يغسل عليها الأواني.

- يقول بتروخا بأن تذهب وياكوف إلى المدرسة. لازم. أنا فاهم... الإنسان هنا من دون علم، كمن يكون من دون عينين. ولكن سيلزمك حذاء وكساء من أجل المدرسة. آه يا رب، عليك الأمل.

انعصر قلب إيليا من تنهدات عمه ومن وجهه الحزين، فاقترح بصوت خافت:

- تعال نروح من هنا.

- إلى... أين؟ - سأل الأحدب بصوت ممطوط حزين.

- إلى الغابة. - قال إيليا وتحمس فجأة، فأضاف: أنت، يا عم، قلت كم سنة عاش جدي في الغابة لوحده؟ ونحن اثنان؛ نصنع خفافًا من لحاء الشجر، نصيد ثعالب وسناجب... أنت تدبر البندقية، وأنا.. فخ. سألقط الطيور. بالله! وهناك فريز وفطر... نروح؟

فتطلع إليه عمه بعينين لطيفتين وسأله مبتسمًا:

- والذئاب؟ والدببة؟

- بالبندقية؟ - هتف إيليا بحرارة- عندما أكون كبيرًا لن أخاف الوحوش، سأخنقها بيدي. والآن أنا لا أخاف أحدًا. الحياة هنا صعبة، مع أني صغير، الضرب هنا أوجع منه في القرية، الحداد يضرب على اليافوخ ضربة تجعل الرأس بعدها يدوي طول النهار.

- إيه يا يتيم، لك الله. - قال تيرنتي وذهب مسرعًا إلى مكان ما، بعد أن طرح الملعقة.

مساء ذلك اليوم جلس إيليا على الأرض، قرب طاولة عمه، بعد أن تعب من التجوُّل في ساحة البيت، وراح يستمع، وعيناه نصف نائمتين، إلى حديث بين تيرنتي والشيخ إيرميا، إذ جاء إلى المطعم يشرب الشاي؛ فقد أقام جامع الخرق صداقة وثيقة العرى مع الأحدب، فكان على الدوام يجلس لشرب الشاي قرب طاولة ترينتي.

وسمع إيليا إيرميا يقول بصوت له صرير:

- ما عليك أن تعرف غير الله؛ أنت عنده مثل الرقيق، إذ قيل إنك عبد، الله بصير بحياتك. يومك الحلو سيأتي، وسيقول هو للملاك: «يا خادمي السماوي... رح يسّر حياة تيرنتي، عبدي الودود...».

فقال تيرنتي بصوت خافت:

- أنا يا عم، أملي بالله... أكثر من هذا ماذا أستطيع؟

فقال الشيخ لتيرنتي بصوت يشبه صوت مستخدم المطعم بتروخا حين يصيح مغضبًا:

- أنا سأعطيك من أجل لباس إيليا في المدرسة. سأبحث وأجد... بالدين، ستصبح غنيًّا، فتدفع لي.

- يا سلام يا عم! - هتف تيرنتي بصوت خافت.

- هس، اسكت! أما الآن، فأعطني هذا الصغير. هنا لا عمل له. وبدلًا من الفائدة سيخدمني؛ يرفع الخِرق، يناولني العظام، فلا أعود أحني ظهري، أنا العجوز.

- يا سلام عليك! الله يعطيك. - صاح الأحدب بصوت رنان.

- الله يعطيني، وأنا أعطيك، وأنت تعطيه، وهو يعطي الله من جديد، وهكذا تكمل الدورة لدينا... ولا يكون أحد مدينًا لأحد... آه يا حبيبي! اد إيه أنت أخي... يا ما عشت، ويا ما شفت، وأنا غير الله لا أرى؛ له كل شيء، وإليه كل شيء، ومنه ومن أجله كل شيء.

وعلى هذا الحديث أغفى إيليا. أما في اليوم التالي فقد أيقظه إيرميا في ساعة مبكرة من الصباح، قائلًا له بمرح:

- ياللا، يا إيليوشكا، ياللا عجِّل.

ولقد عاش إيليا عيشة طيبة تحت اليد الحانية، يد جامع الخرق إيرميا؛ ففي ساعة مبكرة من صباح كل يوم، كان الشيخ يوقظ الصبي، فيظلان يجوبان حتى ساعة متأخرة من المساء، جامعين الخرق، والعظام، والورق الممزق وقطع الحديد وقصاصات الجلد. وإن المدينة لمن الضخامة، وكثرة ما فيها مما يثير الفضول، بحيث كان إيليا، أول الوقت، يقدم القليل من العون للشيخ، ويظل لا يعمل غير النظر إلى الناس، والبيوت، فيدهش من كل شيء، ويسأل الشيخ عن كل شيء... ولقد كان إيرميا كثير الكلام. كان يسير من ساحة بيت إلى ساحة أخرى، منسدل الرأس، ناظرًا إلى الأرض، يقرع بعصاه الحديدية الطرف، ويمسح دموعه بكُم أسماله، أو بطرف كيسه الوسخ، ويحكي لمساعده، مترنمًا دون توقف، على وتيرة واحدة:

- وهذا بيت التاجر بتشيلين، سافا بتروفيتش، التاجر بتشيلين رجل غني!

- عمو -سأل إيليا- كيف يصير الناس أغنياء؟

- يجدُّون من أجل هذا، يعني يشتغلون؛ يشتغلون في النهار، وفي الليل، ويكدسون الأموال باستمرار. يكدسون، فيبنون البيوت، ويقتنون الخيول، ومختلف الأواني، وكل ما هو من هذا القبيل، وما شاكل ذلك، كل شيء جديد. ويستأجرون الخدام والحجاب وشتى أصناف الناس للشغل، أما هم فيرتاحون، يعيشون.

أيوه، وإذ ذاك يقال: الرجل اغتنى من الكد الشريف... أي نعم! وهناك من يجمع الثروة من المعصية؛ يقول الناس عن التاجر بتشيلين إنه، على ذمتهم، قد قتل نفسًا وهو شاب. قد يكون هذا قيل عن حسد، وقد يكون صحيحًا. بتشيلين هذا وحش، عينه مرتعبة... تتهرب دائمًا من مواجهة عيون الآخرين، تتخفى... قد يكون الناس كاذبين فيما يقولون عنه. ويحدث أن يغتني الإنسان دفعة واحدة، يواتيه الحظ، يصاحبه التوفيق... الله وحده المعصوم عن الخطأ، أما نحن كلنا فلا نعرف شيئًا. نحن بشر، والبشر بذار الرب... البشر، يا روحي، بذار؛ الله بذرنا على الأرض، وقال: انموا، وسأرى أي خبز يومي سيطلع منكم؟ هيك! وهذا، هذا الذي أمامك بيت سابانييف ميتري بافليتش... وهو أغنى من بتشيلين، هو مجرم حقيقي؛ أنا أعرفه... أنا لا أحاسبه -الحساب عند الله- ولكني أعرف الحقيقة...

كان وكيلًا للمُلَّاك بضيعتنا، وباعنا كلنا، ونهبنا كلنا. الله صبر عليه، وطوّل له، ثم ابتدأ يحاسبه. أول شيء انطرش ميتري، ثم قتلت الخيل ابنه، ومن وقت قريب هربت ابنته من البيت.

كان إيليا يستمع إليه بانتباه، ويقول أحيانًا وهو يتطلع إلى الدور الضخمة:

- ليتني أرى ما في داخلها ولو بعين واحدة!

- سترى، تعلّم فقط، اكبر ترَ كل شيء! قد تصير أنت نفسك صاحب ثروة... عش، فقط... هو- هوو!

أنا يا ما عشت، ويا ما شفت... عيني هذه خربت، والدموع، هاك، تسيل مني وتسيل؛ لهذا أنا نحيل ضعيف... عافيتي يعني، سالت مع الدموع.

كان يلذّ لإيليا الاستماع إلى أقوال الشيخ المنطوية على الثقة والمحبة عن الرب، وكانت الكلمات اللطيفة تبعث في قلب الصغير شعورًا طيبًا راسخًا بالأمل في شيء حلو ينتظره في قابل الأيام، فغمره المرح، وبات أكثر طفولة مما كان في الأيام الأولى من حياته في المدينة.

وقد كان يساعد الشيخ بحماسة على النبش في القمامة، وقد ما هو طريف أن ينقّب المرء في مختلف الأكوام، وكان من الممتع إلى حد بعيد رؤية فرحة الشيخ لدى العثور في القمامة على شيء فوق العادة، فقد وجد إيليا ذات مرة ملعقة كبيرة من الفضة، فاشترى له الشيخ لقاء ذلك نصف رطل من الكعك الممزوج بالنعناع، وبعد ذلك نبش صرة صغيرة، عليها غلاف أخضر من العفن، وأما داخلها فقد وجد مبلغ من النقود يزيد عن الروبل. وكان يعثر أحيانًا على سكاكين، وشوكات، وعزقات، وأشياء نحاسية مكسّرة، وأما الحفرة التي كانت تُلقى فيها القمامة المجموعة من المدينة كلها، فقد نبش إيليا منها شمعدانًا نحاسيًّا ثقيلًا. وقد كان الشيخ يشتري له حلويات لقاء كل لقية من هذه اللُّقى الثمينة.

وقد كان إيليا، إذ يجد مثل هذه الطرفة، يصرخ في بهجة وفرح:

- عمو، انظر! آ-ياي... يا سلام!

ولكن الشيخ قال له محذرًا، وهو ينظر إلى ما حوله بقلق:

- لا تصرخ. لا تصرخ. يا ألله!

فقد كان يخاف دائمًا لدى العثور على أشياء غير عادية، فيختطفها بسرعة من يد الصبي، ويخفيها في كيسه الضخم، ويقول بنعومة، ودموعه تواصل مسيلها من عينيه الحمراوين:

- اسكت، بس، ضب لسانك!

وقد أعطى إيليا كيسًا صغيرًا، وعصا ذات طرف حديدي، وازدهى الصبي بهذه العدة، وقد كان يجمع في كيسه شتى أنواع العلب، واللعب المكسرة، والشقف الجميلة من الصحون، ويستعذب الشعور بأن هذه الأشياء جميعًا معه، على ظهره، والاستماع إليها كيف تطقطق هناك، وكان الشيخ إيرميا هو الذي علمه جمع هذه الأشياء.

- وأنت اجمع هذه القطع واسحبها للبيت، خذها، وزعها على الأولاد، خلهم يفرحوا. حسن أن تفرّح الناس، الله يحب هذا.. الناس كلهم يريدون الفرح، ولكنه في الدنيا قليل- قليل؛ قليل إلى حد أن الإنسان يعيش ويعيش، فقد لا يراه أبدًا!

وقد وجد إيليا من المتعة في قمامات المدينة أكثر مما في التمشي في أفنية البيوت، فما كان يوجد عند أكوام القمامة غير اثنين أو ثلاثة من الشيوخ، أمثال إيرميا، وما كان من حاجة هنا للتلفت خشية ظهور البواب حاملًا بيده المكنسة، فيشتم بكلمات نابية، بل ويضرب أيضًا ويطرد من الساحة.

وكل يوم، كان إيرميا يقول للصبي بعد التنقيب قرابة ساعتين في أكوام القمامة:

- كفى يا إيليا، هيا نسترح... تعال نأكل.

ويخرج من عبه كسرة خبز، ويصلِّب فيقسمها، ويروحان يأكلان، حتى إذا انتهيا من طعامهما، خلدا إلى الراحة قرابة نصف ساعة، مستلقين على حافة وهدة ينتهي منحدرها عند نهر مرئي منهما، وقد كان النهر عريضًا، ذا لون أزرق فضي، يمر قرب الوهدة بأمواجه في هدوء وسكينة، فيتطلع إليه إيليا ويتمنى لو ينطلق سابحًا مع تياره، ومن وراء النهر كانت تنبسط مروج، عليها بيادر حشيش منتصبة كالأبراج الرمادية، وبعيدًا، في طرف الأرض، غابة قائمة كالسور المسنن تدعم السماء الزرقاء، وفي المروج سكينة ونعومة، حتى ليشعر المرء أن الهواء هناك صاف، شفاف، حلو العبير... أما هنا، فالجو خانق من رائحة القمامة النتنة،، إنها رائحة تضغط على الصدر، وتخز الأنف، ومن عيني إيليا تسيل الدموع، مسيلها من عيني الشيخ.

كان الصبي، وهو مستلقٍ على ظهره، يتطلع إلى السماء فلا يبصر نهاية لعلوها، فيستولي عليه الأسى والنعاس، وتتوارد على مخيلته صور يكتنفها الغموض؛ فيُخيَّل إليه أن في السماء شيئًا ما، لا تدركه الأبصار، جسيمًا، شفاف النور، لطيف الدفء، طيب صارم، وأنه مع الشيخ، ومع الأرض كلها، صاعد إليه، إلى هناك، إلى العلاء الذي لا نهاية له، إلى القبة الزرقاء، إلى الصفاء والضياء... فيغشي قلبه خدر ناعم لطيف من الإحساس بفرح هادئ ساكن.

وفي المساء، لدى العودة إلى البيت، كان إيليا يدخل الفناء وعليه سيماء من الرصانة، سيماء رجل أجاد عمله، راغب في أن يأخذ لنفسه قسطًا من الراحة، وليس لديه قط وقت للانشغال بتوافه الأمور، شأن جميع الصبية والبنات الآخرين في ساحة البيت. ولقد كان يوحي الاحترام لجميع الأولاد بهيئته الصارمة والكيس المحمول على ظهره، ذلك الكيس الذي كان يحتوي دائمًا على مختلف الطرائف.

وكان الشيخ يبتسم للأولاد، ويقول لهم نكتة من النكات:

- هه، رجع اليعازران، كانا في المدينة كلها ينكشان، وكل مطرح يطوفان. إيليا.. رح اغسل سحنتك، وتعال اشرب الشاي في المطعم.

فيمضي إيليا بتثاقل إلى مكانه من القبو، والأولاد جميعًا من ورائه يتبعونه، متلمسين ما في كيسه بحذر، اللهم إلا باشكا[3]، فقد كان يسد الطريق على إيليا، ويقول له:

- آي، يا لمّام! هات لنشوف ما تحمل.

فيقول له إيليا بعنف:

- انتظر بعد ما أشرب الشاي، بتشوف.

وفي المطعم، كان يستقبله عمه، مبتسمًا له ابتسامة لطيفة:

- رجع الشغّيل.. يا قلبي.. تعبان؟

وقد كان إيليا يستطيب تسميته بالشغيل، وما كان يسمع هذا من عمه وحده، فقد حدث ذات مرة أنْ كان باشكا يتخابث، فأمسك به سافيول، وحصر رأسه بين ركبتيه، وراح يخبطه بحبل، ويقول له مؤنبًا:

- بلا زعرنة، يا خبيث، بلا زعرنة.. هه، خذ لك هذه، خذ.. خذ.. أولاد غيرك من عمرك خبزهم من كدهم، وأنت لا تعرف غير الأكل، وهري الثياب!

وانطلق باشكا يزعق في طول الساحة وعرضها، متخبطًا بقدميه، والحبل لا يزال يهوي على ظهره. وراح إيليا يستمع بارتياح غريب إلى صرخات عدوه الموجعة الغاضبة، ولكن كلمات الحداد ملأته شعورًا بتفوقه على باشكا، فأخذته إذ ذاك الشفقة على الصبي، فصاح فجأة:

- عمو سافيول، اتركه.

فضرب الحداد ابنه مرة أخرى، وقال مغضبًا، وهو ينظر إلى إيليا:

- هس، أنت يا محامي.. أضربك، هه!

وألقى بابنه جانبًا، ومضى إلى دكان الحدادة، ونهض باشكا على قدميه، وانصرف إلى زاوية معتمة من ساحة البيت، متعثرًا كالأعمى، فذهب إليه إيليا مفعمًا بالشفقة عليه. وكان باشكا قد ركع في الزاوية على ركبتيه، مسندًا جبينه إلى السياج، وانطلق ينتحب بصوت أشد، ممسكًا مؤخرته بيديه. فحدثت إيليا نفسه بأن يقول للعدو المضروب كلمة ما من الكلمات اللطيفة، إلا أنه اقتصر على توجيه هذا السؤال لباشكا:

- موجوع؟

فإذا بهذا يصرخ به:

- انقلع.

فأزعجت هذه الصرخة إيليا، فأخذ يقول له بلهجة المعلم:

- هه، أنت تضرب الجميع، وهاك النتيجة.

ولكنه قبل أن يتم كلامه، انقض عليه باشكا، وطرحه أرضًا من قدميه، فحنق إيليا أيضًا حنقًا شديدًا، وراحا كلاهما يتدحرجان على الأرض كالكرة. وكان باشكا يعض ويخمش، وأما إيليا، فقد أمسك بشعره وأخذ يخبط رأسه على الأرض إلى أن صاح باشكا:

- اتركني!

- أيوه. -قال إيليا، وقد نهض على قدميه مزهوًّا بانتصاره- شفت.. أنا أقوى منك.. يعني ما تعود

تشاكسني.

وابتعد عنه، وهو يمسح بكمّ قميصه وجهه المخدّش المدمَّى. وكان الحداد واقفًا وسط ساحة البيت، عابس الوجه، مقطب الحاجبين. وإذ رآه إيليا أخذته رعدة من الهلع، فتوقف وهو على يقين من أن الحداد سيضربه الآن انتقامًا لولده، ولكن هذا حرك كتفيه بعدم اكتراث، وقال:

- أيوه، ما لك مصوّب عينيك عليّ؟ ما شفتني بعد؟ رح محل ما تريد تروح!

وفي المساء، لقط سافيول إيليا خارج البوابة، فنقر بأصبعه على يافوخه نقرة خفيفة، وسأله وهو يبتسم ابتسامة كئيبة:

- كيف الحال.. يا لقّاط؟

فقهقه إيليا فرحًا قهقهة قصيرة. إنه لفي سعادة؛ فالحداد الغضوب، أقوى رجل في ساحة البيت، من يخافه الجميع ويحترمونه، يمزح معه! ولقد أمسك الحداد كتفه بأصابعه الحديدية، وأضاف فرحًا إلى فرحه بقوله:

- هو- هو! أنت صبي قوي.. ما بسرعة بتهتري، لا يا شاب! أيوه، اكبر.. ومتى كبرت أحطك عندي بالدكان.

فتشبث إيليا بساق الحداد الضخمة من الركبة، وشد عليها صدره بقوة، ولعل سافيول قد أحس بخفق القلب الصغير، وهو يلهث من ملاطفته؛ فقد حط يده الثقيلة على رأس إيليا، وصمت قليلًا، ثم قال بصوت أجش:

- إيه، يا يتيم.. اتركني يا...

وفي ذلك المساء انصرف إيليا متألقًا مرحًا إلى مهمته المعتادة، مهمة توزيع ما جمع في يومه من الطرائف، وجلس الأولاد على الأرض وراحوا ينظرون إلى الكيس الوسخ بعيون ظامئة، وأخذ إيليا يخرج من الكيس مزقًا من القماش، وعسكريًّا من الخشب قلبت مصائب الأيام سحنته، وعلبة بوية، وزجاجة كريم، وفنجان شاي أقطع مكسر الأطراف.

ومن جميع الجهات كان الصبية يمدون إلى التحف أيديهم الوسخة وتلعلع صيحات الغيرة:

- هذا لي، لي، لي، لي!

ويأمر إيليا قائلًا:

- انتظروا! لا تخطفوا. تُرى سيصير لعبًا، إذا كنتم ستسحبون كل شيء دفعة واحدة؟ أيوه، أنا سأفتح دكانًا.. سأبيع قطعًا من القماش الهندي... أحسن قماش هندي، السعر نصف روبل. ماشكا، اشتري!

- اشترت. - يجيب ياكوف نيابة عن بنت الإسكافي، فيخرج من جيبه كسرة قيشاني، مهيأة من قبل، فيدسها في يد التاجر، ولكن إيليا لا يقبضها.

- ما هذه اللعبة؟ ولكن عليك أن تساوم، يا شيطان! أنت لا تساوم أبدًا! أهكذا يكون البيع والشراء؟

- نسيت. - قال ياكوف معللًا موقفه.

وبدأت مساومة حامية، وكان البائع والمشترون يتحمسون فيها، وأثناء ذلك كان باشكا ينشل من الكومة بخفة ما يروق له، ويهرب مبتعدًا، ويروح يناكدهم وهو ينط على الأرض:

- وأنا سرقت يا مهابيل، مخابيل، قرود!

وبهذه الخباثات كان يثير غيظ الجميع؛ فيصرخ الصغار ويبكون، وينطلق إيليا وياكوف لملاحقة اللص في ساحة البيت، ولكنهما كانا يعجزان دائمًا تقريبًا عن الإمساك به، ثم اعتادوا على خباثاته، وقد كانوا لا ينتظرون منه أي خير، ويُجمِعون على كراهيته، ولا يلعبون معه؛ فقد كان باشكا يعيش على انفراد ويسعى جاهدًا للقيام بما يؤذي الجميع. وأما ياكوف، ذو الرأس الكبير، فقد كان يتصرف مع ابنة الإسكافي، ذات الشعر الأجعد، تصرف الحاضنة، وكانت هي ترى في رعايته لها واجبًا، ومع أنها كانت تدعوه ياشنكا[4]، فقد كانت غالبًا ما تخمشه وتضربه، وقد توطدت صداقته مع إيليا، فكان دائمًا يحكي لرفيقه حلمًا من أحلامه الغريبة.

- رأيت نفسي في المنام ومعي كثير من الفلوس، كلها روبلات... كيس ضخم! فسحبته إلى الغابة، وفجأة، جاءت عصابة،! معهم سكاكين، مرعبون! فهربت.

وفجأة رأيت في المنام أن شيئًا في الكيس يرتعش، فألقيت به! فإذا بطيور مختلفة تطير منه- فرررر! كنارات، قراقف، بلابل، لا تُعد ولا تُحصى! وحملتني هذه الطيور وارتفعت بي لفوق لفوق!

وقطع حكايته، وجحظت عيناه، واكتسب وجهه سيماء وجه خروف.

- أيوه؟ - قال له إيليا مستحثًّا، منتظرًا النهاية بفراغ صبر.

- وهكذا طرت نهائيًّا! - ختم ياكوف حكايته غارقًا في التفكير.

- إلى أين؟

- ولكن... نهائيًّا!

- أف منك! - قال إيليا بانزعاج وازدراء- أنت لا تذكر شيئًا!

وكان الشيخ إيرميا يخرج من المطعم، فيصيح واضعًا راحته على جبينه:

- إيليوشكا! أين أنت؟ تعال للنوم، صار الوقت.

وكان إيليا يتبع الشيخ، طبعًا، فيستلقي على فراشه، وهو كيس كبير محشو بالحشيش اليابس، وقد كان يحلو له النوم على هذا الفراش، وكانت عيشته طيبة مع الشيخ، ولكن هذه العيشة اللذيذة الهنيئة مرت كلمح البرق.

واشترى الشيخ إيرميا لإيليا حذاء، ومعطفًا كبيرًا ثقيلًا، وقبعة، وأخذ الصبي إلى المدرسة. وقد ذهب إليها يخامره الفضول والخوف، وعاد منها منكودًا فاتر الهمة، وعيناه مغرورقتان بالدمع؛ فقد عرف فيه الصبية مرافق الشيخ إيرميا، وأخذوا يناكدونه بصوت واحد:

- لمّام! أبو ريحة كريهة!

وراح بعضهم يقرصونه، وآخرون يمدون له ألسنتهم، واقترب منه أحدهم فرفع أنفه إلى السماء ونفر مشمئزًّا، وهو يصيح بصوت عال:

- يا للرائحة الكريهة!

وسأل إيليا عمه مرتبكًا محزونًا:

- لماذا يضحكون عليّ؟ عيب جمع الخرق؟

- معليش! - قال تيرنتي وهو يلامس رأس الصبي مخفيًا وجهه عن عيني ابن أخيه المتسائلتين المستفهمتين- ما هذه إلا خباثات منهم... عليك أن تصبر وتعتاد.

- وعلى الحذاء يضحكون، وعلى المعطف! يقولون إنه لغيري ومأخوذ من حفرة الزبالة!

وكذلك راح الشيخ إيرميا يهوّن عليه الأمر غامزًا بعينه في مرح:

- ما عليك إلا الصبر.. الرب بصير، غيره لا يوجد.

ولقد كان الشيخ يتكلم عن الله بانشراح وإيمان بعدالته، يخيل للمرء معها أنه عليم بجميع أفكاره ونافذ ببصيرته إلى جميع نواياه، فكانت كلمات إيرميا تطفئ لوقت ما ضرام المهانة في قلب الصبي، إلا أنها تعود في اليوم التالي فتشتعل بقوة أشد. وكان إيليا قد ألف اعتبار نفسه ذا وزن، وعاملًا، حتى الحداد سافيول كان يكلمه باحترام، أما التلامذة فكانوا يضحكون عليه، ويناكدونه، فما كان في وسعه احتمال هذا؛ وباطراد كانت الانطباعات المهينة المريرة عن المدرسة، المتعاظمة كل يوم، تزداد إيغالًا في أعماق قلبه، وبات الدوام على المدرسة واجبًا ثقيلًا على نفسه. وكان قد لفت أنظار المعلم إليه على الفور بذكائه، فأخذ هذا يضرب به المثل للآخرين، الأمر الذي زاد موقف الصبية منه حدة. وقد كان، وهو جالس على المقعد الأول، يحس بالأعداء خلف ظهره، وأما هم فكانوا إذ يجدونه أمام أنظارهم على الدوام، يلاحظون عليه بدقة وخفة كل ما كان يمكن أن يكون موضعًا للضحك، فيضحكون. وقد كان ياكوف يتعلم في المدرسة ذاتها، وكان هو الآخر موضع زراية رفاقه؛ فقد كانوا يلقبونه بالخروف، وكان، لذهول وعيه، يتعرض دائمًا للعقوبات، إلا أنه يقف منها موقف اللامبالاة. وكان على العموم لا يلاحظ ما يجري حوله، عائشًا حياته الخاصة في المدرسة وفي البيت، وفي كل يوم تقريبًا يثير دهشة إيليا بأسئلته غير المفهومة.

- إيليا! لماذا عيون الناس صغيرة وهي ترى كل شيء؟ ترى البلد كلها. هه... الشارع كله.. كيف بينحشر في العين؟ وهو، على ما هو، كبير لهذا الحد!

كان إيليا، أول الأمر، يمعن تفكيرًا في هذه الأمور، ولكن باتت تزعجه فيما بعد؛ إذ تصرفه عن التفكير بالأحداث التي كانت تلاحقه، ولقد كانت هذه الأحداث كثيرة، وكان الصبي قد أخذ يلاحظها بدقة.

وقد عاد ذات مرة من المدرسة، فقال لإيرميا، مكشرًا عن أسنانه:

- هذا معلم؟! ها- ها- ها! فيهم كمان! أمس كسر ابن التاجر مالافييف زجاج الشباك، فما فعل إلا أن وبخه بنعومة، واليوم ركَّب هو الزجاج على حسابه.

فقال إيرميا برقة وحنان:

- يا له من إنسان طيب!

- طيب.. أي نعم! ولكن عندما كسر الزجاج فانكا كليوتشاريف، أبقاه من دون غداء، وبعد ذلك استدعى أبا فانكا، وقال له: «هات أربعين كوبيكًا ثمن الزجاج»، وأما الأب فقد جلد فانكا.

فنصحه الشيخ، غامزًا بعينيه في قلق:

- ولكن لا تنتبه أنت لهذا، يا إيليوشا! تطلع أنت هكذا، كأن الأمر لا يخصك. شغل الله أن يرى الباطل، ما شغلنا. نحن عاجزون، أما هو فيعرف حساب كل شيء!

هه، شايف، أنا يا ما عشت، ويا ما شفت، ويا ما رأيت من الباطل، لا يُعد ولا يُحصى! أما الحق، فما رأيته! صار عمري فوق السبعين... وما يمكن أنه في هذا الوقت ما كان حولي حق على هذه الأرض... ولكن أنا ما رأيته... أنا لا أعرفه.

فقال إيليا غير مصدّق:

- ها ها! المسألة واضحة. إذا أخذ أربعين من واحد، لازم يأخذ أربعين من الثاني؛ هذا هو الحق.

فما وافق الشيخ على هذا، ولقد تكلم أيضًا فأطال الكلام عن عماوة الناس، وعن كونهم عاجزين عن الحكم بعضهم على بعض، وليس غير الله وحده من حاكم عادل. وكان إيليا يستمع إليه بانتباه، إلا أن وجهه كان يزداد تجهمًا، وعيناه تزدادان قتامًا، ثم إذا به يسأل الشيخ فجأة:

- ومتى سيحاكم الله؟

- غير معروف. تدق الساعة، فينزل هو من السحاب، فيحاكم الأحياء والموتى. أما متى؟ فأمر مجهول... تعال معي نذهب إلى الكنيسة.

ويوم السبت، كان إيليا يقف مع الشيخ في باحة الكنيسة، قرب المتسولين، بين البابين. وحين ينفتح الباب الخارجي، كان يلفح إيليا زمهرير الشارع، فتبرد رجلاه، فيروح يتراقص بهما من غير ضجيج على الأرض الحجرية. ومن خلال زجاج الباب، كان يرى كيف تندغم أضواء الشموع في الزخارف الجميلة الوامضة الراعشة من النقاط الذهبية، فتنير الأُطُر المعدنية، ورؤوس الناس السوداء، ووجوه

الأيقونات ونقوشها الحلوة.

كان الناس في الكنيسة يبدون أكثر طيبة ووداعة مما هم في الشارع، وكانوا إلى ذلك أكثر جمالًا في ألق الذهب المسبغ ضياءه على شخوصهم القاتمة الصامتة، الواقفة في دعة وسلام. وعند انفتاح باب الكنيسة كانت تهب على الباحة موجة من الترانيم معطرة دافئة، فتغمر الصبي بنفحة طرية ناعمة يتنشقها بغبطة وانشراح. وقد كان يطيب له الوقوف إلى جانب الشيخ إيرميا وهو يتمتم بصلواته، وكان يسمع كيف تتردد الأصوات الحلوة في الكنيسة، وينتظر بصبر فارغ لحظة ينفتح الباب فتنسكب عليه وتنفخ وجهه بالدفء العطر. ولقد كان يعلم أن الجوقة يرتل فيها غريشكا بوبنوف، وهو أحد من أشرس الخبثاء في المدرسة، وفيدكا دولغانوف، القوي الشرّير. إلا أنه ما كان يشعر إذ ذاك لا بالكراهية لهما ولا بالضغينة عليهما، بل كان على شيء من الحسد وحسب؛ فلقد كان يود هو نفسه لو يرتل في الجوقة ويتطلع إلى الناس من هناك. فلا بد أن يكون حلوًا جدًّا أن يرتل المرء واقفًا على السدة الذهبية أعلى من الجميع. وقد بارح الكنيسة وهو يحس في نفسه الطيبة والاستعداد للمصالحة مع بوبنوف ودولغانوف، ومع جميع التلامذة. إلا أنه عاد من المدرسة يوم الإثنين مثلما كان يعود من قبل، مكتئبًا منكودًا.

في كل جماعة من الناس شخص ينزعج فيها، وغير ضروري لهذا أن يكون خيرًا منها أو أسوأ. وقد يجلب المرء على نفسه الأنظار اللئيمة من غير أن يكون مفرط الذكاء أو ذا أنف مضحك؛ فالجماعة إنما تختار شخصًا للتسلية، دون أن يكون لها من دافع إلى هذا غير الرغبة في التسلي. وفي هذه الحال وقع الاختيار على إيليا لونيف. ولقد كان من شأن هذا، أغلب الظن، أن تكون له نهاية سيئة على إيليا، ولكن حياته طرأت عليها في ذلك الوقت بالذات أحداث جعلت المدرسة نهائيًّا غير ذات شأن بالنسبة له، ورفعته فوقها في الوقت نفسه.

وكانت بداية ذلك أن إيليا، وقد كان عائدًا إلى البيت مع ياكوف ذات مرة، شهد هرجًا ومرجًا عند البوابة، فقال لرفيقه:

- انظر! يتضاربون من جديد، على ما يظهر؟ هيا نركض.

وانطلقا يركضان قدمًا بأقصى السرعة، فرأيا لدى بلوغهما المكان أناسًا غرباء يروحون ويجيئون خائفين في فناء البيت، وهم يصيحون:

- استدعوا الشرطة! لازم تكبيله!

وكان الناس متجمعين حول دكان الحدادة في كومة كبيرة متراصة. وتسلل الصبيان إلى قلب الحشد ثم ارتدا إلى وراء؛ كان ثمة امرأة منكبة على وجهها، طريحة على الأرض، فوق الثلج، قرب أقدامهما، قذالها مغمور بالدم وبشيء كالعجين، والثلج حول رأسها أحمر كثيف، وبالقرب منها منديل أبيض مدعوك، وكماشة حداد كبيرة، منطرحان. وسافيول جالس في باب دكان الحدادة، متقوقعًا، ينظر إلى ساعدي المرأة، وهما مبسوطان إلى أمام، وراحتاهما متشبثتان عميقًا بالثلج.

كان حاجبا الحداد مقطبين تقطيبًا شديدًا، ووجهه في شحوب، جليّ أنه كان يشد على أسنانه؛ فقد كانت

وجنتاه تبرزان كأنهما كوزان كبيران من أكواز الصنوبر، وكان يستند بيده اليمنى على عضادة الباب، وأصابعه السود ترتعش، وكل ما فيه، خلا الأصابع، جامد لا حراك فيه.

كان الناس ينظرون إليه صامتين، ووجوههم جميعًا صارمة، ومع أن ساحة البيت كان يسودها الصخب والهرج، فقد كان هنا، قرب دكان الحدادة، هدوء وسكينة. وانسحب الشيخ إيرميا من الجمع أشعث الشعر عرقان، وبيد راجعة مد للحداد طاسة ماء:

- خذ، اشرب.

فقال أحدهم بصوت خافت:

- لا يلزم له ماء، هذا الشقي، بل حبل في رقبته.

وتناول سافيول الطاس بيده اليسرى وظل يشرب طويلًا، طويلًا، وحين أفرغ الماء كله في جوفه، نظر إلى الطاس الفارغ وراح يقول بصوته الأجش:

- حذّرتها- كفّي، يا ساقطة! قلت لها- أقتلك! عفوت عنها... كم مرة عفوت عنها... لم تسمع... هه، طيب! باشكا... يتيم الآن... عينك عليه يا عم... أنت محبوب عند الله.

- إيه... إيه! - قال الشيخ بأسى ولامس كتف الحداد بيد راجفة، وقال أحدهم من بين الجمهور من جديد:

- يا للفاجر! وعن الله أيضًا يتكلم!

فرفع الحداد إذ ذاك حاجبيه، وزأر كالوحش:

- ما شغلكم هنا؟ انقلعوا جميعًا!

فلسعت صرخته الجمهور كالسوط، فراحوا يدمدمون بكلمات صماء، وانكفؤوا مبتعدين.

ونهض الحداد على قدميه، وخطا نحو زوجته الميتة، ولكنه ارتد فجأة إلى وراء ومضى إلى دكان الحدادة، جسيمًا مستقيمًا. ورآه الجميع، وقد دخل إلى هناك، جالسًا على السندان، ممسكًا رأسه بيديه، كأنما أصيب فجأة بصداع لا يطاق، وراح يهتز لقدّام ولخلف. وشعر إيليا بالأسى على الحداد، فانصرف مبتعدًا عن دكان الحدادة وراح يتنقل، كأنه في المنام، من حلقة من الناس إلى حلقة أخرى، مصغيًا إلى الكلام، دون أن يفهم شيئًا.

وظهر رجال الشرطة، وأخذوا يطردون الناس من ساحة البيت، وبعد ذلك قبضوا على الحداد واستاقوه معهم.

- خاطرك، يا عم! - صاح سافيول وهو يخرج من البوابة.

- مع السلامة، سافيول إيفانيتش، مع السلامة، يا حبيبي. - صاح إيرميا برقة وعلى عجل، محاولًا

اللحاق به.

وما ودع الحداد أحد غيره.

وكان الناس، وهم واقفون في الباحة، حلقات صغيرة، يتحادثون وهم يتطلعون بوجوه عابسة إلى جثمان القتيلة، وقد غطى أحدهم رأسها بكيس كان من قبل يحتوي على الفحم. وفي باب دكان الحدادة، حيث كان يجلس سافيول، قعد شرطي في فمه غليون، كان يدخن، ويبصق، وهو ينظر إلى الشيخ إيرميا بعينين عكرتين، ويستمع إلى حديثه.

وكان الشيخ يقول قولًا مغمضًا بصوت خافت:

- وهل تراه هو الذي قتل؟ قوة سوداء هي التي قتلت! الإنسان لا يمكن أن يقتل الإنسان... ليس هو الذي يقتل يا ناس!

كان إيرميا يضم يديه إلى صدره، ويدفع بهما شيئًا، ويسعل وهو يشرح للناس سر الحادث.

- ولكن كماشة الحداد هذه لم يضرب بها الشيطان، بل الحداد - قال الشرطي هذا، وبصق.

فصاح الشيخ قائلًا:

- ولكن من الذي أوحى إليه؟ فكر بمن أوحى.

- على مهلك. -قال الشرطي- من يكون الحداد بالنسبة لك؟ ابنك؟

- لا، شيء بعيد.

- على مهلك. هل هو قريب لك؟

- لا. ليس لي أقارب.

- فلماذا إذن تزعج نفسك؟

- أنا.. رباه!

- اسمع ما أقول لك، -نطق الشرطي بصرامة- أنت تهذر بكل هذا من الخرف... انقلع.

وأطلق الشرطي من زاوية فمه دفعة كثيفة من الدخان، وأدار ظهره للشيخ، ولكن إيرميا لوح بيديه وراح يتكلم بسرعة وحدّة.

وابتعد إيليا عن دكان الحدادة، شاحب الوجه، متسع العينين، فتوقف لدى جماعة من الناس كان يقف فيها الحوذي ماكار، وبيرفيشكا، وماتيتسا، ونسوة أخريات من العلية.

- كانت، يا حبيباتي، فلتانة قبل الزواج أيضًا -قالت إحدى النسوة- ربما كان باشكا هذا من غير الحداد، بل من المعلم الذي كان ساكنًا عند البائع مالافييف.

- هذا الذي انتحر؟ - سأل بيرفيشكا.

- أيوه.. معه بدأت.

وكذلك زحفت زوجة برفيشكا الكسيحة إلى باحة البيت، فجلست في مكانها عند مدخل القبو متلفعة بأسمال لا تعرف ماهيتها، كانت يداها مستقرتين بلا حراك على ركبتيها، ورأسها مرفوعًا، وهي شاخصة إلى السماء بعينين سوداوين، شفتاها مطبقتان إطباقًا شديدًا، وزاويتاهما منسدلتان. وكذلك راح إيليا ينظر إلى المرأة حينًا، وإلى زرقة السماء حينًا آخر، وقد خُيِّل إليه أن زوجة بيرفيشكا ربما كانت تبصر الله وتلتمس منه شيئًا ما في صمت.

وبعد قليل تجمع الصبية أيضًا في حلقة ضيقة عند مدخل القبو، وقد كانوا جالسين على درجات السلم، وملابسهم لا تقيهم من البرد، يصغون إلى حديث ابن سافيول في فضول رهيب. كان وجه باشكا في نحول، وأما عيناه الخبيثتان فكانتا تنظران إلى الجميع بقلق وشرود، ولكنه كان يشعر بنفسه بطلًا من الأبطال؛ فلم يسبق قط للناس أن أبدوا نحوه كل هذا الاهتمام الذي يبدونه اليوم. ولقد كان، وهو يكرر الحكاية نفسها عشرات المرات، يتكلم من غير مبالاة، وكأنما هو غير راغب بالكلام:

- بعد ذهابها، من ثلاثة أيام، كان أبي طول الوقت يصر بأسنانه، ومنذ ذلك الوقت وهو في غضب شديد، يرغي ويزبد. كان طول الوقت يشدني من شعري..

فحزرت ماذا سيصير - يا لطيف! وجاءت، كان البيت مغلقًا، وكنا نحن في دكان الحدادة. كنت أنا واقفًا قرب المنفاخ، أتطلع فإذا هي تقترب فتقف عند الباب وتقول: «هات المفتاح!». أما أبي فيتناول الكماشة ويقبل عليها... يمشي بهدوء كأنما هو يتحفز... فأغمضت أنا عينيّ- شيء رهيب! همت أن أصيح بها: «ماما، اهربي!» فما صحت... فتحت عينيّ، فإذا هو لا يزال يمشي! عيناه مثل النار! إذ ذاك أخذت تتراجع، ثم أدارت ظهرها له وهمت بالفرار.

وارتعش وجه باشكا، وارتجف كل جسمه النحيل المتصلب، وقد عب نفسًا عميقًا طويلًا من الهواء ونفثه بزفرة طويلة، قائلًا:

- وهنا ضربها بالكماشة، طخ!

فاضطرب الصبية الجالسون بلا حراك.

- ولوحت بساعديها وسقطت... كأنما تغطس في الماء.

وتناول بيده خشبة صغيرة، فنظر إليها مليًّا، وألقى بها من فوق رؤوس الأولاد. كانوا جميعًا جالسين دون حراك، كأنما يتوقعون منه شيئًا ما أيضًا، إلا أنه صمت مطأطئ الرأس.

- قتلها تمام تمام؟ - سألت ماشا بصوت رفيع راجف.

- بهيمة! - قال باشكا، دون أن يرفع رأسه.

فضم ياكوف الصغيرة وقربها إليه، ودنا إيليا من باشكا فسأله بصوت خافت:

- حزين عليها؟

- وما شغلك أنت؟ - أجاب باشكا بغضب.

وراح الجميع يتطلعون إليه صامتين دفعة واحدة.

- أيوه، كانت دائمًا تفلت - قالت ماشا بصوتها الرنان، ولكن ياكوف أوقفها عن الكلام على عجل وفي قلق:

- وتفلت! وكيف كان هو الحداد! دائمًا أسود، مفزع، يعيّط... أما هي فكانت مرحة مثل بيرفيشكا.

فنظر إليه باشكا وشرع يقول عابسًا، جديًّا، كالرجل الكبير:

- كنت أقول لها: «ماما، انتبهي! بيقتلك!»، ما سمعت... كانت ترجوني ألا أحكي له شيئًا، وبالمقابل كانت تشتري لي هدايا. والجاويش كان يعطيني دائمًا خمسة كوبيكات. أنا كنت أنقل له مكاتيب، وهو يناولني بالحال خمسة كوبيكات. هو حباب.. قبضاي.. له شوارب.

فسألت ماشا:

- ومعه سيف؟

وأجاب باشكا، ثم أضاف بخيلاء:

- وأي سيف! سحبته مرة من قرابه... ثقيل، يخرب بيته!

فقال ياكوف مستغرقًا في التفكير:

- ها أنت الآن يتيم... مثل إيليوشكا.

- أبدًا - قال اليتيم بامتعاض- تتصور أني أيضًا سأشتغل لقّاط خرق؟ تفو!

- لا أحكي عن هذا.

- أنا الآن أعمل ما أريد! - قال باشكا بصوت متكبر، وقد رفع رأسه وراح يتطلع مغضبًا بعينين يقدح منهما الشرر- ما أنا يتيم... بس أنا.. سأعيش لوحدي، أبي رفض يحطني بالمدرسة، والآن حطوه هو بالحبس. أنا سأروح للمدرسة وأتعلم.. أحسن منكم!

- والثياب من أين تأخذها؟ - سأله إيليا، مبتسمًا ابتسامة الغلبة- في المدرسة لا يقبلون من يلبسون مثل هذه الثياب الممزقة.

- الثياب؟ ولكني سأبيع دكان الحدادة.

فتطلع الجميع إلى باشكا باحترام، وأما إيليا فقد شعر بأنه قد انغلب. ولاحظ باشكا الأثر الذي تركه كلامه في النفوس، فزاد تحليقًا.

- أنا أيضًا سأشتري حصانًا... حصانًا نشيطًا، حقيقيًّا، وسأذهب إلى المدرسة راكبًا عليه.

ولقد راقت له هذه الفكرة إلى درجة جعلته يبتسم، وإن تكن ابتسامته تلك وجلة، برقت وتلاشت في الحال.

وبغتة قالت ماشا لباشكا، وهي تنظر إليه نظرة حاسدة:

- لن يضربك الآن أحد.

فاعترض إيليا قائلًا بلهجة واثقة:

- لن يخلو الأمر.

فرشقه باشكا بنظرة، وسأله وبصق جانبًا في غطرسة:

- أنت؟ جرّب!

ومن جديد تدخل ياكوف.

- شيء عجيب يا إخوان! كانت مخلوقة، تمشي وتحكي، وتعمل كل شيء، مثل كل الناس... كانت حية، فضربوها بالكماشة على رأسها، فما عاد لها وجود.

ونظر الأولاد، الثلاثة جميعًا، إلى ياكوف بانتباه واهتمام، أما هو فقد شخصت عيناه إلى الجبين، وجمدتا في جحوظ مضحك.

- أي نعم. - قال إيليا- أنا أيضًا أفكر في هذا.

- يقولون ماتت، - تابع ياكوف يقول بصوت خافت هامس- ما معنى ماتت؟

- روحها طارت. - أوضح باشكا بوجه عابس.

- للسماء. - أضافت ماشا، واحتمت بياكوف، وراحت تتطلع إلى السماء. كانت النجوم قد أخذت تشتعل هناك، وكانت إحداها، وهي كبيرة، ساطعة غير راعشة، وأقرب الجميع إلى الأرض، تنظر إليها بعين باردة جامدة. وعلى أثر ماشا، رفع الصبية الثلاثة رؤوسهم إلى السماء، وتطلع باشكا، وهرب في الحال إلى مكان ما.

وأطال إيليا النظر بإمعان، وفي عينيه هلع، وأما عينا ياكوف الكبيرتان فقد راحتا تسبحان في زرقة السماء، كأنما هو يبحث عن شيء هناك.

- باشكا! - صاح به رفيقه وقد أسدل رأسه.

- إيه؟

- أنا لا أزال أفكر - وانقطع صوت إيليا.

- بماذا؟ - سأل ياكوف بصوت خفيض.

- بأحوالهم... المخلوقة قتلت... وهم يروحون ويجيئون، ويركضون، ويتكلمون أشكالًا وألوانًا، ولكن ما بكى أحد، ولا حزن أحد.

- إيرميا بكى.

- هو دائمًا يبكي... وباشكا كيف كان يحكي مثل الحكاية!

- هو يعاند... إنه حزين، ولكنه يستحي. وها هو الآن قد هرب، والأكثر أنه يبكي... يا لطيف!

ولبثوا بضع دقائق صامتين، متلاصقين بعضهم ببعض.

وأغفت ماشا على ركبتي ياكوف، ووجهها لا يزال متجهًا إلى السماء.

- أنت خائف؟ - سأل ياكوف هامسًا.

- خائف. - أجاب إيليا هامسًا أيضًا.

- روحها الآن ستمشي هنا.

- نعم... ماشكا نامت.

- يجب أخذها إلى البيت، ولكن التحرك مخيف.

- هيا نذهب معًا.

أرخى ياكوف رأس البنت النائمة على كتفه، وطوق بيديه جسمها الصغير النحيل، وهب بجهد واقفًا على قدميه، وهو يقول في همس:

- انتظر إيليا، أنا سأمشي قدام.

وسار يترنح تحت حمله الثقيل، وأما إيليا فقد كان يمشي وراءه، يكاد يستند بأنفه على قذال رفيقه، ولقد كان يخيل إليه أن ثمة شخصًا غير مرئي يمشي خلفه، يزفر بأنفاسه الباردة على عنقه، ويكاد يمسك به. وصدم رفيقه في ظهره، وهمس قائلًا له بصوت بالكاد يُسمع:

- عجِّل.

وعقب هذا الحادث أخذت تعتل صحة الشيخ إيرميا، فكان يزداد باطراد تخلفًا عن الخروج لجمع الخرق، ويبقى في البيت يتمشى في الفناء في سأم وضجر، أو يلتزم الفراش في غرفته الصغيرة

المظلمة. وأقبل الربيع، وبات الشيخ، في الأيام التي تشع فيها الشمس الدافئة بنورها اللطيف، يجلس في مكان مكشوف منهمكًا بحساب شيء ما على أصابعه، متمتمًا بشفتيه دون صوت، وزادت حكاياته ندرة وسوءًا، فقد كان يشرع بالكلام، ثم تأخذه فجأة نوبة من السعال.. كان ثمة شيء ما يخرخر في صدره، كأنما يود أن ينطلق، فتناشده ماشا، وهي أكثر الجميع ولعًا بالحكايات، بأن يتوقف عن السعال:

- كفى.

فيقول الشيخ لاهثًا:

- اص طب ري! الآن سيزول.

ولكن السعال ما كان ينصرف، بل يروح يعصف بجسم الشيخ الناحل عصفًا متزايد الشدة. وكان الأولاد ينفضّون عنه أحيانًا وقد فاتهم الاستماع إلى نهاية الحكاية، فينظر الشيخ إليهم، وهم ذاهبون، نظرة تنطوي على الكثير من الأسى.

وقد لاحظ إيليا أن مرض الشيخ يشغل كثيرًا بال صاحب البوفيه بتروخا وعمه تيرنتي؛ فقد كان بتروخا يظهر عدة مرات في اليوم في الباب الخلفي للمطعم، فيبحث عن الشيخ بعينين رماديتين مرحتين، ويسأله:

- كيف الحال يا عم؟ أما تحسنت قليلًا؟

كان ضخم الجثة، يلبس قميصًا وردي اللون من القطن، ويمشي داسًّا يديه في جيبي سروال عريض من الجوخ تغطيه في أسفل الساق جزمة لماعة متجعدة، وعلى الدوام تخشخش النقود في جيوبه، وقد بدأ الصلع يغزو رأسه المدوّر من الجبين، ولكن لا يزال عليه كثير من الشعر الأشقر المتموج، وكان هو ينفض شعره نفضة الشبان. وكان إيليا لا يحبه من قبل، ولكن هذا الشعور ازداد إذ ذاك شدة لدى الصبي؛ كان يعلم أن بتروخا لا يحب الشيخ إيرميا، وقد سمع كيف كان صاحب البوفيه يعلم عمه تيرنتي ذات مرة قائلًا له:

- راقبه أنت يا تيريخا! إنه شحيح! عنده في المخدة، يمكن، كنز غير قليل. لا تترك الفرصة تفلت منك! بقي له، هذا الخلد العجوز، قليل من العمر، وأنت على صداقة معه، وليس له أي قريب.. فكر.. يا حلو!

كان إيرميا يقضي الأمسيات، كالسابق، في المطعم قرب تيرنتي، متحدثًا مع الأحدب عن الله وعن الأمور البشرية. وكان الأحدب، إذ سكن المدينة، قد بات أشد قبحًا، فكأنه أصبح مبللًا بعض الشيء في عمله، وغدت عيناه عكرتين، وجلتين، وكأنما ذاب جسمه في حرارة المطعم، وكان قميصه الوسخ يرتفع دائمًا على حدبته، كاشفًا عن أسفل ظهره، فإذا ما تحدث مع أحد، يظل طول الوقت واضعًا يديه وراء ظهره، يحكم وضع قميصه بحركات سريعة من يديه، كأنما هو يدس شيئًا ما في حدبته.

وحين كان الشيخ إيرميا يجلس في باحة البيت، كان تيرنتي يخرج إلى العتبة فيتطلع إليه مضيقًا عينيه، مسندًا راحة يده إلى جبينه، ويسأله بصوت ينم عن الشعور بالذنب، ولحيته الصغيرة الصفراء القليلة الشعر ترتعش على وجهه الناتئ التقاطيع:

- يا عم إيرميا.. أما تحتاج لشيء؟

فيجيبه الشيخ:

- شكرًا. لا أحتاج... لا أحتاج لشيء.

فيدور الأحدب على رجليه الرفيعتين، وينصرف.

وغالبًا ما كان يقول إيرميا:

- صحتي لا تتحسن... شيء واضح... عزرائيل على الباب.

وذات مرة، استلقى للنوم في جحره، فراح يتمتم بعد نوبة من السعال:

- ما حان الوقت يا رب! أعمالي لم أنته منها بعد! هذه الدراهم... كم قضيت من السنين في جمعها؛ لبناء كنيسة في ضيعتي. الناس بحاجة لبيت الله، ملاذًا لنا...

قليل ما جمعت.. يا رب! الغراب يطير، يشم القطعة.. عندي فلوس، اعلم يا إيليا، لا تقل لأحد.. ليكن بعلمك.

وقد اعتبر إيليا نفسه، إذ سمع هذيان الشيخ، حاملًا لسر خطير، وكان يدرك من هو الغراب.

وبعد بضعة أيام، فيما كان إيليا يخلع ملابسه في زاويته بعد العودة من المدرسة، سمع إيرميا ينتحب ويشخر، كأنما ثمة من يخنقه.

- كش... كشش... رح.

ودفع الصبي الباب بخوف ليدخل على الشيخ، فإذا هو مغلق.

ومن خلف الباب دوى همس متسارع:

- كشش.. رباه... غفرانك... غفرانك.

وألصق إيليا وجهه على شق من الحاجز، وتجمد، وراح يتطلع، فرأى الشيخ مستلقيًا على فراشه، يلوح بيديه، فصاح بصوت حزين:

- عمو!

فارتجف الشيخ، ورفع رأسه وراح يتمتم بصوت عال:

- بتروخا، احذر، الرب.. هذا له.. هذا لبيت الله... كش... يا غراب... هذا لك... يا رب! احفظه... غفرانك... غفرانك.

كان إيليا يرتعد خوفًا، ولكنه لم يكن يستطيع الانصراف، وهو ينظر إلى يد الشيخ السوداء اليابسة، ملوحة في الفضاء خائرة القوى، تنذر بأصبع كالكلابة:

- احذر... مال الله.. لا تمسه!

ثم تجمع الشيخ بكل كيانه وجلس فجأة على مرقده. كانت لحيته البيضاء تخفق كجناحي حمامة طائرة، وبسط يديه إلى أمام وانهار على الأرض وهو يلطم بهما أحدًا ما لطمًا قويًّا.

فصرخ إيليا صرخة راعبة، وأطلق ساقيه للريح، يلاحقه همس يوشوش في أذنيه:

«كش... كش..».

وركض الصبي إلى المطعم، فصاح وهو يلهث:

- مات.

فشهق تيرنتي، وأخذ يخبط الأرض بقدميه جامدًا في مكانه، ويراح يرتب وضع قميصه بحركات تشنجية، وهو يتطلع إلى بتروخا الواقف وراء البوفيه.

- وماذا؟ - قال صاحب البوفيه بجفاف، وهو يرسم إشارة الصليب- أصبح في ملكوت السماء.. على أنه كان شيخًا طيبًا... أنا ذاهب لأرى... ابق أنت هنا يا إيليا... فإذا اقتضى الأمر، فاستدعني... سامع؟ وأنت يا ياكوف، قف وراء البوفيه.

وذهب بتروخا، على غير استعجال، يقرع الأرض بكعبيه قرعًا شديدًا، وسمع الصبيّان قوله للأحدب وراء الباب:

- امش... امش... يا مغفل.

وكان إيليا في خوف شديد، إلا أن الخوف ما كان يحول بينه وبين ملاحظة كل ما يجري حوله.

- هل رأيت كيف مات؟ - سأل ياكوف من وراء منصة البيع.

فنظر إليه إيليا وأجابه بسؤال:

- ولماذا ذهبا إلى هناك؟

- للنظر؛ فأنت استدعيتهما.

فأغمض إيليا عينيه إغماضة شديدة، قائلًا:

- كيف كان يدفعه؟

- يدفع من؟ - سأل ياكوف بفضول، ماطًا رأسه.

- الشيطان! - أجاب إيليا لا على الفور.

- ورأيت أنت الشيطان؟ - صاح ياكوف بصوت خافت، وقد أقبل مسرعًا عليه. ولكن رفيقه أغمض عينيه من جديد، دون أن يجيب.

- وهل خفت؟ - سأله ياكوف وقد أمسك بكمه.

- انتظر.. - قال إيليا فجأة- أنا ذاهب بسرعة لمدة دقيقة... لا تقل لأبيك.

وما هي إلا بضع ثوان حتى كان في القبو، وقد دفعته إلى هناك تخميناته، فهرع كالفأرة إلى شق الباب، والتصق به من جديد، كان الشيخ لا يزال حيًّا، وهو يشخر... وجسده منطرح على الأرض عند أقدام شبحين أسودين.

وكانا، في العتمة، قد اندفعا معًا فشكلا غولًا كبيرًا واحدًا. وأبصر إيليا عمه جاثيًا قرب فراش الشيخ يخيط المخدة على عجل، كان يسمع بوضوح حفيف الخيط وهو يغرز في القماش، وكان بتروخا يهمس قائلًا لتيرنتي، وهو واقف خلفه، منحنيًا عليه:

- عجّل! قلت لك جهّز إبرة وخيطًا.. وهكذا لا يكون لزوم لشك الإبرة... أف منك!

وقد اندمج همس بتروخا وشخير المحتضر وحفيف الخيط والخرير الشاكي المنبعث من الماء الجاري في الحفرة أمام النافذة، اندمجت هذه الأصوات كلها في ضجيج أصم أصاب رأس الصبي بالدوار، فابتعد عن الباب بهدوء، وانصرف هاربًا من القبو، وراحت بقعة سوداء كبيرة تدور كالدولاب أمام ناظريه وتحدث صفيرًا. وأثناء صعوده على السلّم، كان يتشبث بالدرابزين تشبثًا شديدًا بيديه الاثنتين، ويرفع رجليه بجهد ومشقة، ولما وصل إلى الباب، نصب قامته وراح ينتحب بصوت خافت. كان ياكوف يدور أمامه، ويقول له شيئًا ما، ثم تلقى دفعة في ظهره، ولعلع صوت بيرفيشكا:

- من... لمن؟ ماذا... لماذا؟ مات؟ أف!

ومن جديد دفع الإسكافي إيليا، ونزل السلّم مسرعًا بحيث راح يقرقع تحت ضربات قدميه، وحين وصل إلى القبو صاح بصوت عال أسيف:

- أو.... و.. ف!

وسمع إيليا عمه وبتروخا يصعدان السلّم، فأحس بنفرة من البكاء أمامهما، إلا أنه كان عاجزًا عن حبس دموعه.

- ها ها! - هتف بيرفيشكا- كنتما هناك إذن؟

ومر تيرنتي من قرب ابن أخيه، دون أن ينظر إليه، وأما بتروخا، فقد قال لإيليا واضعًا يده على كتفه:

- تبكي؟ شيء عال... يعني أنك فتى شكور تذكر المحسن لك، والشيخ قد أحسن لك كثيرًا!

ثم أضاف، وهو يدفع إيليا جانبًا دفعة خفيفة:

- ولكن، على كل حال، لا تقف في الباب.

مسح إيليا وجهه بكم قميصه، وتطلع إلى الجميع. وكان بتروخا قد وقف وراء البوفيه، نافضًا خصلات شعره، وأمامه يقف بيرفيشكا مبتسمًا ابتسامة خبيثة، ولكن وجهه كان، على الرغم من الابتسامة، أشبه بوجه من خسر للتو كوبيكاته الخمسة الأخيرة في لعبة الطرة والنقش.

- ايوه، ماذا تريد يا بيرفيل[5]؟ - سأل بتروخا بجفاف، محركًا حاجبيه.

- ألن تكون لي مكافأة؟ - قال بيرفيشكا.

- ولأي مناسبة؟ - سأل صاحب البوفيه بتأنٍ وخشونة.

- يا سلام! - صاح الإسكافي، خابطًا الأرض بقدمه - العين بصيرة واليد قصيرة! ليكن.. الخلاصة، يعطيك العافية، يا بيوتر ياكيميتش!

- ماذا تعني؟ - سأل بتروخا مسالمًا.

- لا شيء، ببساطة قلب.

- لعلي آتيك بقدح... أهذا ما تبغي؟ - ها.. ها!

فدوّت ضحكة الإسكافي الرنانة في المطعم:

- قه.. قه.. قه!

وهز إيليا رأسه كأنما ينفض عنه شيئًا، وانصرف.

واستلقى للنوم لا في غرفته الصغيرة، بل في المطعم، تحت الطاولة التي يغسل عليها تيرنتي الأواني، وقد أنام الأحدب ابن أخيه، وبدأ هو نفسه يمسح الطاولات.

كان ثمة مصباح مشتعل على منصة البيع يضيء جوانب أباريق الشاي الكرشاء والقوارير في الخزانة، وكان المطعم في ظلام، ورذاذ من المطر ينقر على النوافذ، والريح تخبط المصاريع... وتيرنتي، كأنه القنفذ الضخم، يدفع الطاولات ويتنهد. ولدى مروره قرب المصباح كان ينبسط له على الأرض ظل كثيف يتصور إيليا أنه روح الشيخ إيرميا تزحف وتنهر عمه:

«كش... كشش!».

كان الصبي يشعر بالبرد والرهبة، فالرطوبة خانقة؛ إذ كان اليوم يوم سبت، والأرض قد غسلت للتو، والروائح الكريهة تفوح منها. وود لو يلتمس من عمه أن يعجل بالاستلقاء تحت الطاولة إلى جانبه،

ولكن إحساسًا ثقيلًا غير طيب كان يمنعه من الكلام معه. ورسمت له تصوراته هيكل الشيخ إيرميا المحدودب، بلحيته البيضاء، ورن في ذاكرته صوته الحنون الرفيع:

«الله يعرف أن يحاسب... معليش!».

وبصوت شاك، قال إيليا لعمه، وقد بات لا يستطيع احتمالًا:

- لو تأتي للنوم.

فارتعد الأحدب وتجمد، ثم أجاب بصوت خافت مستح:

- بعد قليل.. بعد قليل.

وراح يدور مسرعًا حول الطاولات، كالدوامة. فقال إيليا في نفسه، وقد أدرك أن عمه أيضًا في خوف:

«هذا ما تستحق!».

كان المطر ينهمر مدرارًا، والنور يرتعش في المصباح، وأباريق الشاي والقوارير تبتسم ساخرة في صمت. وتغطى إيليا حتى الرأس بفروة عمه، واستلقى حابسًا أنفاسه، فإذا بشيء ينحط جنبه فجأة، فأخذت كيانه كله قشعريرة من البرد، فأخرج رأسه، فرأى تيرنتي راكعًا، مطاطئ الرأس بحيث تستند لحيته على صدره، وهو يتمتم:

- أبانا.. يا رب.. يا رب!

كانت تمتمته أشبه بشخير الشيخ إيرميا، والعتمة في الغرفة كأنما هي تتحرك والأرض تترنح معها، والمدخنة تعوي فيها الرياح. وبصوت رنان صاح إيليا بعمه قائلًا:

- لا تبتهل لله!

- أوه! مالك؟ - قال الأحدب بصوت منخفض- نم، بحياة المسيح!

- لا تبتهل لله! - كرر الصبي بإلحاح.

- طيب، لن أبتهل.

كانت العتمة والرطوبة تزدادان ضغطًا على صدر إيليا، فضاقت أنفاسه، وفي أعماق نفسه كان يغلي الهلع، والأسى على الشيخ، والغضب على عمه. وتحرك على الأرض، فجلس وراح ينتحب.

- ما لك؟ ما هذا؟ - همس العم في خوف وأمسكه بيديه، فدفعه إيليا، وقال بصوت تمازجه الدموع، وبلهجة تنم عن الأسى والفزع:

- الله! لو أني على الأقل أتوارى في مكان ما... الله!

وخنقت الدموع صوته، وبجهد ومشقة كان يتجرع الهواء النتن، ويجهش بالبكاء، داسًّا وجهه في المخدة.

طرأ تبدل كبير على خلق الصبي بعد هذه الأحداث، فقد كان من قبل يتجنب تلامذة المدرسة فقط، غير واجد لديه الرغبة في الاستسلام لهم، والاقتراب منهم. أما في البيت فكان يعاشر الجميع، ويرتاح لاهتمام الكبار به. وقد أخذ الآن يعتزل الناس وبات جديًّا على نحو لا يتناسب وعمره، وغدت تعابير وجهه جافة، وشفتاه في إطباق شديد، ونظرته إلى الكبار تنطوي على الحذر، فهو يستمع إلى أحاديثهم وفي عينيه بريق من التمرد. وقد كان يرهقه تذكر ما رآه يوم وفاة الشيخ إيرميا، فيبدو له أنه هو أيضًا شريك في الذنب حياله مع بتروخا وعمه. فلربما كان الشيخ قد ذهب به الظن، إذ كان يحتضر ويرى كيف ينهبانه، إلى أنه هو إيليا قد حكى لبتروخا النقود، ولقد ولدت هذه الفكرة خفية في ذهن إيليا فملأت نفسه بعبء مرهق، وراحت تزيد باطراد من حدة شعوره بالريبة في الناس. وكان إذا هو لاحظ لديهم أمرًا سيئًا يشعر بالارتياح لهذا؛ كأنما قد خف ذنبه حيال الشيخ.

وكثيرًا ما كان يرى من السيئات، فقد كان الجميع في فناء البيت يسمون صاحب البوفيه بتروخا بمهرب المسروقات والمحتال، ولكنهم جميعًا كانوا يلاطفونه ويحيونه باحترام ويدعونه بيوتر ياكيميتش. وأما ماتيتسا فكانوا يدعونها بكلمات مهينة، وإذا هي سكرت دفعوها وضربوها. وقد كانت ذات مرة، وهي في حالة السكر، جالسة تحت نافذة المطبخ، فصب عليها الطباخ الماء الوسخ. وكان الجميع يفيدون على الدوام من خدماتها، وما كانوا يدفعون لها أبدًا غير الشتائم والضربات؛ فقد كان بيرفيشكا يدعوها لغسل زوجته المريضة، وبتروخا يجبرها على ترتيب المطعم مجانًا قبيل الأعياد، وكانت تخيط لتيرنتي قمصانه. كانت تذهب إلى الجميع، وتعمل كل شيء من غير شكوى وعلى نحو جيد، وتحب العناية بالمرضى، وتهوى اللعب مع الأطفال.

كان إيليا يرى أن الرجل الشغيل أكثر من الجميع في ساحة البيت -وهو الإسكافي بيرفيشكا- موضع سخرية الجميع، ولا تلحظه العيون إلا حين يكون سكران، والهارمونيكا في يده، جالسًا في المطعم أو متجولًا في الباحة، يعزف ويغني أغاني مرحة مضحكة. ولكن لم يكن أحد يود أن يرى كيف يسحب بيرفيشكا هذا زوجته الكسيحة على السلم بتأن وحذر، وكيف ينيم طفلته، غامرًا إياها بالقُبل، مكشرًا تكشيرات مضحكة بغية تسليتها. وما كان أحد ينظر إلى الإسكافي إذ كان يعلم ماشا، ضاحكًا مداعبًا، كيف تعدّ طعام الغداء، وكيف ترتب الغرفة، ثم يجلس بعد ذلك للشغل، فيظل حتى ساعة متأخرة من الليل منطوي الظهر، يشك المخرز والخيط في الجزمات الوسخة.

وحين سيق الحداد إلى السجن لم يهتم بابنه أحد غير الإسكافي، فقد أخذ باشكا إلى عنده في الحال، وراح باشكا يشمع الخيوط، ويكنس الغرفة، ويجلب الماء، ويذهب إلى الدكان لشراء الخبز وشراب «الكفاس»، والبصل. ولقد كان الجميع يرون الإسكافي سكران في الأعياد، ولكن ما كان أحد يسمعه في اليوم التالي وهو يتحدث إلى زوجته صاحيًا:

- سامحيني، يا دونيا! فأنا لا أشرب لأضيع صوابي، بل بسبب التعب. مضجر أن يشتغل الإنسان طول الأسبوع! أيوه، فأنا أجرع كأسًا!

- وهل أنا زعلانة؟ مستحيل! أنا أشفق عليك - تقول له زوجته بصوت أجش، وفي حنجرتها شيء ينسكب- وهل تظن أني لا أرى شغلك؟ الله وضعني حجرًا في رقبتك. فيا ليتني أموت؛ فتخلص مني!

- لا تتكلمي هكذا! أنا لا أحب كلامك هذا. أنا مزعج لك، لا أنت لي! ولكن ليس هذا لأني شرس، بل لأني ضعفت. اسمعي، سننتقل يومًا ما إلى شارع آخر، ويبدأ كل شيء على خلاف ما الحال عليه الآن... نوافذ وأبواب.. وكل شيء؛ النوافذ ستكون على الشارع، نقص جزمة من الورق، فنلصقها على الزجاج. إعلان! ويتدفق علينا الناس! ويدور دولاب الشغل! يا سلام.. انفخ، اضرب، هات فحم! سنعيش عيشة طيبة، ونجمع الفلوس!

كان إيليا يعرف حتى التفاصيل الدقيقة عن حياة بيرفيشكا، ويرى أنه يتخبط كالسمكة تحت الجليد، ويحترمه لكونه يداعب الجميع دائمًا، ويضحك دائمًا ويعزف عزفًا رائعًا على الهارمونيكا.

وأما بتروخا فكان يجلس خلف البوفيه ويلعب بالدامة من الصباح حتى المساء، ويشرب الشاي، ويشتم الخدم. وبعد موت إيرميا بقليل أخذ يعلم تيرنتي البيع وراء البوفيه، أما هو نفسه فما كان يعمل غير أن يتجول في الباحة ويصفر وهو ينظر إلى البيت من جميع أطرافه ويدق الجدران بقبضته.

كان إيليا يلاحظ أمورًا كثيرة، وكانت جميعها سيئة مضجرة تدفع به بعيدًا عن الناس. وكانت الانطباعات تتجمع لديه أحيانًا، فتبعث في نفسه رغبة ملحة في التحدث مع أحد ما، ولكنه ما كان يود الحديث مع عمه؛ فبعد وفاة إيرميا نشأ بين إيليا وعمه شيء ما غير مرئي، إلا أنه كثيف يحول بين الصبي وبين مداناة الأحدب بانطلاق وصميمية، كما كانت الحال من قبل. وأما ياكوف فما كان في وسعه إيضاح شيء له؛ إذ كان يعيش هو الآخر في معزل عن الجميع، ولكن على طريقته الخاصة.

لقد أحزنه موت جامع الخِرق العجوز، فكان غالبًا ما يتذكره والحسرة بادية في صوته وعلى وجهه:

- أسفاه! لو كان الشيخ إيرميا حيًّا، لكان حكى لنا حكايات، لا شيء أحلى من الحكايات!

وذات مرة قال ياكوف لرفيقه سرًّا:

- - سأريك شيئًا، أتريد؟ بشرط، أولًا، أن تحلف بألَّا تحكي لأحد! قل: ملعون من يحكي!

فكرر إيليا اليمين، وإذ ذاك سار به ياكوف إلى زاوية من الباحة، عند شجرة الزيزفون العجوز، وهناك نزع عن الجذع قطعة من القشرة ملصقة عليه بمهارة، فانفتح خلفها في الشجرة ثقب كبير. وكان هذا ثغرة موسعة بسكين، مزينة من الداخل تزيينًا جميلًا بخرق قماش، وأوراق مختلفة الألوان، وأوراق رصاص مما يوضع في علب الشاي، وقطع من الورق المقصب، وفي داخل هذه الحفرة أيقونة صغيرة من النحاس، نصبت أمامها بقية شمعة.

- شفت؟ - سأل ياكوف، وهو يعيد قطعة القشرة إلى مكانها من جديد.

- ولماذا هذا؟

- معبد. - قال ياكوف موضحًا- سأجيء إلى هنا في الليل، على مهل؛ لأصلي... مليح؟

وراقت لإيليا فكرة رفيعة، ولكن تصور في الحال ما تنطوي عليه العملية من خطر.

- ولكنهم سيرون النور هذا.. وإذ ذاك يضربك أبوك.

- في الليل... من سيرى؟ في الليل يكون الجميع نائمين، والدنيا كلها هادئة. أنا صغير؛ صلاتي لله لا تُسمع في النهار، ولكنها في الليل ستكون مسموعة! ستكون مسموعة؟

- لا أعرف.. ربما تُسمع! - قال إيليا مفكرًا، وهو ينظر إلى وجه رفيقه الشاحب الكبير العينين.

- هل ستصلي أنت معي؟ - سأل ياكوف.

- وبأي نية تريد أن تصلي؟ نيتي أنا أن أكون ذكيًا، وكذلك أن أنال كل ما أريد. وأنت؟

- وأنا أيضًا.

ولكن ياكوف قال موضحًا، بعد تفكير:

- كنت أريد هكذا فقط... من دون أي نية، أن أصلي فقط، وهو وما يشاء.. وهو وما يعطي.

واتفقا على بدء الصلاة في تلك الليلة بالذات، واستلقيا للنوم عازمين عزمًا راسخًا على الاستيقاظ في منتصف الليل، ولكنهما لم يستيقظا لا في تلك الليلة ولا في الليلة التالية، وهكذا استغرقا في النوم ليالي كثيرة. وبعد ذلك ظهرت لدى إيليا انطباعات جديدة غطت على المعبد.

فعلى شجرة الزيزفون تلك، التي أقام فيها ياكوف المعبد، علق باشكا فخًّا للكنارات والقراقف، كانت عيشته منغصة، وقد هزل جسمه ونحل وجهه، وما عاد يركض في الباحة قط؛ فقد كان يشتغل طول اليوم عند بيرفيشكا، فما كان رفاقه يرونه إلا أيام الآحاد حين يكون الإسكافي سكران. وكان باشكا يسألهم عما يتعلمون في المدرسة، فيتجهم وجهه حسدًا؛ حين يسمع أحاديثهم المفعمة شعورًا بتفوقهم عليه.

- لا تتباهوا كثيرًا.. أنا أيضًا سأتعلم.

- لا يسمح لك بيرفيشكا هذا.

فكان باشكا يقول بحزم:

- ولكني سأهرب.

وبالفعل، سرعان ما راح الإسكافي يقول متضاحكًا:

- مساعدي ذاك.. هرب الخبيث!

كان النهار ممطرًا، وراح إيليا يتطلع إلى بيرفيشكا الأشعث، وإلى السماء الكالحة المكفهرة، فأحس بالحسرة على رفيقه. كان واقفًا تحت سقيفة العنبر، ملتصقًا بالجدار، ينظر إلى البيت فيخيل إليه أن

البيت يزداد انخفاضًا باطراد، كأنما هو يغور في الأرض؛ الأضلاع العتيقة على جسم البيت تزداد نتوءًا كأنما الأقذار المتجمعة في داخله على مر السنين كانت تنفخه وتقببه، فلم يعد يستطيع لها احتباسًا. لقد تشبع البيت كليًا بالمصائب والنكبات، وأمضى حياته كلها يتجرع صيحات السكارى العربيدة، وأغانيهم المريرة، وبات متهدمًا، محطم الأصلاب بما انهال من ضربات الأقدام على العوارض الخشبية في أرضه، فلم يعد يستطيع الحياة، فتداعى شيئًا فشيئًا، رامقًا الدنيا بنظرات حزينة من زجاج نوافذه الأغبش.

ولقد كان الإسكافي يقول:

- واحسرتاه! قريبًا ينفرز الكيس ويندلق ما فيه، ونتفرق نحن السكان شذر مذر، ونروح نبحث عن ثقوب لنا في أماكن أخرى! ونجدها فنعيش حياة غير هذه الحياة... كل شيء سيكون على غير ما هو عليه الآن؛ النوافذ غير النوافذ، والأبواب غير الأبواب، حتى البق الذي سيمص دمنا، سيكون بقًّا آخر! فيا ليت هذا يحدث سريعًا؛ فقد سئمت هذا القصر.

ولكن عبثًا كان يحلم الإسكافي؛ فالبيت لم ينفرز، واشتراه صاحب البوفيه بتروخا، وبعد أن اشتراه ظل قرابة يومين يجس ويحفر هذه الكومة من الأخشاب العتيقة باهتمام شديد، وبعد ذلك نقلت العوارض الخشبية والآجر، ونصبت السقالات حول البيت، وراح قرابة شهرين يئن ويرتجف تحت ضربات الفؤوس. كانوا ينشرونه ويقطّعونه، ويدقون فيه المسامير، ويزعون أضلاعه المهترئة مثيرين الصخب والغبار، ويضعون له أضلاعًا جديدة، وأخيرًا غلفوا البيت بالخشب الرفيع بعد أن ازداد عرضًا بملحق جديد. وبات إذ ذاك، وهو القميء العريض، يقف على الأرض باستقامة، كأنما نبتت له فيها جذور جديدة، وعلق بتروخا على واجهته لافتة كبيرة كتب عليها باللون الذهبي على مهاد أزرق:

«الملجأ المرح لأصدقاء ب. ي. فيليمونوف».

ولكنه في الداخل - على قول بيرفيشكا- لا يزال مع ذلك طعمة للبلى!

وقد سمع إيليا هذا القول فابتسم ابتسامة التأييد والموافقة. وبدا له البيت المعاد بناؤه ضربًا من الغش والخديعة، وتذكر باشكا الذي كان يعيش في مكان آخر ويرى كل شيء في صورة أخرى. وقد كان إيليا شأنه في ذلك شأن الإسكافي، يحلم بنوافذ أخرى، وأبواب أخرى، وأناس آخرين؛ فقد باتت الحال في البيت الآن أسوأ من ذي قبل؛ فإن شجرة الزيزفون العجوز قد قطعت، وزالت الزاوية الصغيرة المنعزلة التي كانت قائمة بجوارها، وحل محلها البناء الملحق، وزالت أماكن أخرى محببة كان الأولاد يتجاذبون أطراف الأحاديث فيها، بين حين وآخر. على أنه قد تكونت في مكان دكان الحدادة، خلف كومة ضخمة من قطع الأخشاب الصغيرة المكسرة والأخشاب المهترئة المسوسة، زاوية مريحة، ولكن الجلوس هناك كان مرعبًا؛ إذ كان يُخيَّل للمرء أن زوجة سافيول، المحطمة الرأس، ترقد تحت هذه الكومة.

وقد أفرد بتروخا للعم تيرنتي مسكنًا جديدًا، هو غرفة صغيرة خلف البوفيه، وكانت تنفذ إليها، من خلال جدار مغلف بالورق الأخضر، جميع الأصوات المنبعثة من المطعم، ورائحة الفودكا، ودخان

التبغ. وقد كانت نظيفة جافة، إلا أنها أسوأ من القبو؛ فقد كانت نافذتها مواجهة لجدار العنبر الكالح، وكان هذا الجدار يحجب السماء، والشمس، والنجوم، أما من خلال النافذة الصغيرة في القبو، فقد كان في الوسع رؤية هذا كله إذا ما ركع المرء أمامها على ركبتيه.

ولبس العم تيرنتي قميصًا بنفسجي اللون، وارتدى من فوقه جاكيت كان معلقًا عليه كأنما هو معلق على الرف، وكان يظل ناتئًا وراء البوفيه من الصباح حتى المساء. وقد بات الآن يتحدث مع الناس مستخدمًا ضمير «أنتم»، بنبرات متقطعة، وصوت جاف أشبه بالنباح، وينظر إليهم من وراء المنصة بعيني كلب يحرس مال صاحبه. واشترى لإيليا سترة جوخ رمادية اللون، وجزمة، ومعطفًا، وقبعة، وحين لبس الصبي هذه الأشياء كلها تذكر جامع الخرق العجوز. كان لا يكاد يتكلم مع عمه، وحياته تجري على نسق واحد، وبصورة بطيئة. وغالبًا ما كان يتذكر القرية، وقد بات يبدو له الآن بكثير من الوضوح أن الحياة هناك أفضل؛ فهي أهدأ، وأقرب إلى المعقول، وأبسط. وترد إلى خاطره غابات كيرجنتس الكثيفة، وحكايات عمه تيرنتي عن الناسك أنتيبا، وتلد الخاطرة من أنتيبا خاطرة أخرى، عن باشكا.. تُرى أين هو؟ لعله هو أيضًا قد فر إلى الغابة، فحفر هناك كهفًا يعيش فيه.. وفي الغابة تزمجر العاصفة الثلجية، وتعوي الذئاب، وإن هذا لرهيب، إلا أنه حلو الوقع في الآذان. وفي الشتاء، حين يكون الجو صاحيًا، يتلامع هناك كل شيء بألّق فضي، ويحدث أن يسود الهدوء بحيث لا يسمع غير هشيش الثلج تحت الأقدام، وإذا ما وقف المرء دون حراك، فليس يسمع إذ ذاك غير نبض قلبه.

وأما المدينة فهي دائمًا في صخب وفوضى، وإنها لتعج بالأصوات حتى في الليل؛ فالناس يغنون، ويصيحون، ويتأوهون، ويمر الحوذيون فيرتجف زجاج النوافذ من خبط عرباتهم، ويتخابث الصبية في المدارس، ويتشاجر الكبار، ويتضاربون، ويسكرون، والناس راكبون رؤوسهم، فهم إما محتالون على شاكلة بتروخا، وإما شريرون مثل سافيول، وإما لا في العير ولا في النفير من نوع بيرفيشكا، والعم تيرنتي، وماتيتسا... ولقد كان الإسكافي أوفر الجميع حظًّا لدى إيليا من حيث استغرابه بحياته.

وذات مرة؛ إذ كان إيليا على وشك الذهاب إلى المدرسة، جاء بيرفيشكا إلى المطعم أشعث، خامد الهمة، فوقف صامتًا لدى البوفيه، متطلعًا إلى تيرنتي. عينه اليسرى ترتعش وتوصوص، وشفته السفلى منسدلة بشكل مضحك. فرمقه العم تيرنتي بنظرة، وابتسم، وصب له قدحًا بثلاثة كوبيكات، هو الجرعة الصباحية المعتادة لدى بيرفيشكا. وتناول الإسكافي القدح بيد مرتعشة، فدلقه في فمه، ولكنه لم يصرخ ولم يشتم على جري عادته. ومن جديد صوب على عامل البوفيه عينه اليسرى ذات الرعشة الغريبة، أما العين اليمنى فكانت عكرة لا حراك فيها، كأنما هي لا ترى شيئًا، فسأله تيرنتي:

- ماذا أصاب عينك هذه؟

فمسح بيرفيشكا عينه بيده، ونظر إلى أصبعه، وقال فجأة بصوت عال واضح:

- امرأتنا أفدوتيا بتروفنا ماتت.

فتطلع تيرنتي إلى الأيقونة، ورسم إشارة الصليب.

- انتقلت إلى ملكوت السماء.

فسأل بيرفيشكا وهو يحملق في وجه تيرنتي:

- إيه؟

- أقول، انتقلت إلى ملكوت السماء.

- أي نعم.. توفيت. - قال الإسكافي، ودار على عقبيه بشدة، وانصرف.

- إنه غريب! - تمتم تيرنتي، وهو يهز رأسه هزة الحزن والأسى، وقد بدا الإسكافي غريبًا لإيليا أيضًا. وفي طريقه إلى المدرسة مر على القبو لمدة دقيقة لرؤية الميتة؛ كان ثمة ظلام وازدحام، فقد نزلت النسوة من فوق، وتكومن في الزاوية قرب المرقد، ورحن يتحادثن بصوت خافت، وقاست ماتيتسا على ماشا فستانًا صغيرًا وسألتها:

- هل يشد على إبطك؟

فبسطت ماشا ساعديها وأجابت بصوت ممطوط متدلع:

- ن.. ع.. م.

كان الإسكافي جالسًا على الطاولة، محني الظهر، ينظر إلى ابنته، وعينه تطرف باستمرار. ونظر إيليا إلى وجه الميتة الأبيض المتورم، وتذكر عينيها السوداوين، وقد أطبقتا الآن إلى الأبد، وانصرف حاملًا شعورًا ثقيلًا مخيفًا.

وحين عاد من المدرسة ودخل المطعم، سمع بيرفيشكا يعزف على الهارمونيكا ويغني بصوت مرح:

حبيبتي أين أنت؟

القلب مني أخذت.

فلماذا أخذته؟

أين - قولي- رميته؟

- إيه... إيه! طردتني النسوان! صحن بي: رح، انقلع يا غول! قلن لي: يا بوز السكران... ما زعلت... أنا صبور... اشتموني، اضربوني! شرط أن تتركني أعيش قليلًا.

هات، من فضلك.. إيه، إيه! يا إخوان! كل واحد يريد أن يعيش.. تلك هي المسألة.. للجميع نفس واحدة، نفس فاسكا كنفس ياكوف!

أي شيء تترقب، أيها الباكي هناك؟

صه، وكل كسرة خبزك، واطرح عنك أساك!

كانت سحنة بيرفيشكا في مرح شديد، وكان إيليا ينظر إليه باشمئزاز ورهبة. ولقد جال في خاطره أن الله سيعاقب الإسكافي عقابًا شديدًا على سلوكه هذا يوم وفاة زوجته. ولكن بيرفيشكا كان في سُكر في اليوم التالي أيضًا، ولقد سار خلف تابوت امرأته مترنحًا، يغمز بعينه، بل ويبتسم. فكان الجميع يشتمونه، بل لقد صفعه أحدهم على قذاله.

-ياي-ياي- يا! -قال إيليا لرفيقه مساء بعد تشييع الجنازة- بيرفيشكا هذا؟ كافر تمام!

- لجهنم. - أجاب ياكوف من غير مبالاة.

كان إيليا، من قبل أيضًا، يلاحظ أن ياكوف قد تغيّر منذ بعض الوقت؛ فقد كان لا يكاد يخرج للنزهة في الباحة، بل يظل ماكثًا في البيت حتى لكأنه كان يتعمد تجنب التلاقي مع إيليا. حسب إيليا أول الأمر أن ياكوف، غيرة منه لنجاحه في المدرسة، يطالع دروسه، ولكنه بات أسوأ في دراسته أيضًا؛ فقد كان المعلم يوبخه دائمًا على شرود ذهنه وعجزه عن فهم أبسط الأشياء. فما أدهش إيليا موقف ياكوف من بيرفيشكا؛ فقد كان ياكوف لا يكاد ينتبه للحياة في البيت، ولكن إيليا ودّ لو يعلم ما الذي يحدث لرفيقه فسأله:

- ما لك أصبحت هكذا؟ ألا تريد مصاحبتي؟

- أنا! ما هذا الخلط؟ - صاح ياكوف في دهشة، ثم راح يقول بسرعة: - اسمع، أنت اذهب إلى البيت.. اذهب، وأنا أيضًا سأجيء في الحال، سأريك شيئًا.

وانتفض من مكانه وانطلق راكضًا، وأما إيليا فقد مضى إلى غرفته مهتمًا، وجاء ياكوف مسرعًا، فأغلق من خلفه الباب، واقترب من النافذة فأخرج من تحت إبطه كراسًا أحمر.

- تعال إلى هنا. - قال ياكوف بصوت خافت، وقد جلس على مرقد العم تيرنتي، وأشار إلى مكان بالقرب منه ليجلس عليه إيليا، ثم فتح الكراس، ووضعه على ركبتيه، وانحنى فوقه وشرع يقرأ:

«رأى الفارس المغوار من بعيد جبلًا... عاليًا حتى السماء، ووسطه باب من حديد، فالتهب قلبه الباسل بنيران الرجولة، وأمال الرمح، وأقدم إلى أمام صائحًا صيحة شديدة، ونخس الحصان بالمهماز، وراح يضرب البوابة بكل قوته الجبارة، فانطلق إذ ذاك دويٌّ رهيب، وتطايرت البوابة الحديدية شذر مذر.. وفي الوقت نفسه اندلع من الجبل لهب ودخان، ولعلع صوت كالرعد، هز الأرض هزًّا، وأخذت الصخور تتساقط من الجبل نحو قائم حصان الفارس «ها ها! ظهرت أيها المجنون الوقح! أنا والموت كنا بانتظارك من زمن بعيد!» الفارس أعماه الدخان.

- من هذا؟ - سأل إيليا بدهشة، وهو يستمع إلى صوت رفيقه المرتعش انفعالًا.

- أ...؟ - أجاب ياكوف، وقد رفع عن الكتاب وجهه الشاحب.

- من هذا الفارس؟

- إنه... راكب على الحصان... له رمح... راؤول الجسور، الغول خطف خطيبته.. لويزا الجميلة، ولكن اسمع، يا شيطان! - صاح ياكوف وقد نفد صبره:

- اخلط، اخلط! انتظر.. ولكن من هو الغول؟

- ثعبان له أجنحة.. وأرجل.. ومخالبه من حديد.. وله ثلاثة رؤوس... وكلها تنفخ نارًا... أتفهم؟

- يا سلام! - قال إيليا، محملقًا بعينيه- أيوه، سيريه هذا!

وقد كان الصبيّان، وهما جالسان أحدهما لصق الآخر في تراصّ محكم، يدخلان برعشة الفضول وبفرح غريب يلهب الروح، إلى عالم جديد كانت فيه الغيلان الهائلة الشرسة تلقى مصرعها تحت ضربات الفارس المغوار الجبارة، عالم كل شيء فيه جليل، جميل، عجيب، وما كان فيه شيء شبيه بهذه الحياة الكالحة المضجرة؛ ما كان ثمة سكارى، ولا أناس تافهون يرتدون الأسمال، ومكان البيوت الخشبية نصف المتفسخة، كانت تقوم قصور تشع ذهبًا، وسرايات منيعة من الحديد شاهقة حتى السماء. كان الطفلان يدخلان بلاد الأساطير العجيبة، وعلى مقربة منهما تعزف الهرمونيكا، ويترنم الإسكافي الخليع بيرفيشكا بعبارات بيّنة:

أنا لن أساق إلى جهنم- ميتًا، دفعًا وجرًّا!

بل سوف آتي نارها حيًّا أباري الجن سُكرًا!

- كمان.. الله يحب أهل المرح!

كانت الهارمونيكا تجهش بالنغمات، مستحثة نفسها للحاق بصوت الإسكافي الرنان، ولكنه سبقها، فراح يترنم بلحن راقص:

لا تشتكي مما أصابك من صقيع في شبابك فغدًا تموت... فتصطلي نار الجحيم على إهابك!

وكان كل مقطع يثير عجيجًا من الاستحسان وانفجارًا من القهقهات.

وأما الوكر الصغير، المعزول عن أعاصير الأصوات هذه بعوارض خشبية رفيعة، فقد كان فيه صبيّان منحنيان على كتاب، وأحدهما يتمتم بصوت خفيض:

«وإذ ذاك شد الفارس على الغول بقبضتيه الحديدتين، فراح يعوي عواءً راعدًا من الوجع والخوف».

وبعد الكتاب عن الفارس والغول، ظهر كتاب «غواك، أو الوفاء المنيع»، وكتاب «تاريخ الأمير المغوار فرانسيل فينيسيان والملكة الجميلة رنسيفينا»[6]. وفي نفس إيليا أخلت انطباعات الواقع المكان للفرسان والأميرات. وكان الرفيقان يسرقان من الغلة بالتناوب، قطعًا نقدية من ذوات العشرين كوبيكًا، فما كانت تعوزهم الكتب. وقد اطلعا على مغامرات «باشكا سمرتنسكي»[7]، وأعجبا ب «يابانتشا، الخيَّال التتاري»[8]، فكانا يزدادان أبدًا بُعدًا عن الحياة البائسة التافهة، منطلقين إلى مجالات

يحطم الناس فيها الأقدار بما تبينت لهم من الغدر الشرس، ويبلغون السعادة على الدوام.

واستُدعي بيرفيشكا ذات مرة إلى الشرطة، فذهب على قلق، إلا أنه عاد مرحًا آتيًا معه بباشكا غراتشيف، ممسكًا إياه بساعده إمساكًا محكمًا. كان باشكا لا يزال حاد النظرات، بيد أنه كان على درجة رهيبة من النحول والشحوب، وبات وجهه أقل تحديًا. وقد جرّه الإسكافي إلى المطعم، وراح يحكي هناك وعيناه تطرفان في تشنج:

- هاكم بافلوخا[9] غراتشيف، أيها الناس الطيبون! وصل للتو مخفورًا من مدينة بنزا... يا لهذا القوم الذي يولد... لا يقعد انتظارًا للسعادة، بل ما إن يقف على قوائمه الخلفية حتى يمضي ليبحث بنفسه عن السعادة!

كان باشكا واقفًا إلى جانبه، داسًّا إحدى يديه في جيب بنطال ممزق، وأما الأخرى فكان لا يزال يحاول سحبها من يد الإسكافي، وهو ينظر إليه من طرف عينيه نظرات عابسة. وأشار أحدهم على الإسكافي بأن يجلد باشكا، ولكن بيرفيشكا اعترض بلهجة جدية:

- ولماذا؟ دعه يسرح، فلعله يجد السعادة.

- ولكنه، من كل بد، جائع - حزر تيرنتي، وقال للصبي وهو يقدم له قطعة خبز:

- باشكا، خذ!

ومن غير استعجال تناول باشكا قطعة الخبز، وبارح المطعم.

- فيو...وو... و! -صفر الإسكافي على إثره- مع السلامة، يا صغيري.

كان إيليا يتتبع هذا المشهد من باب غرفته، فاستدعى إليه باشكا بالإشارة، ولكن هذا توقف قبل المضي إليه مترددًا، إلا أنه حين دخل الغرفة، سأله بلهجة جافة ناظرًا إلى ما حوله بارتياب:

- ماذا تريد؟

- مرحبًا.

- طيب، مرحبًا!

- اقعد.

- لماذا؟

- هكذا؛ لنتكلم.

أربكت إيليا أسئلة باشكا المغضبة وصوته الأبح.. وقد كان يود أن يسأل باشكا أين كان؟ وماذا رأى؟ ولكن باشكا جلس على الكرسي وراح هو نفسه يسأل بهيئة صارمة، وهو يقضم الخبز:

- هل انتهيت من الدراسة؟

- سأنتهي في الربيع.

- أما أنا فقد تعلمت.

- ها؟ - هتف إيليا غير مصدق.

- تعلمت بسرعة.

- وأين تعلمت؟

- في الحبس، عند الموقوفين.

فأقبل عليه إيليا، فسأله وهو يتطلع باحترام إلى وجهه النحيل:

- مخيف هناك؟

- لا شيء يخيف.. كنت في كثير من الحبوس، في مدن مختلفة.. أنا، يا أخ، عاشرت هناك الأفندية، وكان هناك مدامات أيضًا، حقيقيات؛ يتكلمون مختلف اللغات. كنت أرتب لهم زنزاناتهم، منشرحون، شياطين، مع أنهم محبوسون.

- حرامية؟

- أكبر اللصوص الحقيقيين. - قال باشكا بافتخار.

فراح إيليا يرفرف بعينيه، وشعر بمزيد من الاحترام لباشكا، ثم سأل:

- وهل هم روس؟

- بعضهم من اليهود... شعب من الصنف الأول.. وأي ناس هم يا أخ، هو- هو! كانوا ينهبون الجميع كما ينبغي! أيوه، وقد قبضوا عليهم ونفوهم إلى سيبيريا.

- وكيف تعلمت؟

- هكذا.. قلت: علموني، فعلموني.

- القراءة والكتابة؟

- الكتابة رديئة، أما القراءة فقدر ما تشاء أستطيع، وقد قرأت الكثير من الكتب.

وقد أنعش الحديث عن الكتب إيليا، فقال:

- وأنا أقرأ مع ياكوف.

وراحا كلاهما يتباريان في تسمية ما قرآه من الكتب، وبعد قليل قال بافل متنهدًا:

- أي-نعم، أنتما يا شيطانان قرأتما أكثر مني! أما أنا فكان كل ما قرأته قصائد. كان هناك الكثير من كل شيء، ولكن القصائد وحدها كانت حسنة.

وجاء ياكوف فحملق عينيه في دهشة وانطلق ضاحكًا، فاستقبله باشكا قائلًا:

- خروف.. لماذا تضحك؟

- أين كنت؟

- في مكان لا تستطيع الوصول إليه.

- أتعرف؟ - قال إيليا لرفيقه- هو أيضًا كان يقرأ الكتب.

- أوه! - هتف ياكوف وفي الحال راح يتكلم مع باشكا بمزيد من الود والصداقة. وجلس الصبية الثلاثة جنبًا إلى جنب، وحمي بينهم حديث غير مترابط، سريع، مدهش في طرافته.

- كنت أرى أشياء أعجز عن روايتها! -قال باشكا باعتزاز وحماسة- وذات مرة بقيت يومين كاملين لم أذق فيهما طعامًا... لم آكل شيئًا بالمرة.. كنت أقضي الليالي في الغابة لوحدي.

- شيء مخيف؟ - سأل ياكوف.

- رح بالليل، وسترى.. ذات مرة كادت الكلاب أن تمزقني، كنت في مدينة قازان، يوجد هناك تمثال لواحد... أقيم له لنظمه القصائد[10] كان رجلًا ضخمًا، رجلاه بهذا الحجم.. وأما قبضته فقدر رأسك يا باشكا. وأنا يا إخوان، سأنظم القصائد، فأنا قد تعلمت قليلًا.

وتكمش فجأة وطوى رجليه تحته، وراح ينظر بإمعان إلى نقطة واحدة، ثم نطق على عجل، مقطب الجبين في تعالٍ وكبرياء:

في الشوارع يمشي الناس جميعهم لابسون شبعانون فإذا طلبت أن يطعموك قالوا لك: رح من هون!

وانتهى، فرمق الصبيين، وطأطأ رأسه بهدوء، واستمر الصمت الثقيل قرابة دقيقة، ثم سأل إيليا بحذر:

- وهل هذه أشعار؟

- أما سمعت؟ - صرخ باشكا مغضبًا- ورد في الكلام: شبعانون ورح من هون.. فهذا إذن شعر.

- طبعًا شعر! - هتف ياكوف مستعجلًا- إنك تشاكس دائمًا يا إيليا!

- ونظمت أيضًا - قال باشكا مخاطبًا ياكوف بانتعاش، ثم راح يتلو بسرعة واندفاع:

السحاب أغبر والتراب رطب والخريف أيامه أقبلت، وأنا ما لي نار ولا بيت وثيابي كلها ثقب على ثقب!

- ايه! - قال ياكوف ماطًّا صوته، محملقًا بعينيه.

- أيوه، هذا شعر عن صحيح! - قال إيليا بمثل لهجته.

فاشتعل وجه باشكا باحمرار خفيف، وراحت عيناه تطرفان كأنما يهب عليهما دخان من مكان ما، وقد قال متفاخرًا:

- سأنظم قصائد طويلة أيضًا؛ ليس هذا شديد الصعوبة! أذهب فأرى غابة- غابات، سماء- سماوات.. وكذلك البرية- الحرية! فيأتي الشعر لحاله.

وسأله إيليا:

- وماذا ستعمل الآن؟

فغمز باشكا بعينيه، وتطلع إلى ما حوله، وصمت، ثم قال بصوت خفيض وعلى غير ثقة:

- شيئًا ما.

ولكنه أعلن في الحال بصوت صارم النبرة:

- وبعد ذلك، سأهرب من جديد.

وبات يعيش لدى الإسكافي، وكل مساء كان الصبية يجتمعون عنده. كانت الحال في القبو أهدأ وأحسن مما في حجرة تيرنتي الصغيرة؛ فنادرًا ما كان بيرفيشكا يأوي إلى البيت... لقد أنفق على الخمرة كل ما كان يمكن إنفاقه، فهو الآن يذهب للعمل مياومًا في ورشات الآخرين، أما إذا لم يكن ثمة عمل، فإنه يقعد في المطعم. كان يسير نصف عارٍ، حافي القدمين، والهرمونيكا ناتئة أبدًا تحت إبطه. فكأنما هي نبتت من جسمه، فسكب فيها جزءًا من روحه المرحة، فباتا معًا صنوين متماثلين... إنهما محطمان، متصلبان، مفعمان بالأغاني والأراجيز الساخرة، وقد كان جميع أهل الصنعة في المدينة يعرفون بيرفيشكا مبدعًا لا ينضب له معين ل«الأزجال» المرحة المضحكة... وكان الإسكافي الضيف المرغوب فيه لدى كل ورشة، وقد كانوا يحبونه لتجميله حياة أهل العمل الثقيلة المضجرة بالأغنيات والأهازيج، وبالحكايات الهزلية عن مختلف الأشياء.

وحين كان يتاح له كسب بضعة كوبيكات من عمله، كان يعطي نصفها لابنته، وعلى هذا كانت تقتصر عنايته بها، وقد كانت هي صاحبة الأمر والنهي المطلقة على مقدراتها، ولقد ترعرعت كثيرًا، وانسدلت خصلها السود حتى الكتفين، وازدادت عيناها الكحلاوان جدية واتساعًا، وكانت، وهي النحيلة الرشيقة، تجيد القيام بدور ربة البيت في جحرها الصغير؛ فقد كانت تجمع كسارة الأخشاب من أماكن البناء، وتحاول طبخ مرقة ما، وتظل حتى منتصف النهار تروح وتجيء مشمرة ذيل فستانها، متسخة كلها بالشحّار، مبللة، منهمكة في مشاغلها، فإذا هي انتهت من إعداد الغداء، رتبت

الغرفة، وغسلت وجهها، وارتدت فستانًا نظيفًا، وجلست إلى الطاولة قرب النافذة ترفأ ثوبًا من الثياب.

وغالبًا ما كانت تتردد عليها ماتيتسا، حاملة معها أرغفة الخبز، والشاي، والسكر، بل لقد أهدت ماشا ذات مرة فستانًا سماوي اللون. وكانت ماشا تسلك حيال هذه المرأة مسلك الشخص الراشد وربة البيت؛ فكانت تجهز السماور الصغير المصنوع من التنك، وتروحان معًا تشربان الشاي الساخن الشهيّ، وتتحدثان عن مختلف الأمور، وتنتقدان بيرفيشكا. وقد كانت ماتيتسا تنقده باندفاع، فتردد ماشا كلامها بصوت رفيع، ولكن دون حقد، بل بدافع الكياسة فقط. وكان كل ما تقول عن أبيها ينم عن التسامح معه.

فكانت ماتيتسا تهمهم محركة حاجبيها بحنق:

- فلتيبس كبده! وماذا؟ هل نسي السّكير أن عنده طفلة صغيرة؟ قبح الله وجهه، وليفطس كالكلب.

فتقول ماشا:

- ولكنه يعرف أني أصبحت كبيرة وقادرة على فعل كل شيء بنفسي.

فتتنهد ماتيتسا تنهيدة ثقيلة، قائلة:

- رباه، يا رب! ما هذا الذي يجري في الدنيا؟ ماذا سيكون مصير البنت؟ أنا كانت عندي بنت مثلك.. بقيت هناك، في البيت، جنب مدينة خورول... وهي بعيدة جدًّا مدينة خورول هذه بحيث إني لو تركوني أذهب إلى هناك لما وجدت الطريق إليها.. هكذا يتفق أن يحدث للإنسان! يعيش.. يعيش على الأرض وينسى أين مسقط رأسه.

ولقد كان يطيب لماشا الاستماع إلى الصوت الأجش، صوت هذه المرأة التي تشبه عيناها عيني البقرة. ومع أن ما تيتسا كانت تنتشر منها رائحة الفودكا على الدوام، فما كان هذا يمنع ماشا من أن تتسلق ركبتي المرأة وتشد نفسها بقوة على صدرها الكبير الناتئ الثديين، وتقبل فمها الجميل الخطوط الغليظ الشفتين. كانت ماتيتسا تمر على ماشا صباحًا، أما في المساء، فكان يجتمع عندها الصبية؛ فيلعبون بالورق إذا لم تكن ثمة كتب، ولكن هذا كان نادرًا ما يحدث. وكانت ماشا أيضًا تستمع للقراءة باهتمام، بل لقد كانت، في المواضع الرهيبة جدًّا، تطلق صيحات خافتة.

وبات ياكوف، في موقفه من ماشا، أشد عناية بها من ذي قبل؛ فقد كان على الدوام يجلب لها من البيت قطع الخبز، واللحم، والشاي، والسكر، والزيت في زجاجات البيرة، وكان في بعض الأحيان يعطيها فلوسًا متبقية من شراء الكتب. وقد اعتاد فعل هذا كله، وكان كل شيء يصدر عنه على نحو غير ملحوظ، وأما ماشا فكانت تقف من عنايته موقفها من أمر طبيعي تمامًا، ولا تلاحظها أيضًا، ولقد كانت تقول له:

- ياشا! ليس عندي فحم!

فما كان يمضي بعض الوقت حتى يأتي لها بالفحم أو يعطيها كوبيكين، قائلًا لها:

- ياللا، اشتري! ما استطعت أن أسرق.

ولقد ألِف إيليا أيضًا هذه العلاقات، وكذلك الجميع في باحة البيت ما كانوا يلاحظونها، وكان إيليا نفسه في بعض الأحيان يعمد، بتكليف من رفيقه، إلى سرقة شيء ما من المطبخ أو من البوفيه، فيأتي به إلى حجرة الإسكافي في القبو، وقد كان معجبًا بالبنت السمراء النحيفة، اليتيمة مثله، على أن ما كان يعجبه بوجه خاص كونها قادرة على العيش لوحدها وعلى عمل كل شيء، كأنها كبيرة، وكان شغوفًا بأن يرى كيف تضحك ماشا، فيحاول على الدوام إضحاكها. أما حين لم يكن يوفق إلى ذلك، فقد كان يغضب فيشاكس البنت قائلًا:

- يا سوداء، يا وسخة!

فتتخزر عينيها، وتقول له:

- يا شيطان، يا أبو الخدود المدلوقة!

وكلمة فكلمة منها، فإذا هما في شجار جدي؛ وسرعان ما تحنق ماشا فتنقض على إيليا فتروح تخمشه متعمدة، أما هو فيهرب منها ضاحكًا بسرور وارتياح.

وذات مرة، أثناء اللعب بالورق، كشف عن غش ماشا، فصرخ بها مهتاجًا:

- يا عشيقة ياكوف!

وبعد ذلك أضاف كلمة قذرة أخرى، كان يعرف هو معناها، وكان ياكوف موجودًا في المكان نفسه، فأخذ يضحك أول الأمر، إلا أنه حين رأى وجه صديقته يتجهم من جراء الإهانة، والدموع تبرق في عينيها، صمت وشحب لونه، ووثب عن كرسيه فجأة، فانقض على إيليا، وراح يضربه على أنفه، ويطرحه أرضًا، ممسكًا إياه من شعره -وقد حدث كل هذا بسرعة ما استطاع معها إيليا حتى الدفاع عن نفسه- وحين نهض من الأرض، وقد أعماه الوجع والمهانة، ومضى نحو ياكوف خافضًا رأسه كالثور، قائلًا له: «طيب، اصطبر! أنا لك»، رأى ياكوف يبكي شجي البكاء، مستندًا بكوعيه على الطاولة، وماشا واقفة إلى جانبه تقول، والدموع تخالط صوتها هي أيضًا:

- لا تصاحبه، هو نجس... لسانه ذفر! كلهم أشرار... أبوه بالأشغال الشاقة... وعمه أحدب! وهو ستطلع له حدبة.. أنت رذيل! - صاحت وقد هجمت على إيليا بجسارة- يا وسخ، يا جربان.. يا جامع الخرق! أيوه، تعال! سأريك كيف أخمش بوزك، أيوه، احشر أنفك!

فلم يحشر إيليا أنفه، وقد انزعج لمرأى ياكوف الباكي الذي ما كان يريد الإساءة إليه، وخجل من أن يتشاجر مع البنت. أما هي فكانت قمينة بأن تتشاجر، وقد كان هذا بيِّنًا له، فانصرف من القبو من غير أن ينطق بكلمة، وظل وقتًا طويلًا يتمشى في باحة البيت، منطويًا على شعور ثقيل غير مستطاب. واقترب فيما بعد من نافذة مسكن بيرفيشكا، فراح يتطلع إليه بحذر من فوق لتحت، وكان ياكوف يلعب الورق من جديد مع صديقته ماشا، وهي مخفية نصف وجهها بالورق في شكل مروحة، لعلها كانت تضحك، أما ياكوف فكان ينظر إلى أوراقه ويسحب منها بيده، في تردد، مرة هذه الورقة،

ومرة تلك، فاستولت الكآبة على إيليا، وتمشى في الباحة بعض الشيء أيضًا، ثم ذهب إلى القبو بجرأة، ودنا من الطاولة، فقال:

- اسمحا لي باللعب معكما!

كان قلبه يخفق ووجهه يشتعل نارًا وعيناه مسبلتين. وظل ياكوف وماشا صامتين، فقال لهما إيليا وهو ينظر إليهما:

- أنا لن أشتم، وحق الله لن أشتم.

- طيب، اقعد... آه منك! - قالت ماشا.

وأما ياكوف فأضاف بصرامة:

- أحمق! ما أنت صغير... فافهم ما تقول.

فقال إيليا لياكوف مؤنبًا:

- وأنت ماذا فعلت معي؟

- جزاء لك على فعلك. - قالت له ماشا بلهجة الحكيم.

- طيب، معليش. فأنا لا أحرد... الحق علي. - قال إيليا معترفًا بذنبه، وابتسم لياكوف ابتسامة الخجل- وأنت لا تحرد... مليح.

- طيب، امسك الورق.

- شيطان وحش. - قالت ماشا، وانتهى بهذا كل شيء.

وما هي إلا دقيقة حتى كان إيليا مندفعًا في اللعب، مقطب الحاجبين، وكان دائمًا يجلس جلسة يستطيع معها إلقاء الورق لماشا؛ فقد كان يبتهج أشد البهجة حين تخسر ماشا، وكان طول وقت اللعب مهتمًّا بهذا اهتمامًا عنيدًا، ولكن البنت كانت تلعب بمهارة، وكان ياكوف هو الخاسر في الأغلب.

- آه منك يا أبو عيون الضفادع! - قالت ماشا بحنان لطيف- مغفل مرة أخرى!

- أف، يلعن أبو الورق! كفى.. هيا نقرأ.

فتناولوا كتابًا ممزقًا متسخًا، وراحوا يقرأون عن مآسي الغرام ومآثره.

وحين شهد باشكا غراتشيف الحياة التي يحيونها، قال لهم بلهجة الرجل المحنك:

- إنكم، يا شياطين، تعيشون عيشة هنيئة!

ثم تطلع إلى ياكوف وماشا، فأضاف مبتسمًا ولكن بلهجة جدية:

- وأنت، فيما بعد، خذ ماشا زوجة لك يا ياكوف!

- أبله! - قالت ماشا ضاحكة، وانفجر الأربعة جميعًا يقهقهون.

وحين كانت تتم قراءة الكتاب، أو يكلون من القراءة، كان باشكا يروي مغامراته، وكانت حكاياته لا تقل طرافة عن الكتب.

- حين أدركت يا إخوان، أنه لا يمكنني المسير من دون هوية، أخذت أتحايل.. أرى الشرطي، فأمضي مسرعًا كأنما أنا مرسل من أحدهم إلى مكان ما، أو ألطو بجانب أحد الرجال، كأنما هو وليّ أمري، أو أبي، أو غير ذلك... فيتطلع الشرطي، فلا يحدث شيء، لا يقبض عليّ... والحال في القرى طيبة، فليس فيها شرطة ألبتة؛ شيوخ وعجائز وأولاد فقط، أما الرجال ففي الحقل. ويسألون: «من هذا؟» - «متسول...» - «ابن من؟» - «لا أهل لي...» - «من أين؟» - «من المدينة».

وخلاص! ويسقونني ويطعمونني جيدًا. وأمشي... وأمشي كما أشاء، ركضًا أو زحفًا على البطن. الحقول في كل مكان، والغابات... وتغرد القُبَّرات، فأود لو أطير إليها. وإذا كنت على شبع، فأنت لا تشتهي غير الذهاب إلى آخر الدنيا، كأنما ثمة من يجرك إلى أمام... كأنما أمك تحملك. وقد كنت أجوع أحيانًا.. يي-يي-يي!

الأمعاء تفرك، وتيبس المعدة، فيود المرء لو يلتهم التراب، ويفتل الرأس.. فلو حصلت على كسرة خبز لغرزت فيها أسنانك... إيه! ولظللت تأكلها طول النهار. كانت الحال حلوة.. ومع ذلك فقد سررت حين وقعت في السجن. خفت أول الأمر، ولكن الحال باتت مفرحة فيما بعد. كنت أخاف الشرطة كثيرًا؛ أحسب أنهم إذا قبضوا عليّ فسينزلون بي ضربًا وجلدًا! ولكنه جاءني بخفة... من ورائي، فأمسك بتلابيبي - هوب! وكنت واقفًا أمام دكان ساعاتي، أتفرج... ساعات كثيرة، ذهبية ومختلفة. هوب! فانفجرت بالبكاء! أما هو فقال لي بلطف: «من أنت؟ ومن أين؟». طيب، قلت له، فهم على كل حال، كان لا بد أن يعرفوا؛ إنهم يعرفون كل شيء... فأخذني إلى دائرة الشرطة... وكان هناك شتى أنواع الأفندية... «أين أنت ذاهب؟» - «أترحل...»، فيقهقهون، ثم إلى السجن. وهناك أيضًا يقهقه الجميع.

وبعد ذلك استخدمني أولئك الأفندية عندهم.. كم كانوا شياطين! أي-يي-يي-يي!

كان أكثر حديثه عن الأفندية بأصوات التعجب... وقد كان جليًّا أنهم كانوا موضع دهشة خياله، إلا أن صورهم قد غامت في ذاكرته، واندمجت في بقعة واحدة كبيرة عكرة. وبعد أن عاش باشكا قرابة شهر عند الإسكافي، اختفى أثره من جديد، ثم عرف بيرفيشكا أنه قد دخل للعمل في إحدى المطابع، وهو يسكن في مكان بعيد في المدينة. وسمع إيليا بهذا فتنهد حسدًا، وقال لياكوف:

- أما نحن، فيبدو أننا سنتتخ (سنتخمر) هنا.

كان إيليا، في الأيام الأولى بعد اختفاء باشكا، يشعر بشيء ما ينقصه، ولكنه سرعان ما انغمر من جديد في مسالك الحياة العجيبة الغريبة. ومن جديد بدأت قراءة الكتب، وانغمست روح إيليا في خدر مقيم لذيذ.

وكان الصحو فجأة ومباغتًا؛ فقد أيقظه عمه ذات مرة، قائلًا:

- اغسل وجهك جيدًا، وبسرعة.

- إلى أين؟ - سأل إيليا بصوت ناعس.

- للوظيفة.. الحمد لله، حصلنا عليها، ستكون مستخدمًا في حانوت سمك.

فانقبض قلب إيليا بدافع من حدس غير مستساغ؛ فقد تلاشت فجأة الرغبة في مبارحة هذا البيت الذي كان يعرف فيه الجميع ويألف الجميع، وفجأة بدت له الغرفة، التي ما كان يحبها، نظيفة مشرقة، وراح ينظر إلى الأرض، وهو جالس على السرير، وفي نفسه نفور من ارتداء ثيابه. وأقبل ياكوف، عابس الوجه أشعث الشعر، فمال برأسه إلى كتفه اليسرى، وقال وهو ينظر إلى رفيقه خافض الطرف:

- تعال بسرعة، أبي ينتظر... هل ستجيء إلى هنا؟

- سأجيء.

- عال... رح لعند ماشا لوداعها.

- أكيد.. إني لست راحلًا إلى الأبد - قال إيليا في غضب.

وجاءت ماشا هي نفسها، فوقفت في الباب، فقالت بأسى وهي تنظر إلى إيليا:

- ها أنت أيضًا نودعك!

فشد إيليا على صدره، في حنق، الجاكيت الذي كان يلبسه، وأطلق شتيمة، فتنهد ياكوف وماشا في وقت معًا تنهدًا عميقًا.

- تعال إلينا فيما بعد! - قال ياكوف.

- أي نعم، طيب! - أجاب إيليا.

- شف، عنفص المستخدم. - قالت ماشا ملاحظة.

- آه منك يا غبية! - أجاب إيليا مؤنبًا بصوت خافت.

وما هي إلا بضع دقائق حتى كان يسير في الشارع مع بتروخا، اللابس في أبهة ردنكوتًا طويلًا وجزمة ذات زقزقة، وصاحب البوفيه هذا يقول له بوقار:

- أنا ذاهب بك لخدمة الشخص المحترم، المشهور في المدينة كلها، كيريل إيفانوفيتش ستروغاني... إنه تقديرًا لطيبته وإحسانه قد حصل على ميداليات، لا كيفما كان! وهو نائب في مجلس الدوما، بل قد يُنتخب رئيسًا للبلدية. فاخدمه بإيمان وصدق. وأما هو فإنه، على كل حال، سيجعلك إنسانًا... إنك ولد

جدي، غير مدلّع... وأما هو فإن الإحسان للناس، بالنسبة له، أمر يسير، كما يبصق المرء.

كان إيليا يسمع ويحاول تصور التاجر ستروغاني. ولأمر ما أخذ يخيل إليه أن التاجر هذا لا بد أن يكون شبيهًا بالشيخ إيرميا.. مثله نحولًا وطيبة ولطفًا. ولكنه حين وصل إلى الحانوت، كان يقف خلف المكتب عملاق هائل الكرش، لم يكن على رأسه شعرة واحدة، أما وجهه فقد نبتت عليه من العينين حتى الرقبة لحية شقراء كثة، وكان الحاجبان أيضًا كثيفين أشقرين، تبصبص من تحتهما عينان خضراوان صغيرتان.

- احن رأسك. - قال بتروخا لإيليا هامسًا، مشيرًا بعينيه إلى العملاق الأشقر، فأسبل إيليا رأسه في خيبة أمل.

- ما اسمك؟ - دوّى في الحانوت صوت أجش- طيب، يا إيليا، افتح عندي عينيك الاثنتين، وتطلع بثلاث.. ليس لك الآن من أحد غير رب عملك، لا أهل، ولا معارف... فاهم؟ أنا لك أم وأب... ولن أقول لك أكثر من هذا.

وراح إيليا يرمق الحانوت بنظرات خفيضة؛ كانت في السلال أسماك قرموط وحفش ضخمة موضوعة مع الجليد، وعلى الرفوف «سوداكات» وشبابط مجففة، وفي كل مكان تلمع علب من التنك، وقد علقت في الهواء رائحة محلول الملح الشديدة، وكان الحانوت خانقًا، ضيقًا، وفي دنان كبيرة على الأرض كانت تسبح أسماك حية، من أنواع «السترلياد»، و«النالبم»، والبوري، و«الياز». ولكن سمكة كراكي غير كبيرة كانت تتخبط في الماء بجسارة، وتصدم السمكات الأخرى، وترش الماء على الأرض بضربات قوية من ذنبها، وشعر إيليا بالأسى عليها.

وعمد أحد المستخدمين -وهو قصير القامة، بدين، مدوّر العينين، أقني الأنف، شديد الشبه بالبومة- إلى إرغام إيليا على إخراج سمكة ميتة من الدن، فشمر الصبي كمه وأخذ يمسك بالسمكة كيفما اتفق، فقال له المستخدم بصوت خفيض:

- امسكها من رأسها يا أبله.

وأحيانًا كان إيليا، يمسك خطأ، بسمكة حية واقفة من غير حراك، فتنزلق من أصابعه، وتروح تتخبط، متلوية في تشنج، على جوانب الدن.

وجرح إيليا أصبعه بزعانف سمكة، فدسها في فمه وراح يمصها، فصاح به رب العمل بصوت أجش:

- اسحب أصبعك.

وفيما بعد أعطوا الصبي بلطة ثقيلة، وبعثوا به لينزل إلى القبو ليكسر هناك الثلج ويجعله يتوضع بطباق متساوية، فكانت شظايا الثلج تنهال على وجهه وتترامى إلى ما وراء الياقة، وكان القبو باردًا معتمًا، فكانت البلطة تصيب السقف لدى الضربات غير الحذرة، وبعد بضع دقائق خرج إيليا من القبو، وأعلن لرب العمل قائلًا:

- كسرت علبة هناك.

فنظر إليه رب العمل بانتباه، وقال:

- للمرة الأولى أغفر لك؛ أغفر لك لأنك قلت بنفسك، أما في المرة الثانية، فسأقلع آذانك.

وبات إيليا يدور مغمورًا على وتيرة واحدة كالبرغي في آلة صخابة كبيرة؛ فقد كان يستيقظ في الخامسة صباحًا، فينظف أحذية ربة العمل وأسرته والمستخدمين، ثم يذهب إلى الحانوت، فيكنسه ويغسل الطاولات والموازين. ويأتي المشترون، فيقدم البضاعة ويحمل المشتريات، ثم يذهب إلى البيت ليجلب الغداء. وبعد الغداء لم يكن ثمة من عمل، فإذا لم يبعثوا به إلى مكان ما، يقف على باب الحانوت، فيتأمل حركة الأخذ والعطاء في السوق، ويفكر في الناس كم هم كثيرون في الدنيا، وكم يأكلون من السمك واللحم والخضار. ولقد سأل ذات مرة المستخدم الشبيه بالبومة:

- ميخائيل إغناتيتش!

- أيوه؟

- وماذا سيأكل الناس حين يتم اصطياد جميع الأسماك، وذبح جميع المواشي؟

- أبله! - أجابه المستخدم.

وتناول مرة جريدة من على منصة البيع وراح يقرأها وهو واقف في الباب، ولكن المستخدم انتزع الجريدة من يده، ونقره على أنفه بأصبعه، وسأله مهددًا:

- من سمح لك؟ هه.. حمار!

لم يكن هذا المستخدم يروق لإيليا، فقد كان، حين يتحدث مع رب العمل، يكاد يضيف إلى كل كلمة رنة احترام طنانة، أما من وراء الظهر، فكان يلقب التاجر ستروغاني بالغشاش والشيطان الأشقر. وقد كان رب العمل يذهب من الحانوت إلى القداس الليلي أيام السبت وقبل الأعياد، فتأتي إلى المستخدم زوجته أو أخته فيبعث معهما إلى بيته كيسًا من السمك والكافيار والمعلبات. وكان يحب السخرية بالمتسولين، وبينهم كثير من الشيوخ الذين يذكرون إيليا بالشيخ إيرميا، فحين كان يقبل على باب الحانوت واحد من الشيوخ فيطلب الصدقة بصوت خافت، منحني الظهر، كان المستخدم يمسك بسمكة من رأسها فيدسها في يد المتسول من ذنبها بحيث تغرز أشواك زعانفها في لحم كف السائل، وإذ يسحب المتسول يده؛ مرتجفًا من الوجع، يصيح المستخدم ساخرًا غاضبًا:

- لا تريد؟ لا يكفيك؟ رح.

وذات مرة اختلست عجوز متسولة سمكة مجففة من نوع السوداك وأخفتها في أسمالها، وكان المستخدم يرى ذلك، فأمسك بخناق العجوز، وانتزع السمكة المسروقة، ثم أحنى رأس العجوز ولطمها على وجهها بيده اليمنى من تحت إلى فوق، فما تأوهت ولا نطقت بكلمة، بل انصرفت صامتة مطأطأة الرأس، ورأى إيليا دمًا قاتمًا يسيل في خطين من أنفها الملطوم، وعلى إثرها صاح

المستخدم:

- استلمت؟

ثم قال مخاطبًا المستخدم الآخر، كارب:

- أنا أكره الشحاذين؛ كسالى، يسرحون ويتسولون وهم شبعانون، ويعيشون عيشة طيبة... يقال عنهم إنهم إخوة المسيح، فمن أنا بالنسبة له؟ غريب؟ أنا طول عمري أدور، كالدودة تحت الشمس، ولكني محروم من الراحة ومن الاحترام.

وكان المستخدم الآخر، كارب، رجلًا متدينًا، لا يتحدث إلا عن المعابد والمرتلين، وعن القداسات الأسقفية، وكان يخاف كل يوم سبت من أنه يتأخر لحضور صلاة الليل. وكان إلى جانب هذا مولعًا بالبهلوانيات؛ فكلما ظهر في المدينة أي بهلوان وساحر فلا بد لكارب أن يذهب لمشاهدته. ولقد كان طويل القامة، نحيلًا، وعلى كثير من الخفة والشطارة؛ فحين كان يحتشد في الحانوت كثير من المشترين، كان هو يتلوى بينهم كالأفعى، مبتسمًا للجميع متكلمًا مع الجميع، ويظل دائمًا يلقي بنظراته صوب هيكل رب العمل الضخم، كأنما هو يتباهى بقدرته على تصريف الأعمال. وكان يتخذ حيال إيليا موقف الزراية والسخرية، وما كان الصبي أيضًا محبًّا له. ولكن رب العمل كان يروق لإيليا، فقد كان التاجر يظل من الصباح حتى المساء واقفًا خلف المكتب، يفتح الصندوق ويلقي فيه بالنقود. وكان إيليا يرى أنه يفعل ذلك على غير مبالاة، ودون شراهة، ولأمر ما كان هذا يطيب للصبي. ولقد كان يطيب له أيضًا أن رب العمل كان يتكلم معه على نحو أكثر وألطف مما يتكلم مع المستخدمين. وفي أوقات الهدوء، ساعة لا يكون ثمة مشترون، كان التاجر يخاطب إيليا الواقف في الباب وقفة مكتئبة:

- أي، إيليا! هل أنت نائم؟

- لا.

- ولماذا أنت دائمًا مترزّن؟

- لا أعرف.

- شيء مضجر، أليس كذلك؟

- ن... نعم!

- طيب، اضجر! وأنا أيضًا ضجرت وقتًا ما، من التاسعة حتى الثانية والثلاثين من عمري ضجرت عند ناس غرباء. أما الآن فإني منذ ثلاث وعشرين سنة أتطلع إلى الآخرين كيف يضجرون.

ويهز رأسه وكأنه يقول ضمنًا:

«ليس في الوسع فعل أكثر من هذا!».

وبعد حديثين أو ثلاثة من هذا النوع، بات إيليا يتساءل في نفسه: ما السبب في أن هذا الرجل الغني

المحترم ينحشر طول النهار في الحانوت القذر، فيشم رائحة السمك المملح الكريهة الحادة، وعنده هذا البيت الكبير النظيف؟ ولقد كان هذا بيتًا غريبًا؛ كل شيء فيه صارم ساكن، وكل شيء يجري على نظام ثابت راسخ.

وكان مزدحمًا على الرغم من أنه لم يكن يسكن في طابقيه الاثنين، بالإضافة إلى رب البيت وزوجته وثلاث بنات، غير الطباخة والخادمة والبواب، وهو في الوقت نفسه حوذي. وكان الجميع في البيت يتكلمون بأصوات خافتة، أما إذا هم مروا بالباحة الكبرى النظيفة، فإنهم يلطون بالجوانب كأنما يخشون الخروج إلى الرحاب المكشوفة. ولقد قارن إيليا بين هذا البيت الهادئ المتين وبيت بتروخا، فخلص على نحو غير متوقع إلى فكرة مؤداها أن المعيشة أفضل في بيت بتروخا، وإن تكن هناك في فقر وصخب وقذارة. ولكن ود الصبي لو يسأل التاجر: لماذا يرهق نفسه بالعيش طول النهار في السوق، وسط الضجيج والهرج والمرج، لا في البيت حيث الهدوء والسكينة؟

وذات مرة، وقد ذهب كارب إلى مكان ما، وميخائيل ينتقي في القبو سمكة فاسدة لدار العجزة، بدأ رب العمل الكلام مع إيليا، فقال له الصبي:

- لو تترك التجارة يا كيريل إيفانوفيتش؟ فأنت غني... والحياة عندك في البيت حلوة، أما هنا فقذر وضجر!

فراح ستروغاني ينظر إليه نظرات حادة، مستندًا بكوعيه على المكتب، وحاجباه الأشقران يرتعشان، ثم سأل حين سكت إيليا:

- أيوه.. هل قلت كل شيء؟

- كل شيء. - أجاب إيليا بارتباك، وفي قلبه مخافة.

- تعال لعندي.

فأقبل إيليا، فأمسك به التاجر إذ ذاك من ذقنه ورفع رأسه لفوق، وسأله وهو ينظر إلى وجهه بعينين متسعتين:

- هل علموك هذا، أم اخترعته أنت نفسك؟

- وحق الله، أنا نفسي.

- طيب.. ما دمت أنت نفسك، فلا بأس! أيوه، إليك ما أقول لك: إياك بعد أن تتكلم هكذا معي، أنا رب عملك، أتفهم؟ رب عملك! احفظ هذا في ذاكرتك. رح لمحلك.

وحين عاد كارب أخذ رب العمل يتكلم معه، لغير داع، مخاطبًا المستخدم، ناظرًا بطرف عينه إلى إيليا، على نحو ملحوظ منه:

- واجب على الإنسان القيام بعمل ما طول حياته... طول حياته! ومن لا يفهم هذا فهو أبله. فكيف

يمكن للمرء أن يعيش عبثًا، دون أن يعمل شيئًا؟ الإنسان الذي لا يرتبط بعمله لا معنى له على الإطلاق.

- صحيح تمامًا يا كيريل إيفانوفيتش. - أجاب المستخدم، وراح ينقل عينيه في الحانوت باحثًا عن عمل له.

ومضى إيليا ينظر إلى رب العمل ويفكر. كان يزداد سأمًا من العيش بين هؤلاء الناس، وكانت الأيام تمر الواحد إثر الآخر، كأنها خيوط طويلة كالحة، تنحل من مكبّ خفي، حتى لقد بات يبدو للصبي أن لا نهاية لهذه الأيام، وأنه سيظل طول عمره واقفًا في الباب، يستمع إلى ضوضاء السوق. ولكن فكره، المنبعث بفعل الانطباعات التي سبق له أن عاناها والكتب التي سبق أن قرأها، لم يرضخ لتأثير هذه الحياة الرتيبة المهدّئ، بل ظل يشتغل بسكينة ودون كلل. وكان النظر إلى الناس يغدو في بعض الأحيان مضجرًا له، هو الصامت الرزين، إلى حد يجعله يشتهي لو يغمض عينيه ويذهب إلى مكان بعيد، أبعد مما ذهب إليه باشكا غراتشبف، أن يذهب ولا يعود إلى هذا السأم الكالح وهذه الجلبة البشرية غير المفهومة.

كانوا يبعثون به إلى الكنيسة أيام الأعياد، فيعود من هناك دائمًا شاعرًا كأنما قد غسل قلبه بماء عطر دافئ. وخلال نصف عام من الخدمة، سمحوا له بالذهاب إلى عمه مرتين.. كان كل شيء يجري هناك على سابق عهده؛ الأحدب ازداد نحولًا، وأما بتروخا فكانت تشتد نبرة صفيره، وتحوّل وجهه من اللون الوردي إلى الأحمر، وكان ياكوف يشكو من أن أباه يشدد عليه الخناق.

- إنه دائم التوبيخ: «قم بعملك... أنا لا أريد الكتاب». ولكن إذا كنت أكره الوقوف على منصة البيع؛ ضجة، وصخب، وصراخ، حتى لا يسمع المرء نفسه، وأقول:

«حطني مستخدمًا في حانوت لبيع الأيقونات، المشترون هناك قليلون، وأما الأيقونات فأنا أحبها».

كانت عينا ياكوف تطرفان باكتئاب، وقد اصفّر جلد جبينه لسبب ما، وبات مشرقًا كالصلعة على رأس أبيه.

- وهل تقرأون الكتب؟ - سأل إيليا.

- كيف لا؟ إنها الفرحة الوحيدة... وأنا حين أقرأ كتابًا فكأني أعيش في مدينة أخرى... أما حين أنتهي من قراءته، فكأني أسقط من برج النواقيس.

فنظر إليه إيليا وقال:

- كم تبدو عليك الشيخوخة... وماشا أين هي؟

- ذهبت إلى دار العجزة تطلب الصدقة. وأنا الآن لا أساعدها كثيرًا؛ فإن أبي يراقبني. أما بيرفيشكا فلا يزال معلولًا، وماشا أخذت تذهب إلى دار العجزة، فهناك يعطون شوربة وكل شيء، ولا تزال ماتيتسا تساعدها... ماشا تعيش عيشة صعبة.

- الحال عندكم أيضًا مضجرة - قال إيليا مفكرًا.

- والحال عندك مضجرة كثيرًا؟

- موت.. عندكم، على الأقل، كتب... أما عندنا، فليس في البيت كله غير كتاب «أخبار الشطار والسحار»، وهو موضوع لدى المستخدم في الصندوق، ولست أستطيع التوصل إلى قراءة هذا؛ فالملعون لا يعطيه. أصبحنا نعيش عيشة سيئة يا ياكوف.

- أيوه، سيئة يا أخ.

وتحادثا قليلًا، ثم ودع أحدهما الآخر، وكلاهما في اكتئاب.

ومرت بضعة أسابيع، فإذا بالقدر يبتسم لإيليا بقسوة، وبمرحمة مع ذلك، فقد حدث ذات صباح، وقت نشاط حركة البيع والشراء، أن راح رب العمل، وهو واقف خلف المكتب، يتفحص بسرعة كل شيء عليه، وقد احمرت جبهته، وتكاثف فيها الدم، وتضخمت الشرايين في عنقه تضخمًا شديدًا، ثم إذا به يصيح:

- إيليا.. انظر إلى الأرض، أليس ثمة عشرة روبلات؟

وتطلع إيليا إلى التاجر، ثم ألقى إلى الأرض نظرات سريعة، وقال بهدوء:

- لا يوجد.

- أقول لك انظر كما يجب! - نبح رب العمل بصوت أجش.

- نعم، نظرت.

- طيب، أيها الخبيث اليابس الرأس! - قال له رب العمل منذرًا.

وحين انصرف المشترون، دعا إيليا فأمسك أذنه بأصابع قوية ضخمة، وأخذ يشده من جهة لأخرى، منددًا به بصوت مزمجر:

- حين يأمرونك بأن تنظر فانظر، حين يأمرونك بأن تنظر فانظر.

وركز إيليا يديه الاثنتين على كرش رب العمل، فاندفع بقوة، وانتزع أذنه من بين أصابعه، وصرخ بصوت مغيظ، ورعدة الغضب من المهانة تهز كل كيانه:

- لماذا تضرب؟ الفلوس نشلها ميخائيل إغناتيتش... هي معه في الجيب الأيسر، في الصدرية.

فتطاول دهشة وجه المستخدم، الشبيه بوجه البومة، وراح يرتعش، ثم رفع يده اليمنى فجأة وأهوى بها بضربة على رأس إيليا، فوقع الصبي متوجعًا، ذارفًا الدمع، وزحف على الأرض إلى زاوية الحانوت، وسمع زمجرة رب العمل الوحشية، وكأنه في حلم:

- قف! إلى أين؟ هات الفلوس.

- هو يكذب. - لعلع صوت المستخدم الرفيع.

- بالرطل أضرب رأسك.

- كيريل إيفانيتش... هذه فلوسي... ليقصف الله عمري إذا...

- اسكت!

وحل الصمت، ومضى رب العمل إلى غرفته، فسمعت من هناك ضربات الكرات الخشبية على العدّادة. وكان إيليا جالسًا على الأرض، ويداه على رأسه، وهو ينظر بحقد إلى المستخدم، أما هذا فكان واقفًا في زاوية أخرى من الحانوت، وهو أيضًا ينظر إلى الصبي بعينين غير طيبتين.

- كيف يا وغد، ضربتك ضربة مليحة؟ - سأل بصوت خافت، مكشرًا عن أنيابه.

فهز إيليا كتفيه وظل صامتًا.

- والآن سأضربك مرة أخرى، للذكرى.

وأقبل على الصبي، غير مستعجل، محدقًا في وجهه بعينيه الشرستين المدورتين، ولكن إيليا هب واقفًا على قدميه، وبحركة صارمة تناول من على طاولة البيع سكينًا طويلة رفيعة، قال:

- تعال!

وإذ ذاك توقف المستخدم، وراح يزن بعينيه الجامدتين الشخص الربعة المتين البنية، الحامل السكين بيده، توقف وقال باحتقار، ماطًّا كلامه:

- آه... يا ابن المحكوم بالأشغال الشاقة.

- ياللا، تعال، تعال! - كرر الصبي، وهو يخطو مقبلًا عليه، وأمام عينيه كان كل شيء يرتعش ويدور، وأما في صدره، فكان يشعر بقوة كبرى، تدفعه بجرأة إلى أمام.

- ألق السكين. - دوّى صوت رب العمل.

فارتجف إيليا، ونظر إلى اللحية الشقراء والوجه المشحون بالدم، ولكنه لم يتزحزح من مكانه.

- أقول لك ضع السكين. - قال رب العمل بصوت أهدأ.

فوضع إيليا السكين على الطاولة، وشهق بشدة، وقعد على الأرض من جديد. كان رأسه يدور، وقد ألم به الصداع، وأحس بالوجع في أذنه، وراح يلهث من عبء ثقيل في صدره، وكان هذا العبء يشد الخناق على قلبه الخافق، ويرتفع شيئًا فشيئًا إلى حلقه، فيعيقه عن الكلام. وكان صوت رب العمل يصل إلى سمعه من مكان مجهول بعيد:

- خذ حسابك، يا ميخائيل.

- عفوًا، لماذا؟

- رح! وإلا دعوت الشرطة.

- طيب.. أنا ذاهب... ولكن انتبه لهذا الصبي، إنه يحمل السكين... هي- هي.

- رح!

وحل الصمت في الحانوت من جديد. كان إيليا يرتعش من جراء إحساس كريه؛ فقد بدا له أن شيئًا ما يزحف على وجهه، فأمرّ يده على خده، ومسح دمعه، ورأى رب العمل ينظر إليه من وراء المكتب نظرة جارحة، فنهض إذ ذاك، فمضى بخطوات غير ثابتة إلى الباب، إلى مكانه، فقال له رب العمل:

- قف، انتظر.. أكان يمكن أن تطعنه بالسكين؟

- كان يمكن أن أطعنه. - أجاب الصبي بصوت خافت إلا أنه صارم.

- أيوه... ولأي شيء ذهب أبوك إلى الأشغال الشاقة؟ قتل؟

- حرق.

- حسن هذا.

وجاء كارب، فجلس بحشمة على مقعد صغير عند الباب، وراح ينظر إلى الشارع.

- كاربوشكا[11]! - قال رب العمل، وهو ينظر إليه مبتسمًا في سخرية- لقد طردت ميخائيل.

- الأمر لك يا كيريل إيفانوفيتش!

- أصبح يسرق، آه!

- آي- ياي- ياي! - هتف كارب بهدوء وخوف- أهذا ممكن؟ آ- آه؟

فراحت لحية رب العمل الشقراء ترتعش من الضحك، وأخذ يقهقه مترنحًا خلف المكتب.

- إيه.. يا كاربوشكا... أنت عندي أبو الألاعيب.

ثم كف فجأة عن الضحك، وتنهد بعمق، وقال مفكرًا، بلهجة صارمة:

- إيه، يا بشر، يا بشر! كلكم تريدون العيش، والجميع يجب أن يعلفوا... أيوه يا إيليا، قل لي، هل كنت تلاحظ من قبل أن ميخائيل يسرق؟

- كنت ألاحظ.

- فلماذا لم تقل لي عن هذا؟ هل كنت تخافه يا ترى؟

- كلا، ما كنت أخافه.

- يعني إنك الآن قلت لي بدافع الغضب.

- نعم. - أجاب إيليا بلهجة حازمة.

- هه، هكذا أنت! - هتف رب العمل، ثم راح طويلًا يمسد لحيته الشقراء، غير ناطق بكلمة، ناظرًا إلى إيليا نظرات خطيرة.

- طيب، وهل كنت أنت نفسك تسرق يا إيليا؟

- كلا.

- أصدقك.. أنت لم تكن تسرق. طيب، وكارب، كارب هذا بالذات، كيف هو، هل يسرق؟

- يسرق. - كرر الصبي.

فنظر إليه كارب مندهشًا، ورفت عيناه، واندار بهدوء إلى جهة أخرى. وقطب رب العمل حاجبيه مغضبًا، وأخذ يمسد لحيته من جديد. وشعر إيليا أن أمرًا غريبًا يجري، فراح ينتظر النهاية بتوتر. كان الذباب يطن في جو الحانوت الكريه الرائحة، وبقبقة الماء تسمع في الدن المحتوي على الأسماك الحية.

- كاربوشكا.- صاح التاجر بالمستخدم الناظر إلى الشارع من دون حراك وبانتباه.

- ماذا تأمر؟ - أجاب كارب، مقبلًا بسرعة على رب العمل، ناظرًا إلى وجهه بعينين لطيفتين أنيستين.

- هل سمعت ما قيل عنك؟ - سأل ستروغاني بابتسامة ساخرة.

- سمعت.

- وماذا؟

- معليش. - قال كارب، وقال شال بكتفيه.

- كيف معليش؟

- بسيطة جدًّا، يا كيريل إيفانوفيتش. إن لي، يا كيريل إيفانوفيتش، كرامتي، بصفتي إنسانًا يحترم نفسه، ولذلك فليس يليق بي الاستياء من الصبي، والصبي، كما تتفضل فترى أنت نفسك، أبله بصورة مكشوفة، ليس لديه أي مفهوميات.

- لا تخلط عليّ! قل، هل كان يقول الحقيقة؟

- وما الحقيقة يا كيريل إيفانوفيتش؟ - هتف كارب، وهو يشيل بكتفيه من جديد، ومال برأسه جانبًا- طبعًا، إذا كان يطيب لك اعتبرت كلامه حقيقة.. فالأمر لك!

وتنهد كارب، وبسط ساعديه باستياء.

- نعم، الأمر لي هنا على كل شيء - قال رب العمل موافقًا- إذن فالصبي أبله في رأيك؟

- أبله تمامًا.- قال كارب واثقًا عميق الثقة.

- أيوه، ولعلك أنت تكذب. - قال ستروغاني بلهجة غير قاطعة، وراح يقهقه فجأة.

- لا، كيف قال في وجهك.. قه - قه.. «كارب يسرق؟»- «يسرق!»... قه- قه- قه!

حين كان رب العمل يضحك، كان إيليا يشعر بفرحة الانتقام تنبثق في قلبه، فيتطلع إلى كارب بنظرات المنتصر، وإلى رب العمل بنظرات الشكر والامتنان. وكان كارب يستمع إلى ضحك رب العمل، ويطلق هو أيضًا من حلقه ضحكة حذرة:

- قه- قه- قه!

ولكن ستروغاني أمر بلهجة صارمة، وهو يسمع هذه الأصوات المائعة:

- أغلق الحانوت.

وحين كان إيليا ذاهبًا إلى البيت، كان كارب يقول له، هازًّا رأسه:

- أنت أحمق، أحمق! أيوه، تصور، لماذا تورطت في هذه المشكلة؟ أترى هكذا تقدم الخدمات لأرباب العمل بغية احتلال المقام الأول؟ بلاهة! أتظن أنه ما كان يعلم أننا، أنا وميشكا[12]، كنا نسرق؟ بلى، إنه هو نفسه بدأ بهذا حياته... أما أن يكون قد طرد ميشكا، فأنا ملزم، حسب وجداني، بأن أقول لك شكرًا! أما ما قلته عني، فهذا ما لن أغفره لك أبدًا. هذا اسمه وقاحة بلهاء.. أمامي وعني تقول هذه الكلمة! سأذكرك بها.. إنها تدل على أنك لا تحترمني.

كان إيليا يصغي إلى هذا الكلام، إلا أنه لا يحسن فهمه، فقد كان ينبغي لكارب، حسب تفكيره، أن يغضب عليه بغير هذه الصورة؛ كان واثقًا من أن المستخدم سيضربه في الطريق، بل لقد كان خائفًا من الذهاب إلى البيت، ولكن كلمات كارب كانت تنم عن السخرية فقط بدلًا من الشراسة، وما كانت تهديداته لتخيف إيليا. وفي المساء استدعى رب العمل إيليا إليه، في الطابق العلوي، فشيعه كارب بصيحات مشؤومة:

- ها - ها! أيوه، اوعى!

ودخل إيليا الطابق العلوي، فتوقف عند باب غرفة كبيرة تقوم في وسطها، تحت مصباح ثقيل منسدل من السقف، طاولة مدورة عليها سماور ضخم، وحول الطاولة كان يجلس رب العمل مع زوجته

وبناته، وكانت كل واحدة من البنات أقل طولًا من الأخرى قدر رأس، وشعورهن جميعًا شقراء، والبشرة البيضاء على وجوههن الطويلة مغمورة بالنمش الكثيف. وحين دخل إيليا تراصصن الواحدة لصق الأخرى، وحدقن فيه هالعات بثلاثة أزواج من العيون الزرق. وقال رب العمل:

- هذا هو.

- أعوذ بالله! - هتفت ربة البيت في خوف وراحت تنظر إلى إيليا نظرة تحسب معها أنها لم تره قط من قبل. وضحك ستروغاني ضحكة مفتعلة، وراح يمسد لحيته، وينقر بأصابعه على الطاولة، وشرع يقول في وقار:

- دعوتك لأقول لك إني لم أعد في حاجة إليك، يعني لملم عفشك وانصرف.

فارتعش إيليا، وفغر فمه دهشة، ودار على عقبيه منصرفًا من الغرفة.

- قف! - قال له التاجر مادًّا نحوه يده، خابطًا الطاولة بكفه، ثم كرر بصوت أخف: - قف!

ثم رفع إصبعه لفوق، وشرع يقول بجد وبطء:

- ما من أجل هذا وحده دعوتك... كلا. لا بد لك.. لا بد من أن أوضح لك لماذا أصبحت مؤذيًا لي؟ إنك لم تسئ لي، وأنت فتى متعلم، غير كسول.. شريف ومعافى..

هذه كلها أوراق رابحة، ولكني في غير حاجة إليك، مع أن لديك أوراقًا رابحة.. لا يمشي حالك معي.. لماذا.. سؤال؟

فاعترت إيليا الدهشة؛ يغدق عليه الثناء، ويطرد طردًا، فما كان هذا لينسجم في ذهنه، ولقد بعث في نفسه شعورًا مزدوجًا من الارتياح والاستياء. وبدا له أن رب العمل نفسه لا يدرك ما يفعل.. وخطا الصبي إلى أمام، فسأل باحترام:

- هل تطردني لحملي السكين اليوم؟

- يا لطيف! - هتفت ربة البيت في خوف- يا للوقح.. أعوذ بالله!

- أيوه.- قال رب العمل بارتياح، مبتسمًا لإيليا موجهًا إليه سبابته- أنت وقح.. هكذا بالضبط! أنت وقح... الصبي الخادم يجب أن يكون وديعًا... ليّن العريكة، كما يقال في الكتاب السماوي، إنه يعيش كليًّا على حساب رب العمل؛ طعامه من رب العمل، وعقله من رب العمل، وشرفه كذلك.. أما أنت فلك طريقك الخاصة...

أنت، مثلًا، تقول للرجل بوجهه: سارق! هذا غير حسن، هذه وقاحة.. فأنت، إذا كنت شريفًا، فقل لي عن هذا، قل لي من غير ضجيج.. وأنا نفسي أقرر كل شيء، أنا رب العمل. أما أنت فتقول جهارًا: سارق! كلا، عليك أن تصطبر.. فإذا كان ثمة واحد شريف من أصل ثلاثة، فليس يعني هذا بالنسبة لي أي شيء... هنا لا بد من حساب خاص. وإذا كان ثمة واحد شريف، وتسعة سفلة، فما من خاسر..

ولكن الإنسان يضيع. وأما إذا كان هناك سبعة شرفاء مقابل ثلاثة سفلة، فإن فكرتك تكون هي الرابحة... هل فهمت؟ الأكثرون هم الذين على حق... هكذا ينبغي التفكير بالشرف.

ومسح ستروغاني بكفه العرق عن جبينه، وتابع يقول:

- ثم إنك تحمل السكين..

- يا يسوع المسيح! - هتفت ربة البيت مرتاعة، وأما البنات فازددن تلاحمًا الواحدة بالأخرى.

- لقد قيل: حامل السكين بالسكين يُقتل... هذا هو السبب في أنك غير لازم لي... أيوه.. هاك نصف روبل، وانصرف.. رح.. تذكر أنك لم تسئ إليَّ، وأنا أيضًا لم أسئ إليك، بل هاك، خذ! إني أمنحك نصف روبل.. وأنا قد تحدثت معك، أنت الصبي، حديثًا جديًّا كما ينبغي أن يكون... قد أكون آسفًا عليك، ولكنك غير مناسب.

حين لا يكون الغطاء على قد الطنجرة، فلا بد من طرحه.. ياللا، رح.

فهم إيليا كلام رب العمل ببساطة، فقد طرده التاجر لأنه ما كان يستطيع طرد كارب، مخافة أن يبقى من دون مستخدم. ولقد كان هذا مدعاة لانشراح صدر إيليا وفرحه، وظهر له رب العمل بسيطًا، لطيفًا.

- وداعًا. - قال إيليا وهو يشد يده شدًّا وثيقًا على قطعة النقد الفضية- شكرًا جزيلًا.

- لا داعي للشكر. - أجاب ستروغاني، محييًا إياه بحركة من رأسه.

وسمع إيليا على أعقابه صوت ربة البيت تقول في تعجب وتأنيب:

- آي- يا- ياي! لم يذرف ولا دمعة.

وحين خرج إيليا من بوابة بيت التاجر المتينة، حاملًا صرته على ظهره، كان يبدو له أنه مبارح بلادًا كالحة مقفرة، كان قد قرأ عنها في أحد الكتب، حيث لا ناس، ولا أشجار، بل حجارة فقط، وبين الحجارة يعيش ساحر طيب يرشد إلى الطريق بلطف جميع من يبلغون تلك البلاد.

كان مساء يوم مشرق من أيام الربيع، وكانت الشمس تغيب، وعلى زجاج النوافذ يشع نور أحمر، وقد أعاد هذا إلى ذهن الصبي ذكرى رؤيته المدينة للمرة الأولى، من على ضفة النهر. كان ثقل صرة الأمتعة يضغط على ظهره، فأبطأ خطواته، وكان الناس يسيرون على الرصيف، فيصدمون حمله، والعربات تجري في ضجيج، وأشعة الشمس المائلة مشحونة بالغبار، والجو في صخب وجلبة ومرح. وعلى ذاكرة الصبي كان يتوارد كل ما مر به في المدينة خلال هذه السنوات، كان يشعر بأنه رجل راشد، وكان قلبه يخفق باعتزاز وجرأة، وفي أذنيه ترن كلمات التاجر:

«أنت صبي متعلم، مدرك، معافى، غير كسول... وهذه أوراقك الرابحة...».

وعجل إيليا خطواته، شاعرًا في نفسه بفرح شديد، مبتسمًا لفكرة أنه غير ملزم غدًا بالذهاب إلى

حانوت السمك.

ولدى عودته إلى بيت بتروخا فيليمونوف، اقتنع إيليا في اعتزاز بأنه قد كبر فعلًا خلال الزمن الذي قضاه في الخدمة في حانوت السمك؛ فقد كان موقف الجميع منه موقف الاهتمام والفضول المدغدغ لحب الذات، وقد مد له بيرفيشكا يده، قائلًا له:

- التبجيل للمستخدم.. ماذا يا أخ، هل انتهت خدمتك؟ سمعت عن مآثرك.. قه-قه! إنهم، يا أخ، يحبون المرء حين يلحس بلسانه أحذيتهم، لا حين يقطع بقول الصدق.

ورأته ماشا، فهتفت في فرح:

- يا سلام! كيف أصبحت؟

وكذلك فرح ياكوف:

- أيوه، ها نحن سنعيش معًا من جديد... وعندي كتاب «البيجوا» أيوه، حكاية، سأحكيها لك! هناك واحد، اسمه سيمون مونفور... فظيع!

وعلى عجل، وبارتباك، شرع ياكوف يروي موجز الكتاب. وأما إيليا فقد كان يفكر، وهو ينظر إليه، بأن رفيقه ذا الرأس الكبير لا يزال كما كان، فما كان ياكوف يرى في سلوك إيليا لدى ستروغاني أي شيء ذا شأن، وقد قال له فقط:

- هكذا كان ينبغي.

ودهش بتروخا من سلوك إيليا وما أخفى هذا، إذ قال له موافقًا:

- لذعتهم ببراعة يا أخ، ببراعة. أيوه، ولكن كيريل إيفانوفيتش ما كان يمكن أن يستعيض بك عن كارب؛ فإن كارب يعرف الشغل، وسعره عال، وأنت تريد العمل بصدق، وقد سرت على المكشوف... ولهذا بدّلك.

ولكن العم تيرنتي قال في اليوم التالي لابن أخيه بصوت خافت:

- لا تتكلم مع بتروخا... لا تكثر الحديث معه، كن على حذر، إنه يشتمك... يقول: شف، يا له من محب للحقيقة!

فضحك إيليا، وقال:

- ولكنه كان يمدحني يوم أمس.

لم يقلل موقف بتروخا من تقدير إيليا الرفيع لنفسه، فقد كان يشعر بأنه بطل، ويدرك أنه اتخذ لدى التاجر مسلكًا يفضل ما كان من شأن غيره أن يفعل في مثل هذه الظروف.

وبعد شهرين، إثر تحريات عن مكان للعمل جديد ذهبت سدى، جرى هذا الحديث بين إيليا وعمه:

- أيوه! - قال الأحدب ماطًّا كلامه في اكتئاب- لا أمكنة عمل لك... في كل مكان يقولون: كبير.. فكيف سنعيش، يا حباب؟

وأما إيليا فقد قال بصلابة ويقين:

- عمري خمسة عشر عامًا، وأنا متعلم، فإذا كنت وقحًا فإنهم سيطردونني من الأماكن الأخرى أيضًا.. سواء بسواء!

- فماذا سوف نعمل؟ - سأل تيرنتي مرتاعًا، وهو جالس على سريره، مستندًا عليه بساعديه استنادًا شديدًا.

- إليك ما العمل: أوص لي على صندوق، واشتر لي بضاعة؛ صابونًا، عطورًا، إبرًا، دفاتر... من كل الأنواع، وسوف أسرح، وأبيع.

- هذا ما لا أفهمه يا إيليا؛ إذ إن ضجة المطعم تدوي في رأسي... طق.. طق.. طق.. وكذلك تفكيري قد ضعف.. وأمام عينيّ وفي روحي الشيء نفسه... نفس الشيء.

فتجمد فعلًا في عيني الأحدب تعبير متوتر، كأنما كان دائمًا يحسب شيئًا ما ولا يستطيع الوصول في الحساب إلى نهايته.

- طيب، جرّب. اتركني. - قال إيليا راجيًا، متحمسًا لفكرته الواعدة له بالحرية.

- طيب، الله معك. لنجرب.

- سترى ما سيكون! - هتف إيليا مبتهجًا.

- إيه! - تنهد تيرنتي بعمق وراح يقول بأسى: - لو كنت كبرت أنت بسرعة.. لو أنك كنت أكبر قليلًا.. هو- هو! لكنت ذهبت أنا.. فأنت لي مثل المرساة.. بسببك أقف في هذه البحيرة النتنة.. لولاك لكنت ذهبت إلى الديار المقدسة، ولقلت لهم: «يا أولياء الرب، يا رحماء، يا شفعاء! لقد ارتكبت المعصية، أنا الملعون».

وأجهش الأحدب يبكي مختنق الصوت، وقد أدرك إيليا عن أي معصية يتكلم عمه، وتذكر هو نفسه تلك المعصية، فراح قلبه يرتعش، وأدركته الشفقة على عمه، فانطلق يقول، وقد رأى الدموع تنهمر بغزارة متزايدة من عيني الأحدب الوجلتين:

- لا تبك. - وصمت وفكر، ثم أضاف معزيًّا- معليش... سيغفرون.

وها هو إيليا قد بدأ بالمتاجرة، فكان يمشي في شوارع المدينة من الصباح حتى المساء، والصندوق على صدره، وأنفه مرفوع لفوق وهو يتطلع إلى الناس باعتزاز، ويدفع بجوزة عنقه إلى أمام، ويصيح بصوت مخشوشن، وقد أسدل الكاسكيت بعمق فوق رأسه:

- صابون.. بوية.. دبابيس، شكلات.. خيطان.. إبر.

وكانت الحياة تجري حوله موجة مرقشة، صاخبة، وهو على هذه الموجة سابح بحرية ويسر، يجول في الأسواق، ويمر على المطاعم، فيطلب لنفسه الشاي بوقار فيشربه مع الخبز الأبيض متمهلًا مترزنًا، شأن الرجل العارف بقيمته. ولقد بدت له الحياة بسيطة، هينة، مستلذة، واتخذت أحلامه أشكالًا بسيطة واضحة؛ فقد راح يتصور نفسه وقد أصبح بعد بضع سنوات صاحب حانوت صغير نظيف، في مكان ما من شارع جميل، غير كثير الصخب، في المدينة، ولديه في الحانوت بضاعة خفيفة نظيفة، من الخردوات، لا تتسخ منها الثياب ولا تنعطب، وهو نفسه نظيف، معافى، جميل، والجميع في الشارع يحترمونه، والفتيات ينظرن إليه بعيون تتألق فيها البشاشة. وفي المساء، بعد أن يغلق حانوته، يجلس في غرفة نظيفة منيرة، فيشرب الشاي ويقرأ في كتاب. وقد كانت النظافة في كل شيء تبدو له أمرًا ضروريًّا وشرطًا رئيسًا للحياة اللائقة. هكذا كانت تراوده الأحلام يوم لم يكن أحد يسيء إليه بتصرف فظ؛ ذلك أنه بات شديد الحساسية سريع الانفعال منذ أن أدرك أنه إنسان مستقل.

ولكنه حين كان لا يوفق لبيع شيء فيجلس، متعبًا، في مطعم أو مكان ما في الشارع، كان يروح يتذكر الصيحات والدفرات الفظة من قبل رجال الشرطة، ومسلك المشترين المريب المهين، والشتائم والسخريات الصادرة عن المنافسين، أمثاله من الباعة الجوَّالين، فيستيقظ إذ ذاك في نفسه، على نحو مبهم، شعور قلق عميق، فتتفتح عيناه تفتحًا أوسع، وتنظران إلى الحياة نظرة أعمق، وأما ذاكرته الغنية بالانطباعات، فتروح ترتب هذه الانطباعات الواحدة إثر الأخرى في جهاز عقله. ولقد كان يرى بجلاء أن الناس جميعًا منصرفون إلى الغاية نفسها التي هو منصرف إليها؛ إنهم ينشدون حياة الطمأنينة والشبع والنظافة التي يتمناها هو، وما من أحد يتورع عن دفع الآخر من طريقه؛ إذا كان يعيقه. إنهم جميعًا شرهون، لا يعرفون الرحمة، يسيئون في الغالب بعضهم إلى بعض، من غير أن يكون لديهم داع لذلك، ومن غير أن تكون لهم منفعة من وراء ذلك، بل لمجرد المتعة بالإساءة إلى إنسان، وإنهم أحيانًا ليهينون وهم يضحكون، ونادرًا ما يأسف أحد للمهان.

ونتيجة لهذه الأفكار، كانت التجارة تبدو له عملًا مضجرًا، والحلم بالحانوت النظيف الصغير كأنما يذوب في نفسه، فيروح يشعر في صدره بالفراغ، وفي جسده بالتراخي والكسل. وكان يبدو له أنه لن يجني من المال ما ينبغي لفتح حانوت، وسيظل حتى الشيخوخة سارحًا في الشوارع الغبراء الحارة، وعلى صدره الصندوق، وفي كتفيه وظهره الألم من الأحزمة. ولكن التوفيق في التجارة كان يبعث شجاعته من جديد، وينعش الحلم.

وفي شارع من المدينة عامر بالنشاط، أبصر إيليا بباشكا غراتشيف، كان ابن الحداد يمشي على الرصيف مشية شخص يتنزه، غير مستعجل، ويداه مدسوستان في جيبي بنطاله العتيق وفوق كتفيه قميص أزرق طويل كبير عليه، ممزق وسخ هو أيضًا، ونعلاه الكبيران المهترئان يقرعان بكعبيهما على الرصيف الحجري، والكاسكيت المهترئ الحافة مائل بغطرسة على أذنه اليسرى، ونصف رأسه معرّض للسع الشمس، وأما وجه باشكا ورقبته فتغمرهما صبغة كثيفة من الوسخ المتشحم. وقد عرف إيليا من بعيد، فحياه تحية مرحة بحركة من رأسه، ولكنه لم يحث خطاه للقائه، فقال له إيليا:

- يا لك من معنفص!

وشد باشكا على يده بحرارة وانطلق يضحك، وراحت أسنانه وعيناه تلمعان بمرح تحت قناع الوسخ.

- كيف حالك؟

- ماشي الحال، قدر المستطاع، حين يوجد طعام، نأكل، وحين لا يوجد نبكي، وننام ونحن جياع! وأنا مسرور للقائي بك، يضربك قرد!

- ولماذا لا تأتي إلينا أبدًا؟ - سأل إيليا مبتسمًا، وقد كان هو أيضًا مسرورًا برؤية رفيقه القديم على هذه الحال المرحة الوسخة، وقد راح ينظر إلى نعل باشكا، ثم إلى حذائه الجديد هو، وثمنه تسعة روبلات، وابتسم بارتياح.

- وكيف أعرف أين أنت ساكن؟ - قال غراتشيف.

- لا أزال هناك، عند فيليمونوف.

- ولكن باشكا قال إنك تبيع السمك في مكان ما.

وبزهو وخيلاء تحدث إيليا لباشكا عن خدمته عند ستروغاني.

- برافو، عظيم! - هتف غراتشيف مبتهجًا- وأنا أيضًا طردوني من المطبعة بسبب الشيطنة، فرحت أعمل عند رسام في مزج الأصباغ وما شاكل ذلك... وقد قعدت ذات مرة على لافتة رطبة، ليأخذها القرد... أيوه، فأخذوا يجلدونني! وكيف كانوا يجلدون، أولئك الشياطين! رب العمل وزوجته، والأسطى.. جلدوني جلدًا أوشكوا معه أن يموتوا من التعب. وأنا الآن أشتغل عند سنكري، ستة روبلات بالشهر، وقد كنت ذاهبًا للغداء، وأما الآن فأنا ذاهب إلى الشغل.

- أنت غير مستعجل.

- حده جهنم! ومتى ينتهي الإنسان منه؟ لا بد من المرور عليكم.

- تعال. - قال إيليا بلهجة ودية.

- وهل تقرأون الكتب؟

- كيف لا! وأنت؟

- أقرأ قليلًا.

- وتنظم أشعارًا؟

- وأنظم أشعارًا.

ومن جديد قهقه باشكا بمرح.

- تعال، آ؟ وهات معك الأشعار.

- سأجيء.. وسأجلب معي فودكا.

- تشرب؟

- نكرع.. ولكن، خاطرك.

- مع السلامة. - قال إيليا.

وسار في طريقه يفكر بباشكا، وقد بدا له غريبًا أن هذا الفتى ذا الأسمال البالية لم تبدر منه بادرة حسد حيال حذائه المتين وملابسه النظيفة، بل كأنما لم يعرها التفاتًا. وأما حين تحدث إيليا عن حياته المستقلة، فقد ابتهج باشكا. ولقد فكر إيليا في قلق قائلًا في نفسه: ألا يبتغي غراتشيف ما يبتغيه الجميع، لا يبتغي الحياة النظيفة، المطمئنة، المستقلة؟

وكان إيليا يشعر بالاكتئاب والقلق بكثير من الجلاء بعد زيارة الكنيسة، فنادرًا ما كان يتخلف عن القدّاسات وصلوات العصر. لم يكن يصلي، بل يقتصر على الوقوف في مكان ما، في الزاوية، فيصغي إلى التراتيل، غير مفكر بشيء. الناس يقفون بلا حراك، صامتين، وفي صمتهم إجماع. وموجات التراتيل تحوّم في الكنيسة مع دخان البخور، ويخيل لإيليا أحيانًا أنه هو أيضًا يرتفع لفوق، ويسبح في الفراغ الدافئ اللطيف، ضائعًا فيه. وكانت المهابة تهب على روحه، فكان في نفسه ما هو غريب تمامًا عن جلبة الحياة، غير متوافق مع مطامعها. أول الأمر، استقر هذا الانطباع في نفس إيليا بمعزل من الانطباعات المألوفة اليومية، غير مختلط بها، ولا مقلق للفتى المراهق. إلا أنه لاحظ فيما بعد أن شيئًا ما يعيش في قلبه، دائم الرقابة عليه، يختفي رهبة، عميقًا في مكان ما، صامتًا في جلبة الحياة، إلا أنه في الكنيسة ينمو فيثير شيئًا ما خاصًّا، قلقًا، متناقضًا وأحلامه عن الحياة النظيفة، وفي تلك اللحظات كان يتذكر دائمًا الأقاصيص عن الناسك أنتيبا وأقوال اللقّاط الودودة:

«الرب يرى كل شيء، ويعرف محاسبة الجميع.. ما من أحد سواه».

وقد كان إيليا يعود إلى البيت مفعمًا بقلق مبهم، شاعرًا أن حلمه عن المستقبل يتلاشى، وأن في نفسه بالذات شخصًا غير راغب في فتح حانوت الخردوات الصغير.

ولكن الحياة كانت تأخذ مجراها، ويختفي هذا الشخص في أعماق النفس.

كان إيليا يتحدث مع ياكوف عن كل شيء، بيد أنه ما كان يحدثه عن ازدواج شخصيته، وما كان هو نفسه يفكر بهذا الازدواج إلا عند الضرورة؛ فما كانت إرادته تمعن التفكير في هذا الشعور غير المفهوم لديه.

كان يقضي المساء على نحو ممتع؛ فلدى عودته من المدينة، يذهب إلى القبو لعند ماشا، فيسأل بلهجة رب بيت:

- ماشوتكا! كيف حال السماور عندنا؟

ويكون السماور جاهزًا، قائمًا على الطاولة، يبقبق ويصفر. وكان إيليا يجلب معه دائمًا شيئًا ما شهيًّا؛ أقراصًا، وكعكًا مع النعناع، وفطائر مع العسل، وأحيانًا كان يأتي أيضًا بمربى الشمندر، وكان يطيب

لماشا أن تسقيه الشاي. وكانت البنت أيضًا قد أخذت تكسب الفلوس بعملها؛ فقد علمتها ماتيتسا صنع زهور من الورق، وكان يطيب لماشا أن تكوّن ورودًا زاهية من أوراق رقيقة، تخشخش خشخشة مرحة، وكان مكسبها يصل أحيانًا إلى عشرة كوبيكات في اليوم. وقد أصيب أبوها بالتيفوس، فقضى في المستشفى أكثر من شهرين، وعاد منه مهزولًا، نحيلًا، وعلى رأسه خصل من الشعر مجعدة قاتمة جميلة، وكان قد حلق لحيته الشعثاء المهملة، فبدا أصغر سنًّا، على الرغم من حديه الشاحبين الغائرين. وراح كسابق عهده يشتغل لدى الآخرين، بل نادرًا ما كان يظهر في بيته ليلًا للمبيت، واضعًا المنزل تحت تصرف ابنته التام. وباتت هي أيضًا، كالجميع، تدعو أباها بيرفيشكا، وكان الإسكافي يجد السلوى في موقفها منه، وجلي أنه كان يكنّ الاحترام لابنته الجعداء الشعر، القادرة على القهقهة بمرح مثله هو نفسه.

ولقد بات شرب الشاي مساء عند ماشا عادة مألوفة لدى إيليا وياكوف، كانا يظلان يشربان طويلًا، وكثيرًا، والعرق يتصبب منهما، وهما يتحدثان عن كل ما يهمهما؛ إيليا يحكي عما رآه في المدينة، وياكوف، القارئ طول النهار، يحكي عن الكتب، وعن الفضائح في المطعم، شاكيًا أباه، وأحيانًا - وبصورة متزايدة أبدًا- كان يقول شيئًا يبدو لإيليا ولماشا أخرق غير مفهوم. كان الشاي لذيذ للغاية، وأما السماور، وقد غمره الصدأ كليًّا، فقد كان له وجه عجوز جذاب، خبيث لطيف، فعلى نحو دائم تقريبًا، كان السماور، إذ الفتيان في مستهل التذوق للشرب، يشرع بالهدير والزئير، في خبث حليم، ويفرغ من الماء، فتتناوله ماشا وتأخذه لتصب فيه الماء، وكان يتفق لها أن تقوم بهذا العمل عدة مرات كل مساء.

وكان القمر إذا ما طلع صحب نوره الأولاد.

وفي تلك الحفرة المحتضنة بجدران نصف متفسخة، والمغطاة بسقف ثقيل واطئ، كان المرء يحس دائمًا بنقص الهواء والنور، إلا أنها كانت عامرة بالمرح، تبعث في النفس كل مساء الكثير من المشاعر الطيبة والأفكار الساذجة الناشئة.

وكان بيرفيشكا يحضر أحيانًا وقت شرب الشاي، وكان من عادته أن يتخذ له مكانًا في زاوية معتمة من الغرفة على العوارض الخشبية، بالقرب من فرن منزلي جسيم مثبت في الأرض، أو يتسلق على سطح الفرن فيدلي رأسه من هناك، فتلمع في الغسق أسنانه البيض الصغيرة. وكانت ابنته تقدم له كأسًا كبيرًا من الشاي وسكرًا، وخبزًا، فيقول ضاحكًا:

- شكرًا جزيلًا، يا ماريا بيرفيليفنا، إني جد متأثر.

وكان يقول أحيانًا، وهو يتنهد في حسد:

- إنكم، يا أولاد، تعيشون عيشة حسنة، عيشة طيبة جدًّا.. مثل الناس تمامًا.

وبعد ذلك يروح يحكي، مبتسمًا متنهدًا:

- ما الحياة الآن؟ كل شيء يتحسن.. من عام لآخر تزداد الحياة حلاوة للإنسان. حين كنت في عمركم ما كان يتفق لي أن أجري الحديث إلا مع السوط، يبدأ هو بلسع ظهري، فأنبح بكل ما فيَّ من قوة،

فيكف السوط، ويستاء الظهر، ويعبس، ويتأفف، ويحن إلى الصديق اللطيف.. أيوه، ولا يتدلل السوط كثيرًا، فقد كان رقيق العاطفة. هذا كل ما كنت أراه من المسرات، رباه! وأنتم ستكبرون وستتذكرون هذا كله، الأحاديث والأحداث المختلفة، وكل حياتكم الحلوة. وها أنا قد كبرت، وبلغت من العمر السادسة والأربعين، فلا شيء أتذكره.. ولا شرارة! لا شيء أتذكره بتاتًا. كأنما كنت أعمى أصم وأنا في عمركم. إنما أتذكر فقط أن أسناني في فمي كانت تقرع دائمًا من الجوع ومن البرد، والقروح تنمو على شدقي، أما كيف بقيت عظامي وأذناي وشعري سليمة، فهذا ما لا أستطيع له فهمًا. ما بقي شيء لم يضربوني به، أنا المسكين، غير الفرن، أما على جدار الفرن فحدث ولا حرج... أي نعم، كانوا يجهدون، ويعلمون، مثلما الحبل يفتلون... ومع أنهم كانوا لي يضربون، وجلدي يسلخون، ودمي يمصون، ولي أرضًا يطرحون، فالإنسان الروسي بسبع أرواح؛ اهرسه في الهاون يرجع لمحله! إنسان طي...ب، صلب... هاكم أنا؛ كانوا يطحنونني طحنًا، كانوا يفرونني فريًا، ومع ذلك فأنا أعيش كالوقوق، أفرفر في المطاعم، مسرورًا بالدنيا كلها.. الله يحبني.. تطلع إليّ مرة، فأخذ يضحك، وقال: إيه، ويلك! ثم أعرض عني، ونفض يده مني.

ويسمع الشباب كلام الإسكافي المسجع، فيضحكون، وكان إيليا أيضًا يضحك، ولكن كلام بيرفيشكا كان يوقظ في نفسه على الدوام الفكرة الثابتة ذاتها. وقد سأل الإسكافي ذات مرة بابتسامة شك وريبة:

- أتراك لا تشتهي شيئًا؟

- من يقول هذا؟ أنا مثلًا، أشتهي الشراب دائمًا.

- لا، قل الصدق؛ أتشتهي شيئًا ما؟ - سأل إيليا في إلحاح.

- الصدق؟ طيب.. أشتهي... يا ليت.. هارمونيكا! فيا حبذا لو تكون عندي هارمونيكا حلوة.. بعشرين روبلًا، بخمسة وشعرين! يا سلام!

وراح يضحك بصوت خافت، ولكنه ما لبث أن سكت في الحال، وفكر قليلًا، وقال لإيليا عن يقين تام:

- لا يا أخ، ما لازم لي هارمونيكا.. أولًا، الغالية أبيعها فأشرب بثمنها. ثانيًا، قد تظهر فجأة أسوأ من التي عندي، فعندي الآن هارمونيكا، يا لها، ما أحسنها... لا تقدر بثمن! روحي ساكنة فيها. عندي هارمونيكا نادرة، لعلها الوحيدة من نوعها في العالم.. الهارمونيكا مثل الزوجة... هاك، كان عندي زوجة أيضًا، ملاك، لا إنسان، فإذا كان عليَّ الآن أن أتزوج، فكيف يمكن ذلك؟ لن أجد زوجة أخرى كالتي كانت... لا بد لي حتمًا أن أقيس الزوجة الجديدة على مقياس القديمة، فتبدو أضيق منها... وتكون الحال بسبب ذلك أسوأ عليّ وعليها.. إيه! ليس الحلو هو الحلو، يا أخ، بل هو ما تحب.

كان إيليا موافقًا على مدائح الإسكافي لهارمونيكاه، فقد كانت آلة بيرفيشكا موضع الإعجاب الشامل لدى الجميع برنتها. ولكن إيليا ما كان يستطيع أن يصدق أن ليس لدى الإسكافي أي رغبات، وقد كان لونيف يواجه سؤالًا محددًا: أمن الممكن أن يكون امرؤ، يعيش حياته كلها في قذارة، ويلبس الأسمال، ويسكر ويحسن العزف على الهارمونيكا، غير راغب بما هو أحسن؟ وقد كانت هذه الفكرة تخوله اعتبار بيرفيشكا مصابًا بلوثة في عقله، ولكنه كان في الوقت نفسه يرقب الرجل اللامبالي باهتمام

وارتياب، ويشعر بأن الإسكافي خير الناس جميعًا في هذا البيت، وإن يكن سكيرًا، لا هو في العير ولا في النفير.

وكان الفتية يتناولون في بعض الأحيان مسائل ضخمة عميقة تنفتح أمام الإنسان، كأنها الأغوار ليس لها مقر، فتجتذب عقله المستطلع وقلبه بسلطان ظلمتها المبهمة. كان ياكوف هو الذي يثير هذه المسائل، وكانت قد نشأت لديه عادة غريبة، إذ بات يلتصق بكل شيء كأنما هو يشعر بنفسه مترنحًا على ساقيه، وإذا ما جلس، فهو إما مسند كتفه إلى شيء قريب أو واضع يده بإحكام عليه، وإذا مشى في الشارع بخطوات سريعة، إلا انها غير متساوية، راح لأمر ما يلمس الأعمدة بيده، كأنما هو يعدّها، أو يدسها في الأسيجة كأنما هو يختبر متانتها. وأثناء شرب الشاي لدى ماشا كان يقعد تحت النافذة، مسندًا ظهره إلى الجدار، وأصابع يده الطويلات متشبثات أبدًا بالكرسي أو بطرف الطاولة، وكان، وهو مائل برأسه الكبير، ذي الشعر الأملس الناعم بلون قشر الخيزران الطري، يتطلع إلى محدثيه، والعينان الزرقاوان في وجهه الشاحب، تارة توصوصان وتارة تحملقان. وكان، على سابق عهده، يحب أن يحكي عن أحلامه، وما كان يستطيع قط عرض موجز للكتاب الذي قرأه غير مضيف من لدنه شيئًا ما غريبًا. وكان إيليا يلقطه بهذا، ولكن ياكوف ما كان يرتبك، بل يكتفي بالقول:

- مثل ما حكيت أحسن. على أن الكتاب المقدس وحده هو الذي لا يجوز للمرء تفسيره على هواه، أما الكتب العادية فيمكن؛ فهي مكتوبة من قبل البشر، وأنا من البشر؛ أستطيع التصحيح إذا كان لا يعجبني... كلا، إنما هاك قل لي أنت؛ حين تنام، أين تكون الروح؟

- ومن أين لي أن أعرف؟ - أجاب إيليا، وهو غير محب لهذا النوع من الأسئلة؛ فقد كانت تبعث في نفسه اضطرابًا كريهًا.

وأعلن ياكوف قائلًا:

- أعتقد أن من الصحيح أنها تطير.

- طبعًا، تطير - قالت ماشا في ثقة ويقين.

فسألها إيليا بلهجة جافة:

- وكيف تعرفين أنت؟

- هكذا.

فقال ياكوف، وهو يبتسم مفكرًا:

- تطير... فهي أيضًا لا بد لها من الراحة، ومن هذا تكون الأحلام.

وكان إيليا، وهو غير عارف ما يقول في هذا، يلوذ بالصمت، رغم أنه يحس في نفسه على الدوام رغبة شديدة في الاعتراض على رفيقه. وكان الجميع يسكتون بعض الوقت، وأحيانًا بضع دقائق. ويحس المرء كأنما ازدادت الحفرة المعتمة ظلامًا على ظلام، ويدخن المصباح، وتنتشر رائحة الفحم

من السماور، وتصل إلى المسامع ضجة صماء غريبة؛ فالمطعم، فوق، يهدر ويزمجر. ومن جديد، كان ينطلق صوت ياكوف الخافت:

- الناس يصخبون... يشتغلون وما إلى ذلك؛ بالاختصار- يعيشون، ثم.. هوب! فإذا الإنسان يموت... ما معنى هذا؟ ما رأيك أنت يا إيليا، آ؟

- لا يعني شيئًا... تحل الشيخوخة، فلا بد من الموت.

- يموت شباب وأطفال، يموت من هم في عافية.

- إذا كانوا يموتون، فمعنى ذلك أنهم ما كانوا في عافية.

- ولماذا يعيش الجميع؟

- بلّش[13] ! - هتف إيليا ساخرًا- يعيشون ليعيشوا، يشتغلون، يدركون النجاح، كل يريد العيشة الطيبة، يبحث عن الفرصة السانحة ليصبح بشرًا.

الجميع يبحثون عن مثل هذه الفرص السانحة؛ لكي يغتنوا، ويعيشوا عيشة صافية.

- هكذا الفقراء، والأغنياء؟ كل شيء عندهم.. فعمّ يبحثون؟

- آه، يا أبله! الأغنياء.. إذا كانوا غير موجودين، فلمن يشتغل الفقراء؟

وفكر ياكوف ثم سأل:

- يعني أن الجميع، في رأيك، يعيشون للشغل؟

- أي نعم... لا الجميع تمامًا، بعضهم يشتغلون، والآخرون يعيشون هكذا فقط، سبق لهم أن اشتغلوا كثيرًا، وجمعوا المال.. وهم يعيشون.

- ولماذا؟

- للقرد! يشتهون العيش أم لا؟ أما تشتهي العيش أنت؟- صاح إيليا غاضبًا على رفيقه، ولكنه كان من شأنه أن يستصعب الجواب عن سبب هذا الغضب؛ ألأن ياكوف يسأل عن مثل هذه الأمور، أم لأنه يسيء طرح الأسئلة؟ وقد صاح برفيقه قائلًا:

- وأنت لماذا تعيش، آ؟

فقال ياكوف باستسلام:

- لا أعرف... أتمنى لو أموت... رهيب، ومع ذلك فهو أمر طريف.

وفجأة أخذ يتكلم بصوت حنون لائم:

- إنك تغضب، ولكن من غير داع. فكّر أنت؛ يعيش الناس للشغل، والشغل لهم.. وهم؟ ينشأ دولاب... يدور، ويدور، ولكنه يظل في مكانه. وغير مفهوم لماذا؟

وأين الرب؟ ذلك هو المحور، الرب قال لآدم وحواء: تناسلا، تكاثرا، واسكنا الأرض.. ولكن لماذا؟

وانحنى ياكوف على رفيقه، وقال في همس مغمض، وعيناه الزرقاوان في خوف:

- أتعرف لماذا؟ كان هذا أيضًا قد قيل، كان قد قيل لماذا. ولكن أحدًا ما سلب هذا من الرب، سرق هذا التفسير، وأخفاه.. وفاعل هذا هو الشيطان.. ومن يفعله غيره؟ الشيطان! ولهذا لا يعرف أحد لماذا؟

كان إيليا يسمع كلام رفيقه غير المترابط، ويشعر أن هذا الكلام يستأثر به، فيلتزم الصمت.

وأما ياكوف فكان يتكلم باستعجال مطرد، وخفوت متزايد، وعيناه تجحظان، والهلع يرتعش على وجهه الشاحب، فما كان يمكن فهم شيء من كلماته.

وفجأة ينحسر سيل كلامه عن هذه الصيحة المهيبة:

- وماذا يريد الرب منك؟ أتعرف؟ ها- ها؟!

ومن جديد تروح تنهمر من فمه كلمات لا ترابط بينها. وكانت ماشا تصغي إلى صديقها وحاميها فاغرة فاها دهشة، وإيليا يقطب حاجبيه في غضب، مستاء من عدم الفهم؛ فقد كان يعتبر نفسه أذكى من ياكوف، بيد أن ياكوف كان يذهله بذاكرته المدهشة وقدرته على الكلام حول مختلف الحكم، ويكلّ من الاستماع والصمت، ويشعر أن ضبابًا ثقيلًا يتكاثف في رأسه، فيقول أخيرًا مقاطعًا الخطيب في غضب:

- رح للقرد! قرأت كثيرًا، وأنت نفسك لا تفهم شيئًا.

ويصيح ياكوف في دهشة:

- نعم، وأنا أقول إني لست أفهم شيئًا!

- إذن قل بصراحة؛ لا أفهم. ولكنك تخلط كالمجنون.. وعليّ أنا أن أسمعك!

- كلا، اصطبر. - يقول ياكوف غير متراجع- الواقع أن لا شيء يمكن فهمه.. خذ، مثلًا، المصباح، النار، من أين هي؟ فجأة تكون، وفجأة لا تكون! حك عود الكبريت، تشتعل.. فهي إذن موجودة دائمًا... فهل تطير في الهواء غير مرئية؟

ومن جديد يستأثر هذا السؤال بإيليا، ويزول عن وجهه تعبير الاحتقار، فينظر إلى المصباح ويقول:

- لو كانت موجودة في الهواء لكان الدفء موجودًا على الدوام، ولكن عود الكبريت يشتعل في الصقيع أيضًا، فهي إذن غير موجودة في الهواء.

- وأين يا ترى؟ - يسأل ياكوف، ناظرًا إلى رفيقه بتأمل:

- في عود الكبريت.- تقول ماشا مدلية بصوتها.

ولكن صوت البنت، أثناء محاورات الرفيقين حول حكم الوجود، كان يضيع دائمًا من دون جواب. ولقد ألفت هذا، فما كانت تشعر بالاستياء.

- أين؟ - يصيح إيليا من جديد مهتاجًا- لا أعرف. ولا أريد أن أعرف. أعرف أن اليد لا ينبغي أن تدس فيها، أما التدفئة بالقرب منها فممكنة، وبس!

- يا سلام عليك! - يقول ياكوف متحمسًا مستاء- «لا أريد أن أعرف!». أنا أيضًا أقول هذا، وكل أبله... كلا، بل بيّن أنت من أين النار؟ عن الخبز أنا لا أسأل، فكل شيء هنا ظاهر؛ من الحبة- الحبوب، ومن الحبوب- الطحين، ومن الطحين- العجين، فإذا كل شيء جاهز! ولكن كيف يولد الإنسان؟

وبدهشة وحسد ينظر إيليا إلى الرأس الكبير الذي يحمله رفيقه، ولقد كان يشعر بنفسه أحيانًا محطمًا بأسئلته، فيقفز من مكانه وينطق بأقوال قاسية. وفي هذه الظروف كان، وهو البدين العريض، يدنو دائمًا من المدفئة لأمر ما، فيستند إليها بكتفيه فيقول هازًّا رأسه الأجعد الشعر، قارعًا بالكلمات قرعًا شديدًا:

- أنت مخلوق أخرق، تلك هي المسألة! وكل هذا إنما يتسرب إلى رأسك من جراء البطالة. فما هي حياتك؟ الوقوف خلف البوفيه ليس بالأمر العظيم الأهمية؛ تظل واقفًا طول عمرك كالعمود، ولو أنك كنت مثلي تجوب المدينة من الصباح حتى المساء، كل يوم، وتبحث بنفسك لنفسك عن النجاح، لما كنت فكرت بالترّهات، بل فكرت كيف تصبح من البشر، وكيف تغتنم فرصتك. إن رأسك كبير لأنه محشوّ بالسخافات، فالأفكار الذكية صغيرة، لا ينتفخ منها الرأس.

كان ياكوف يستمع إليه ويلتزم الصمت، منطويًا على الكرسي، متشبثًا بشيء ما تشبثًا شديدًا بيديه، وكانت شفتاه تتحركان أحيانًا من غير صوت، وعيناه تطرفان بتسارع.

أما حين يجلس إيليا إلى الطاولة، وقد أنهى كلامه، فقد كان ياكوف يشرع مجددًا بالتفلسف:

- يقال إنه يوجد كتاب - علم- السحر الأسود، وكل شيء موضح فيه، لو أجد مثل هذا الكتاب فأقرأه... لا شك أنه رهيب!

وتنتقل ماشا من الكرسي إلى سريرها، فتروح تنظر من هناك بعينيها السوداوين، تارة إلى هذا وتارة إلى ذاك، ثم تأخذ بالتثاؤب والتمايل، وترتمي أخيرًا على المخدة، فيقول إيليا:

- حان وقت النوم.

- اصطبر.. سأغطي ماشا وأطفئ النور.

ولكنه ما إن يرى إيليا قد مد يده وهمَّ بفتح الباب، حتى يلتمس منه في استعجال وبصوت نائح:

- اصطبر! أخاف لوحدي؛ الجو معتم.

فيصيح به إيليا باحتقار:

- أسفاه! عمرك ستة عشر عامًا، ولا تزال طفلًا، صغيرًا، وكيف لا أخاف أنا أي شيء، آ؟ لا أصبح مرتعبًا، ولو لقيت الشيطان!

وينهمك ياكوف صامتًا قرب ماشا، ثم ينفخ على شعلة المصباح باستعجال، فيرتعش النور، ويتلاشى، وتجتاح الظلمة كل مكان في الغرفة من غير ضجيج، على أن أشعة القمر اللطيفة كانت تتسرب، أحيانًا، إلى الأرض، عبر النافذة.

عاد لونيف إلى البيت ذات مرة، يوم عيد، شاحب الوجه، شادًّا على أسنانه، وارتمى على السرير، دون أن يخلع ثيابه. الحقد في صدره كتلة باردة، وفي رقبته وجع غامض يمنعه من تحريك رأسه، وكأنما جسده كله موجوع من المهانة التي نزلت به.

ففي صباح ذلك اليوم سمح له شرطي، مقابل قطعة صابون مصنوع من البيض، ودزينة صنارات، بأن يقف ببضاعته قرب السيرك، حيث كان يجري عرض نهاري، فاتخذ إيليا، بحرية، مكانًا له عند مدخل السيرك، ولكن جاء مساعد رئيس قسم الشرطة، فصفعه على رقبته، وقلب برجله المسند الذي كان يرتكز عليه الصندوق، فاندلقت البضاعة على الأرض، وتعطلت بعض الأشياء؛ إذ وقعت في الوحل، وضاع غيرها، وقال إيليا للمساعد، وهو يجمع البضاعة من الأرض:

- هذا غير قانوني، يا صاحب السعادة.

- كي...ف؟ - سأل المعتدي، وهو يفتل شاربيه الأشقرين.

- ممنوع الضرب.

- نعم؟ ميغونوف.. خذه إلى المخفر! - أمر المساعد برصانة.

وكان ذلك الشرطي بالذات الذي سمح لإيليا بالوقوف قرب السيرك، هو الذي ساقه إلى المخفر، حيث أبقوه موقوفًا حتى المساء.

كان يتفق لإيليا من قبل أيضًا أن يصطدم برجال الشرطة، أما في المخفر، فكانت تلك أول مرة يحبس فيها، وكانت تلك أول مرة شعر فيها بكل هذا الاستياء والحقد في نفسه.

كان وهو مستلق على السرير مغمضًا عينيه، منطويًا بكل كيانه على الإحساس بثقل أليم المرارة في صدره، ومن خلف الجدار، كان يصطخب في المطعم ضجيج وهدير، كأنما ثمة أنهار صغيرة سريعة عكرة تجري منحدرة من جبل، في يوم خريفي غائم؛ صواني التنك تطنطن، والأواني تقرقع، وأصوات منفردة عالية تطلب الفودكا، والشاي، والبيرة... والمستخدمون يصيحون:

- حاضر.

وبنغمة حزينة، يغني صوت حلقي مرتفع، شاقًّا الضجيج بسلك فولاذي راعش:

م - مآ كنت آمل... أن تضيعا...

فيرد صوت آخر، أجش رنان، سابحًا في فوضى الأصوات، بنغمة خافتة جميلة:

و - وآ لقد أضعتك... يا شبآ.... بي ويروح أحدهم يصرخ كأنما له حنجرة من خشب، يابسة، مشققة:

- تكذب! إنما قيل: «فإنك إذ قد حفظت كلمة صبري، فأنا أحفظك من ساعة التجربة».

- أنت نفسك تكذب،- يقول أحدهم معترضًا عليه بعناد وحرارة- بل قيل هناك أيضًا: «ربما أنك فاتر لا حرٌّ ولا باردٌ فقد أَوْشَكْتُ أن أَتَقَيَّأَك من فمي».. هه! أيوه، صدّقت؟

وانطلقت قهقهة صاخبة، لعلع على أثرها صوت كقرع الرصاص:

- على وجهها صفعتها، على وجهها الحلو.. وعلى أذنها، وعلى أسنانها! خذي، خذي خذي!

وراحوا يقهقهون، وأما الصوت الملعلع فقد تابع متقطعًا:

- انخبطت على الأرض.. ومن جديد نزلت بها صفعًا على وجهها الظريف، ومن جديد على وجهها اللطيف.. خذي! كنت أنا أول من قبّلها، وأنا أوّل من شوهها.

- يا حافظ الكتاب المقدس! - صاح أحدهم ساخرًا.

- كلا، إن غضبي سيظل يثور.

- «أنا أحب، وأنا أتهم، وأنا أعاقب».. أنسيت؟ وقول آخر: «لا تحاكم الناس فلا يحاكمونك».. إنه كمان قول الملك داود... هل نسيت؟

كان إيليا يسمع الجدال، والغناء، والقهقهة، ولكن هذا كله كان يترامى بعيدًا عنه غير باعث الأفكار

في نفسه؛ فقد كان يسبح أمامه في العتمة وجه نحيل، أقني الأنف، هو وجه مساعد رئيس مخفر الشرطة، وفي هذا الوجه تبرق عينان شرستان ويتحرك شاربان أشقران. وكان هو يتطلع إلى هذا الوجه ويصر بأسنانه بشدة متزايدة، ولكن الغناء كان يتعاظم خلف الجدار، والمغنون يتحمسون، وأصواتهم ترن جسورة عالية، ووجدت النغمات الحزينة دربها إلى صدر إيليا وراحت هناك تلامس الكتلة الجليدية من الحقد والاستياء.

طال بي التسيار أنا الفتى الكريم...

من منبع الأنهار إلى الذرى، أهيم...

ويندغم كلا الصوتين في التحسر:

كل أرجاء سيبيريا جبتها ناشدًا دربي إلى بيتي...

وراح إيليا يتنهد وهو يصغي إلى الكلمات الحزينة، وقد كانت هذه الكلمات تشع في صخب المطعم كأنها الكواكب الصغيرة وسط السحب في السماء، السحب تجري مسرعة، والنجوم تتألق تارة، وتختفي طورًا.

ولكم جعت فعضّضت لساني ولكم ضرسني البرد بنابه...

كان إيليا يفكر في أن هؤلاء الناس يغنون الآن، ويجيدون الغناء بحيث يأسر غناؤهم النفس، ولكنهم يكثرون بعد ذلك من شرب الفودكا، وقد يروحون يتضاربون؛ فليس لدى الإنسان ذخيرة من الطيبة لمدة طويلة.

ويتشكى الصوت المرتفع:

حظي الأسود، ويحك!

فيرد عليه الصوت الأجش بقوة وكثافة:

أنت حمل من حديد...

واستعادت ذاكرة إيليا من الماضي صورة الشيخ إيرميا، فقد كان يقول، هازًّا رأسه، والدموع على خديه:

- كنت أنا أتطلع، وأتطلع، وأما الحقيقة فما كنت أراها.

وفكر إيليا بأن الشيخ إيرميا كان يحب الله ويجمع المال خفية. أما عمته تيرنتي فيخاف الله، ولكنه سرق المال سرقة. فالناس جميعًا مزدوجون دائمًا نوعًا ما في داخل نفوسهم، وكأن في صدورهم ميزانًا، وقلبهم يميل، كَسَهم الميزان، تارة إلى هذا الجانب، وطورًا إلى ذاك، وازنًا ثقل الطيب والخبيث.

- ها- ها! زمجر أحدهم في المطعم- وعلى إثر ذلك سقط شيء ما، خبط الأرض بقوة ارتجف منها السرير تحت إيليا.

- قف! يا رب.

- أمسكه.

- أغيثوني.

واشتدت الضجة دفعة واحدة، واضطرمت، وانبعثت جملة من الأصوات الجديدة، وراحت جميعًا تدور، وتزمجر، وترتعش في الهواء، متشابكة بعضها ببعض، كجمع من الكلاب الشرسة الجائعة.

كان إيليا يصغي بارتياح، وقد طاب له أن قد حدث ما كان يتوقع بالضبط، وما يؤكده أفكاره عن الناس. ودس يديه تحت رأسه واستسلم لسلطان التفكير.

- «... ينبغي أن يكون جدي قد ارتكب معصية كبرى، ما دام قد قضى ثماني سنوات متواليات يستغفر عنها في صمت، والناس قد غفروا له كل شيء، وكانوا يتحدثون عنه باحترام، ويسمونه بالصالح، أما ولداه فقد دمروهما؛ أحدهما طردوه إلى سيبيريا، والآخر رحّلوه عن القرية..».

وتذكر إيليا أقوال التاجر ستروغاني الرصينة:

«هنا لا بد من حساب خاص! إذا كان ثمة واحد شريف، وتسعة سفلة، فما من خاسر، ولكن الإنسان يضيع، الأكثرون هم الذين على حق...».

وابتسم إيليا ابتسامة ساخرة، وكالأفعى الباردة تسلل إلى صدره شعور حاقد على الناس، وظلت ذاكرته تدفع أمامه بصور معروفة، وكانت ماتيتسا تتجرجر في الوحل وسط باحة البيت، طويلة متثاقلة، وتئن:

- يا مامتي... يا مامتي الحبيبة... لو تنظرين لحالي!

وكان بيرفيشكا السكران يقف بالقرب منها، مترنحًا على قدميه، ويقول لها موبخًا:

- شربت... يا خنزيرة!

وكان بتروخا، الكامل الصحة المتورد الوجه، واقفًا على عتبة البيت ينظر إليهما مبتسمًا بازدراء.

وكان حادث المطعم قد انتهى، وراحت ثلاثة أصوات -اثنان أنثويان وواحد صادر عن رجل- تحاول الابتداء بأغنية، فلا توفق إلى ذلك. وتناول أحدهم هارمونيكا فعزف عليها قليلًا عزفًا سيئًا، ثم سكت.

ولعلع صوت بيرفيشكا مغطيًا على كل صخب المطعم، وكان الإسكافي يصيح بصوت منغم متعجلًا في كلامه:

- ياللا صبّي، يا حصالة، صبّي وزيدي يا حصالة، مال صاحبك، يا حصالة، لا توفريه، يا حصالة!

نشرب ونحب النسوان، ونطلب من مال الإحسان! خيط من هنا وخيط من هنا، وحبل الشنق جاهز لنا، والهارب من حبل الشنق، يختنق لحاله خنق.

فانطلقت قهقهة مرحة، وصيحات استحسان.

ونهض إيليا فخرج إلى الباحة وتوقف في مدخل البيت، تملأ جوانحه الرغبة في الذهاب إلى مكان ما، غير عارف إلى أين تراه يذهب؟ كان الوقت قد بات متأخرًا، وماشا نائمة، وياكوف قد أصابه الدوَّار والصداع من غاز الفحم، وقد أوى إلى فراشه في بيته، وما كان إيليا يحب التردد إلى هناك؛ إذ كان بتروخا، لدى رؤيته، يقطب حاجبيه دائمًا تقطيبة بشعة. وكانت تعصف رياح الخريف الباردة، والباحة ممتلئة بعتمة كثيفة تكاد تكون فاحمة، والسماء غير مرئية، وجميع الأبنية الملحقة في الباحة تبدو قطعًا ضخمة من الظلام المكثف بفعل الرياح. وفي الجو الرطب كان ثمة شيء ما يخبط ويوشوش، ويسمع همس خافت غريب، شبيه بأنين بشري يتحسر على الحياة، والرياح تتهاوى على صدر إيليا، وتعصف عصفًا شديدًا على وجهه، وتلفحه بالبرودة خلف طوقه... ولقد كان إيليا يرتعش؛ إذ يفكر أن العيشة على هذا النحو غير ممكنة على الإطلاق، غير ممكنة! فلا بد من الذهاب إلى مكان ما بعيدًا عن كل هذا الصخب القذر والفساد، لا بد له من العيش لوحده، عيشة طيبة، هادئة... وفجأة انطلق صوت خافت:

- من الواقف؟

- ومن المتكلم؟

- أنا... ماتيتسا.

- وأين أنت؟

- جالسة على الحطب.

- ولماذا؟

- هكذا.

ولزم كلاهما الصمت، ثم أعلنت ماتيتسا قائلة من العتمة:

- اليوم ذكرى وفاة أمي.

- وهل ماتت منذ وقت بعيد؟ - سأل إيليا لكي يقول شيئًا ما.

- من زمان.. من حوالي خمسة عشر عامًا، أو أكثر. وأمك، هل هي حية؟

- كلا... هي أيضًا ماتت. وكم عمرك أنت؟

صمتت ماتيتسا قليلًا، ثم قالت في صفير:

- حوالي الث....ثلاثين... رجلي هذه موجوعة... متورمة مثل البطيخة، وهي تؤلمني، ولكم دلكتها بكل شيء، فما ساعد ذلك.

وفتح أحدهم باب المطعم، فانهالت من هناك على الباحة مجموعة من الأصوات الصاخبة، وتناولتها الرياح فنثرتها في الظلام.

وسألت ماتيتسا:

- ما لك واقف هنا؟

- هكذا... ضجرت.

- مثلي... هناك عندي، كما في التابوت.

وسمع إيليا تنهيدة ثقيلة، ثم قالت له ماتيتسا:

- أنذهب إلى بيتي؟

وتطلع إيليا جهة صوت المرأة، وأجاب من غير مبالاة:

- هيا بنا.

سارت ماتيتسا أمام إيليا على السلم الصاعد إلى العُليّة، كانت تضع أولًا رجلها اليمنى على الدرجة، ثم تتنهد تنهدة ثقيلة وترفع رجلها اليسرى إلى فوق ببطء.

وتبعها إيليا غير مفكر بشيء، وببطء هو أيضًا، كأنما كان عبء السأم يعيقه هو عن الصعود، كما يعيق الوجع ماتيتسا.

كانت غرفة المرأة ضيقة، طويلة، أما سقفها فكان له شكل غطاء تابوت، وكانت إلى جانب الباب مدفأة، وقرب الجدار سرير عريض يستند بظهره إلى المدفأة، ومقابل السرير طاولة وكرسيان إلى جانبها، وكان ثمة كرسي آخر قرب النافذة، يؤلف بقعة قاتمة على الجدار الكالح، وكان صخب الرياح ونباحها مسموعين هنا على نحو أشد. وجلس إيليا على الكرسي قرب النافذة، وراح يتطلع إلى الجدران، ثم سأل وقد لاحظ وجود أيقونة صغيرة في الزاوية:

- ما هذه الأيقونة؟

- القديسة آنا.. - قالت ماتيتسا باحترام وصوت خافت.

- وأنتِ ما اسمك؟

- آنا أيضًا... أما كنت تعرف؟

- كلا.

- لا أحد يعرف. - قالت ماتيتسا، وهي تجلس على السرير بتثاقل. كان إيليا ينظر إليها، إلا أنه ما كان يشعر بالرغبة في الكلام. وصمتت المرأة أيضًا... وهكذا قعدا صامتين وقتًا طويلًا، قرابة ثلاث دقائق، وكأنما لا يلاحظ كل منهما وجود الآخر. وأخيرًا، سألت المرأة:

- أيوه، وماذا سنعمل؟

- لا أدري. - أجاب إيليا.

- أيوه طبعًا، - قالت المرأة ضاحكة ضحكة مفتعلة، غير واثقة- ولكن ضيّفني اشتر زجاجتين من البيرة... لا، بل اشتر لي طعامًا؛ لا حاجة لشيء، إلا للطعام فقط.

وانقطع صوتها، وسعلت، ثم تابعت تقول بلهجة تنم عن الشعور بالذنب:

- لعلك ترى... منذ أصيبت رجلي بالعلة، لم يبق لي مورد؛ فلست أخرج، وقد أنفقت كل شيء... خمسة أيام وأنا قاعدة هكذا... أمس ما أكلت شيئًا تقريبًا، أما اليوم فما ذقت الطعام أبدًا والله، إني أقول الصدق!

هنا فقط تذكر إيليا أن ماتيتسا مومس، فراح يمعن النظر في وجهها الكبير، فرأى أن عينيها السوداوين تبسمان بعض الشيء، وأما شفتاها فتتحركان كأنما هي تمص شيئًا غير مرئي، فانبثق في داخله شعور بالارتباك أمامها والاهتمام الشديد الغموض بها.

- سآتي بذلك حالًا.

ونهض بسرعة وهرع على عجل يركض على السلم إلى مدخل المطعم، وتوقف أمام الباب المؤدي إلى المطبخ، وأحس فجأة بعدم الرغبة في العودة إلى العلية، ولكن هذه النفرة التمعت في العتمة الكئيبة من نفسه، كما تلتمع الشرارة، وانطفأت في الحال، فدخل المطبخ، واشترى من الطاهي - بعشرة كوبيكات- نتفًا من اللحم المسلوق، وقطعًا من الخبز، وكذلك بقايا من طعام ما. ووضع الطاهي كل هذا في منخل عليه بقع من الشحم، فتناوله إيليا بكلتا يديه، كما يحمل الصحن، وفيما هو ماض إلى المدخل، توقف من جديد، منشغل الفكر بكيفية الحصول على البيرة، فليس يمكن أن يشتريها بنفسه من البوفيه؛ إذ قد يسأله تيرنتي ما الذي يدعوه لذلك؟ فاستدعى من المطبخ غسَّال الأواني ورجاه بأن يشتري له، فهرع الغسَّال إلى البوفيه، وعاد، فدس الزجاجتين صامتًا، وأمسك بذراع باب المطبخ، فقال له إيليا:

- انتظر... هذا ليس لي... إنما جاءني رفيق.

- ماذا؟ - سأله غسَّال الأواني.

- سأضيِّف رفيقًا.

- ها ها... أيوه، وما له.

وشعر إيليا أن لم يكن ثمة داع للكذب، فأحس بالارتباك، وصعد إلى فوق غير مستعجل، منصتًا لكل شيء بسمع مرهف، كأنما هو يتوقع أن يوقفه أحد. ولكن لم يكن مسموعًا غير صخب الرياح، وما أوقف الشاب أحد، وصعد إلى العلية قاصدًا المرأة، ممتلئًا بإحساس شبق واضح لديه، وإن يكن لا يزال وجلًا متهيبًا.

وضعت ماتيتسا المنخل على ركبتيها، وأخذت تتناول منه بأصابعها الكبيرة لقمًا كالحة من الطعام، فتدسها في فمها المنفغر واسع الانفغار، وتروح تلوكها مطقطقة بحنكيها طقطقة عالية. كانت لها أسنان ضخمة حادة، وقبل تقديم اللقمة لهذه الأسنان كانت تمعن النظر إليها من جميع أطرافها كأنما هي تبحث فيها عن أمكنة ألذّ مذاقًا.

وكان إيليا يحدق النظر إلى المرأة، مفكرًا في أمر معانقته لها كيف تراها ستتم، وخائفًا من أنه لن يستطيع فعل ذلك، فتروح تضحك عليه؛ فأحس من جراء هذه الفكرة بالنار تصعد إلى وجهه، وبقشعريرة من البرد تستولي على كيانه.

كانت الرياح التي تهب من الكوة على العلية تلطم باب الغرفة، وكلما اهتز الباب ارتعد إيليا متوقعًا حضور أحد في الحال ومفاجأته هنا.

- أأغلق الباب؟ - قال إيليا.

فوافقت ماتيتسا صامتة بإيماءة من رأسها، ووضعت المنخل على مقعد خشبي قرب المدفأة، ورسمت إشارة الصليب.

- الحمد لك يا رب... ها قد شبعت المرأة.. إيه... قليل ما يحتاج إليه الإنسان!

وظل إيليا ملتزمًا الصمت، فتطلعت إليه المرأة، وتنهدت واستأنفت تقول:

- ومن يرد الكثير يطلب منه الكثير.

- ومن الذي يطلب؟ - قال إيليا.

- الرب!

ومن جديد لم يرد عليها إيليا؛ ذلك أن اسم الرب في فمها قد بعث في نفسه شعورًا حادًّا، إلا أنه مبهم، لا يعبر عنه بكلمة، وراح هذا الشعور يعترض رغبته في معانقة هذه المرأة. واستندت ماتيتسا بيديها على السرير ونهضت بجسمها الضخم ودفعت به إلى الجدار، ثم راحت تتكلم من غير مبالاة بصوت من خشب:

- كنت وأنا آكل أفكر طول الوقت ببنت بيرفيشكا، إني أفكر بها منذ وقت طويل، إنها تعيش معكما - أنت وياكوف- أعتقد أنها نتيجة لذلك لن تكون سليمة من العيب، ستفسدان البنت قبل الأوان، فتمشي إذ ذاك على دربي، ودربي نجس ملعون، لا تمشي فيه النسوة والبنات مشيًا، بل يزحفن زحفًا كالديدان.

وصمتت لحظة ثم استأنفت الكلام، ناظرة إلى يديها المبسوطتين على ركبتيها:

- ستكبر البنت سريعًا، وقد سألت معارفي الطباخات وغيرهن من النسوة، ألا يوجد يا ترى مكان للبنت تشتغل فيه؟ فقلن لا يوجد مكان.. قلن بيعيها؛ سيكون هذا أحسن لها؛ يعطونها مالًا ويكسونها، ويعطونها شقة أيضًا.. يحدث هذا، يحدث.. غني من الأغنياء، حين يدب الوهن إلى جسمه ويعتريه الهرم، ولا تعود تحبه النساء مجانًا، مثل هذا السافل يشتري له بنتًا... قد يكون هذا حسنًا لها، ومع ذلك فلا بد أن يكون مقرفًا أول الأمر.. على كل حال يكون أفضل من دون هذا... يكون أفضل لها أن تعيش جائعة وطاهرة، من أن...

وراحت تسعل كأنما شرقت بكلمة ما، ولكنها أكملت عبارتها بلهجة غير مبالية:

- من أن تكون نجسة وجائعة.

كانت الرياح لا تزال تهب على العلية، وتخبط الباب بشدة.

ولم يكن صوت المرأة غير المبالي، وسحنتها الثقيلة الجامدة يتيحان لشعور إيليا أن يتطور ويبعثان في نفس الشاب الجسارة التي لا بد منها للتعبير عن مشتهاه.

وكأنما كانت ماتيتسا تدفعه أبعد فأبعد، وقد كان هو يلاحظ ذلك ويثور به الغضب عليها.

- يا رب، يا ربي! - قالت المرأة، متنهدة بصوت خافت- يا مريم العذراء!

فتحرك إيليا على كرسيه بغضب، وقال بصوت مكتئب:

- تسمين نفسك نجسة وتظلين أنت نفسك طول الوقت تقولين: يا رب، يا رب! أتحسبين أنه محتاج لهذا منك؟

فتطلعت إليه ماتيتسا، وصمتت قليلًا وراحت تهز رأسها:

- لست أفهم كلامك!

- لا حاجة هنا للفهم! - تابع إيليا يقول، وقد نهض عن الكرسي- تأثمين، وتأثمين، ثم يا رب! ما دمت تقولين يا رب، فلا تأثمي.

- أوّاه! - صاحت المرأة مضطربة- ما هذا؟ ومن ترى سيتذكر الرب إن لم يكن الخطأة؟

- لا أعرف مَن! - قال إيليا شاعرًا بدفق رغبة جارفة في شتم هذه المرأة والناس جميعًا- إنما أعرف أن لست أنت من يحق لك الكلام عنه، نعم... لست أنت. إنكم إنما تتسترون به بعضكم عن بعض... لست صغيرًا، إني أرى.. الجميع يتشكون ويتحسرون، ولكن لماذا يقترفون الآثام؟ لماذا يغش بعضهم بعضًا؟ يرتكب المعصية، ثم يتوارى.. يا رب، رحمتك! أنا فاهم... خدّاعون، شياطين! تخدعون أنفسكم وتخدعون الله!

كانت ماتيتسا تنظر إليه صامتة، فاغرة فمها، ماطة عنقها، وفي عينيها دهشة بلهاء. ومضى إيليا إلى الباب، فنزع السقّاطة بحركة عنيفة، وانصرف خابطًا الباب بشدة. كان يشعر بأنه قد أهان ماتيتسا إهانة قاسية، فارتاح لهذا، وبات الأمر أخف على قلبه وأشد جلاء في رأسه. وفيما كان ينزل عن الدرج بخطوات صارمة، كان يصفر من خلال أسنانه، والغضب لا يزال يوحي له بكلمات مهينة قاسية كالحجارة، ولقد كان يخيل إليه أن هذه الكلمات جميعًا تتوهج فتضيء الظلمة في داخل نفسه وتدله إلى طريق تنأى به عن الناس، فما كان يقول كلماته عن ماتيتسا وحدها، بل عن عمه تيرنتي، وعن بتروخا، والتاجر ستروغاني... عن الناس جميعًا. وقد كان يفكر قائلًا في نفسه، إذ خرج إلى باحة البيت:

- «أيوه، هكذا... لا مجال للمجاملة معكم، يا أنذال!..».

وبعد قليل، إثر الزيارة لماتيتسا، بدأ إيليا معاشرة النسوة... وقد حدث ذلك، للمرة الأولى، على هذه الصورة؛ كان عائدًا إلى البيت ذات مساء، فإذا بامرأة تقول له:

- نروح؟

فنظر إليها ومشى إلى جانبها صامتًا، ولكنه كان، أثناء مسيره، يميل برأسه ويواصل التطلع إلى ما حوله؛ مخافة الالتقاء بأحد من معارفه. وبعد بضع خطوات، أردفت المرأة تقول بصوت منذر:

- انتبه... بروبل.

- لا بأس. - قال إيليا- لنسرع.

وظلا صامتين حتى بيت المرأة، وانتهى الأمر.

ولكن التعرف إلى النساء أدى على الفور إلى الكثير من الإنفاق، فراح إيليا يفكر أكثر فأكثر بأن تجارته هي مضيعة فارغة للوقت، وأنها لن تتيح له إمكانية بناء حياة طيبة. ولقد ود، ذات حين، لو يشتغل باليانصيب، على غرار الباعة المتجولين الآخرين، فيغش الجمهور شأن جميع الباعة المتجولين. إلا أنه فكر قليلًا، فوجد أن هذا العمل تافه مزعج؛ فسيكون عليه أن يتوارى عن رجال الشرطة أو يسترحمهم ويدفع لهم، وهذا ما ينفر منه إيليا، فقد كان يحب مواجهة الجميع بصراحة وجرأة، وكان يشعر بارتياح شديد لكونه دائمًا أنظف ملبسًا من الباعة المتجولين الآخرين، ولكونه لا يشرب الفودكا ولا يغش. كان يمشي في الشوارع غير متعجل، على مهل، ووجهه الناتئ الخدين جاف رزين، وأثناء الحديث مع الناس، يروح يوصوص عينيه المعتمتين، مقلًّا من الكلام، مترويًا. وغالبًا ما كان يحلم قائلًا في نفسه: ما أجمل أن يجد من المال ألفًا من الروبلات أو أكثر. وقد كانت الحكايات عن السرقات تثير في نفسه اهتمامًا شديدًا؛ فقد كان يشتري الجريدة، فيقرأ فيها بانتباه عن تفاصيل حوادث السرقات، ثم يتتبع طويلًا متسائلًا: هل عثروا على اللصوص أم لا؟ فإذا هم ألقوا القبض عليهم، غضب إيليا وأنحى عليهم باللائمة، قائلًا لياكوف:

- وقعوا البلهاء! كان عليهم ألا يسطوا ما داموا عاجزين، أفّ لهم!

وذات مرة، قال لياكوف مساء:

- عيشة الغشاشين أحسن والشرفاء أسوأ!

فتوتر وجه ياكوف، وراحت عيناه تطرفان، وقال بذلك الصوت الخافت الغامض الذي يتكلم به دائمًا في الأمور ذات الحكمة:

- أول أمس كان عمك يشرب الشاي في المطعم مع رجل عجوز، لا بد أنه من حفظة الكتاب المقدس، وكان الشيخ يقول إن التوراة، على حد زعمه، قد جاء فيه:

«أَخْبِيَةُ اللصوص في سلام والطمأنينة لمُسْخِطِي الله لكل من أَغْنَى الله يده...».

- ولكن أَلست تخلط؟ - سأل إيليا، وهو يصغي إلى رفيقه بانتباه.

- ليس هذا كلامي، - استطرد ياكوف يقول، باسطًا ذراعيه، كأنما يتلمس شيئًا في الهواء- في التوراة جاء هذا... ربما يكون هو نفسه، ذلك العجوز، قد اختلقه اختلاقًا، وقد طرحت عليه السؤال... فكرر ما قال حرفًا بحرف.

ثم قال، مائلًا نحو إيليا:

- خذ مثلًا، أبي أنا... إنه مطمئن.. وهو يغضب الله!

- وأي غضب! - صاح إيليا.

- وقد انتخبوه محلّفًا.

وطأطأ ياكوف رأسه، وتنهد تنهيدة ثقيلة، وأردف يقول:

- يجب أن يكون عمل الإنسان، أمام ضميره، صفحة ناصعة طاهرة، أما هنا... فإني أختنق، لست أفهم شيئًا... والقدرة على العيش غير متوافرة لدي، ولست أشعر بالميل إلى المطعم... أما أبي فيظل يقرع رأسي بكلام مكرور: «كفاك تخيلات، حط عقلك برأسك، واعمل لك شغلة» وما هي؟ أن أقف للبيع وراء البوفيه حين يكون تيرنتي غائبًا... نفسي لا تطيق هذا، ولكني أصطبر.. أما أن أعمل شيئًا ما من تلقاء نفسي، فلا أستطيع.

- يجب أن تتعلم. - قال إيليا بهجة جدية رصينة.

- الحياة صعبة. - قال ياكوف بصوت خافت.

- صعبة عليك؟ أنت تخلط! - صاح إيليا، وقد قفز عن السرير وأقبل على رفيقه الجالس تحت النافذة- عليّ صعبة، صحيح! وأنت، ماذا؟ يشيخ أبوك، فتصبح رب عمل... وأما أنا أسير في الشارع فأرى في المحلات بنطلونات وصدريات وساعات وما إلى ذلك، مثل هذه البنطلونات لن ألبس، ومثل هذه الساعات لن أحمل، فهل فهمت؟ ولكني أشتهي، أود أن أكون موضع الاحترام... فبأي شيء أنا أسوأ

من الآخرين؟ إني أحسن منهم! ولكن الغشاشين يتبخترون أمامي، وينتخبونهم محلفين! إنهم يملكون بيوتًا، ومطاعم... فما السبب في أن السعادة متوافرة لدى الغشاشين، وأنا منها محروم؟ أنا أيضًا أتمنى.

نظر ياكوف إلى رفيقه، فقال له فجأة بصوت خفيض، إلا أنه جلي النبرات:

- لا وفقك الله!

- ماذا؟ ولماذا؟ - صاح إيليا، وقد توقف وسط الغرفة، وراح ينظر إلى ياكوف مهتاجًا.

- أنت طماع، لا تكتفي بشيء- قال هذا موضحًا.

فضحك إيليا ضحكة مفتعلة جافة مشوبة بالغضب:

- لا أكتفي؟ ألا قل لأبيك أنت أن يعطيني ولو نصف المال الذي نشله هو وعمي من عند الشيخ إيرميا، وأنا أكتفي، نعم!

ولكن ياكوف نهض إذ ذاك عن الكرسي، فمضى صوب الباب بهدوء، مطأطئًا رأسه. ورأى إيليا كتفيه يرتعشان ورقبته محنية كأنما صفع عليها صفعًا موجعًا، فقال لرفيقه بارتباك ممسكًا بساعده:

- انتظر.. إلى أين ذاهب؟

- اتركني يا أخ. - قال ياكوف بما يقرب من الهمس، إلا أنه توقف وأخذ ينظر إلى إيليا، كان شاحب الوجه، مطبقًا شفتيه بإحكام، وكيانه كله متراخ كأنما هو منسحق.

- أيوه... انتظر. - رجاه إيليا بلهجة تنم عن الشعور بالذنب، محولًا إياه بتأنٍ عن الباب- لا تزعل مني، إنها الحقيقة.

- أعرف. - قال ياكوف.

- تعرف! ومن قال لك؟

- الجميع يحكون.

- أي.. نعم، ولكن الذين يحكون غشاشون هم أيضًا.

فتطلع إليه ياكوف بعينين شاكيتين متحسرتين، وراح يتنهد.

- ما كنت أصدق، إنما كنت أحسب أن الناس يحكون بدافع من الشر والحسد، ثم أصبحت أصدق، وما دمت أنت أيضًا تقول، فيعني...

ورفع يده معبرًا عن الاستسلام، وأدار ظهره لرفيقه، ولبث جامدًا بلا حراك، مسندًا يديه بقوة إلى مقعد الكرسي، ورأسه منسدل على صدره. وابتعد عنه إيليا، فجلس على سرير في وضع مماثل

لوضع ياكوف، ولزم الصمت، غير عارف ما ينبغي له أن يقول تعزية لصديقه.

- تلك هي الحياة هنا. - قال ياكوف بصوت خافت.

- نعم. - قال إيليا بمثل لهجته- أنا، يا أخ، أفهم أنك في حال سيئة، والعزاء الوحيد هو أن الجميع على هذه الشاكلة، كما ترى.

- هل تعرف أنت عن ذلك الأمر معرفة صحيحة؟ - سأل ياكوف متهيبًا، غير ناظر إلى رفيقه.

- لقد ركضت، أما تتذكر؟ وقد رأيت من الشق كيف كانا يخيطان الوسادة... وأما هو فكان لا يزال يحشرج.

فشال ياكوف بكتفيه، وهب واقفًا ومضى إلى الباب، قائلًا لإيليا:

- خاطرك.

- مع السلامة، لا تهتم بهذا، لا تحزن كثيرًا... فماذا بوسعك أن تعمل؟

- أنا... لا شيء. - قال ياكوف، وهو يفتح الباب.

وشيعه إيليا بنظراته، وارتمى على السرير ثقيل الوطأة، كان آسفًا على ياكوف، ومن جديد راح يغلي في صدره الغضب على الناس وعلى بتروخا، وعلى البشر جميعًا؛ فليس يمكن أن يعيش بينهم إنسان مثل ياكوف، فقد كان ياكوف إنسانًا طيبًا، خيِّرًا، هادئًا، طاهرًا. وراح إيليا يفكر بالناس، وذاكرته توحي إليه بحوادث شتّى، تصور الناس أشرارًا، قساة، منافقين، ولقد كان يعرف الكثير من هذه الحوادث، فكان يسيرًا عليه تلطيخ الناس بسخيمة الذكريات ووحلها، وكلما ازدادوا قتامًا أمام ناظريه، يزداد عليه ثقل التنفس بسبب من شعور غريب ينطوي على الأسى لشيء ما، وعلى الفرح الخبيث، وعلى الخوف من إدراك وحدته في هذه الحياة السوداء الكئيبة، الدائرة حوله إعصارًا محمومًا.

وحين فرغ صبره، أخيرًا، من الاستلقاء وحيدًا في الغرفة الصغيرة، التي كانت تتسرب من خلال عوارض جدرانها أصوات كامدة ذات رائحة من المطعم، نهض وانصرف للنزهة، ولقد ظل في تلك الليلة يتمشى طويلًا في شوارع المدينة، حاملًا معه أفكاره الثابتة، البسيطة، المرهقة. كان يمشي في العتمة فيتصور أن ثمة شخصًا يتعقبه، عدوًّا له، يدفع به دفعًا غير محسوس إلى المكان الأسوأ والأكثر إثارة للضجر والسأم، وما يرشده إلا إلى ما تألم منه النفس حزنًا ويبعث في القلب الحقد والسخيمة. أليس في الدنيا ما هو أحسن؟ أليس فيها أناس أخيار؟ وحظ ومرح؟ ولماذا لا يراهم؟ ولا يلقى في كل مكان غير الفاسدين والمضجرين؟ فمن ذا الذي يوجهه دائمًا إلى الظلمة والقذارة، والشراسة؟

كانت تهيمن عليه هذه الأفكار وهو يمشي في حقل بالقرب من سور حجري لدير في ضاحية المدينة، وينظر إلى ما أمامه، ومن العتمة، بعيدًا، كانت السحب الكثيفة تتحرك صوبه، في تثاقل وبطء. وفي الظلمة، في مكان ما فوق رأسه، كانت تتلامع، وسط السحب، فرجات زرقاوية من السماء، تشع فيها

كواكب صغيرة إشعاعًا هادئًا، وكان يترامى، أحيانًا، في سكون الليل، صوت نحاسي رنان من برج نواقيس كنيسة الدير، وكانت تلك هي الحركة الوحيدة في السكون المطبق الذي كان يلف الأرض. وما كانت تصل ضجة الحياة إلى الحقل حتى من الكتلة الفاحمة المؤلفة من أبنية المدينة، من خلف إيليا، مع أن الوقت لم يكن بعد متأخرًا. كانت الليلة جليدية البرد، وإيليا يمشي ويتعثر بالوحل المتجمد، وكان الشعور بالوحدة والمخافة الناجمة عن الأفكار، يوقفانه، فيستند بظهره إلى سور الدير الحجري البارد، ممعنًا تفكيرًا فيمن يسيره في الحياة، ومن يدفع إليه بكل ما فيها من فاسد، وكل ما فيها من مرهق؟ وانبثق في نفس إيليا سؤال صارخ:

«أأنت هذا يا رب؟».

وسرت في جسده قشعريرة من رعب بارد، فانتزع نفسه عن الجدار، وقد استولى عليه هاجس مُنذر بأمر رهيب، ومضى إلى المدينة، حاثًّا خطاه، متعثرًا في مشيته، خائفًا من أن يتلفت إلى ما حوله، شادًّا يديه شدًّا وثيقًا إلى جسده.

بعد بضعة أيام من هذا، التقى إيليا بباشكا غراتشيف. كان الوقت مساء، وفي الهواء يدور في تكاسل نثار ناعم من الثلج، يشع في أضواء المصابيح. وعلى الرغم من البرد، لم يكن بافل يرتدي غير قميص من الفانيلا، من دون زنار. كان يمشي ببطء، ورأسه مسدل على صدره، ويداه مدسوستان في جيبيه، وظهره محني كأنما هو يبحث عن شيء ما في طريقه. وحين أدركه إيليا وناداه، رفع رأسه، فتطلع إلى وجه إيليا، ونطق بغير اكتراث:

- آ!

- كيف حالك؟ - سأله إيليا وهو سائر إلى جانبه.

- على أسوأ ما يمكن... وأنت كيف حالك؟

- لا بأس.

- كذلك ليست حلوة؛ كما هو ظاهر.

وصمتا بعض الوقت، وهما سائران جنبًا إلى جنب، وكوعاهما متلامسان، ثم قال إيليا:

- ما لك لا تأتي إلينا؟

- لا يتسع لي الوقت أبدًا، لا يسمحون لنا بالكثير من الوقت الفارغ، وأنت نفسك تعرف.

- لو شئت لوجدت متسعًا من الوقت. - قال إيليا معاتبًا.

- ولكن لا تزعل، إنك تدعوني، ولكنك لم تسأل أنت نفسك ولا مرة أين أسكن، وبالأحرى لم تفكر بأن تأتي إليَّ.

- صحيح حقًّا. - صاح إيليا مبتسمًا.

وألقى عليه بافل نظرة، وراح يتكلم بمزيد من النشاط:

- إني أعيش لوحدي لا رفاق لي، فليس ثمة تمازج في الأرواح، وقد أصابني المرض، فانطرحت قرابة ثلاثة أشهر في المستشفى، وما كان يجيء إليَّ أحد طول الوقت.

- وبماذا أصبت؟

- مرضت في حالة السُّكْر، أصبت بالتيفوئيد في الأمعاء... وأخذت أتعافى، فيا للهول! طول النهار، وطول الليل، منسطح لوحدك، تحسب أنك أصم أعمى، مَلْقِي بك في حفرة، كأنك الجرو. للدكتور الحمد والشكر، كان يعطينا الكتب باستمرار، وإلا لكنت فطست من الحزن.

- والكتب تلك مليحة؟ - سأل إيليا.

- نعم مليحة؛ كنت أقرأ أشعار ليرمنتوف، ونكراسوف، وبوشكين... كان يتفق لي أن أقرأ، كما لو أني أجرع الحليب. توجد يا أخ، قصائد تحس وأنت تقرأها كأنما تقبل حبيبتك، وثمة شعر يلسعك في القلب، كأنما يقدح شرارة؛ فإذا كل كيانك يلتهب.

- أما أنا فقد بت منصرفًا عن الكتب. -قال إيليا متنهدًا- فما تقرأ... شيء، وما ترى... شيء آخر.

- وهذا حسن... ما رأيك بأن نذهب إلى أحد المطاعم؟ نجلس قليلًا، نتحدث... عليَّ أن أذهب إلى مكان، ولكن لم يحن الوقت بعد.

- هيا بنا. - قال إيليا موافقًا، وأمسك بذراع بافل في تحابّ وود، فتطلع هذا إلى وجهه من جديد، وابتسم، فقال:

- لم يكن بيني وبينك قط من صداقة خاصة، بيد أن اللقاء بك يطيب لي.

- لا أدري إن كان يطيب لك أنت؟ أما لي أنا، فنعم.

- إيه، يا أخ! - قال بافل قاطعًا كلامه- لقد أدركتني وأنا أفكر في أمور، خير للمرء ألَّا يتذكرها.- والتزم الصمت مشيرًا بيده إشارة سأم وتضجر، وتابع مشيته بمزيد من البطء.

ودخلا أول مطعم صادفاه في الطريق، وجلسا في زاوية منه، وطلبا بيرة. وعلى ضوء المصباح، رأى إيليا أن وجه بافل قد نحل واعتراه الهزال، وعينيه مضطربتان، وأما شفتاه فقد باتتا الآن شديدتي الإطباق، وقد كانتا من قبل منفرجتين بعض الشيء انفراجة ساخرة، فسأله:

- أين تشتغل؟

- في المطبعة من جديد.- قال بافل باكتئاب.

- الشغل صعب؟

- الهم يأكلني، لا الشغل.

كان إيليا يشعر بارتياح مبهم إذ يرى باشكا المرح النشيط مكتئبًا مهمومًا، فود لو يعلم ما الذي غيّر بافل، فسأله مستفسرًا وهو يصب له مزيدًا من البيرة في الكأس:

- أما تنظم أشعارًا؟

- الآن... تركت... أما من قبل فقد نظمت كثيرًا، كنت أعرضها على الدكتور فيثني عليها، بل لقد نشر بعضًا منها في الجريدة.

- يا سلام! - هتف إيليا- وأي قصيدة؟ أيوه، يا عيني!

وكان أن بعث فضول إيليا الحار وبضعة كؤوس من البيرة النشاط في نفس غراتشيف، فاتقدت عيناه واشتعلت الحمرة على وجنتيه الشاحبتين.

- أي قصيدة؟ - كرر السؤال ماسحًا جبينه بيده مسحًا شديدًا- نسيت، والله، نسيت.. انتظر، فلربما أتذكر، إنها دائمًا في مخي، كالنحل في القفير، وهي تدندن..

حين أروح أنظم، أتصبب عرقًا.. أحس بغليان في نفسي، وتغرورق عيناي بالدموع، بودي لو أتحدث عن هذا بطلاقة، ولكن الكلمات تعوزني..- وتنهد، ثم أضاف وهو يهز رأسه- في النفس وفر، أما على الورق، فقفر.

- ارو لي أيًّا كانت. - قال إيليا راجيًا، وكان كلما أمعن النظر إلى بافل، تولد لديه فضول أشد، وإلى هذا الفضول كان ينضاف، شيئًا فشيئًا، شعور طيب، دافئ، حزين.

- أنظم قصائد مضحكة، عن حياتي. - قال غراتشيف، مبتسمًا ابتسامة مرتبكة، ثم تلفت، وسعل، وأخذ يتلو بصوت خافت، غير ناظر إلى وجه رفيقه:

خانق.. ليلي! ومن نافذتي عبر ألواح الزجاج الأغبر أتلقى خيط نور، وابتسامة فيض نور، من محيا القمر.

وعلى ذاك الجدار البارد، وشظايا اتسخت من ورق، يرسم الخيط تزاويق عجيبة لونها لون السماء الأزرق.

أتملاها، وأبقى صامتًا...

جالسًا وحدي... أعاني أرقي...

وتوقف بافل، وتنهد بعمق، وتابع تلاوته بصوت بطيء خافت:

على الصدر، كالكابوس، حظي مطبق ومخلبه في القلب يفري، يمزق...

ويوسعني صفعًا... فأفقد من بها فتنت... فما تبقى سوى الراح تعشق...

أراها أمامي، والضياء يحفها، من البدر، يوحي أنها لي تضحك..

أداوي جراح القلب بالخمر، بلسمًا؛ وتملأ رأسي بالضباب، فيحلك.

يراود جفني النوم، والفكر متعب...

أليس من الأحرى أعود فأشرب؟

سأشرب.. وليحجم عن الشرب ناعس.

ففي الرأس أفكار، رقادي تسلب...

وانتهى غراتشيف من التلاوة، فرمق إيليا بنظرة خاطفة، وقال بصوت خافت، مطأطئًا رأسه إلى درجة أشد انخفاضًا:

- هي ذي... أكثرها من هذا القبيل.

كان يقرع بأصبعه على طرف الطاولة، ويتحرك على كرسيه باضطراب.

وظل إيليا بضع دقائق يحدّق النظر إلى غراتشيف بدهشة تنطوي على الشك، كان يرن في أذنيه كلام موزون، ولكن كان يصعب عليه التصديق بأن واضعه هو هذا الفتى النحيل، ذو العينين القلقتين، اللابس قميصًا عتيقًا سميكًا، وحذاء ثقيلًا، فقال بتأنٍ وبصوت خافت، وهو ينظر بإمعان إلى بافل:

- أيوه، يا أخ، هذا ليس مضحكًا كثيرًا! هذا جيد... كان يهز قلبي هزًّا.. حقًّا! أيوه، ارو لي أيضًا.

فرفع بافل رأسه بسرعة، ونظر إلى مستمعه بعينين مرحتين، وسأله بصوت خفيض، مقتربًا منه:

- أحقًّا أعجبتك؟

- غريب! وهل بتّ أكذب؟

فشرع بافل يتلو بهدوء، وشرود، ووقفات، متنهدًا بعمق، حين ينحبس صوته، وفيما هو يتابع التلاوة، كان يزداد لدى إيليا الشك في أن بافل هو نفسه ناظم القصائد.

- أيوه، ما عندك غيرها؟ - قال راجيًا.

- الأحسن أن آتي إليك بالدفتر... فكلها عندي طويلة... وقد حان وقت ذهابي، ثم إن ذاكرتي سيئة... البدايات والنهايات تدور دائمًا على لساني، ثمة أشعار أتصور فيها كأني سائر في الغابة ليلًا، وقد ضللت الطريق، وألّم بي التعب... أيوه، شيء رهيب؛ فأنا لوحدي، أبحث عن مخرج، وأتشكى:

كل ساقاي، وقلبي تعبا وعن العينين دربي احتجبا!

أين، يا أرض بلادي، خبري؟

أين أمضي، أين أزجي المركبا؟

وتهالكت على الصدر الحبيب، والثرى الرطب الندي...

فإذا ملء فؤادي هاتف من صميم الأرض، يحدوني: - إلي!

- اسمع، يا إيليا، تعال اذهب معي، آ؟ هيا، نروح؟ ليست بي رغبة لوداعك.

اضطرب غراتشيف، فأمسك بذراع إيليا، وراح يتطلع برقة إلى وجهه، فقال إيليا:

- أذهب.. أنا أيضًا أود البقاء معك... أقول لك الحق، إني مصدقك، وغير مصدق، أنت حقًّا تثير الاهتمام الشديد.. الأشعار هذه تنبعث منك ببراعة.

- ألا تصدق أنها لي؟

- إذا كانت لك، فمرحى لك. - هتف إيليا صادقًا.

- أنا، يا أخ، سأتعلم بعد قليلًا، فأنظم ما يثير الإعجاب.

- هيا.

- أسفاه يا إيليا! لو كان عندي ثقافة!

كانا يحثان الخطى في الشارع، يتلقف أحدهما كلمات الآخر، ويتبادلانها على عجل، وانفعالهما يشتد باطراد، والوشيجة بينهما تزداد التحامًا. وقد كانا كلاهما يحسان بالغبطة إذ يريان أن كلًّا منهما يفكر تفكير الآخر، فتزيدهما هذه الغبطة تحليقًا. وكان الثلج، المتساقط كببًا كثيفة، يذوب على وجهيهما، ويتراكم على ملابسهما، ويتكوم على جزمتيهما، وهما سائران في هذا العجين المعتكر، المضطرم من حولهما في صمت.

- العمى! - صاح إيليا شاتمًا نفسه، وقد زلت به القدم في حفرة ملأى بالوحل والثلج.

- سر إلى اليسار.

- إلى أين نحن ذاهبان؟

- إلى سيدوريخا... أتعرفها؟

- أعرفها. - أجاب إيليا، بعد أن سكت لحظة، وانطلق يضحك- قصير دربنا، يا أخ.

- إيه! - قال بافل بصوت خافت- أنا فاهم، ولكن لا بد من الذهاب إلى هناك؛ عندي شغل، سأقول لك يا إيليا.. مرير عليّ الكلام عن هذا.

وبصق بافل بصخب.

- ثمة فتاة، سترى ما أحلاها، يمكن أن تلهب الروح كلها... كانت خادمة عند الدكتور الذي عالجني، وكنت أذهب إليه طلبًا للكتب، حين تعافيت... أيوه، أجيء، فأجلس. أما هي، فتنط وتضحك، وذهبت

إليها، واستسلمت في الحال، دون أي كلام، وبدأ بيننا حب- أي حب! السماء منه التهبت... أهرع إليها، كما تترامى الريشة إلى النار، ونغرق في قبلات، تتورم منها الشفاه، وتتوجع العظام... إيه! إنها ناعمة، صغيرة، كالدمية، تعانقها فتتلاشى، كأن عصفورًا قد طار إلى قلبي، فراح يغرد فيه، ويغرد.

وسكت لحظة، وزفر زفرة حرّى، تنطوي على شيء من الغرابة.

- وبعد؟ - سأل إيليا، وقد أهاجته قصته.

- لقطتنا زوجة الدكتور، يضربها القرد! والسيدة طيبة في الحقيقة، شيطانة بلهاء! كان يتفق لي أن تتكلم معي، كلامًا لطيفًا، إنها جميلة... جنية!

- وبعد؟ - كرر إيليا.

- وبعد... ثارت الضجة.. وطردوا فيركا[14] ... أوسعوها سبًّا وشتمًا، وأنا أيضًا، فجاءت لعندي، ولكني كنت في ذلك الحين من دون شغل، فأنفقنا كل شيء لآخر بارة... أيوه، ولكنها صاحبة إرادة، وقد هربت، ضاعت أسبوعين، ثم ظهرت، لابسة على الموضة وكل شيء، أساور، وفلوس.

وصر باشكا بأسنانه، وقال بصوت أصم:

- وقد ضربتها... ضربًا موجعًا.

- وذهبت؟ - سأل إيليا.

- كلا... لو أنها ذهبت؛ لألقيت بنفسي في دوّار الماء، قالت اذبحني، أو لا تمسني، أنا ثقيلة عليك، روحي لا أعطيها لأحد.

- وأنت.. ماذا فعلت؟

- فعلت كل شيء؛ رحت أضربها، وأبكي... وماذا يسعني أيضًا؟ ليس لديَّ شيء لإطعامها.

- ولا تريد هي أن تجد لها شغلًا؟

- حتى الشيطان لا يقنعها! قالت: طيب.. ولكن سيأتي لنا أولاد، فأين نتركهم؟ أما هكذا فسأكون لك بكليتي تمامًا، ولا يكون لنا أولاد.

وفكر إيليا لونيف قليلًا، وقال:

- إنها ذكية.

وصمت باشكا لحظة، وهو يحث الخطى في ظلمة الثلج.

وتجاوز رفيقه بثلاث خطوات، ثم التفت إليه، وتوقف فقال بصوت أصم ذي صفير:

- حين أتصور أن آخرين يقبلونها، أحس كأن الرصاص ينسكب في صدري.

- ألا تستطيع هجرها؟

- هي؟ - صاح بافل مندهشًا.

وقد فهم إيليا دهشته حين رأى الفتاة.

كانا قد وصلا إلى بيت من طابق واحد، في طرف المدينة، نوافذه الست مغلقة بالمصاريع إغلاقًا محكما، الأمر الذي كان يجعل البيت أشبه بعنبر طويل عتيق، والثلج الرطب يغطي الجدران والسطح بكثافة، كأنما يريد أن يطمر هذا البيت.

قرع باشكا البوابة، قائلًا:

- هنا مؤسسة خاصة، سيدوريخا تعطي البنات مسكنًا، وتطعمهن، وتتناول مقابل هذا خمسين روبلًا من كل واحدة... والبنات أربع فقط... أيوه، وعند سيدوريخا خمر، طبعًا، وبيرة، وسكاكر... على أنها لا تزعج البنات بشيء؛ عاشري الرجال إذا شئت، أو اجلسي في البيت إذا شئت... اعطيها فقط، خمسين روبلًا في الشهر، والبنات غاليات، ييسر عليهن الحصول على هذه الفلوس، هنا واحدة، هي أولمبيادا، لا تروح بأقل من خمسة وعشرين روبلًا.

- وصاحبتك.. بكم؟ - سأل إيليا، وهو ينفض الثلج عن ثيابه.

- لا أعرف... غالية أيضًا- أجاب غراتشيف بصوت خفيض، بعد أن سكت لحظة.

وقامت خلف الباب ضجة، وارتعش في الهواء خيط ذهبي من النور.

- من هناك؟

- هذا أنا... غراتشيف، يا فاسّا سيدوروفنا.

- آ! - وانفتح الباب، وإذا بعجوز قصيرة، يابسة، جسيمة الأنف، تقول بلطف: أهلا وسهلًا... فيرونكا[15] منرفزة من زمان، وهي تنتظرك. من هذا الذي معك؟

- رفيق لي.

- من القادم؟ - سئل بصوت رنان صادر من مكان ما من ممشى معتم طويل.

- هذا لعند فيرا، يا ليبوشكا[16]...

- فيركا، صاحبك! - صاح ذلك الصوت الرنان نفسه، مدوّيًا في الممشى.

وإذ ذاك انفتح باب في أعماق الممشى، بسرعة، وانتصبت في بقعة عريضة من النور قامة فتاة

قصيرة، كل لباسها أبيض، تغمرها جدائل عامرة من شعر ذهبي، فقالت في دلال، بصوت صدري منخفض ممطوط:

- طوّ...لت!

ثم تطاولت فحطت يديها على كتفي بافل، وتطلعت من ورائه على إيليا بعينين عسليتين.

- هذا رفيقي... إيليا لونيف.

- مرحبًا.

ومدت الفتاة يدها إلى إيليا وارتفع كم بلوزتها العريض حتى كاد يبلغ الكتف، وشد إيليا على اليد الحارة باحترام، وعناية، ناظرًا إلى صديقة بافل بغبطة من لقي شجرة بتولا رشيقة وسط غابة كثيفة بين حطام الأشجار والتلاع المستنقعية. وحين تنحّت لتفسح له المجال لدخول الباب، تراجع هو أيضًا وقال باحترام:

- تفضلي أنتِ أولًا!

- يا لك من مؤدب! - وانطلقت ضاحكة، وكانت ضحكتها طيبة، مرحة، مشرقة، وكذلك ضحك بافل، قائلًا:

- أذهلتِ الفتى، يا فيركا... انظري كيف يقف أمامك وقفة الدب أمام العسل.

- صحيح؟ - سألت الفتاة إيليا بمرح.

- تمام! - أقر إيليا مبتسمًا- جعلت الأرض بجمالك تزحل من تحت قدمي.

- أعشقها.. أذبحك! - هدد بافل، مبتسمًا ابتسامة البهجة والفرح؛ فقد طاب له أن يرى أي انطباع أحدثته حبيبته في نفس إيليا، وراحت عيناه تشعان زهوًّا وافتخارًا، وازدهت بنفسها هي أيضًا، بخلاعة ساذجة؛ إذ أدركت ما لها من قوة أنثوية؛ لم يكن عليها من الثياب غير بلوزة فضفاضة فوق القميص، وتنورة بيضاء كالثلج، وكانت بلوزتها الصغيرة غير المزرّرة منفتحة، تكشف عن جسم متين، كاللفتة في ريعانها، والشفتان القرمزيتان ترتعشان على فمها بابتسامة رضى عن النفس؛ فقد كانت الفتاة مولعة بنفسها ولع الطفل بدمية لم يسأمها بعد. وكان إيليا لا يريم بطرفه عنها وهو يرى إليها كيف تمشي في الغرفة خفيفة الخطو، شمّاء الأنف، متطلعة بحنان إلى بافل، متحدثة بمرح، فشعر بالغصة؛ لكونه محرومًا من مثل هذه الصديقة.

كان تقوم وسط الغرفة الصغيرة، المرتبة ترتيبًا نظيفًا، طاولة عليها غطاء أبيض، وفوق الطاولة سماور يغلي بصخب، وكل شيء حول ذلك نضر زاهٍ. وقد حظي كل شيء -الأقداح، وزجاجة الخمر، والصحن المحتوي على السجق والخبز- بإعجاب إيليا، وبعث في نفسه الغيرة من بافل. أما بافل فقد كان جالسًا مبتهجًا، يقول كلامًا مسجوعًا:

- حين أراك أحس كأني أتدفأ بالشمس... فأنسى كل شيء، وبالسعادة أعلل النفس... جميل أن يعيش المرء، محبًّا مثل هذا الحسن، جميل أن تتملّاكِ العين.

- باشكا.. رائع! - هتفت فيرا متهللة طربًا.

- طازجة؛ طبخت هذه اللحظة... أي إيليا.. كفاك! دبّر واحدة لك.

- واحدة طيبة! - قالت الفتاة بصوت غريب، جديد نوعًا ما، وهي تنظر إلى عيني إيليا.

- أحسن منك، لن يرزقني الله! - قال إيليا متنهدًا، مبتسمًا.

- لكن... لا تتكلم عما لا تعرف. - قالت فيرا بهدوء.

- هو يعرف. -قال باشكا، وعبس، وأردف يقول مخاطبًا إيليا:- هاك، كل شيء طيب، مفرح، ثم أتذكر ذاك فجأة، فإذا بسكين تقطع في قلبي.

- ولكن عليك ألَّا تتذكر.- قالت فيرا، مطأطئة رأسها على الطاولة، وألقى إيليا بنظرة إليها، فرأى أن أذنيها حمراوان.

- عليك أن تفكر هكذا.- أردفت الفتاة تقول بهدوء، ولكن بحزم- إنه لي، ولو ليوم واحد.. الأمر عليّ أيضًا غير يسير؛ فأنا، كما تقول الأغنية، لوحدي أجرع كأس حزني، أما فرحي فأقاسمك إياه.

كان بافل عابس الوجه، وهو يصغي إلى كلامها، وشعر إيليا بالرغبة في أن يقول شيئًا طيبًا، مبهجًا لهذين الإنسانين، فقال بعد تفكير قصير:

- وما العمل إذا كانت العقدة لا تُحل؟ ولكني أقول لكما هكذا: لو أني أملك ألف روبل لأعطيتكما إياها.. خذا.. اقبلاها، تلطفًا، إكرامًا لحبكما؛ فأنا أشعر أن قضيتكما من الروح، قضية نظيفة، أما كل ما عدا ذلك فعليه أبصق.

كان في داخله شيء يلتهب، ويلفه بموجة ساخنة، بل لقد نهض عن الكرسي إذ رأى الفتاة، وقد رفعت رأسها، تنظر إليه بعينين شاكرتين، وأما بافل فيبتسم له وينتظر منه شيئًا ما أيضًا.

- للمرة الأولى في حياتي، أرى كيف يحب الناس بعضهم بعضًا، وأنت أيضًا، يا بافل، قد قدّرت اليوم روحك حق قدرها. وإني، وأنا جالس هنا، لأقول لك بصراحة:

أغبطك... أما فيما يتعلق بكل ما عدا ذلك، فإليك ما أقول: أنا لا أحب التشوفاشيين والموردوفيين، أقرف منهم؛ عيونهم متقيحة، ولكني أسبح معهم في نهر واحد، وأشرب من الماء الذي منه يشربون. أفيمكن أن أمتنع عن النهر بسببهم؟ أنا مؤمن بأن الله يطهره.

- صحيح، يا إيليا أحسنت. - هتف بافل بحرارة.

- ولكن اشرب أنت من الساقية.- رن صوت فيرا بهدوء.

- كلا، خير أن تصبي لي شايًا. - قال إيليا.

- ما أطيبك. - هتفت الفتاة.

- شكرًا جزيلًا. - أجاب إيليا بلهجة رصينة.

فعل هذا المشهد الصغير فعل الخمرة في نفس بافل، فاحمر وجهه المتوقد، وشعّت عيناه في حماسة، وانتفض عن الكرسي، وأخذ يروح ويجيء في الغرفة.

- إيه، يضربني القرد! الحياة في الدنيا حلوة حين يكون الناس كالأطفال.. لقد أثلجت صدري بأن جئت بك إلى هنا يا إيليا... فلنشرب، يا أخ.

- مشى حاله. - قالت الفتاة بابتسامة لطيفة وهي ترمقه، وخاطبت إيليا- هكذا هو دائمًا، حينًا يلتهب، وحينًا يصبح كئيبًا، مضجرًا، بل شرسًا.

وقرع الباب وسمع سؤال:

- فيرا، ممكن؟

- تعالي، تعالي.. هاك يا إيليا ياكوفليفيتش، هذه ليبا[17]، صديقتي.

فنهض إيليا عن الكرسي، والتفت صوب الباب؛ كانت تنتصب أمامه امرأة طويلة القامة، ممشوقة القد، تنظر إلى وجهه بعينين زرقاوين هادئتين، عبير العطر يفوح من فستانها، ووجنتاها نضرتان، ورديتان، وعلى رأسها ترتفع تسريحة من الشعر المعتم، أشبه بالإكليل، تزيدها طولًا.

- ولكني أنا قاعدة لوحدي، أعاني الضجر... وقد سمعت ضحكًا عندك، فجئت إلى هنا... معليش.. هوذا كافالييه لوحده، من دون سيدة، سأسليه، أتريدون؟

وبحركة رشيقة دفعت بكرسي إلى القرب من إيليا، فجلست عليه، وسألت:

- قل، ألست في ضجر معهما؟ إنهما هنا يتغازلان، وأنت تغار، أليس كذلك؟

- لست في ضجر معهما.- قال إيليا مرتبكًا من قربها.

- مؤسف! - ألقت المرأة بكلمتها في هدوء، وأعرضت عنه، وراحت تتكلم مخاطبة فيرا: - أتعرفين، كنت أمس في صلاة المساء في دير البنات، فرأيت هناك راهبة تغني في الكورس، آه ما أحلاها! بنت عجيبة... كنت واقفة أتطلع إليها طول الوقت، وأفكر: «ما الذي دعاها لدخول الدير؟» أسفت عليها.

- أما أنا فما كنت لآسف.- قالت فيرا.

- أيوه.. لا أصدقك.

كان إيليا يشم عبير العطر الطيب، المنتشر في الهواء حول هذه المرأة، وينظر إليها نظرة جانبية

ويرهف أذنيه لصوتها، وكانت هي تتكلم بهدوء عجيب وعلى وتيرة واحدة، وفي صوتها ما يخدر، بل لقد كان يبدو كأن لكلماتها أيضًا عبيرًا طيبًا وكثيفًا.

- وهل تعرفين يا فيرا... إني أفكر دائمًا متسائلة، أينبغي لي أن أذهب لعند بولوئيكتوف، أم لا؟

- لا أدري.

- ربما سأذهب، إنه عجوز، غني... ولكنه شحيح.. أطلب أن يودع على حسابي خمسة آلاف روبل في البنك، ويدفع مائة وخمسين في الشهر، ولكنه يوافق على ثلاثة آلاف، ومائة.

- ليبوشكا.. لا تتكلمي عن هذا. - قالت لها فيرا راجية.

- طيب، لن أتكلم. - وافقت ليبا بهدوء والتفتت من جديد إلى إيليا- أيوه يا شاب، هلم نتحادث... إنك تروق لي؛ وجهك جميل، وعيناك رصينتان، ما قولك في هذا؟

- لا أستطيع شيئًا.- أجاب إيليا، مبتسمًا بارتباك، شاعرًا بأن هذه المرأة تلفه لفًّا كالسحابة.

- لا تستطيع شيئًا؟ إنك مضجر حقًّا... ما شغلك أنت؟

- بائع متجول.

- أي...وه! ولكني كنت أحسبك موظفًا في بنك، أو مستخدمًا في محل مليح.. أنت جد لائق.

- أنا أحب النظافة. - قال إيليا، وأحس بحرارة مرهقة، وانفتل رأسه من رائحة العطر.

- تحب النظافة؟ هذا حسن، ولكن هل أنت فطين؟

- كيف هذا؟

- هل فطنت إلى أنك تزعج رفيقك، أم لم تفطن بعد؟ - سألته المرأة ذات العينين الزرقاوين بلهجة سيالة.

- الآن أذهب. - قال إيليا بارتباك.

- أيمكن أن أسحبه، يا فيرا؟

- اسحبيه، إذا كان يذهب. - قالت فيرا وانطلقت ضاحكة.

- إلى أين؟ - سأل إيليا مهتاجًا.

- اذهب يا أبله! - صاح بافل.

كان إيليا واقفًا معتكرًا، يبتسم في شرود، ولكن المرأة أمسكت بيده ومضت به وراءها، قائلة في هدوء:

- أنت متوحش، وأما أنا فجامحة وعنيدة، إذا اشتهيت إطفاء الشمس، أصعد إلى السطح فأظل أنفخ عليها حتى ينقطع آخر أنفاسي... أترى، أي امرأة أنا؟

وسار إيليا معها يحتك ساعده بساعدها، لا يفهم ولا يكاد يسمع كلامها، بل يحس فقط أنها دافئة، طرية، عطرة.

استولت هذه العلاقة المفاجئة الجامحة على إيليا بكل كيانه، وبعثت فيه شعورًا بالرضى عن نفسه، وكأنما كان فيها الشفاء للجراح الذي أثخنت بها الحياة قلبه، وزادته رفعة في عين نفسه فكرة أن هذه المرأة الجميلة النظيفة الملبس، تمنحه قبلاتها الغالية، بحرية، وطيبة خاطر، غير متطلبة لقاءها أي شيء. فكأنما كان يعوم في نهر عريض، على متن موج هادئ، يداعب جسده.

كانت تقول له أولمبيادا، لاعبة بشعره الأجعد، أو مارة بأصبعها على الزغب القاتم فوق شفته:

- يا نزوتي.. إني أزداد إعجابًا بك؛ لك قلب يركن إليه، ثابت، وأرى أنك إذا أردت شيئًا فلا بد أن تبلغه، وأنا هكذا... ولو أني كنت أصغر سنًّا لتزوجتك، ولكنّا إذ ذاك عزفنا الحياة معًا، كأنما على النوتة.

وكان إيليا يسلك معها مسلكًا قائمًا على الاحترام؛ فقد كانت تبدو له ذكية، ومحترمة لذاتها، على الرغم من الحياة الفاسقة التي تحياها. وقد كان جسدها لدنًا متينًا كصوتها الصدري، متناسقًا كخلقها. وكان يعجبه فيها حرصها، وحبها للنظافة، وقدرتها على الكلام في كل شيء، والوقوف من الجميع موقفًا مستقلًّا، بل معتزًّا. ولكنه كان، أحيانًا، إذ يجيء إليها، يلقاها مستلقية على السرير، ووجهها شاحب متغضن، وشعرها مشعّث، فيتولد إذ ذاك في صدره شعور بالقرف من هذه المرأة، فيتطلع إلى عينيها العكرتين، كأنما هما منطفئتان، جافًّا، صامتًا، غير واجد في نفسه حتى الرغبة في أن يقول لها «مرحبًا».

وكانت هي، بالتأكيد، تدرك شعوره، فتقول له، وهي تتغطى باللحاف:

- اذهب من هنا.. رح لعند فيرا... قل للعجوز أن تجيء لي بماء مع الثلج.

فكان يذهب إلى الغرفة النظيفة التي تقيم فيها صديقة بافل، وترى فيرا وجهه العابس، فتبتسم له ابتسامة المذنب. ولقد سألته ذات مرة:

- ماذا، أمريرة النسوة أمثالنا؟

- إيه يا فيروشكا! - أجابها إيليا- المعصية عليك، كالثلج... تبتسمين، فتذوب.

- مسكينان، أنت وبافل، - قالت الفتاة راثية لحالته.

كان يحب فيرا، ويشفق عليها، ويقلق صادق القلق حين تتخاصم مع بافل، ويصالحهما. وكان يطيب له أن يجلس عندها، وينظر إليها كيف تسرح شعرها الذهبي أو تخيط شيئًا ما، مدندنة بصوت خافت، ولقد كانت في مثل هذه اللحظات موضع مزيد من الإعجاب لديه، وكان يشعر بتعاسة الفتاة بمزيد من

الحدة، فيهوّن عليها قدر استطاعته، وأما هي فتقول:

- لا يجوز العيش هكذا، لا يجوز، يا إيليا ياكوفليفتش... أنا، لا فرق... قذرة، وسأبقى قذرة، ولكن ما ذنب بافل؟

وكانت أولمبيادا تقطع أحاديثهما، إذ تظهر أمامهما من دون حس، كأنها الشعاع البارد من القمر، لابسة مئزرًا منزليًّا أزرق فضفاضًا.

- هيا نشرب الشاي يا نزوة.. ثم تعالي أنتِ أيضًا، يا فيروشكا.

وكانت تمضي بإيليا على إثرها، مهيمنة، متوردة من الماء البارد، نظيفة، متينة، هادئة، وأما هو فيسير خلفها، ويفكر متسائلًا: أتلك هي التي أبصرها منذ ساعة مدعوكة مبتذلة بالأيدي الوسخة؟

وأثناء تناول الشاي، كانت تقول:

- مؤسف أنك درست قليلًا... عليك أن تترك التجارة، عليك أن تجرب شيئًا ما غيرها. انتظر، سأجد لك وظيفة صغيرة، ينبغي تدبير شغل لك... هاك، حين سأذهب عند بولوئيكتوف، سيكون بوسعي أن أفعل هذا.

- ماذا... هل يعطي الخمسة آلاف؟ - سأل إيليا.

- سيعطي. - أجابت المرأة موقنة.

- ولكني إذا لقيته يومًا عندك، فلسوف أقطع رأسه. - تمتم إيليا بكراهية وحقد.

- انتظر حتى يدفع لي المال.- قالت المرأة ضاحكة.

وقد أعطاها التاجر كل ما كانت ترغب. وبعد قليل كان إيليا يجلس في منزل أولمبيادا الجديد، يتأمل السجادات السميكة على الأرض، والأثاث المنجد بمخمل قاتم اللون، ويصغي إلى حديث عشيقته الهادئ المطمئن. ما كان يلاحظ لديها ارتياحًا خاصًّا لتبدل وضعها، فقد كانت على عهدها دائمًا من الهدوء والانسجام.

- عمري سبعة وعشرون عامًا، وحين أقارب الثلاثين سيكون معي حوالي عشرة آلاف روبل، وإذ ذاك سأطرد العجوز وأصبح حرة طليقة... فتعلم مني كيف تعيش، يا نزوتي الرزينة.

ولقد كان إيليا يتعلم منها هذا العزم الذي لا يلين على بلوغ هدفها، ولكنه كان، أحيانًا، إذ يفكر بأنها تمنح غيره متعها، يشعر بمهانة ثقيلة تذله؛ وإذ ذاك كان ينبثق أمامه، بجلاء خاص، الحلم بدكان صغيرة، وغرفة نظيفة يستقبل فيها هذه المرأة. لم يكن على يقين من أنه يحبها، ولكنها كانت ضرورية له، وعلى هذه الحال مضت قرابة ثلاثة شهور.

وذات مرة، إذ عاد إيليا إلى البيت بعد المتاجرة، دخل إلى منزل الإسكافي في القبو، فرأى، والدهشة تأخذه، بيرفيشكا جالسًا إلى الطاولة أمام زجاجة فودكا، مبتسمًا في غبطة وسعادة، ومقابله ياكوف،

وكان ياكوف منحنيًا بصدره على الطاولة، يهز رأسه ويقول في غير حزم:

- إذا كان الله يرى كل شيء، فهو يراني أنا أيضًا... أبي لا يحبني، إنه غشاش... صحيح؟

- صحيح، يا ياشا[18]! سيئ، ولكنه صحيح. - قال الإسكافي.

- فكيف السبيل إلى العيش؟ - سأل ياكوف، مديرًا لسانه بتثاقل، نافضًا شعره الأشعث.

كان إيليا واقفًا في الباب، منقبض القلب، فقد كان يرى كيف يهتز رأس ياكوف الكبير في عجز على عنقه النحيل، وكان يرى وجه بيرفيشكا الأصفر اليابس، تنيره ابتسامة بلهاء، فما كان يصدق أن من يراه أمامه هو فعلًا ياكوف، ياكوف الناعم الهادئ. وأقبل عليه.

- ما تفعل يا هذا؟

فارتجف ياكوف، ونظر إلى وجهه بعينين مرتعبتين، وصاح مبتسمًا ابتسامة صفراء:

- حسبت... أبي.

- ماذا تفعل، آ؟ - كرر إيليا السؤال.

- أنت، يا إيليا ياكوفليفتش، اتركه.- شرع بيرفيشكا يقول، وقد نهض عن الكرسي وراح يتراقص على قدميه:- إنه على حق، والحمد لله على أنه يشرب.

- إيليا! - صاح ياكوف بصوت هستيري مرتفع- أبي... ضربني ضربًا مبرّحًا!

- صحيح تمامًا، أنا شاهد على ذلك. - أعلن بيرفيشكا، لاطمًا صدره- رأيت كل شيء، ولسوف أقول لو تطلب الأمر حلف اليمين.

كان وجه ياكوف متورمًا فعلًا، وشفته العليا منتفخة، وقد وقف أمام رفيقه، قائلًا له، وهو يبتسم ابتسامة حزينة:

- أترى يمكن أن أُضرَب أنا؟

وشعر إيليا أنه لا يستطيع التهوين على رفيقه ولا توجيه اللوم إليه.

- ولماذا ضربك؟

فحرك ياكوف شفتيه، راغبًا في أن يقول شيئًا، ولكنه أمسك رأسه بيديه، وانطلق ينتحب، وكل جسده يرتعش، فقال بيرفيشكا وهو يصب لنفسه الفودكا:

- دعه يبك قليلًا، فحسن أن يستطيع المرء البكاء... ماشوتكا أيضًا... تجري سيلًا من مدامعها... صاحت به: سأقلع عينيك.. وقد أرسلتها لعند ماتيتسا.

- ماذا جرى له مع أبيه؟ - سأل إيليا.

- حدث أمر فظيع جدًّا... عمك أنت بدأ الحكاية، قال فجأة: «دعني أحج إلى كييف، لعند القديسين»، فسرّ بتروخًا سرورًا عظيمًا- ينبغي للمرء أن يقول الحقيقة كلها- إنه مسرور لذهاب تيرنتي، فليس الرفيق طيبًا في كل أمر. وقد قال له: - رح وادع لي بكلمة صغيرة لدى القديسين... ولكن ياكوف قال له: «دعني أذهب أنا أيضًا».

وحملق بيرفيشكا بعينيه، وكشر بسحنته الوحشية، وقال بصوت أصم ممطوط:

- «ماذ... ذا؟» - «وأنا دعني أذهب إلى القديسين»- «كيف؟» - «أريد أن أصلّي لأجلك..»، فزأر بتروخا أي زئير: «سأريك كيف تصلي!» ولكن ياكوف ألح: «دعني!»، وكم راح بتروخا يصفعه على وجهه.. خذ كمان، خذ.

- لن أستطيع العيش معه. - صاح ياكوف- سأشنق نفسي.. لماذا ضربني؟ قلت من قلبي.

وثقل على إيليا سماع صرخاته، فانصرف من القبو، رافعًا كتفيه تعبيرًا عن العجز، وقد طاب له النبأ القائل إن عمه سيذهب إلى الحج؛ فسيذهب عمه، ويبارح هو هذا البيت، فيستأجر غرفة صغيرة، ويروح يعيش لوحده.

وحين دخل مسكنه، ظهر على إثره تيرنتي؛ كان وجهه يتهلل فرحًا، وعيناه تتألقان بهجة، وقد أقبل على إيليا، يهز حدبته، وقال:

- أيوه، أنا رائح.. يا رب! من الحبس المظلم إلى نور الله سأصعد.

- ولكن أتعلم أن ياكوف شرب حتى السكر؟ - قال إيليا بلهجة جافة.

- آ- آ- آ؟ ما مليح.

- أبوه ضربه بحضورك؟

- بحضوري... وماذا؟

- ألا تستطيع أن تفهم أنه من جراء هذا قد سكر.

- أحقًّا من جراء هذا؟ قل، من فضلك، آ؟

وأدرك إيليا بجلاء أن عمه غير مهتم أقل اهتمام بمصير ياكوف، الأمر الذي زاد من سخطه على الأحدب. لم يسبق له قط أن رأى تيرنتي في مثل هذه البهجة، فثار في نفسه شعور معتكر بفعل هذا الابتهاج البادي أمامه إثر دموع ياكوف فورًا، فجلس تحت النافذة، وقال لعمه:

- اذهب إلى المطعم.

- هناك رب العمل... أنا في حاجة للحديث معك.

- عن أي شيء؟

فأقبل الأحدب عليه وأسرّ له قائلًا:

- عن قريب سأكون جاهزًا للطريق، وستبقى أنت هنا لوحدك.. أي نعم... يعني...

- طيب، قل رأسًا. - قال إيليا.

- رأسًا؟ - هتف تيرنتي بصوت خفيض، وعيناه تطرفان على نحو متواتر- الحياة هنا أيضًا غير سهلة، وقد جمعت مالًا، غير كثير...

فتطلع إليه إيليا، وضحك ضحكة قصيرة غير طيبة.

- ماذا دهاك؟ - سأل عمه مرتعدًا.

- أيوه، أنت جمعت مالًا.

ونطق بكلمة «جمعت» نطقًا شديد الوضوح.

- أي نعم، أيوه. - أخذ تيرنتي يقول، غير ناظر إليه- أيوه، يعني... للدير قررت أن أهب مائتين، ولك... مائة.

- مائة؟ - سأل إيليا بسرعة، وهنا اكتشف أن في أعماق نفسه يعيش منذ وقت بعيد الأمل بأن يحصل من عمه لا على مائة روبل، بل أكثر بكثير، فشعر بالغيظ في آن واحد على نفسه، من جراء أمله- الأمل غير الطيب، وقد كان يعرف هذا- وعلى عمه لكونه يعطيه هذا النزر اليسير، فنهض عن الكرسي، وانتصب بقامته، وقال لعمه بصرامة، وغضب:

- لن آخذ مالك المسروق.

فتراجع الأحدب عنه، وجلس على السرير، محزونًا شاحبًا، وراح، وهو قاعد فاغر فاه، يتطلع إلى إيليا، وفي عينيه هلع أبله.

- ما لك تتطلع؟ لست في حاجة.

- يا يسوع المسيح! - تمتم تيرنتي بصوت أبح. - إيليوشا، كنت لي كولدي... وأنا... من أجلك.. من أجل مصيرك أقدمت على ارتكاب الخطيئة... خذ الفلوس.. وإلا فلن يغفر لي الرب.

- هكذا! - صاح إيليا ساخرًا- ستذهب إلى الله حاملًا بيديك فواتير الحساب؟ وهل تراني التمست منك، يا عمو، أن تسرق الفلوس؟ وأي إنسان ذاك الذي نهبتماه!

- إيليوشا! وأنت لم تلتمس أن تولد. - قال العم، باسطًا يده إلى إيليا بشكل مضحك- لا، بل خذ الفلوس، بحق المسيح؛ إنقاذًا لروحي، لن يغفر لي الرب إذا أنت لم تأخذها.

كان يبتهل، وشفتاه ترتجفان، وعيناه يبرق فيهما الرعب. وكان إيليا ينظر إليه عاجزًا عن أن يدرك أهو محزون على عمه أم لا؟

- طيب.. سآخذها.- قال أخيرًا وخرج فورًا من الغرفة. ولقد كان قراره بأخذ المال من عمه غير مستطاب لديه؛ إذ حط من قيمته في عين نفسه. وما حاجته إلى المائة روبل؟ وماذا يمكن أن يفعل بها؟ ولقد خطر له أن لو كان عمه قد عرض عليه ألف روبل لكان قد عمد على الفور إلى إعادة بناء حياته القلقة القاتمة، واستعاض عنها بحياة نظيفة تتخذ لها مجرى في منأى عن الناس، في عزلة هادئة... وماذا لو سأل عمه كم كانت حصته من مال اللقاط العجوز؟ ولكن هذه الفكرة بدت له كريهة.

ومنذ اليوم الذي تعرّف فيه إيليا إلى أولمبيادا، بدا له بيت فيليمونوف أشد قذارة وضيقًا، وكان هذا الضيق وهذه القذارة تبعثان في نفسه شعورًا بقرف مادي، كأنما تلامس جسده أيدٍ باردة منسابة... واليوم بات هذا الشعور مرهقًا له بوجه خاص، فما كان يستطيع أن يجد له مكانًا في البيت، فمضى إلى ماتيتسا، فوجد المرأة جالسة على الكرسي بالقرب من سريرها العريض، وقد ألقت إليه بنظرة وهمست بصوت عال كأنه نفخ الريح، منذرة بسبابتها:

- هس... نائمة.

كانت ماشا نائمة على السرير، منطوية متكومة.

- ما هذا؟ - وشوشت ماتيتسا محملقة عينيها الكبيرتين بحنق- بدأوا يضربون الأطفال، يا للأبالسة! ألا فلتنشق الأرض من تحتهم وتبتلعهم.

كان إيليا يصغي إلى وشوشتها، وهو واقف قرب المدفأة، ويفكر قائلًا في نفسه، متأملًا وجه ماشا وقد غشاه شيء ما كالح كئيب:

«وماذا سيحل بهذه البنت؟».

- أتعرف أنت أنه شد ماشا من شعرها، هذا الحرامي الشيطان، أبو الخمارة... ضرب ابنه وضربها، وأخذ يهدد بطردهما من البيت، آ؟ أتعرف؟ إلى أين ستذهب، أيوه؟

- ربما أجد لها أنا مكانًا لها تشتغل فيه.- قال إيليا مفكرًا، وقد تذكر أن أولمبيادا تبحث عن خادمة.

- أنت! - همست ماتيتسا مؤنبة- إنك تمشي هنا مشية السيد المتغطرس، تنتفخ كالبلوطة الصغيرة، لا ظلًّا تعطي، ولا جوزًا تحمل.

- اصطبري، لا تقّحي. - قال إيليا، وقد وجد عذرًا حسنًا للذهاب في الحال إلى أولمبيادا، ثم سأل:- ما عمر ماشوتكا؟

- خمسة عشر... وكم تتصور؟ وماذا إذا كان عمرها خمسة عشر؟ حتى الاثني عشر كثيرة عليها، إنها هزيلة، نحيلة، لا تزال طفلة بكل معنى الكلمة.. لن تكون هذه الصغيرة ملائمة في أي مكان، في أي مكان.. وما الداعي لأن تعيش؟ ألا لو تظل نائمة، فلا تفيق حتى يُبعث المسيح!

وما مضت ساعة حتى كان يقف أمام باب منزل أولمبيادا، منتظرًا أن يُفتح له، وأبطأوا في الفتح، ثم انطلق من وراء الباب صوت رفيع بشع:

- من هناك؟

- أنا. - أجاب لونيف، غير مدرك من هذا الذي يسأله؛ فقد كانت خادمة أولمبيادا، المرأة المجدورة العجفاء، تتكلم بصوت فظ حاد، وتفتح الباب من غير سؤال.

- من تريد؟ - تكرر السؤال من وراء الباب.

- هل أولمبيادا دانيلوفنا في البيت؟

وانفتح الباب فجأة، وانصب النور على وجه إيليا، فتراجع الشاب خطوة، مرفرفًا بعينيه، غير مصدق لهما.

كان يقف أمامه عجوز قصير القامة، حاملًا بيده مصباحًا، مرتديًا ثوبًا منزليًّا ثقيلًا فضفاضًا، قرمزي اللون، قحفه يكاد يكون أجرد، وعلى ذقنه تهتز باضطراب لحية قصيرة، خفيفة الشعر، غبراء. كان ينظر إلى وجه إيليا، وعيناه الحادتان الفاتحتان تدوران بخبث، وشفته العليا، ذات الشعر الخشن، ترتعش، والمصباح يرتجف في يده اليابسة القاتمة، وانطلق يقول:

- من هذا؟ أيوه.. ادخل... أيوه.. من هذا؟

وأدرك إيليا من الواقف أمامه، وشعر أن الدم قد صعد إلى وجهه، وراح يغلي في صدره، هو ذا إذن من يشاطره المتعة بهذه المرأة النظيفة، المتينة البنية.

- أنا بياع متجول.- قال بصوت أصم، وهو يجتاز عتبة الباب.

فغمزه العجوز بعينه اليسرى، وضحك ضحكة مفتعلة خبيثة. كان له جفنان أحمران من دون رموش، أما فمه فتبرز فيه عظيمات صفراء حادة.

- بياع... قطاع؟ أيّ بيّاع، آ؟ أي واحد؟ -راح العجوز يسأل متضاحكًا في خبث، مقرّبًا المصباح من وجهه.

- بيّاع خردوات؛ أتاجر بالعطور، والخيوط، وبكل الخردوات. -قال إيليا مطأطئًا رأسه، شاعرًا بأن فيه دوارًا، وأمام عينيه تسبح بقع حمر.

- أيوه.. أيوه أيوه... خيطان- ميطان؟ نعم.. نعم.. نعم.. خيوط، عطورات... صاحبات حبيبات.. وماذا تريد يا بيّاع، آ؟

- أريد أولمبيادا دانيلوفنا.

- آ - آ - آ؟ وما حاجتك إليها، آ؟

- يلزمني قبض فلوس ثمن بضاعة- تمتم إيليا بجهد ومشقة.

كان يشعر أمام عجوز النحس هذا برعب غير مفهوم وبالكراهية له؛ فقد كان في صوت الشيخ الخافت الرفيع، وكذلك في عينيه الخبيثتين، ما يخز قلب إيليا، وما يهينه ويذله.

- فلوس؟ مديونة؟ طيّ...ي...ب.

وفجأة حاد الشيخ بالمصباح عن وجه إيليا، فتطاول، وأدنى منه وجهه المترهل الشاحب، وسأله هامسًا وهو يضحك ضحكة ساخرة مسمومة:

- والمكتوب أين هو؟ هات المكتوب.

- أي مكتوب؟ - سأل إيليا متراجعًا بهلع.

- من سيدك؟ مكتوب إلى أولمبيادا دانيلوفنا؟ أيوه.. هاته! أنا أوصله إليها... أيوه.. عجّل! - وراح الشيخ يقترب من إيليا ويتشبث به، وجف فم إيليا من الرعب.

- ليس معي أي مكتوب! - قال إيليا بصوت مرتفع وبعنف، شاعرًا بأن أمرًا خارقًا يوشك أن يحدث.

ولكن ظهرت في تلك اللحظة قامة أولمبيادا الممشوقة المتينة، ومن وراء رأس الشيخ، نظرت إلى إيليا بهدوء، دون أن يرف لها جفن، وسألته بصوت متزن:

- ما لك، يا فاسيلي غافريلوفيتش؟

- هذا البيّاع... له عندك دين، أخذت منه شريطة.. وما دفعت ثمنها، آ؟ وها قد جاء... وظهر.

كان الشيخ يفتل أمام المرأة متفحصًا بعينيه تارة وجهها، وتارة وجه إيليا، فنحّته عنها بحركة ذات سطوة من يدها اليمنى، ودست تلك اليد في جيب مئزرها المنزلي، وقالت لإيليا بصوت صارم:

- أما كان بوسعك المجيء في وقت آخر؟

- أيوه. - صاح الشيخ بصوت كالعواء- أبله، آ.. تأتي وقت لا يلزم، آ؟ حمار!

كان إيليا يقف كأنه مقدود من حجر.

- لا تصرخ، يا فاسيلي غافريلوفيتش.. لا يليق - قالت أولمبيادا، والتفتت إلى إيليا- كم لك، ثلاثة روبلات وأربعون؟ خذ.

- ويللا انقلع. - صرخ الشيخ من جديد - اسمحي بأن أغلق الباب... أنا نفسي، بذاتي.

ورد على صدره ثوبه المنزلي، ففتح الباب، وصاح بإيليا:

- رح!

كان إيليا يقف في الصقيع قرب الباب المغلق، ينظر إليه نظرة بلهاء، غير مدرك أهو في حلم مزعج، أم تراه يرى كل هذا بعين اليقظة؟ كان يمسك بيد قبعته، ويشد بالأخرى على نقود أولمبيادا شدًّا محكمًا. وظل واقفًا هكذا إلى أن أحس بالصقيع يضغط على رأسه بطوق من حديد، وبرجليه تتقصفان من البرد، فاعتمر إذ ذاك بالقبعة، ووضع الفلوس في جيبه، ودس يديه في كمي معطفه، وتقبّض، وأحنى رأسه، ومضى يسير ببطء على طول الشارع، حاملًا في صدره قلبًا بات قطعة من جليد، شاعرًا برأسه تدور فيه كرات ثقيلة وتدق على صدغيه، وأمام ناظريه يسبح شبح قاتم، هو شبح العجوز، ذي القحف الأصفر، ينيره ضوء بارد.

ولقد كان وجه الشيخ يبتسم ابتسامة النصر، في لؤم وخبث.

وفي اليوم التالي، كان إيليا يتمشى ببطء وصمت في شارع المدينة الرئيس، كان لا يزال يتمثل نظرة الشيخ الساخرة، وعيني أولمبيادا الزرقاوين الهادئتين، وحركة يدها حين أعطته النقود، وفي الهواء الجليدي تتطاير نثرات حادة من الثلج، لاسعة وجه إيليا.

كان قد مر لتوه بدكان صغيرة متوارية في عزلة داخل تجويفة قائمة بين المعبد وبين دار التاجر لوكين الضخمة، وعلى مدخل الدكان علقت لافتة صدئة كتب عليها:

«الصراف ف. غ. بولوئيكتوف. شراء العتيق من الذهب والفضة ونقوش الأيقونات، والأشياء الثمينة والعملة القديمة».

وبدا لإيليا حين ألقى بنظرة إلى باب الدكان، أن العجوز واقف من خلف زجاج الباب، وقد هز له رأسه الصغير الأصلع، مبتسمًا في سخرية. وشعر لونيف برغبة لا تقهر في الدخول إلى الحانوت، والنظر إلى الشيخ عن كثب. وفي الحال وجد لديه ذريعة لذلك، فقد كان، كجميع باعة الخردوات، يجمع ما يقع في يده من عملة قديمة، وبعد جمعها يبيعها للصرافين بروبل وعشرين كوبيكًا للروبل الواحد، وقد كان في جزدانه الآن أيضًا بضعة من هذه النقود.

فانكفأ راجعًا، وفتح باب الدكان بجرأة، ودخلها بصندوقه، وأدى التحية، رافعًا قبعته:

- يعطيك العافية.

كان الشيخ جالسًا خلف منضدة ضيقة ينزع النقوش عن الأيقونات، ناكشًا المسامير الدقيقة بإزميل صغير، وقد ألقى نظرة خاطفة على الفتى الداخل، وأسدل رأسه في العمل منكبًّا على عمله، قائلًا بلهجة جافة:

- ما حاجتك؟

- هل عرفتني؟ - سأل لأمر ما.

ومن جديد رمقه الشيخ بنظرة.

- يمكن، عرفتك... فما حاجتك؟

- هل تشتري عملة؟

- أرني.

ومد إيليا يده إلى جيبه بحثًا عن الجزدان، ولكن يده لم تهتد إلى الجيب، وراحت ترتعد ارتعاد قلبه من الحقد على الشيخ والخوف حياله. وقد كان، وهو يبحث في عب معطفه، يحدّق النظر إلى الرأس الصغير الأصلع، والقشعريرة تسري في ظهره.

- أيوه.. هل ستنتهي قريبًا؟ - سأل الشيخ بصوت محنق.

- حالًا. - أجاب إيليا بصوت خافت.

واستطاع أخيرًا إخراج الجزدان، فأقبل على المنضدة حتى لاصقها، وأفرغ عليها النقود، فشملها الشيخ بنظرة.

- هذه فقط؟

وأمسك الفضة بأصابع رفيعة صفراء، وراح يتأمل النقود، قائلًا لنفسه من تحت أنفه:

- كاترينية... آنيّة... كاترينية... بافلية... كمان... صليبية... السنة الثانية والثلاثون.. الكلب يعرف ما هي... خذ.. هذه لا آخذها، كلها مسحاء.

- ولكن ظاهر من حجمها أنها ربع روبل. - قال إيليا بلهجة جافة.

فقذف الشيخ بقطعة النقد، وبحركة سريعة دفع جرار المنضدة وراح ينكش فيه.

وبسط إيليا ساعده، وانهال على صدغ الشيخ بلكمة من قبضته الشديدة، فتهاوى الشيخ على الجدار، فارتطم به رأسه، إلا أنه ارتمى بصدره في الحال على المنضدة، ولفه بساعديه، ماطًّا عنقه النحيل صوب إيليا، ورأى إيليا كيف تبرق العينان على الوجه الصغير الكالح، وترتعش الشفتان، وسمع وشوشة عالية بحّاء:

- نور العين... يا نور عيني.

- يا نذل. - قال إيليا، وأطبق بيديه بقرف على عنق الشيخ، أطبق على العنق بيديه وراح يهزه، والشيخ يحشرج، مسندًا يديه إلى صدره، واحمرت عيناه، واتسعتا، وانسكبت منهما الدموع، واندلق لسانه من ظلمة فمه وراح يتحرك، كأنما هو يشاكس القاتل، وتقاطر على يد إيليا لعاب دافئ، وراح شيء ما يحشرج في فم الشيخ ويصفر، وأخذت أصابع باردة عقفاء تتلمس عنق إيليا، فرد رأسه إلى وراء، صارًّا بأسنانه، ومضى يهز جسد الشيخ الخفيف بشدة متزايدة، مبقيًا إياه في الفراغ. ولو أن إيليا قد أوسع إذ ذاك ضربًا من خلفه، لما أفلت من يديه رقبة الشيخ المطقطقة تحت أصابعه. وبحقد ورهبة راح يتطلع إلى عيني بولوئيكتوف العكرتين كيف تزدادان ضخامة، فيضغط على حلقه بشدة متزايدة، وكلما كان جسد العجوز يزداد ثقلًا، كان إيليا يشعر كأن ما في قلبه من ثقل ينصهر. وأخيرًا

دفع عنه بالصراف، فانهار هذا خلف المنضدة في خفوت.

وتلفت لونيف إلى ما حوله؛ كانت الدكان هادئة مقفرة، وأما خلف الباب، في الشارع، فيهطل ثلج كثيف، وعلى الأرض، عند قدمي إيليا، قطعتان من الصابون، وجزدان، وشلة شرائط، فأدرك أن هذه الأشياء قد سقطت من صندوقه، فرفعها ووضعها في مكانها. وبعد ذلك أطل على الشيخ من فوق المنضدة فإذا هو ثاو في شق ضيق بين المنضدة والجدار، ورأسه متدلٍّ على صدره، فما كان مرئيًا منه غير قذاله الأصفر، وإذ ذاك أبصر إيليا بجرار المنضدة مفتوحًا، والعملات الذهبية والفضية تبرق، ووقعت عينه على حزمة من الأوراق النقدية، فتلقف على عجل واحدة من الحزم، فأخرى، فغيرها، ودسها في عبه.

وخرج إلى الشارع غير متعجل، وتوقف على بعد ثلاث خطوات من الدكان، فغطى بضاعته بالمشمع بعناية، ومضى يسير في غمار الثلج الكثيف، المتهاطل من ارتفاع غير منظور، ومن حوله وفي داخله يضطرب ضباب بارد معتكر. وراح إيليا يتفحصه بإمعان، فإذا هو يحس فجأة بوجع في عينيه، فمد إليهما أصابع يده اليمنى، وتوقف في رهبة، وكأنما تجمدت قدماه والتصقتا بالأرض، وبدا له أن عينيه تجحظان وتذلقان على جبينه، كعيني العجوز بولوئيكتوف، وأنهما ستظلان هكذا إلى الأبد، جاحظتين جحوظًا مرضيًّا، فلا تنغمضان أبدًا، وكلٌّ يستطيع أن يرى فيهما الجريمة، فكأنهما قد ماتتا. ولقد جس البؤبؤين بأصابعه، فأحس بالوجع فيهما، ولكنه ما كان يستطيع إسبال جفنيه، فانقطعت أنفاسه في صدره من الهلع. وأخيرًا، استطاع إغماض عينيه، فتمتع في ابتهاج بالظلمة، وقد غمرته فجأة، وهكذا وقف جامدًا في مكانه، غير مبصر شيئًا، متنشقًا الهواء تنشقًا عميقًا... وصدمه أحدهم، فالتفت بسرعة، فإذا برجل طويل القامة، مار بالقرب منه، يرتدي معطفًا قصيرًا من الفراء، فتعقبه إيليا بنظراته إلى أن غاب في ثول كثيف من نثار الثلج الأبيض؛ وإذ ذاك أحكم لونيف بيده وضع قبعه على رأسه، ومضى يخطو على الرصيف، شاعرًا بوجع في عينيه وثقل في رأسه؛ كان كتفاه يرتعشان، وأصابع يديه تتقبض بغير إرادته، وأما قلبه فقد انبعث فيه شيء ما عنيد، متجاسر، فأزال منه الهلع.

وإذ وصل إلى مفرق الشارع أبصر بشبح كالح لأحد رجال الشرطة، فأقبل عليه مباشرة، غريزيًّا، بهدوء، وبكثير من الهدوء، كان يمشي وقلبه متوقف لا ينبض.

وقال إيليا، إذ بات لصق الشرطي، وهو يحدق فيه النظر:

- يا لهذا الثلج!

- أي نعم، يهطل بكثافة.. الآن، لك الحمد يا رب، سيصبح الطقس دافئًا! - أجاب الشرطي بارتياح، وكان له وجه كبير، أحمر، ذو لحية.

- وما الساعة الآن؟ - سأل إيليا.

- لنر! - ونفض الشرطي الثلج عن كمه، ودس يده في عبه، وقد كان مخيفًا لإيليا ومحببًا إليه الوقوف أمام هذا الرجل، فإذا به يضحك فجأة ضحكة جافة كأنما قد أرغم عليها إرغامًا.

- ما لك تقهقه؟ - سأل الشرطي وهو يفتح غطاء الساعة بظفره.

- كم تكدس عليك من الثلج! - قال إيليا متعجبًا.

- ما أشد ما يهطل! الساعة الآن الواحدة والنصف... إلا خمس دقائق. إنه يتكدس يا أخ.. أنت الآن ستذهب إلى مطعم، إلى الدفء، وأما أنا فعليّ أن أنتصب هنا في مكاني حتى الساعة السادسة... انظر كم تكدس على صندوقك هذا.

وتنهد الشرطي وطقطق بغطاء الساعة مغلقًا إياها.

- نعم، أنا ذاهب إلى المطعم- قال إيليا، وابتسم ابتسامة صفراء، وأضاف لأمر ما قائلًا: - هاك، إلى هذا المطعم ذاته.

- أيوه، لا تغرني.

وفي المطعم، جلس إيليا قرب النافذة، ومن هذه النافذة، وقد كان يعرف ذلك، كان في الوسع رؤية المعبد الذي يقوم إلى جانبه حانوت بولوئيكتوف. أما الآن فقد كان كل شيء محجوبًا بضباب أبيض، وقد راح يمعن النظر إلى نديف الثلج كيف يتطاير بهدوء قرب النافذة ويستقر على الأرض مغطيًا آثار أقدام الناس بلباد وثير.

كان قلبه يخفق خفقًا سريعًا، شديدًا، إلا أنه خفيف الوقع.. وإنه لجالس ينتظر، من غير تفكير، ما الذي سيحدث فيما بعد.

وحين جاءه المستخدم بالشاي سأله، غير مصطبر:

- ماذا في الشارع... لا شيء؟

- الطقس بات أدفأ... أدفأ إلى حد بعيد. - أجاب المستخدم على عجل وانصرف مسرعًا، أما إيليا فقد صب كأسًا من الشاي، فما شرب، ولا تحرك، وهو ينتظر في تيقظ وانتباه، وقد أحس بالحرارة، فراح يفك أزرار معطفه، وفيما هو يلامس ذقنه بيديه، أخذته الرعشة، إذ بدا له أن ليست هاتان اليدان يديه هو، بل يدان غريبتان، باردتان؛ فرفعهما إلى وجهه، وأمعن النظر إلى أصابعهما، فإذا اليدان نظيفتان، إلا أن لونيف فكر بأن لا بد، مع ذلك، من غسلهما بالصابون.. وفجأة صاح أحدهم:

- قتلوا بولوئيكتوف!

فقفز إيليا عن كرسيه، كأنما كانت هذه الصيحة نداء له، ولكن الجميع في المطعم أخذهم الهرج والمرج، ومضوا صوب الباب، يلبسون قبعاتهم على الماشي، فألقى بعشرة كوبيكات في الصينية، وعلق حزام صندوقه على كتفه، وانطلق مسرعًا، مثلهم جميعًا.

كان قد احتشد عند دكان الصراف جمع كبير من الناس، ورجال الشرطة بينهم يروحون ويجيئون، متصايحين بانهماك، وكان ثمة أيضًا ذلك الشرطي الملتحي، الذي سبق لإيليا أن تحدث معه؛ كان

واقفًا قرب الباب، غير مفسح للناس مجالًا لدخول الدكان، ينظر إلى الجميع بعينين وجلتين، ويده مستمرة في تمسيد خده الأيسر، وقد بات الآن أشد احمرارًا من الأيمن. ووقف إيليا على مرأى منه، وراح يستمع إلى كلام الجمهور، كان يقف إلى جانبه تاجر أسود اللحية، صارم الوجه، يصغي مقطب الحاجبين إلى حديث شيخ أشيب يرتدي معطفًا من فراء الثعلب.

- وظن الصبي، يعني، أنه أغمى عليه، فركض إلى بيوتر ستيبانوفيتش، فقال له تعال لعندنا، من فضلك، صاحب المحل أصيب بمرض... فجاء إلى هنا، وتطلع، فإذا هو ميت.. تصور أنت ما أجرأه؟ في رابعة النهار، وفي هذا الشارع المزدحم... أيوه.. هكذا!

فسعل التاجر ذو اللحية السوداء بصوت عال، وقال بصوت كثيف صارم:

- إنها يد الله؛ يعني إن الله لم يشأ أن يغفر له.

فمضى لونيف إلى أمام، رغبة منه في التطلع إلى وجه التاجر، فدفره بصندوقه.

- أنت! - صرخ التاجر، منحيًّا إياه بحركة من كوعه، ناظرًا إلى وجه إيليا نظرة قاسية- إلى أين أنت طاحم؟

ومن جديد التفت إلى محدثه قائلًا:

- قيل في الكتاب: لا تسقط شعرة من رأس الإنسان من دون مشيئة الله.

- صح. -أقر الشيخ بهزة من رأسه، ثم أضاف بصوت خافت، غامزًا بعينه:- معروف أن الله يضع علامة على الخبيث. أستغفرك يا رب! حرام الكلام، ولكن السكوت صعب... أي نعم.

فضحك لونيف ضحكة قصيرة، وقد كان، وهو يصغي إلى هذا الحديث، يحس في صدره بدفق من القوة، وبجرأة رهيبة مستلذة، ولو أن أحدًا سأله في تلك اللحظة: «أأنت خنقته؟»، لأجابه دون خوف، على ما كان يبدو له: «أنا...».

وبهذا الشعور في صدره شق الزحام وسط الجمهور، ووقف إلى جانب الشرطي، فدفعه هذا مغضبًا على كتفه، صائحًا:

- إلى أين؟ ما شغلك هنا، آ؟ رح!

فترنح إيليا، وارتمى على أحدهم، وراحوا يدفعونه أيضًا.

- أعطه صفعة على رقبته.. ماذا، سكران؟

وإذ ذاك انتشل لونيف نفسه من الجمهور، وجلس على درجة المعبد، ضاحكًا في نفسه على الناس. ومن خلال حفيف الثلج والحديث الخافت، كانت تصل إلى مسامعه عبارات انفعالية متفرقة:

- فعلها في نوبتي هذا الحرامي اللعين.

- كان الأول في المدينة من حيث اعتماداته في البنك.

- الثلج يهطل بكثافة... فلست أرى شيئًا.

- كان يسلخ جلد الناس من دون أي رحمة.

- انظر... جاءت زوجته.

- إيه.. مسكينة! - قال فلاح عليه أسمال بالية، متنهدًا بصوت عال.

وتطاول لونيف واقفًا على طرفي قدميه، فرأى امرأة سمينة في خريف العمر، عليها معطف وشال أسود، تنزل في تثاقل من زحافة ذات غطاء من جلد الدب، وكان يسندها ممسكًا بساعدها رئيس مخفر الشرطة وشخص أشقر الشاربين.

- إيه.. يا ربي! - رن صوتها الهالع في الفضاء، فصمت الجميع. وتطلع إيليا إلى العجوز، فتذكر أولمبيادا.

- وهل ولده غائب؟ - سأل أحدهم بصوت منخفض.

- في موسكو.

- ما كان، أغلب الظن، ينتظر غير هذا.

- طبعًا.

كان ممتعًا للونيف أن ليس ثمة من أحد يأسف على بولوئيكتوف، ولكن كان يبدو له، في الوقت نفسه، أن الناس جميعًا، خلا التاجر ذا اللحية السوداء، بلهاء بل مقرفون؛ فقد كان التاجر ينطوي على صرامة وصدق، أما الباقون جميعًا فهم يقفون كالقرمات في الغابة، ويثرثرون، وهم يدفرونه، بكلمات خبيثة تفوه بها ألسنة قبيحة.

وانتظر حتى خرجوا بجثة الصراف الصغيرة من الدكان، فمضى إلى البيت متجمدًا من البرد، متعبًا، إلا أنه هادئ مطمئن. وفي البيت أغلق على نفسه في الغرفة، وراح يعد النقود؛ كان ثمة حزمتان سميكتان تحتوي كل منهما على أوراق صغيرة بمبلغ خمسمائة روبل، وفي الثالثة ثمانمائة وخمسون، وكانت هناك أيضًا حزمة من القسائم، ولكنه لم ينصرف لعدّها، بل صر جميع النقود في ورقة، وراح يفكر وهو مستند بكوعيه على الطاولة، متسائلًا: أين ينبغي أن يخفيها؟ وفيما هو يفكر في ذلك، شعر بالنوم يراود جفنيه. واعتزم إخفاء النقود في العليّة، فمضى إلى هناك، ممسكًا الحزمة بيديه، ظاهرة للعيان، فالتقى بياكوف في الممشى.

- آ، جئت من الآن! - قال ياكوف- وما هذا الذي تحمل؟

- هذا؟ - كرر إيليا السؤال، وهو ينظر إلى النقود، وقال على عجل، وهو يرتعش خوفًا من أن يزل لسانه، ملوحًا بالحزمة في الفضاء: - هذه... شرائط!

- هل ستأتي لشرب الشاي؟ - سأل ياكوف.

- في الحال.

وذهب مسرعًا، غير ثابت القدمين، ورأسه مضطرب، ثقيل، كرأس السكران. وفي طريقه إلى سلم العليّة كان يمشي حذرًا، خائفًا من إحداث ضجة، متهيبًا الالتقاء بأحد. وحين طمر النقود -في الأرض قرب المدخنة- خيّل إليه أن ثمة في العتمة، في زاوية العليّة، شخصًا مختبئًا يراقبه، فحدثته نفسه بأن يقذف إلى ذلك المكان بآجرّة، إلا أنه تمالك نفسه لوقته، ونزل إلى تحت بهدوء؛ فما عاد ينطوي على الخوف، وكأنما هو قد طمره في العليّة مع النقود، أما قلبه فقد انبعث فيه ارتباك ثقيل.

كان يسائل نفسه: «لماذا خنقته؟».

وحين دخل القبو، استقبلته ماشا، وقد كانت منهمكة بالسماور قرب الموقد، بصيحة مبتهجة:

- ما أبكر ما جئت اليوم!

- ثلج. -قال إيليا، وفي الحال صاح بانفعال:- كيف مبكر؟ جئت كما هي عادتي دائمًا.. في وقت، انظري... عتم.

- هنا عتم في منتصف النهار أيضًا... لماذا تصرخ؟

- لأنكم جميعًا مثل رجال التحري... عدت مبكرًا، أين أنت ذاهب؟ ماذا تحمل؟ وماذا يخصكم أنتم؟

فحدقت ماشا النظر إليه، وقالت مؤنبة:

- أي- أي.. كم أصبحت متعجرفًا يا إيليا!

- يضربكم قرد! - أطلق لونيف هذه الشتيمة وجلس قرب الطاولة، فأعربت ماشا بنفخة من أنفها عن الاشمئزاز والاستياء، وأعرضت عنه، وراحت تنفخ في مدخنة السماور، وكانت، وهي النحيفة القصيرة القامة، تهز خصلها السود، وتسعل، وترف بجفونها من الدخان. كان وجهها نحيلًا، والبقع القاتمة حول عينيها تزيد من بريقهما، وكان فيها ما يشبه واحدة من تلك الزهور النابتة في الزوايا المهملة من البساتين، وسط الأعشاب الفاسدة. وكان إيليا يتطلع إليها ويفكر بأن هذه البنت تعيش لوحدها، في حفرة، وتشتغل كأنها كبيرة، غير متوفرة لديها أي بهجة، وهيهات أن تلقى ذات يوم بهجة ما في حياتها. وأما هو فسيعيش الآن مثلما كان يشتهي منذ وقت بعيد، في طمأنينة ونظافة، وقد طابت له هذه الفكرة، وشعر بنفسه مذنبًا حيال ماشا، فناداها بهدوء، فأجابته:

- ماذا يا شيطان؟

- تعرفين... أنا شخص نجس. - قال إيليا، وارتعش صوته، أيقول لها أم لا يقول؟ فانتصبت بقامتها، تنظر إليه مبتسمة.

- لا أحد يضربك، تلك هي المسألة!

ثم اقتربت منه ماشا بسرعة، وراحت تقول على عجل:

- اسمع، يا عزيزي، التمس من عمك أن يأخذني معه.. التمس منه.. أسجد لك على قدميك، حقًّا أسجد لك.

- إلى أين؟ - سأل لونيف في إعياء، وهو مشغول بأفكاره، غير فاهم كلامها.

- معه، يا نور عيني.. التمس منه.

وأطبقت كفيها أحدهما على الآخر، ووقفت أمامه، وقفة المرء أمام الأيقونة، واغرورقت في عينيها الدموع، وراحت البنت تقول وهي تتنهد:

- ما أحلى أن يكون الوقت ربيعًا فنرحل، بهذا أفكر في جميع الأيام، بل أحلم في منامي بأني أسير، وأسير... يا نور عيني! إنه يسمع منك، فقل له أن يأخذني.. أنا لن آكل من خبزه، إنما سأطلب الصدقة والإحسان.. وسوف يعطونني؛ فأنا صغيرة، أيلوشا.. أتريد أن أقبل يدك؟

وتناولت يده فجأة، وانحنت عليها، فدفع إيليا البنت، ووثب عن الكرسي، وصاح بها:

- حمقاء! وهل تري يمكن هذا؟ أنا.. خنقت رجلًا.

ولكنه أضاف على الفور، وقد أخافته كلماته:

- ممكن.. ممكن أن أكون فعلت هذا، وأنت تريدين أن تقبلي يدي؟

- معليش. - قالت ماشا، وقد اقتربت منه حتى باتت لصقه- ولو أني قبلتها فما أهمية هذا الأمر الخطير؟ بتروخا شر منك، ومع ذلك فأنا أقبل يده مقابل كل كسرة من الخبز... إني أشمئز من ذلك، أما هو فيأمر أمرًا: قبّلي يدي.. بل هو يلامسني ويقرصني... الفاسق.

وقد شعر إيليا بالانفراج في صدره وبالمرح، أما لكونه قد نطق بالكلمات الرهيبة، أو لكونه لم يكملها، فابتسم، وقال للبنت في هدوء وبصوت ينطوي على الحنان:

- لا بأس، سأدبر هذا، أقسم بالله، سأدبر الأمر.. وستذهبين إلى الحج، وسأعطيك مالًا للطريق.

- يا نور عيني! - صاحت ماشا، وقفزت فطوقت عنقه بساعديها.

- اصطبري. - قال إيليا بوقار- قلت لك ستذهبين.. فصلي من أجلي، يا ماشوتكا.

- من أجلك؟ يا رب!

وظهر ياكوف في الباب، فسأل ماشا بدهشة:

- ما لك تصرخين؟ صوتك مسموع حتى في الباحة.

- ياشا! - صاحت البنت مبتهجة، وراحت تحكي لياكوف وهي تشرق بالكلمات:- أنا ذاهبة، مسافرة،

خاطرك.. هو وعدني بالتوسل لدى الأحدب.

- ها... كذا! - قال ياكوف وصفر بصوت خفيف- ضاع رأسي.. سأعيش الآن لوحدي تمامًا، كالقمر في السماء.

- دبر لنفسك مربية. - أشار عليه إيليا مازحًا.

- إنما سأشرب الفودكا.- قال ياكوف، هازًّا رأسه.

وألقت ماشا بنظرة إليه، ومضت إلى الباب، مطأطئة رأسها، ومن هناك انطلق صوتها مؤنبًا حزينًا:

- يا لك، يا ياكوف... من ضعيف!

- وأما أنتما فقويان! تطرحان بالإنسان طرحًا... شيطانان!

وجلس إلى الطاولة متجهمًا مقابل إيليا، وقال:

- ألا يمكن أن أذهب أنا أيضًا خفية مع تيرنتي؟

- اذهب... لو كنت أنا مكانك لذهبت.

- لو كنت مكاني! ولكن أبي يطلق الشرطة في أثري.

ولبث الجميع في صمت، ثم انطلق ياكوف يقول بمرح مفتعل:

- جميل، يا أخوي، أن يكون الإنسان سكيرًا؛ لا يفهم شيئًا، ولا يفكر بشيء.

ووضعت ماشا السماور على الطاولة، وقالت وهي تهز رأسها:

- يا لك من قليل الحياء.

- أيوه، أنتِ اسكتي. - صاح ياكوف مغضبًا- إن لك أبًا كأنه غير موجود... أتراه يقف عثرة في طريق حياتك؟

- حلوة حياتي. - قالت ماشا معترضة- لو كان هذا بوسعي، لهربت وما تلفتّ إلى ورائي.

- حياتنا جميعًا سيئة. -قال إيليا بصوت غير مرتفع، وراح يمعن في التفكير من جديد.

ومن جديد راح يتكلم ياكوف، ناظرًا نظرة حالمة إلى النافذة:

- ما أعظم أن يرحل المرء مبتعدًا عن الجميع؛ يجلس حيثما كان قرب غابة صغيرة، مطلًّا على النهر، مفكرًا في كل شيء.

- هذه طريقة حمقاء للفرار من الحياة. - قال إيليا بامتعاض.

فراح ياكوف يمعن النظر إلى وجهه، ثم قال بشيء من الرعب:

- أتعرف، لقد وجدت كتابًا...

- أي كتاب؟

- قديم.. مجلد بالجلد، شكله مثل كتاب المزامير، لا بد أنه هرطوقي... اشتريته من تتاري بسبعين كوبيگًا.

- وما عنوانه؟ - سأل إيليا دون اكتراث؛ فما كان راغبًا قط في الكلام، إلا أنه كان يشعر بأن السكوت خطر، فأرغم نفسه.

- العنوان فيه ممزق - قال ياكوف خافضًا صوته- ولكن الكلام يدور فيه حول أصل الوجود. وقراءته صعبة؛ مكتوب فيه أن فاليس[19] الميليسي هو أول من سأل عن أصل الوجود: «في البدء كان الماء ومنه ينبعث كل شيء، أما الله فقد دعاه فاليس ب «الفكرة» التي تعتبر الماء أصل كل شيء» وكذلك كان دياغوروس[20] ملحدًا، فهو «لم يكن ليعترف بأي إله»، يعني أنه لا يؤمن بالله! وأبيقور[21] أيضًا يقول: «إن الله موجود، ولكنه لا يهب الخير لأحد، ولا يخلق شيئًا، ولا يهتم بشيء»؛ أي أن الله، مع كونه موجودًا، ليس له من شأن مع البشر. هكذا أفهم! يعني عش كما تشاء، لا وصي عليك.

فنهض إيليا عن الكرسي، وقال مقطبًا حاجبيه بشدة، قاطعًا كلام رفيقه المتمهل:

- ألا لو آخذ هذا الكتاب فأهوي به على يافوخك!

- ومن أجل ماذا؟ - قال ياكوف منفعلًا في دهشة واستياء.

- من أجل ألَّا تلقي بنظرك إليه؟ أحمق! ومؤلف الكتاب أحمق آخر.

كان لونيف يدور حول الطاولة، ويميل على رفيقه الجالس، ويتكلم بانفعال محنق، كأنما يقرع رأس ياكوف الكبير بمطرقة:

- الله... موجود.. وهو لكل شيء بصير.. وبكل شيء عليم، ولا أحد سواه، والحياة توهب للتجربة، والمعصية من أجل اختبارك. هل تمتنع عنها أم لا؟ فإذا لم تمتنع فستلقى العقاب، فترقب.. لا من العباد ترقب، بل منه، هل فهمت؟ ترقب!

- كفى! - صاح ياكوف- وهل أنا الذي أقول هذا؟

- لا فرق! أي محاسب أنت لي، آ؟ - صاح لونيف، وقد اصفرّ وجهه من التهيج والحنق اللذين استوليا عليه فجأة- لا تسقط شعرة من رأسك من دون مشيئته! هل سمعت؟ فإذا كنت أنا قد وقعت في المعصية، فتلك هي مشيئته.. أحمق!

- أتراك جننت، أم ماذا؟ - صاح ياكوف مرتعبًا، وقد التصق بالجدار- في أي معصية وقعت؟

سمع لونيف هذا السؤال من خلال ضجيج صاخب في أذنيه، فأحسّ كأن ريحًا باردة تهب عليه، فراح ينظر بارتياب إلى ياكوف، وإلى ماشا التي أخافها هي أيضًا تهيجه وصيحاته.

- أتكلم على سبيل المثال. - قال إيليا بصوت خافت أصم.

- إنك معتل الصحة نوعًا ما. - قالت ماشا في تردد.

- وعيناك عكرتان. - أضاف ياكوف متأملًا وجهه، وبصورة عفوية مر إيليا بيديه على عينيه، وأجاب:

- هذا لا شيء... سيزول.

ولكنه كان يستثقل الوجود مع الناس ويستصعبه، فانصرف إلى منزله، ممتنعًا عن تناول الشاي.

وحين كان يستلقي على السرير، ظهر تيرنتي، كانت عينا الأحدب، منذ أن قرر الرحيل للاستغفار عن معصيته، تشعان بالألق والغبطة، كأنما هو قد ذاق مسبقًا فرحة الانعتاق من الخطيئة، وقد أقبل نحو سرير ابن أخيه بهدوء، والابتسامة على شفتيه، وراح يقول بصوت حنون، وهو يداعب لحيته:

- رأيت أنك جئت فقلت في نفسي هيا اذهب اتحدث معه قليلًا؛ فلن نستمر وقتًا طويلًا في العيش معًا.

- ستذهب؟ - سأل إيليا بلهجة جافة.

- متى أصبح الطقس دافئًا بعض الشيء.. أتمنى لشدة لهفتي لو أصل في أسبوع الآلام إلى كييف.

- هكذا... خذ معك ماشوتكا.

- إلى.. أين؟! - صاح الأحدب متعجبًا، باسطًا يده بحركة تعبر عن الرفض.

- ولكن اسمع. - قال إيليا بصرامة- ليس لها هنا من عمل... ولكنها في هذا العمر... ياكوف، بتروخا... وما إلى ذلك... هل فهمت؟ هذا البيت بالنسبة للجميع مثل الفخ... بيت ملعون! فلترحل عنه، ولعلها لن تعود.

- ولكن أين أذهب بها؟ - قال تيرنتي متشكيًا.

- خذها.. خذها. - كرر إيليا بإلحاح- وخذ لتكاليفها المائة روبل التي تخصني؛ فلا حاجة بي إلى مالك، وهي ستصلي من أجلك، إن صلاتها ذات شأن كبير.

فلبث الأحدب مفكرًا، وراح يكرر:

- شأن كبير... ن....نعم! كلامك هذا... صحيح.. المال لا يمكن أن آخذه منك.. لنبق هذا، كما قررنا، أما بشأن ماشكا، فلا بد من التفكير قليلًا.

وهنا شعت عينا تيرنتي فجأة بالفرح والبهجة، وراح يقول موشوشًا متحمسًا، مائلًا على إيليا:

- أيوه، يا أخ، أي رجل رأيت يوم أمس؟ رجل مشهور، هو بيوتر فاسيليتش... هل سمعت أنت عن الشارح سيزوف؟ رجل حكيم لا يوصف.. ينبغي الاعتقاد بأن الله نفسه قد بعث به إليَّ، تخفيفًا لما تعانيه نفسي من الشك الخبيث في رحمة الله لي، أنا الخاطئ.

كان إيليا مستلقيًا في صمت، يود لو ينصرف عمه، وبعينين نصف مغمضتين، كان يتطلع إلى النافذة، فيرى أمامه جدارًا عاليًا معتمًا.

- تكلمنا معه عن الذنوب، وعن خلاص النفس، - همس تيرنتي بحماسة- وقد قال هو: «مثلما يحتاج الحجر إلى إزميل لصقله، هكذا يحتاج الإنسان إلى الآثام لكي تتعذب روحه ويلقي بها على الثرى تحت أقدام الرب الرحيم».

- ولكن هذا الشارح شبيه بالشيطان.

- وهل ترى يجوز مثل هذا الكلام؟ - قال تيرنتي منفعلًا، متراجعًا إلى وراء. - إنه رجل تقي... وله الآن شهرة أوسع من التي كانت لجدك... إيه يا أخ!

وراح الأحدب يتلمظ بشفتيه هازًّا رأسه هزة تأنيب.

- طيب، لا بأس. - قال إيليا بلهجة خشنة عدائية- وماذا كان يقول أيضًا؟

وضحك إيليا ضحكة قصيرة كريهة، فارتد عنه عمه، وعلى وجهه الدهشة، فسأله:

- ما لك؟

- لا شيء، لقد أحسن القول، هذا الشارح.. وإن قوله ليناسبني تمامًا؛ فأنا نفسي أعتقد هذا الاعتقاد، هكذا، حرفًا بحرف.

ولاذ بالصمت، وهو يحدق بإمعان في وجه عمه، والتفت صوب الجدار.

- وقال أيضًا.. -استأنف تيرنتي يقول بصوت متحفظ- قال إن المعصية تجنّح الروح بالاعتراف وتحلق بها إلى عرش العلّي الأعلى.

- ولكنك أنت أيضًا شبيه بالشيطان. - قاطعه إيليا وضحك من جديد ضحكة قصيرة خافتة.

فلوّح الأحدب بيديه، كما يلوح الطائر الكبير بجناحيه، وتجمد في خوف واستنكار. وأما لونيف فقد جلس على السرير ودفر عمه في خاصرته بيده، وقال له:

- دعني.

فهب تيرنتي سريعًا قائمًا على قدميه، ووقف وسط الغرفة يهز حدبته. كان يتطلع ببلاهة إلى ابن أخيه، الجالس على السرير مستندًا إليه بساعديه، وإلى كتفيه المرتفعين، ورأسه المنسدل على صدره.

- وإذا كنت لا أريد الاعتراف؟ - سأل إيليا بلهجة حازمة- وإذا كنت أفكر هكذا؛ أنا ما كنت أريد

ارتكاب المعصية... كل شيء جرى من تلقاء نفسه، وكل شيء بمشية الله... فما الداعي لقلقي؟ إنه عليم بكل شيء، ومسيّر للجميع... ولو أنه ما كان يريد ذلك... إذن لكان ردّني، ولكنه لم يردّني، وإذن فأنا على حق في عملي. إن الناس جميعًا يرتكبون المعاصي، ولكن، من ذا الذي يعترف؟

- لست أفهم كلامك، ليحفظك المسيح! - قال تيرنتي بلهجة محزونة، وتنهد.

فضحك إيليا ضحكة مفتعلة.

- لست تفهم، فلا تتكلم معي.

واستلقى على السرير من جديد، قائلًا لعمه:

- أنا متوعك الصحة.

- وهذا ما أرى.

- أنا بحاجة للنوم، فاذهب أنت.

وحين بقي إيليا لوحده، شعر كأن إعصارًا يدور في رأسه، وقد كان كل ما مر به خلال بضع ساعات هذه يختلط اختلاطًا غريبًا، ويتجمع في بخار ثقيل حار فيحرق دماغه، وكان يبدو له أنه يشعر بالتوعك منذ وقت بعيد، وأنه لم يخنق الشيخ اليوم، بل ذات يوم من زمان قصي.

وأغمض عينيه، ولبث مستلقيًا دون حراك، وفي أذنيه يطن صوت الشيخ بلهجته المترهلة:

«أيوه، هل ستنتهي قريبًا؟».

ويختلط الصوت الصارم، صوت التاجر ذي اللحية السوداء، بالتماس ماشا، ويتداخل الكلام القديم من كتاب ياكوف الهرطوقي مع أقوال الشارح، ويترنح كل شيء ويضطرب ويوغل منحدرًا إلى مكان ما، لعل من الأفضل النوم، ونسيان كل هذا. واستسلم للرقاد.

وحين استفاق صباحًا، أدرك من استضاءة الجدار المواجه للنافذة أن النهار مشرق مصقع، وتذكر نهار أمس كله، وأصغى إلى صوت نفسه، فشعر أنه يعرف كيف ينبغي له أن يتصرف، وما هي إلا ساعة من الوقت حتى كان يسير في الشارع، وصندوقه على صدره، يتطلع بهدوء إلى من يقابله من الناس، مرفرفًا بعينيه من وهج الثلج. ولدى مروره من أمام الكنيسة رفع قبعته على مألوف عادته، ورسم إشارة الصليب، وقد صلّب أيضًا لدى المعبد القائم بخوف أو أسف، وبأي قلق.

وفيما كان جالسًا في أحد المطاعم، وقت الغداء، قرأ في الجريدة نبذة عن حادثة قتل الصراف الجريئة، وحين وصل إلى عبارة «وقد اتخذ رجال الشرطة تدابير نشيطة للكشف عن المجرم»، هز رأسه مبتسمًا هزة الإنكار والنفي، فقد كان على يقين راسخ من أنهم لن يجدوا المجرم أبدًا إذا كان هو نفسه غير راغب في أن يجدوه.

وفي المساء جاءت خادمة أولمبيادا، حاملة لإيليا رسالة قصيرة:

«اخرج في الساعة التاسعة إلى ناصية شارع كوزنتيتسكايا، قرب الحمام».

وشعر إذ قرأ الرسالة أن كل شيء داخله يرتعد ويتقبض، كأنما أصابته البرداء. كان يمثل أمامه وجه عشيقته المزدري، وفي أذنيه تطن كلماتها الحادة المهينة:

«أما كان بوسعك المجيء في وقت آخر؟».

وراح يتطلع إلى الرسالة متسائلًا في نفسه: «لماذا تدعوه أولمبيادا؟ كان يخشى فهم هذا، ومن جديد راح قلبه يخفق بقلق. وفي الساعة التاسعة ظهر في المكان المعين للتلاقي، وحين رأى قامة أولمبيادا الرشيقة، وسط النسوة المتمشيات قرب الحمام أزواجًا وفرادى، استولى عليه القلق بمزيد من الشدة. كانت أولمبيادا ترتدي معطفًا قديمًا من الفراء، وأما رأسها فكان مغطى بخمار على نحو لم ير معه إيليا غير عينيها، ووقف أمامها صامتًا.

- هيا بنا. - قالت أولمبيادا، ثم أضافت على الفور بصوت خافت:- استر وجهك بالقبعة.

واجتازا ممشى الحمام، ساترين وجهيهما، كأنما من حياء وخجل، وتواريا في مقصورة على حدة. وفي الحال ألقت أولمبيادا بخمارها عن رأسها، وعلى الفور ارتفعت معنويات إيليا لدى رؤية وجهها المطمئن، المتوهج من الصقيع، ولكنه شعر في الوقت نفسه أنه لا يستطيب رؤيتها مطمئنة. وأما المرأة فقد جلست على الأريكة إلى جانبه، وقالت وهي تنظر إلى وجهه بحنان:

- أيوه.. يا نزوتي، قريبًا سيدعوننا أنا وأنت إلى المستنطق.

- ولماذا؟ - سأل إيليا، وهو يمسح براحته الندى المثلج الآخذ بالذوبان على شاربيه.

- أي غبي صغير عندي!- يزعمون. - قالت المرأة في سخرية، وبصوت خفيض.

وتقطب حاجباها، وأبلغت إيليا هامسة:

- كان عندي اليوم أحد رجال التحري.

فتطلع إليها إيليا وقال بلهجة جافة:

- لا شأن لي برجال التحري، وبجميع أمورك، قولي بصراحة، لماذا دعوتني؟

فنظرت أولمبيادا إلى وجهه وقالت مبتسمة في ازدراء:

- آ-آ! انزعجت... هكذا! ولكني الآن لست بهذا الصدد... إليك المسألة؛ سيستدعيك المستنطق، ويروح يسألك متى تعرفت إليّ، وهل كنت تكثر من التردد عليّ، فقل كل شيء، كما كان، بالحقيقة... كل شيء بالتفصيل، سامع؟

- سامع. - قال إيليا وابتسم ابتسامة مفتعلة.

- وسوف يسأل عن العجوز، فقل إنك ما كنت تراه أبدًا، لا تعرف عنه، لم تسمع أنني أعيش على نفقة

أحدهم... فاهم؟

كانت المرأة تنظر إلى إيليا نظرة مهيبة مغضبة، وأما هو فقد كان يحس بشيء لاهب ممتع يعبث في داخله، كان يبدو له أن أولمبيادا خائفة منه، فود أن يعذبها، فراح يضحك بهدوء، وهو ينظر إلى وجهها بعينين موصوصتين، دون أن ينبس ببنت شفة؛ وإذ ذاك ارتعش وجه أولمبيادا، وشحب، فابتعدت عنه، سائلة إياه في همس:

- ما لك تنظر هكذا؟ إيليا؟

- قولي، - سألها مكشرًا عن أسنانه- لماذا سأكذب؟ كنت أرى العجوز عندك.

واستند بكوعيه على لوح الطاولة الرخامي، وتابع الكلام بأسى وغضب استوليا عليه فجأة:

- كنت إذ ذاك أتطلع إليه وأقول في نفسي: «هو ذا من يقف في طريقي، هو ذا من يحطم حياتي»، وإذا كنت لم أخنقه إذ ذاك.

- تكذب! - قالت أولمبيادا بصوت عال، خابطة الطاولة بكفها- أنت تكذب! فما كان هو واقفًا في طريقك.

- وكيف هذا؟ - سأل إيليا بلهجة جافة.

- ما كان واقفًا، ولو أنك شئت، لما كان له وجود... أما ألمحت أنا إليك، أما ترى قلت لك إن في وسعي دائمًا أن أطرده؟ وقد التزمت الصمت وضحكت في عبك... فما كنت أبدًا تحبني محبة إنسان، أنت بالذات اقتسمتني معه مناصفة.

- كفى.. اسكتي! - قال إيليا، ونهض عن الأريكة واقفًا على قدميه، ثم جلس من جديد، شاعرًا كأن المرأة قد رضّته رضًّا بتأنيبها.

- لا أريد أنا أن أسكت. - قالت أولمبيادا- أنت الشاب الفتي إلى هذا الحد... المعافى، الذي أعشقه... ماذا فعلت لي؟ هل قلت لي: «أيوه، اختاري، يا أولمبيادا: إما أنا أو هو»؟ هل قلت هذا؟ كلا، أنت هر، كجميع الهررة.

فارتجف إيليا من الإهانة التي وجهت إليه، وأظلمت عيناه، وشد على قبضتيه، وهب واقفًا من جديد.

- كيف تتجاسرين.

- آ؟ أتريد أن تضرب؟ - قالت المرأة متوقعة الشر، محملقة بعينيها، مكشرة هي أيضًا عن أسنانها- أيوه، اضرب.. ولكني أفتح الباب وأصيح بأنك أنت القاتل، أنت، بالاتفاق معي... أيوه، اضرب!

فخاف إيليا، ولكن الخوف وخزه في قلبه وتلاشى.

وجلس على الأريكة من جديد وأخذ يضحك، وهو صامت، ضحكة مخنوقة. ورأى أن أولمبيادا تعض

شفتيها وكأنما هي تبحث بعينيها عن شيء ما في المقصورة الوسخة، الملأى بالرائحة الدافئة المنتشرة من مكانس الاستحمام المبخرة والصابون، وها هي قد جلست على الأريكة قرب الباب المؤدي إلى الحمام، وقالت مطأطئة رأسها:

- اضحك، يا شيطان.

- سأضحك.

- حين رأيتك قلت في نفسي: «هو ذا، إنه سيكون عونًا لي».

- ليبا[22]! - قال إيليا بهدوء.

فما أجابت، وهي جالسة دون حراك.

- ليبا! - كرر لونيف، وقال ببطء، شاعرًا بنفسه يهوي إلى قرار سحيق: - ذلك العجوز أنا خنقته... أقسم بالله.

فارتعدت، ورفعت رأسها فصوبت إليه عينيها المحملقتين، ثم ارتعشت شفتاها، وقالت بجهد ومشقة كأنما انحبست أنفاسها:

- أحمق!

وفهم إيليا أنها خافت من كلامه، إلا أنها لا تعتقد بصحته. فنهض، وأقبل عليها وجلس إلى جانبها، مبتسمًا ابتسامة مرتبكة، فإذا هي تتناول رأسه فجأة، فتشده إلى صدرها، وتقول له، وهي تقبل شعره، هامسة همسًا غليظًا خشنًا:

- لماذا تسيء إليّ؟ لقد فرحت لكونه قد خُنق.

- أنا الذي فعلت ذلك. - قال إيليا مشفعًا قوله بحركة إقرار من رأسه.

- اسكت! - قالت المرأة بانفعال وقلق.- أنا مسرورة لكونه قد خنق... ألا ليت هذا قد حل بهم جميعًا! جميع الذين مسوني! إنك أنت وحدك الإنسان الحي الذي صادفته في حياتي للمرة الأولى، يا نور عيوني!

كانت كلماتها تجتذب إيليا إليها أكثر فأكثر، فشد رأسه بقوة إلى صدر المرأة، غير مستطيع الانفكاك عنها، رغم انحباس أنفاسه، مدركًا أنها الإنسان القريب إليه والضروري له الآن أكثر من أي وقت مضى.

- حين تنظر إليَّ بغضب، يا حبيبي الطاهر، أشعر بحياتي القذرة، ولهذا أحبك... لعزة نفسك أحبك.

وتساقطت على رأس إيليا دموع ثقيلة، وأحس بوقعها عليه، فأجهش يبكي هو نفسه بانطلاق ويسر.

ونحّت رأسه عن صدرها وراحت تقول له، وهي تقبل عينيه المبتلتين، وخديه، وشفتيه:

- أنا أعرف أنك راضي بجمالي، أما بالقلب فلست تحبني، وأنت ناقم عليّ... إنك لا تستطيع مسامحتي على حياتي، وعلى الشيخ.

- لا تتكلمي عنه، - قال إيليا، ومسح وجهه بخمار من على رأسها، وهب واقفًا على قدميه، وقال بهدوء وحزم:

- ما سوف يصير، سيصير! إذا كان الله يريد معاقبة الإنسان، فلسوف يدركه أينما كان. شكرًا لك، يا لييا، على كلماتك... إنك تقولين الحق، فأنا مذنب معك، كنت أعتقد أنك، لست هكذا. ولكنك... أيوه، طيب.. أنا مذنب.

كان صوته يتقطع، وشفتاه ترتعشان، وعيناه محتقنتان بالدم. وبأناة، ويد راجفة، راح يمسد شعره المشعث، ثم لوّح بيديه فجأة، وانفجر ينتحب بصوت أصم:

- أنا مذنب في كل شيء.. ومن أجل ماذا؟

فأمسكت أولمبيادا بساعده، فارتمى على الأريكة إلى جانبها، وقال غير سامع إياها:

- أتفهمين... أنا خنقته، أنا.

- هس. - صاحت أولمبيادا مرتعبة مخنوقة الصوت- ما لك؟

واحتضنته بقوة، وهي تحدق في وجهه بعينين مضطربتين رعبًا.

- مهلًا، إنما حدث ذلك بغير قصد، الله عليم. ما كنت أقصد، كنت أريد التطلع إلى سحنته، فدخلت الدكان، وما كان في ذهني شيء. وبعد ذلك... حدث الأمر بغتة.. الشيطان دفع، والله لم يمنع، وأخذت الأموال عبثًا. ما كان ينبغي... إيه!

وتنفس بعمق، وقد شعر كأنما انزاحت قشرة من قلبه، وشدته المرأة إليها بمزيد من القوة، وهي ترتعد، وراحت تتكلم بهمس متقطع غير مترابط:

- حسن أنك أخذت الفلوس، فذلك يعني، أن في الأمر عملية سطو، وإلا لظنوا أن في الأمر... تنافسًا.

فقال إيليا وقد بدت عليه سيماء التفكير:

- إني لن أعترف... وليكن العقاب بيد الله، فليس الناس قضاة، وأي قضاة هم؟ لست أعرف بشرًا من دون آثام، ما رأيت.

فقالت أولمبيادا متنهدة:

- رباه! ماذا سيكون؟ نور عيني، إني غير قادرة على شيء؛ لا على الكلام، ولا على التفكير، فينبغي لنا أن نذهب من هنا.

وهبَّت واقفة، فترنحت كالمخمورة، ولكنها ما إن غطت رأسها بالشال حتى شرعت فجأة تتكلم بطمأنينة:

- وما الحال الآن يا إيليوشا؟ أيمكن أن نكون قد ضعنا؟

فهز إيليا رأسه هزة نفي.

- إذن... فقل عند المستنطق كل شيء، كما كان.

- وهكذا سيكون كلامي، أتحسبين أني لا أستطيع الدفاع عن نفسي؟ أتعتقدين أني سأذهب إلى الأشغال الشاقة بسبب هذا العجوز؟ أيوه.. كلا، أنا في هذا الأمر لم يقض عليّ.. لم يقض عليّ... فاهمة؟

واحمر وجهه من التهيج، وبرقت عيناه. وأما المرأة فقد مالت إليه، وسألته هامسة:

- والفلوس تلك ألفان فقط؟

- ألفان... وشويّ.

- مسكين أنت.. وفي هذا لم توفق! - قالت المرأة في اكتئاب، وتلألأت في عينيها الدموع.

فتطلع إيليا إلى وجهها، وابتسم ابتسامة مفتعلة تشوبها المرارة.

- وهل فعلت ذلك من أجل الفلوس؟ افهمي... انتظري، سأخرج أنا أولًا من هنا؛ فالرجل يخرج دائمًا الأول.

- تعال أنت لعندي بأسرع وقت، فليس ينبغي لنا أن نتخفى... بأسرع وقت. - قالت له أولمبيادا باهتمام.

وتبادلا قبلة طويلة حارة، وانصرف لونيف. وإذ خرج إلى الشارع، استأجر عربة زحافة، وحين سارت به ظل يتطلع إلى وراء ليتبين هل ثمة أحد يتعقبه؟ وكان الحديث مع أولمبيادا قد فرّج عن نفسه وبعث لديه شعورًا طيبًا حيال هذه المرأة؛ فحين اعترف لها بالقتل لم تجرح قلبه بكلمة ولا بنظرة، ولا صدته عنها، بل بدا منها كأنما هي قد حملت على عاتقها قسمًا من الخطيئة، بل إنها قبل دقيقة، إذ لم تكن بعد تعرف شيئًا، كانت تود تدميره، وكان في وسعها ذلك، فقد أبصر هذا على وجهها... وابتسم بحنان، فيما هو يفكر فيها. وأما في اليوم التالي فقد شعر لونيف بنفسه فريسة يطاردها الصيادون.

ففي الصباح استقبله بتروخا في المطعم، فهز رأسه هزة لا تكاد تلحظ جوابًا على تحية إيليا، ونظر إليه بالإضافة إلى ذلك بإمعان بعض الشيء. وكذلك تطلع إليه تيرنتي وتنهد، دون أن ينبس ببنت شفة. واستدعاه ياكوف إلى حجرة ماشا، فقال له هناك بارتياع:

- مساء أمس جاء رئيس مخفر الشرطة وراح يستفسر عن كل أحوالك من أبي، فما هذا؟

- عن أي شيء كان يسأل؟ - قال إيليا مستفسرًا بهدوء.

- كيف يعيش... وهل تشرب الفودكا. وفيما يتعلق بالنساء، وذكر واحدة اسمها أولمبيادا، وقال: ألا تعرفونها؟ فما هذا؟

- يعرفهم القرد! - قال إيليا هذا وانصرف.

وفي مساء ذلك اليوم تلقى من جديد رسالة صغيرة من أولمبيادا، تقول فيها:

«حققوا معي بشأنك، فقلت كل شيء بالتفصيل، والأمر غير رهيب قط وبسيط جدًّا، لا تخف، أقبلك، يا حبيبي».

وقذف بالرسالة في النار. كان الجميع في دار فيليمونوف وفي المطعم يتحدثون عن مقتل التاجر، وكان إيليا يصغي إلى هذه الأحاديث فتبعث في نفسه نوعًا من الارتياح الخاص. ولقد كان يطيب له المسير بين الناس وسؤالهم عن تفاصيل الحادث، المؤلفة من قبلهم، والشعور في نفسه بالقدرة على إثارة دهشتهم، بقوله:

«أنا فعلت هذا!».

كان البعض يمتدحون شطارته وجسارته، وآخرون يأسفون لكونه لم يستطع أخذ الأموال كلها، وغيرهم يعبرون عن مخاوفهم من إلقاء القبض عليه، وما كان أحد يرثي للتاجر، ولا قال أحد كلمة طيبة عنه. ولقد كان يبعث في نفس إيليا شعورًا سيئًا ضد الناس واقع أنه لم يكن يجد لديهم أسفًا على القتيل. ما كان هو يفكر في بولوئيكتوف، إنما كان تفكيره منحصرًا في كونه قد ارتكب إثمًا كبيرًا وبانتظاره العقاب. وما كانت هذه الفكرة تقلقه؛ فقد توقفت في داخله جامدة لا تتحرك، وأصبحت كأنما هي جزء من نفسه. كانت كالورم الناجم عن ضربة، لا تؤلمه إذا هو لم يلمسها. وقد كان مؤمنًا عميق الإيمان بأن الساعة ستحل، ويظهر العقاب من الله، العليم بكل شيء، وغير الغفور للخارج على الشريعة. وكان هذا الاستعداد المطمئن الحازم لتلقي العقاب في أي ساعة يتيح لإيليا أن يشعر بما يقرب من السكينة في نفسه، إنما بات فقط أشد مناكدة في ملاحظة الفساد لدى الناس.

وغدا أشد اكتئابًا وانقباضًا، إلا أنه ظل كما في السابق يجوب المدينة ببضاعته من الصباح حتى المساء، ويجلس في المطاعم، ويتطلع إلى الناس بإمعان، ويصغي إلى أحاديثهم بانتباه. وذات مرة، تذكر الدراهم المخفية في العليّة، فخطر له أن من اللازم إخفاؤها من جديد، إلا أنه قال لنفسه إثر ذلك:

«لا لزوم لذلك، فلتبق موضوعة هناك، سيجري التفتيش فسيجدونها... فأعترف.».

ولكن لم يجر التفتيش، ولا طلبوه بعد للمثول أمام المستنطق، إنما استدعوه في اليوم السادس فقط، وقبل الذهاب إلى مكتب الاستنطاق، لبس ثيابًا داخلية نظيفة، وأحسن جاكتة لديه، ونظف حذاءه حتى بات يلمع، واستأجر عربة زحافة. كانت الزلاجات تتراقص فوق آثار العجلات على الدرب، أما هو فيجهد للبقاء منتصب القامة راسخًا لا يتحرك، إذ كان كل شيء في داخله متوترًا شديد التوتر، وكان

يبدو له أن مكروهًا قد يقع له إذا هو تحرك حركة غير حذرة، وعلى السلم المؤدي إلى مكتب الاستنطاق، صعد بتأن حذر، كأنما لباسه من زجاج.

كان المستنطق شابًّا، أجعد الشعر، أقني الأنف، ذا نظارتين ذهبيتين، وإذ رأى إيليا بادر إلى فرك يديه النحيلتين البيضاوين بشدة، ثم رفع نظارتيه عن أنفه وراح يمسحهما بمحرمة، ناظرًا إلى وجه إيليا بعينين كبيرتين قاتمتين، وأدى له إيليا التحية منحنيًا، في صمت.

- مرحبًا! تفضل اجلس... هاك، هنا.

وأشار له بحركة من يده إلى كرسي قرب طاولة كبيرة، مغطاة بجوخ قرمزي اللون، فجلس إيليا وأزاح بكوعه، في أناة، أوراقًا موضوعة على طرف الطاولة، ولاحظ المستنطق هذا، فجمع الأوراق بتأدب، ثم جلس على كرسي مقابل إيليا، وراح يتصفح أحد الكتب في صمت، متطلعًا إلى لونيف بطرف خفي، فما راق هذا الصمت لإيليا، فأعرض عن المستنطق، وراح يتأمل الغرفة، وقد كانت هذه أول مرة يرى فيها مثل هذا الأثاث الجميل وهذه النظافة. كانت معلقة على الجدران صور ضمن إطارات، ولوحات؛ واحدة منها تمثل صورة للمسيح، يمشي مفكرًا، مطأطئ الرأس، محزونًا متفردًا، وسط أطلال، وفي كل مكان جثث بشرية متساقطة عند قدميه، وأسلحة، وأما مهاد اللوحة فيتصاعد عليه دخان أسود، ويحترق شيء ما. فظل إيليا ينظر طويلًا إلى هذه اللوحة، متمنيًا لو يفهم ما يعني هذا، بل لقد ود لو يسأل عن ذلك، ولكن المستنطق خبط الكتاب في تلك اللحظة بالذات مغلقًا إياه بصخب، فارتعد إيليا، وتطلع إليه. كان وجه المستنطق قد بات جافًّا مليلًا، وأما شفتاه فكانتا منفرجتين بصورة مضحكة، كأنما هو منزعج من شيء ما.

- أيوه -قال المستنطق ناقرًا بأصابعه على الطاولة،- إيليا ياكوفيليفتش لونيف... هكذا؟

- نعم.

- هل تحزر لماذا استدعيتك؟

- كلا، - أجاب إيليا وألقى من جديد نظرة خاطفة على اللوحة. كانت الغرفة هادئة، نظيفة، جميلة... وما سبق قط لإيليا أن رأى مثل هذه النظافة، وهذه الكثرة من الأشياء الجميلة. وكان يفوح من المستنطق عبير طيب، وقد روّح كل هذا عن نفس إيليا، وطمأنه، وبعث في نفسه أفكارًا تنطوي على الحسد:

«انظر كيف يعيش... لا بد أن يكون القبض على اللصوص والقتلة مربحًا... كم يدفعون راتبًا له؟».

- كلا؟ - كرر المستنطق كأنما هو مندهش من أمر ما.- ترى ألم تخبرك أولمبيادا دانيلوفنا بشيء؟

- كلا.. إني لم أرها منذ وقت بعيد.

- منذ كم؟

- ل... لا أعرف.. ربما منذ ثمانية، تسعة أيام.

- ها- ها! هكذا... ولكن، قل، هل كنت غالبًا ما تصادف عندها العجوز بولوئيكتوف؟

- ذاك الذي قتل؟ - سأل إيليا ناظرًا إلى عيني المستنطق.

- أيوه.. أيوه.. هو.

- لم ألتق به أبدًا.

- أبدًا؟! هم...م؟

- أبدًا.

كان المستنطق يطرح الأسئلة بسرعة، ودون مبالاة، أما حين كان إيليا يبطئ بالجواب بوجه خاص، غير مستعجل فيه، فقد كان الموظف ينقر بأصابعه على الطاولة، فارغ الصبر.

- هل كان معروفًا لديك أن أولمبيادا دانيلوفنا تعيش على نفقة بولوئيكتوف؟- سأل المستنطق على نحو مباغت ناظرًا من خلال نظارتيه إلى عيني إيليا.

فاحمر وجه إيليا تحت وطأة هذه النظرة، وتكدر، وأجاب صوت أصم:

- كلا.

- نعم، كانت تعيش على نفقته، - كرر المستنطق بصوت مزعل، ثم أضاف، وقد رأى أن إيليا لا يعتزم إجابته:- وهذا، في اعتقادي، أمر غير حسن.

- وكيف يمكن أن يكون حسنًا.

- أليس صحيحًا؟

ولكن إيليا لم يجب من جديد.

- وهل تعرفت عليها منذ وقت بعيد؟

- منذ أكثر من سنة.

- يعني تعرفت عليها قبل تعارفها مع بولوئيكتوف؟

فقال إيليا في نفسه: «يا لك من كلب ذكي!»، وأجاب بهدوء:

- وكيف لي أن أعرف هذا، ما دمت غير عارف بمعاشرتها للمرحوم؟

فكوّر المستنطق شفتيه وظل يصفر فترة غير طويلة، وأخذ يتأمل إحدى الأوراق. وأما لونيف فقد ركز أنظاره من جديد على اللوحة، شاعرًا بأن الاهتمام بها يساعده على الهدوء، ومن مكان ما سمعت ضحكة طفل رنانة، ثم راح صوت أنثوي مرح، حنون يغني على وتيرة واحدة:

عين أمك، يا زويا، يا حبوبتي، يا زويا!..

وانطلق صوت المستنطق:

- يبدو أن هذا النقش يشغلك كثيرًا؟

- إلى أين يسير هنا المسيح؟ - سأل إيليا بصوت خفيض.

فتطلع المستنطق إلى وجهه بعينين تنمان عن السأم وخيبة الأمل، ثم قال بعد قليل من الصمت:

- ولكنك ترى أنه ماش على الأرض يتأمل كيف ينفذ الناس تعاليمه الخيِّرة. يسير في ساحة القتال، فيرى من حوله ناسًا مقتولين، وبيوتًا مدمرة، وحريقًا، وأعمال سلب ونهب.

- وهل هو لا يرى ذلك من السماء؟ - سأل إيليا.

- هم...م.. هذا مرسوم لكي يكون في منتهى الوضوح؛ لكي يظهر التباين بين الحياة وبين تعاليم المسيح.

ومن جديد أمطرت أسئلة صغيرة، تافهة، مضجرة للونيف، كأنها ذباب الخريف، وقد تعب منها، شاعرًا بأنها تضعف انتباهه، وبأن حذره يتخدر بفعل زخ من الكلام الفارغ الرتيب، فحنق على المستنطق؛ إذ أدرك أن هذا يتعمد إرهاقه.

وبسرعة، ودون اكتراث، سأل المستنطق:

- ألا تستطيع القول أين كنت يوم الخميس، بين الساعة الثانية والساعة الثالثة؟

- كنت في مطعم، أشرب الشاي، - قال إيليا.

- آ! في أي مطعم؟ أين؟

- في مطعم «بليفنا».

- لماذا تقول هذه الدقة إنك كنت في المطعم في ذلك الوقت بالذات؟

كان وجه المستنطق يرتعش، وقد حط بصدره على الطاولة، وبدت عيناه الجاحظتان كأنما هما تتشبثان بعيني لونيف، وسكت إيليا بضع ثوان، ثم تنفس، وقال غير متعجل:

- ذلك أني، قبل الذهاب إلى المطعم، سألت شرطيًّا عن الساعة.

فارتد المستنطق من جديد إلى ظهر المقعد، وتناول قلم رصاص، وراح ينقر به على أظافره.

- قال لي الشرطي إن الساعة هي الثانية... والدقيقة العشرون أو ما يقارب ذلك.- قال إيليا بتأن.

- وهل يعرفك؟

- نعم.

- ليس معك ساعة؟

- كلا.

- وهل كنت من قبل تسأله عن الساعة؟

- كان يتفق لي ذلك.

- وهل مكثت طويلًا في «بليفنا»؟

- إلى أن انطلق الصياح بشأن حادث القتل.

- وإلى أين ذهبت بعد ذلك؟

- ذهبت لمشاهدة القتيل.

- وهل رآك أحد في المكان، عند الدكان؟

- ذلك الشرطي نفسه رآني، بل قد طردني من هناك... دفرني.

- شيء حلو! - هتف المستنطق موافقًا، وسأل دون اكتراث، غير ناظر إلى إيليا:- وسؤالك عن الساعة كان قبل حادث القتل أم بعده؟

وأدرك إيليا السؤال، فانفتل على الكرسي بحدة بدافع من الحنق على هذا الشخص اللابس قميصًا يبهر بياضه البصر، وعلى أصابعه الرفيعة، النظيفة الأظافر، وعلى نظارتيه الذهبيتين، وعينيه الحادتين، القاتمتين، وقد أجاب عن سؤاله بسؤال:

- وكيف لي أن أعرف هذا؟

فسعل المستنطق سعلة جافة، وفرك يديه بشدة جعلت أصابعه تطقطق، وقال بصوت غير مرتاح:

- مدهش! ر-آ-ئع.. ثمة بضعة أسئلة أخرى.

وإذ ذاك راح المستنطق يسأل بصوت ملول، غير متعجل، غير متوقع، على ما هو ظاهر، أن يسمع ما يبعث على الاهتمام، وأما إيليا فقد ظل، وهو يجيب، يتوقع سؤالًا مماثلًا للسؤال عن الساعة. وكانت كل كلمة ينطق بها تدوّي في صدره، كأنما تدوّي في فراغ، وكأنما ثمة وترًا ممدودًا، مشدودًا هناك بعنف. ولكن المستنطق لم يكن بعد يطرح عليه أسئلة ماكرة.

- حين كنت تتمشى في الشارع، ذلك اليوم، ألا تتذكر ما إذا كنت قد صادفت شخصًا طويل القامة، يلبس معطفًا قصيرًا من الفراء وقبعة سوداء من فرو الخراف؟

- كلا. - قال إيليا بهجة خشنة.

- أيوه، اسمع شهادتك، ثم وقع عليها.- وشرع يقرأ بسرعة وعلى وتيرة واحدة، مغطيًا وجهه بالورقة المكتوبة، وحين انتهى من القراءة، دس ريشة في يد لونيف، فانحنى إيليا على الطاولة، فوضع توقيعه، ونهض عن الكرسي بتأن، وقال بصوت أصم حازم، وهو يتطلع إلى المستنطق:

- خاطركم!

فرد هذا عليه من غير اكتراث بإيماءة متعالية من رأسه، وانحنى على الطاولة، وشرع يكتب. ولبث إيليا واقفًا، ونفسه تحدثه بأن يقول شيئًا ما لهذا الشخص الذي عذبه وأطال إلى هذا الحد تعذيبه. وفي الجو الساكن، كان يسمع صرير الريشة، ومن الغرف الداخلية سمع غناء:

ارقصي، ارقصي، أيتها الدمى الصغيرة.

- ما لك؟ - سأل المستنطق فجأة، وقد رفع رأسه.

- لا شيء.. - أجاب إيليا متجهمًا.

- قلت لك... بوسعك الانصراف.

- رايح.

كانا ينظران أحدهما إلى الآخر نظرات ثابتة، وقد شعر إيليا أن في صدره شيئًا ما، ثقيلًا، رهيبًا، يترعرع. وارتد إلى الباب بسرعة، وانصرف خارجًا، فأحس وهو في الشارع، وقد لفته الرياح الباردة، بأن جسمه يتصبب كله عرقًا. وما هي إلا نصف ساعة حتى كان عند أولمبيادا. وقد فتحت له الباب بنفسها، إذ رأته من النافذة قادمًا إلى البيت، واستقبلته بفرحة الأم. كان وجهها شاحبًا، وعيناها متسعتين تتطلعان بقلق، وقد هتفت حين قال لها إيليا إنه قادم من عند المستنطق رأسًا:

- إنك لذكي! هكذا ينبغي.. هكذا! أيوه، وكيف هو؟

- خبيث! - قال إيليا محنقًا- كان ينصب لي الفخاخ.

- من دون هذا لا يمكن أن يكون،- لاحظت المرأة وعلى وجهها سيماء التفكير- تلك هي الوظيفة.

- قل بصراحة... قل كيت وكيت؛ الشبهة واقعة عليك.

- ذلك أنك لا تتكلم بصراحة أيضًا. - قالت أولمبيادا مبتسمة.

- أنا؟ - سأل إيليا بدهشة.- ن...نعم... بالفعل! أف!- وصدمه شيء ما صدمة شديدة، وقال بعد صمت قليل:- ولكني وأنا جالس أمامه، كنت، والله، أشعر بأني على حق.

- أيوه، الحمد لله!- هتفت أولمبيادا بابتهاج.- كل شيء على ما يرام.

فتطلع إليها إيليا مبتسمًا وراح يقول في بطء:

- الواقع أني لم اضطر إلا إلى القليل جدًّا من الكذب؛ لقد واتاني الحظ، يا ليبا!

وانطلق يضحك ضحكة غريبة، وبصوت خافت أنبأته أولمبيادا قائلة:

- رجال التحري يتعقبونني... ولك أنت أيضًا، على الأرجح.

- ما من شك. - صاح إيليا بحنق وسخرية. - يتشممون، ويودون تطويقي، كما يطوق الذئب في الغابة، لن يحدث شيء.. الأمر لا يخصهم.. وما أنا بذئب، بل إنسان سيئ الحظ، أنا لم أكن أريد خنق أحد، إنما الأقدار تخنقني أنا نفسي، كما جاء في شعر باشكا، إنها تخنق باشكا، وياكوف... جميعًا!

فقالت المرأة، وهي ترشف الشاي:

- لا بأس يا إيلوشا... كل شيء سيمضي.

فنهض لونيف عن الأريكة، ومضى صوب النافذة، وأردف يقول عابسًا، وفي صوته امتعاض مغيظ، وهو يتطلع إلى الشارع:

- طول عمري وأنا أمرغ أنفي في القذارة، ما لست أحبه، ما أكرهه، أدفع إليه دفعًا. وما سبق لي قط أن رأيت إنسانًا كان في وسعي النظر إليه بفرح وابتهاج...

أفيمكن أن تكون الحياة خالية من أي طهارة؟ ها أنا قد خنقت هذا... فما لزوم ذلك لي؟ كل ما في الأمر أني تلطخت، وشهت روحي، أخذت مالًا، وليتني لم آخذ.

- لا تحزن. - قالت أولمبيادا مؤاسية له.- فما من قلب يأسف عليه.

- أنا لا آسف، إنما أود تبرئة نفسي، فكلٌّ يحاول تبرئة نفسه؛ لأنه في حاجة لأن يعيش.. هاك المستنطق.. إنه يعيش مثل الملبّسة في العلبة... إنه لن يخنق أحدًا، في وسعه أن يعيش عيشة منزّهة... محاطًا بالطهارة.

- اصطبر، هيا نرحل معًا من هذه المدينة.

- كل....لا، أنا لن أرحل إلى أي مكان! - قال لونيف بحزم، ملتفتًا إلى المرأة، وأضاف يقول مهددًا أحدًا ما:- سأنتظر، وسأرى ما سوف يكون.

وانصرفت أولمبيادا إلى التفكير لحظة، وجلست قرب الطاولة، أمام السماور، رائعة جميلة، عليها مئزر منزلي فضفاض أبيض.

- سأتجادل كمان،- قال إيليا، هازًّا رأسه هزة ذات مغزى، وهو يروح ويجيء في الغرفة.

-آ!- هتفت المرأة مستاءة- لا تريد أن ترحل أنك تخاف مني؟ تتصور أني الآن سأمسك بك في قبضتي إلى الأبد، تتصور أني... ما دمت أعرف عنك... هذا... فسوف أستغله؟ غلطان، يا عيني، نعم! لن أجرك ورائي بالقوة.

كانت تتكلم بهدوء، إلا أن شفتيها كانتا ترتعشان، كأنما من وجع.

- ماذا تقولين؟ - سأل إيليا، وقد استمع إلى كلماتها بدهشة.

- لن أرغمك إرغامًا، فلا تخش! رح حيث تشاء... تفضل!

- اصطبري! - قال إيليا، وقد جلس إلى جانبها وأمسك بيدها.- لست أفهم، لماذا رحت تتكلمين هكذا؟

- مثّل تمثيلًا! - صاحت أولمبيادا بلهجة محزونة، وهي تسحب يدها من يده.- أنا عارفة... أنت عزيز النفس، أنت قاس! لا تستطيع مسامحتي على الشيخ، وحياتي مقرفة لك... أنت الآن تفكر بأن كل ما حدث إنما كان بسببي... إنك تكرهني!

- تكذبين. - قال إيليا بأنفة.- أنت تكذبين... فلست أضع الذنب عليك في أي شيء، أنا أعرف أن النساء الطاهرات وغير الواقعات في الخطيئة غير متيسرات لأمثالنا؛ إنهن باهظات الثمن علينا، بهن ينبغي الزواج؛ فهن يلدن الأولاد... النظيف... كله للأغنياء، أما لنا نحن، فالنفايات، لنا نحن، الممصوصات، لنا المبصوق عليه والمبتذل.

- فاتركني، أنا المبتذلة!- صاحت أولمبيادا، وقد قفزت عن الكرسي.- انصرف.- ولكن الدموع برقت إذ ذاك في عينيها، فأمطرت إيليا بكلمات لاهبة، كالجمر:- أنا نفسي، بإرادتي انزلقت إلى هذه الهاوية؛ لأن فيها كثيرًا من الفلوس، وأنا فيها أصعد لفوق، كأنما أصعد على سلّم... ومن جديد سأعيش عيشة طيبة... وأنت قد ساعدتني على هذا، أنا عارفة. وأنا أحبك، ولو خنقت عشرة، ولست أحب فيك الفضيلة، بل عزة النفس أحب... أحب شبابك، رأسك الأجعد، ساعديك القويين، عينيك الصارمتين... توبيخاتك التي تمزق قلبي كالسكاكين... لهذا سأظل... حتى الموت شاكرة لك، وإني لأقبل قدميك... هاك.

وارتمت على قدميه، وراحت تقبل ركبتيه، صائحة:

- الله... يشهد إني وقعت في الخطيئة من أجل خلاصي، وخير له ألا أقضي عمري كله في القذارة، بل سأمر بها وأصير طاهرة من جديد... وإذ ذاك سأتضرع إليه لنوال مغفرته، لست أريد أن أتعذب طول عمري، كياني كله دنسوه... كياني كله لوثوه، دموعي كلها لا تكفي لتطهيري.

كان إيليا أول الأمر قد دفعها عنه، محاولًا النهوض عن الكرسي، إلا أنها تشبثت به تشبثًا شديدًا، ووضعت رأسها على ركبتيه، وراحت تعفر وجهها على قدميه، واستمرت تقول متقطعة الأنفاس، بصوت أصم، فأخذ إذ ذاك يمسد يدها الراعشة، ثم رفعها عن الأرض، فعانقها وأسند رأسها إلى كتفه، ولامس خد المرأة الحار خده ملامسة لصيقة، وظلت تقول مخفضة صوتها إلى مستوى الهمس، وهي جاثية أمامه على ركبتيها، ممسكة إياه بيد قوية:

- خير لمن، يا ترى، أن يظل الإنسان، بعد ارتكاب الخطيئة، لابثًا طول عمره في المهانة؟ كنت بنتًا صغيرة حين همّ زوج أمي بافتراسي، فرحت أضربه بالساطور، ثم تغلبوا عليّ، كانوا سقوا البنت الخمرة حتى السكر، وقد كنت بنتًا، طاهرة، كالتفاحة، كل جسمي متين، متوردة الخدين، كنت أبكي

على نفسي، كنت آسفة على جمالي، ما كنت أريد، ما كنت أريد! ولكني بعد ذلك أرى، أن الأمر سواء.. لا رجعة، فقلت في نفسي: سأجعل ثمني أغلى. كنت أمقت الجميع كل المقت، وأسرق الفلوس، وأسكر... قبلك لم أقبّل أحدًا، من قلبي.

وختمت كلامها بهمس خافت، وأخذت فجأة تنتزع نفسها من حضن إيليا:

- دعني.

فشد عليها بساعديه بمزيد من القوة، وراح يقبل وجهها بحرارة وافتتان، وقال لها بحرارة:

- ليس لي ما أقول تعقيبًا على كلماتك، إنما أقول شيئًا واحدًا: ما من أحد يشفق علينا، وما من أحد نشفق عليه نحن. أحسنت فيما قلت، طيبة أنتِ يا جميلتي، وإني لأحبك... فأيما الحب! فما بالكلمات يمكن قول هذا.

لقد أثار كلامها في نفسه شعورًا حارًّا متألقًا نحو هذه المرأة، وكأنما اندغم أساها ببؤسه في كلٍّ واحد فقرّب بينهما، وظلا طويلًا، وهما متعانقان شديد العناق، يرويان أحدهما للآخر، بصوت خافت، ما مر عليهما من منغصات. وقد قالت المرأة وهي تهز رأسها هزة قانطة:

- لن تكتب لنا معًا السعادة.

- أيوه، فلنحتفل بالتعاسة! فإذا اقتضى الأمر الذهاب إلى الأشغال الشاقة، نذهب معًا.. أتسمعين؟ وإلى أن يحين ذلك، سنزيل الأسى بالحب، وإني الآن لمرتاح النفس، ولو أُحرقت بالنار.

وكانا، وهما متهيجان بالحديث ومنفعلان بالملاطفات، ينظران أحدهما إلى الآخر، كأنما من خلال الضباب، وشعرا بالحر من العناق، وبالضيق من الثياب.

ومن وراء النافذة، كانت السماء مكفهرة تبعث السأم في النفس، والأرض مكسوة بسديم بارد يستقر على الأشجار ندى أبيض مثلجًا، وفي الحديقة الصغيرة المقابلة للنافذة تهتز الأغصان النحيلة على شجرة بتولا فتية اهتزازًا خفيفًا، مسقطة نثار الثلج، وحل المساء الشتوي.

وبعد بضعة أيام علم لونيف بأن الشرطة تفتش، فيما يتعلق بقضية مقتل التاجر بولوئيكتوف، عن رجل طويل القامة عليه قبعة من فراء الخراف؛ فلدى فحص الموجودات في دكان القتيل عثر على قطعتين فضيتين من نقوش الأيقونات، وظهر أنهما مسروقتان. وأفاد الصبي، الخادم في الدكان، بأن هاتين القطعتين قد اشتريتا، قبل ثلاثة أيام من حادث القتل، من رجل طويل القامة، يلبس معطفًا قصيرًا من الفراء، اسمه أندريه، وأن هذا الشخص قد سبق له غير مرة أن باع بولوئيكتوف أشياء فضية وذهبية، وأن بولوئيكتوف كان يقرضه مالًا. وتبين بعد ذلك أن رجلًا ينطبق عليه وصف الصبي، كان عشية يوم القتل، وفي ذلك اليوم بالذات يفسق في البيوت العمومية.

وفي كل يوم كان إيليا يسمع شيئًا جديدًا عن هذه القضية؛ فقد كانت المدينة كلها مهتمة بحادثة القتل الجريئة، والناس يتكلمون عنها في كل مكان، في المطاعم وفي الشوارع. ولكن هذه الأحاديث كانت

لا تكاد تثير الاهتمام لدى لونيف؛ فقد زالت فكرة الخطر من قلبه، زوال القشرة عن القرحة، وما عاد يحس مكانها غير نوع من عدم الارتياح؛ فما كان يفكر إلا في أمر واحد فقط، كيف سيعيش الآن؟

كان يشعر بنفسه كأنما هو مجند قبل القرعة، كأنما هو شخص يعتزم الرحيل إلى بعيد، في درب مجهول. وفي الآونة الأخيرة، كان ياكوف يكثر من اللصوق به، فقد كان يتسكع في المطعم وفي الباحة، أشعث الشعر، مهلهل الثياب، يتطلع إلى الجميع بعينين شاردتين تائهتين، وعليه سيماء شخص منشغل بتأملات خاصة، فإذا هو التقى بإيليا راح يسأله متكتمًا متعجلًا، بصوت خافت أو هامس:

- أما عندك وقت للتحدث معي؟

- انتظر، ليس عندي وقت أبدًا.

- آه منك! ولكن المسألة مهمة.

فيسأله إيليا:

- وما هي؟

فيقول له ياكوف متخوفًا:

- كتاب.. يتحدث للنفس، يا أخ، بشكل... يا سلام!

- آه منك ومن الكتب! ولكن هاك قل لي، ما لأبيك هذا ينظر إليّ نظرات وحش؟

ولكن ما كان يجري في الواقع، ما كان يثير اهتمام ياكوف، وجوابًا عن سؤال رفيقه، حملق عينيه مرتبكًا، وقال مستطلعًا:

- وماذا؟ لا علم لي بشيء، سمعته مرة يقول لعمك ما يفيد على حد زعمه أنك تتاجر بالعملة المزيفة، ولكنه هو في الواقع هكذا، خلط.

- وكيف تعرف أنت أن هذا خلط؟ - سأل إيليا مبتسمًا.

- أيوه، وماذا في الأمر؟ وأي نقود؟ سخافات كل ما في الأمر. - ونفض ياكوف يده بحركة معبرة عن الاستخفاف، وراح يفكر، ثم سأل بعد دقيقة وهو ينظر إلى رفيقه بعينين شاردتين:

- أليس لديك وقت للتحادث؟

- بشأن الكتاب؟

- نعم... ثمة محل فهمته أنا... يي- يي يي- ي، يا أخ!

وكشر الفيلسوف تكشيرة من احترق بشيء ساخن، وراح لونيف ينظر إلى رفيقه نظرته إلى امرئ

غريب الطباع، نظرته إلى ذي لوثة، وقد كان ياكوف يبدو له أحيانًا أعمى، سيئ الحظ على الدوام، وغير أهل للحياة. وكانوا في البيت يقولون -والشارع كله كان على علم بهذا- إن بتروخا فيليمونوف راغب في الزواج من عشيقته، القيّمة على أحد بيوت الدعارة الغالية في المدينة، أما ياكوف فكان يتخذ من هذا موقفًا قائمًا على اللامبالاة الكلية. وحين سأله لونيف عما إذا كان الزواج سيتم قريبًا، سأله ياكوف هو أيضًا:

- زواج من؟

- زواج أبيك.

- آ! ومن يعرف؟ شف قليل الحياء.. وجد زوجة... تفو!

- وهل تعرف أنت أن لديها ابنًا، بات كبيرًا، وهو يدرس في الثانوية؟

- كلا، ما كنت أعرف... وماذا؟

- هكذا... سيكون لأبيك وريث.

- ها-ها! - قال ياكوف بعدم اكتراث، ثم انتعش فجأة.- ابنها؟ لعل هذا لمصلحتي، آه؟ فقد يعين أبي هذا الابن بالذات وراء البوفيه.. أما أنا، فأذهب حيث أشاء. يا ليت!

وتذوق ياكوف طعم الحرية مسبقًا، فراح يتمطق بلسانه بشهية، فنظر إليه لونيف متأسفًا وقال بسخرية:

- صحيح قولهم إن الولد المغفل يأكل الجزر ويمتنع عن الخبز. آه منك! لست أتصور كيف ستعيش؟

فأرهف ياكوف أذنيه، وحملق عينيه، وقال في همس سريع:

- كنت أفكر في هذا. قبل كل شيء، ينبغي ترتيب النفس، ينبغي للمرء أن يدرك ما يريد الله منه. وأنا الآن أرى أمرًا واحدًا؛ الناس جميعًا متشابكون كالخيوط، وهم منجذبون إلى مختلف الجهات، أما إلى أين ينبغي أن ينجذب المرء، وإلى أي شيء ينبغي أن يشد نفسه شدًّا متينًا، فأمر غير معروف! يولد الإنسان دون أن يعرف أحد لماذا، ويعيش وما أدري لماذا، ويحل الموت فيزول كل شيء، يعني أن عليَّ قبل كل شيء أن أعرف ما الأمر الذي أنا موكل به... أي- نعم.

- إنك موغل في أفكارك هذه، -قال لونيف بكثير من الانتباه- وأي جدوى من وراءها؟

كان يشعر بأن أقوال ياكوف القاتمة تصدمه الآن بأكثر شدة مما كانت تصدمه من قبل، وبأن هذه الأقوال توقظ في نفسه أفكارًا خاصة، وكان يبدو له أن في داخله شخصًا ما أسود، ذاك الذي كان على الدوام يعارضه بكل أحلامه البسيطة الجلية عن الحياة النظيفة، يستمع الآن بنهم شديد إلى كلام ياكوف، ويتحرك داخل نفسه، كالطفل في بطن أمه، ولقد كان هذا كريهًا لدى إيليا، مربكًا له، وكان يبدو له غير ضروري، فكان يتهرب من الأحاديث مع ياكوف. ولكن قطع الصلة مع رفيقه لم يكن

بالأمر اليسير.

- أي جدوى؟ في غاية البساطة، الحرمان من هذا كالحرمان من النور.

- إنك، يا ياكوف، مثل العجوز... معاشرتك مضجرة. حتى الخنزير -كما يقال- يبحث عن الحظ الكبير، فكم أحرى أن يبحث عنه الإنسان.

وبعد هذه المحادثات كان يحس كأنما قد أكل كثيرًا من المملحات؛ كان يستولي عليه ظمأ شديد، فيشتهي شيئًا خاصًّا. لقد انضاف الآن إلى أفكاره الثقيلة الضبابية عن الله شيء عنيف ملحاح.

«يرى كل شيء، إلا أنه... يسمح..»- هكذا كان يقول في نفسه مكتئبًا، شاعرًا بأن روحه قد ضلت في تناقضات لا حل لها، فكان يذهب إلى أولمبيادا فيتوارى في معانقاتها عن أفكاره وهمومه.

وكان يزور فيرا أيضًا من حين لآخر، كانت حياة المرح تزل بهذه الفتاة شيئًا فشيئًا في الهاوية العميقة التي هي فيها؛ فقد كانت تحكي لإيليا باغتباط عن الأمسيات مع التجار الأغنياء، ومع الموظفين والضباط، وعن الرحلات بالعربات السريعة، والمطاعم الفاخرة، وتعرض عليه هدايا العشاق؛ من فساتين، وبلوزات، وخواتم.

وكانت، وهي الممتلئة الجسم، الرشيقة، المتينة البنية، تتباهى وتتفاخر بتطاحن عشاقها في سبيل امتلاكها. وكان لونيف معجبًا بصحتها وجمالها ومرحها، ولكنه قال لها غير مرة بحذر:

- ستضيعين، يا فيروتشكا، في هذه اللعبة.

- هكذا؟ ذلك هو دربي... وعلى كل حال تصحب الهيبة حياتي. أكون قد أخذت كل ما استطعت، وتحل النهاية!

- وبافل؟

فيرتعش حاجباها، ويزول المرح.

- لو يهجرني... فالحياة صعبة عليه معي... عبثًا يتعذب، فأنا لن أتوقف... ذبابة وقعت في الدبس.

- ألا تحبينه؟ - سأل إيليا.

- لا يمكن ألَّا أحبه.- قالت بكل جدية.- إنه مدهش!

- وإذن؟ لو عشت معه...

- لكي أقع في رقبته؟ ولكنه بالكاد يؤمن لنفسه الخبز، فكيف يعيلني؟ كلا، إني آسفة عليه.

وقد قال لها لونيف ذات مرة منذرًا:

- انتبهي، حذار أن يقع مكروه.

فصاحت فيرا بامتعاض:

- آه، رباه! كيف يمكن؟ أمعقول أني قد ولدت لرجل واحد؟ فكل إنسان يشتهي العيش في مرح، وكل يعيش العيشة التي تروق له.. هو، وأنت، وأنا.

- ولكن الأمر ليس كذلك. - قال إيليا عابسًا مفكرًا.- إننا نعيش... ولكن لا لأنفسنا.

- ولمن؟

- أنتِ هذه تعيشين للتجار، لمختلف العربيد.

- وأنا نفسي... عربيدة. - قالت فيرا وانطلقت تقهقه بمرح.

وكان لونيف ينصرف عنها محزونًا. وخلال هذه المدة التقى بباڤل مرتين، ولكن للحظات خاطفة، وقد كان باڤل، إذ يفاجئ رفيقه عند فيرا، يتجهم ويحنق. يجلس إلى جانب لونيف صامتًا، يصر بأسنانه، وتشتعل على خديه النحيلين بقع حمر. ويدرك إيليا أن رفيقه يغار منه، فيروق له هذا. وفي الوقت نفسه، كان يرى بجلاء أن غراتشيف واقع في ورطة هيهات أن يخرج منها من غير أن يصيبه أذى. وقد كف عن التردد على فيرا، آسفًا على باڤل، ولكنه أسفه عليها كان أشد. ومن جديد عاش شهر عسل مع أولمبيادا، ولكن البرودة تسربت إلى هنا أيضًا، فبعثت الانقباض في قلب إيليا؛ فقد كان في بعض الأحيان، والحديث جار بينهما، يستغرق فجأة في التفكير الكئيب؛ وإذ ذاك تروح أولمبيادا تحدثه في همس لطيف:

- حبيبي.. لا تفكر؛ قليلون في الدنيا الناس ذوو الأيدي الطاهرة.

فكان إيليا يرد عليها بجفاف ورصانة:

- اسمعي... أرجوك ألَّا تتحدثي معي بهذا الشأن.. لست أفكر في الأيدي... إنك، رغم ذكائك، لا تستطيعين فهم أفكاري، هاك، قولي: كيف ينبغي أن يكون سلوك المرء لكي يعيش بشرف ومن غير إساءة للناس؟ أما عن العجوز، فاسكتي.

ولكنها ما كانت تستطيع السكوت عن العجوز، وتظل دائمًا تحض إيليا على نسيانه، فكان لونيف يغضب وينصرف عنها، وأما حين يظهر من جديد، فتروح تصيح به محنقة قائلة إنه إنما يحبها عن خوف، وإنها لا تريد هذا، وسوف تهجره، وترحل من المدينة، وتأخذ بالبكاء، وتقرص إيليا، وتعض كتفيه، وتقبل رجليه، ثم تخلع ملابسها في ثوران وتهيج، وتقول وهي منتصبة أمامه عارية:

- ألست حلوة؟ أليس جسمي جميلًا؟ أحبك بكل جوارحي، بكل دمي أحبك.. اذبحني أضحك لك.

كانت عيناها الزرقاوان تقتمان، وشفتاها ترتعشان في ظمأ، وصدرها المتصاعد كأنما يتوثب لملاقاة إيليا، فيعانقها ويقبلها بكل ما فيه من قوة، وبعد ذلك يروح يقول في نفسه وهو عائد إلى البيت: «كيف أمكنها، وهي بهذه الحيوية والحرارة، أن تحتمل مداعبات العجوز القذرة؟»، فكانت أولمبيادا تبدو له مقرفة، فيبصق مشمئزًا؛ إذ يتذكر قبلاتها. وقد حدث ذات مرة، بعد انفجار شهوتها، أن قال لها، وهو

في شبع من المداعبات:

- الحق أنكِ، منذ أن خنقتُ العفريت العجوز، بت أشد حبًّا لي.

- أي نعم.. وماذا؟

- هكذا، يضحكني التفكير... بأن ثمة أناسًا، يبدو لهم البيض المنتن أطيب من الطازج، وثمة آخرون يحبون أكل التفاح وهو فاسد... عجيب!

فنظرت إليه إولمبيادا بعينين عكرتين، وابتسمت في تكاسل، ولم تجب.

وذات مرة، فيما كان إيليا يخلع ملابسه، إثر عودته من المدينة، دخل تيرنتي الغرفة بهدوء، وأغلق من ورائه الباب بإحكام، إلا أنه وقف بالقرب منه بضع ثوان، كأنما هو يتسمع لأحد، وأقفل الباب بالسقاطة، وهو يهز حدبته. ولاحظ إيليا كل هذا، وراح يتطلع إلى وجهه مبتسمًا في سخرية. وقال تيرنتي بصوت خافت، وهو يجلس على الكرسي:

- إيليوشا!

- نعم؟

- تروج عنك هنا مختلف الشائعات؛ يتكلمون كلامًا سيئًا.

وتنهد الأحدب تنهدة ثقيلة، مطأطئًا رأسه.

- وكيف مثلًا؟ - سأل إيليا، وهو يخلع حذاءه.

- الكلام أشكال... بعضهم يدعي أن لك صلة بتلك القضية... يعني خنق التاجر، ويزعم آخرون، أنك تحترف تزوير العملة.

- وهل تراهم يحسدونني؟ - سأل إيليا.

- يجيء إلى هنا أشكال وألوان من الناس، مثل الشرطة السرية، من نوع رجال التحري، وهم جميعًا يسألون بتروخا عنك.

- فليتعبوا أنفسهم. - قال إيليا دون اكتراث.

- هذا.. طبعًا، ما لنا ولهم؛ ما دمنا لا نعرف عن أنفسنا أي خطيئة.

فضحك إيليا واستلقى على السرير.

- لقد كفوا الآن... إنهم لا يظهرون، إلا أن بتروخا نفسه قد بدأ... -قال تيرنتي باضطراب وتخوّف- ماذا، يا إيليوشا، لو تنتقل إلى منزل في أحد الأماكن... وتجد لنفسك غرفة صغيرة تسكن فيها؟ إن بتروخا هذا يقول: «أنا لا أستطيع احتمال أناس مشبوهين في داري، أنا -يقول- رجل من

النواب...».

فأدار إيليا وجهه إلى عمه، وقال بصوت عال، وقد اكفهر من الغضب:

- إذا كان شدقه المطلي عزيزًا عليه، فأحرى به أن يسكت! هكذا قل له... فإذا سمعت عني كلامًا مخالفًا للأدب فلسوف أكسّر رأسه، مهما أكن، فليس له، هو النشال، أن يحاسبني... أما انتقالي من هنا، فسيتم حين أشاء؛ فأنا راغب في السكنى مع أناس طيبين وفضلاء.

استولى الرعب على الأحدب من غضب إيليا، فلبث دقيقة صامتًا، جالسًا على الكرسي، يتطلع إلى ابن أخيه بخوف، وهو يحك حدبته بهدوء. ومضى إيليا يحدّق في السقف بعينين محملقتين، وشفتاه مطبقتان إطباقًا شديدًا. وراح تيرنتي يرمق بإمعان رأسه الأجعد ووجهه الجميل الرزين، الصغير الشاربين، الخشن الذقن، ويتطلع إلى صدره العريض، ويقيس جسمه المتزايد متانة ورشاقة، وشرع يقول بصوت خفيض:

- أصبحت شابًّا قويًّا! ولو أنك في القرية للحقتك البنات أسرابًا... نعم، ولعشت هناك عيشة طيبة، ولكنت أمنت لك بعض الفلوس... ففتحت دكانًا وتزوجت بغنية، فتطير حياتك طيران الزلاجة المنحدرة على سفح الجبل.

- ولكن لعلي راغب في الطيران صعودًا إلى الجبل. - قال إيليا عابسًا.

- أيوه طبعًا... صعودًا إلى الجبل! - استأنف تيرنتي الكلام بسرعة.- الواقع أني قلت هكذا، قلت ستكون عيشتك ميسورة، أيوه، وهي تؤدي إلى الجبل.

- ومن الجبل إلى أين؟ - سأل إيليا.

فتطلع إليه الأحدب وانطلق يضحك ضحكة مجلجلة، وشرع من جديد يقول شيئًا ما، إلا أن إيليا ما عاد يستمع إليه، وهو يتذكر ما مر به ويتساءل في نفسه كيف يتجمع هذا كله في الحياة، بخفة وعلى نحو غير ملحوظ، الواحد إثر الآخر، تجمع الخيوط في شبكة؛ الأحداث تحيط بالإنسان، وتسوقه إلى حيث تشاء، سوق الشرطة للنشال. ها أنه كان يفكر بمبارحة هذا البيت، ليسكن لوحده، فإذا الظرف المؤاتي يتوفر الآن. وراح يتطلع إلى عمه في خوف وإمعان، فإذا بالباب يقرع في تلك اللحظة، فيقفز تيرنتي من مكانه.

- ياللا، افتح. - قال إيليا مغضبًا وبصوت مرتفع.

وحين رفع الأحدب السقاطة، ظهر ياكوف في العتبة، وبين يديه كتاب أصهب، فقال بحرارة وهو يقترب من السرير:

- إيليا، هيا بنا إلى ماشا.

فسأل إيليا بسرعة:

- وماذا حدث لها؟

- لها؟ لا أعرف... إنها ليست في البيت.

- وأين باتت تتمشور في الأمسيات؟ - سأل الأحدب بصوت كريه.

- تذهب مع ماتيتسا. - قال ياكوف.

- أيوه، معها لن تكون العاقبة خيرًا عليها. - تمتم الأحدب متباطئًا في كلامه.

وأمسك ياكوف بكم إيليا وراح يشده، فقال له لونيف:

- ما لك، هل انفلت زمامك؟

- أتعرف... إنه في الواقع سحر أسود، لا غير! - قال ياكوف بصوت خافت.

- من؟ - سأل إيليا، وهو يلبس جزمة اللباد.

- هذا الكتاب ذاته... أقسم بالله سوف ترى... هيا بنا. أقول بصراحة... إنه رائع! - أردف ياكوف يقول سائرًا ورفيقه خلفه في الممشى المعتم- بل إن من الرهيب قراءته، سوى أنه يجذب إليه جذب

دوار الماء.

كان إيليا يحس بانفعال رفيقه، ويسمع كيف يرتعش صوته، أما حين دخلا غرفة الإسكافي وأشعلا فيها النور، فقد رأى إيليا وجه ياكوف شاحبًا، وعينيه عكرتين مسترخيتين، كعيني السكران، فسأله وهو ينظر إليه بارتياب:

- أتراك قد شربت؟

- أنا؟ كلا، لم أشرب اليوم ولا قطرة... الواقع أني الآن لا أشرب.. إلا إذا كان أبي في البيت، فأجرع، لامتلاك الشجاعة، قدحين- ثلاثة؛ فأنا أخاف أبي... وما أشرب غير الخمر التي لا تفوح برائحة الفودكا... أيوه، اسمع.

وجلس على الكرسي، وفتح الكتاب، منحنيًا عليه شديد الانحناء، وراح يمر بأصابعه على الورق السميك الأصفر من القدم، ويقرأ بصوت أصم راجف:

«الفصل الثالث. حول أصل الإنسان»- اسمع.

ورفع يده اليسرى إلى فوق، مصعّدًا أنفاسه، وشرع يقرأ بصوت عال، وهو يحرك أصابع يده اليمنى على الصفحة:

- «وحسب قول ديودوروس إن الحكماء -أتسمع الحكماء؟- الذين كتبوا عن طبيعة الأشياء، كانوا يعتقدون بازدواجية بداية البشرية، وكان بعضهم يعتقد بأن الكون لم يخلقه أحد، وليس له بداية ولا نهاية، وكذلك البشرية لا بداية لها في تاريخها...».

ورفع ياكوف رأسه عن الكتاب، وقال هامسًا، ملوحًا بيده في الفضاء:

- أتسمع؟ من دون بدا...ية!

- تابع القراءة. - قال إيليا ناظرًا بارتياب إلى الكتاب العتيق المجلد. وإذ ذاك انطلق من جديد صوت ياكوف الخافت المتحمس:

«وهذا الرأي يؤيده -حسب قول تسيتسيرونوس- كل من فيثاغوروس وأرخيتا وأفلاطون ولسينوكراتوس وأرسطو وغيرهم من مريدي أرسطو، الذين كانوا يعتقدون بأن كل ما يوجد في عالمنا الأزلي ليس له بداية..» - أترى؟ مرة أخرى بلا نهاية! - «ولكن ثمة صلة متبادلة ومهمة بين البداية والنهاية يمكن معها إدراك ظواهر الكون في علتها ومعلولها...».

فمد إيليا يده وقال مبتسمًا بسخرية، وقد أغلق الكتاب بصخب:

- دعك منه.. وليذهب للقرد! ألمان يسفسطون فيه... يمكن إدراكه! ليس يمكن فهم شيء.

- اصطبر! - قال ياكوف بانفعال، متطلعًا بخوف إلى ما حوله، وسأل بصوت خفيض، محملقًا عينيه في وجه رفيقه:- هل تعرف أنت بدايتك؟

- أي بداية؟ - صاح إيليا مغضبًا.

- لا تصرخ.. لنأخذ الروح، الإنسان يولد مع الروح، آ؟

- أيوه.

- يعني أنه ينبغي أن يكون عارفًا من أين وكيف ظهر إلى الوجود؟ والروح، كما قيل، خالدة، وقد كانت موجودة من الأزل... ها- ها؟ واللازم ليس معرفة كيف ولدت، بل كيف أدركت أنك حي؟ لقد ولدت أنت حيًّا، ولكن متى أصبحت حيًّا؟ في بطن أمك؟ طيب.. ولكن لماذا لا تتذكر ليس فقط كيف كنت تعيش قبل الولادة، بل لا تعرف شيئًا عن حياتك بعد ذلك، حتى الخامسة من عمرك؟ وإذا كانت الروح، فأين تدخل فيك؟ أيوه، قل؟

كانت عينا ياكوف تشتعلان بنار النصر، ووجهه تنيره ابتسامة الارتياح، وقد صاح بابتهاج غريب على إيليا:

- تلك هي الروح.

- أحمق! - قال إيليا، وهو ينظر إليه نظرة قاسية- وما الذي يبهجك؟

- ولكني لست مبتهجًا، إنما هكذا فقط.

- هكذا فقط! المسألة ليست في سبب كوني حيًّا، بل في كيف ينبغي لي أن أحيا؟ كيف أحيا لكي يكون كل شيء طاهرًا، لكي لا يصدمني أحد، ولا أمس أنا نفسي أحدًا؟ هاك، جد لي كتابًا فيه إيضاح لهذا.

كان ياكوف جالسًا، مطأطئ الرأس، مستغرقًا في التفكير، وقد انطفأ توقده البهيج؛ إذ لم يجد استجابة له، فرد على رفيقه قائلًا، بعد شيء من الصمت:

- إني أنظر إليك فأرى أن ثمة شيئًا على غير ما يرام، شيئًا لا يروق لي... أفكارك لست أفهمها... أرى... أنك منذ بعض الوقت بدأت تتكبر لأمر ما، كأنك حكيم من الحكماء.

فضحك إيليا.

- وما يضحكك؟ صحيح.. تحاسب الجميع بقسوة، وكأنما أنت لا تحب أحدًا.

- ولست أحب.. - قال إيليا بحزم.- ومن أحب؟ وعلى أي شيء؟ وأي خير لقيت من الناس؟ كلّ يريد في سبيل كسرته من الخبز، أن يركب رقبة الآخر، ومع ذلك يقولون: أحبني، احترمني! لست هذا الأحمق! احترمني أحترمك.. أعطني نصيبي، فلعلي إذ ذاك أحبك.. الجميع على السواء يريدون أن يأكلوا.

- الواقع أن الناس لا يبحثون عن الأكل فقط - قال ياكوف معترضًا بلهجة غير ودية ولا راضية.

- أعرف.. كل واحد يجمّل نفسه بشيء ما، ولكن هذا قناع! فأنا أرى عمي يريد أن يساوم الله،

مساومة المستخدم لرب عمله على الحساب. وأبوك تبرع ببيارق نذرًا للكنيسة، أنا أستنتج من هذا أنه قد غش أحدهم، أو هو يهتزم الغش... والجميع هكذا، أينما تطلعت... خذ كوبيكًا مني وخمسة أعطني.. وهكذا يتظاهر الجميع كذبًا بعضهم في عيون بعض، ويسعون لتبرير أنفسهم بعضهم لدى بعض. أما أنا فأعتقد أن على الإنسان إذا ارتكب معصية، عن عمد أو عن غير عمد، فعليه أن يقدم رقبته للحساب.

- إنك على حق في هذا، - قال ياكوف وقد بدت عليه سيماء التفكير، - على حق فيما يتعلق بأبي، وفيما يتعلق بالأحدب... إيه، إننا لم نولد، أنا وأنت، في المكان اللازم لنا! إنك عنيف المزاج، ولذلك تنفس عن صدرك بمحاسبة الجميع، وتحاسب بقسوة متزايدة... أما أنا فلا أستطيع حتى هذا، إلا لو أرحل إلى مكان ما. - صاح ياكوف بحزن وأسى.

- وإلى أين ترحل؟ - سأل إيليا ضاحكًا ضحكة ناعمة.

ولاذا كلاهما بالصمت، وهما جالسان في تراخ حول الطاولة، أحدهما مقابل الآخر، وعلى الطاولة كتاب كبير مجلّد ذو أبازيم حديدية.

وضج أحدهم في الممشى، وسمعت أصوات صماء، ثم أخذت يد تخربش طويلًا على الباب، باحثة عن مقبضه، ولبث الرفيقان ينتظران في صمت، وانفتح الباب ببطء، لا فورًا، وانهار بيرفيشكا في القبو، ارتطمت رجله بالعتبة، فترنح ووقع على ركبتيه، رافعًا يده اليمنى إلى فوق، ممسكًا بها الهارمونيكا.

- اوعا! - قال بيرفيشكا وانطلق يضحك ضحك المخمور. ودخلت على إثره ماتيتسا. وفي الحال انحنت على الإسكافي وأمسكت به من تحت إبطه، وأخذت تنهض به، قائلة بلسان ثقيل:

- أف، كم أنت سكران... إيه يا سكران!

- خطّابة! لا تمسيني... أنا أقوم بنفسي... بنف.....سي.

وأخذ يترنح، ونهض على قدميه، وأقبل على الرفيقين، مادًّا لهما يده اليسرى.

- مر...حبًا.. احتراماتنا لكم، احتراماتكم لنا.

وانطلقت ماتيتسا تقهقه قهقهة صاخبة لا معنى لها.

- من أين جئتما؟ - سأل إيليا.

- من أين؟ يا صغيران! يا لطيفان، وا... أسفاه! - وراح بيرفيشكا يخبط بقدميه على أرض الغرفة، ويغني:

عظام، صغار!

تصير كبار، يبيعها التجار!

- خطّابة! الأحسن أن نغني تلك التي علمتني إياها... أي...وه.

واستند بظهره على المدفأة الجدارية إلى جانب ماتيتسا، وراح يجس مفاتيح الهارمونيكا بأصابعه، دافرًا المرأة بكوعه في خاصرتها.

- أين ماشوتكا؟ - سأل إيليا بخشونة.

- هي- هي- أنتما! - صاح ياكوف، وقد هب واقفًا عن الكرسي. - أين ماريا، حقًّا؟

ولكن السكرانين لم يعيرا انتباهًا للصيحة، ومالت ماتيتسا برأسها وراحت تغني:

للأشبينة، للأشبينة، أطيب خمر.

ولوّح بيرفيشكا بالهارمونيكا وأكمل بصوت عال:

يللا نشرب، يا أش...بينة، حتى الفجر.

ونهض إيليا، وأمسك به من كتفه، وراح يهزه هزًّا جعل قذال بيرفيشكا يرتطم بالمدفأة.

- أين ابنتك؟

- «ابنتي ض... ضا...عت في نصف الليل...»[23] - بربر بيرفيشكا من دون معنى، ممسكًا رأسه بيده.

واستجوب ياكوف ماتيتسا، إلا أنها قالت، وهي تبتسم في خبث:

- لن أقول! ل... لن أقول، ولن أقول.

- ربما كان الشيطانان باعاها، - قال إيليا لرفيقه مبتسمًا ابتسامة جافة، فألقى عليه ياكوف نظرة راعبة، وسأل الإسكافي بصوت حزين:

- اسمع، يا بيرفيلي.. أين ماشوتكا؟

- ما... شو... تكا! - قالت ماتيتسا ماطة كلامها بسخرية- أحس بفقدانها.

- إيليا! كيف؟ ما العمل؟ - سأل ياكوف بقلق.

كان إيليا في صمت، ينظر إلى السكرانين بوجه عابس.

وراحت ماتيتسا تمط أغنيتها بصوت مشؤوم، منقلة عينيها الضخمتين من إيليا إلى ياكوف، ثم صاحت فجأة، ملوحة بيديها في بلاهة:

- ياللا... روحوا... من بيتي! هذا... بيتي! سنتزوج.

وانطلق الإسكافي يقهقه، ممسكًا ببطنه.

- هيا نذهب يا ياكوف- قال إيليا. - يضربهم قرد!

- اصطبر. - قال ياكوف بارتباك وخوف.- بيرفيشكا... قل... أين ماشا؟

- ماتيتسا! يا عقيلتي، عليهم! هاتوه- هاتوه.. انبحي عليهم، عضيهم... أين ماشا؟

وكوّر بيرفيشكا شفتيه، وهمّ بأن يصفر، إلا أنه لم يستطع، وبدلًا من ذلك مد لسانه في وجه إيليا، وانطلق يقهقه من جديد. وألصقت ماتيتسا صدرها بإيليا، وأخذت تصرخ بعنف:

- ومن أنت؟ وهل أنا لا أعرف ذلك؟

فدفعها إيليا عنه وانصرف من القبو، ولحق به ياكوف في الممشى، فأمسك به من كتفه، وأوقفه في الظلام، وأخذ يقول:

- وهل ترى يمكن هذا؟ هل ترى يسمح بهذا؟ إنها صغيرة يا إيليا! فهل يمكن أن يكونا قد زوجاها؟

- كفى، لا تتفجع. - أوقفه إيليا عن الكلام بحدة.- لم يعد في اليد حيلة، لو كنت راقبتهما من قبل... كنت تبحث عن البداية، وأما هما، فانظر... لقد توصلا إلى النهاية.

فصمت ياكوف، ولكنه أخذ يقول من جديد، وهو سائر خلف إيليا في باحة البيت:

- ليس الذنب عليّ، كنت أعلم أنها تذهب للمياومة، تقوم بترتيب الغرف في مكان ما.

- وما يهمني، يضربك قرد! إن كنت مذنبًا أم لا. - قال إيليا بخشونة، وقد توقف وسط الباحة.- ينبغي الفرار من هذا البيت، ينبغي أن يحرق حرقًا.

- يا رب... يا رب! - قال ياكوف بصوت خافت، واقفًا وراء ظهر لونيف، مسبلًا يديه في عجز على طول جسمه، مطأطئ الرأس، كأنه متربص أن يصفع.

- ابك. - قال إيليا ساخرًا، وذهب تاركًا رفيقه في العتمة وسط الباحة.

وصباح اليوم التالي، علم من بيرفيشكا أن ماشوتكا أُعطِيت زوجة لصاحب حانوت أرمل، اسمه خرينوف، في الخمسين من عمره، فَقَد زوجته منذ وقت قريب.

كان بيرفيشكا مستلقيًا فوق المدفأة، يحكي بصورة غير مترابطة، وهو يهز رأسه المتعب من أثر الشراب:

- قال لي، يعني، هو: «عندي، قال، ولدان... طفلان صغيران.. يعني، يلزم لهما مربية، ولكن المربية شخص غريب... سوف تسرق، وما إلى ذلك، فاقنع أنت بنتك..» أيوه، وقد أقنعتها... وماتيتسا أقنعتها... وماشا لبيبة، وقد فهمت على الفور.. فليس لها مجال... كان يمكن أن يحدث ما هو أسوأ، أما ما هو أحسن فلا مجال له على الإطلاق، قالت: «لا فرق، سأذهب..» وذهبت. خلال ثلاثة

أيام جهزنا كل شيء... أعطى لكل منا، أنا وماتيتسا، ثلاثة روبلات... على أننا قد شربنا بها كلانا فورًا مساء أمس.. وكم تشرب ماتيتسا هذه... الحصان لا يستطيع أن يشرب قدر ما شربت!

كان إيليا يستمع صامتًا، وقد أدرك أن ماشا لقيت خير مصير يمكن توقعه، ومع ذلك فقد حزن على البنت، وقد كان في الآونة الأخيرة لا يكاد يراها، وما كان يفكر فيها، أما الآن فقد ظهر له فجأة أن هذا البيت أصبح من دونها أشد قذارة.

كانت تنظر إلى إيليا من فوق المدفأة سحنة صفراء، منتفخة، وصوت بيرفيشكا يئز أزيز غصن يابس مكسور على شجرة في الخريف.

- اشترط عليّ خرينوف ألَّا أدوس بيته! قال: إلى الدكان تعال من حين لآخر، وسأعطيك ما تشتري به كأسًا من الفودكا، أما البيت فلا تأمل به، كما لا ينبغي لك أن تأمل بالجنة! إيليا ياكوفليفيتش.. أما تعطيني خمسة كوبيكات لأشرب قليلًا أصحو به؟ هات، اعمل معروفًا.

- وأنت الآن كيف حالك؟ - قال لونيف.

فبصق الإسكافي على الأرض، وأجاب:

- أنا الآن سأشرب حتى النهاية، حين لم يكن قد تم تدبير أمر ماشا، كان عندي ما يشبه الوجدان نحوها... أيوه، وأما الآن فأنا أعرف أنها شبعانة، محذوّة، مكسوّة، وكأنها... مغلق عليها في صندوق! يعني، إني سأنصرف بحرية إلى السُّكْر انصرافًا كليًّا.

- ألا تستطيع ترك الفودكا؟

- مطلقًا! - أجاب الإسكافي، هازًّا رأسه الشعث بإشارة قاطعة.- ولماذا؟ إن ما يريده الإنسان يدبره القدر... تلك هي المسألة. وإذا كان الإنسان خالي الوفاض فأي شيء للقدر معه؟ هاك ما أقول لك: كنت أريد أن أعمل شغلة... وقت كانت المرحومة حية، كنت أريد إذ ذاك أن آخذ قليلًا من الشيخ إيرميا.. وقد قلت في نفسي هكذا:

«إذا لم أعملها أنا، فسيعملها غيري، فالشيخ سينهب على كل حال...» ولكن، ولله الحمد، سبقوني إلى هذا العمل... وما أنا بآسف... على أني فهمت إذ ذاك أن الرغبة أيضًا لا بد لها من قادر.

وانطلق الإسكافي يضحك وراح ينزل عن المدفأة، قائلًا:

- طيب، هات خمسة كوبيكات... جوفي يحترق... حتى الموت.

- خذ، اشرب قدحًا. - قال إيليا.

وأردف يقول، وهو يتطلع إلى بيرفيشكا مبتسمًا:

- إنك لمكّار، وسكير... كل هذا صحيح! ولكن يبدو لي أحيانًا أني لا أعرف إنسانًا خيرًا منك.

فتطلع بيرفيشكا بارتياب إلى وجه لونيف الرصين، إلا أنه لطيف.

- تمزح؟

- إذا شئت صدق، أو لا تصدق إذا شئت.. فأنا ما قلت مدحًا لك، بل هكذا... تنديدًا بالناس.

- غير مفهوم! كلا، ظاهر أنه لا يدخل في مخي... لست أفهم، أنا ذاهب لأشرب، فعسى أن أصبح فهيمًا.

- اصطبر. - أوقفه لونيف ممسكًا إياه من كم قميصه. - هل تخاف الله؟

وبصبر فارغ، أخذ بيرفيشكا يراوح من قدم لأخرى، وقال بلهجة توشك أن تعبر عن الاستياء:

- ليس ما يدعوني لأن أخاف الله... فأنا لا أسيء إلى الناس.

- وهل تصلي؟ - استأنف إيليا السؤال، مخفضًا صوته.

- أي...وه... أصلي، طبعًا... نادرًا!

ورأى إيليا أن الإسكافي غير راغب في الكلام، وكل جوارحه معطشة إلى الخمارة، فقال له، وعلى وجهه سيماء التفكير:

- رح، رح... ولكن إليك هذا؛ إنك ستموت... ولسوف يسألك الله: «كيف كنت تعيش، يا إنسان؟».

- فأقول له: «يا رب! ولدت صغيرًا، ومت سكيرًا... فلست أتذكر شيئًا!» فيضحك ويخلي سبيلي.

وابتسم الإسكافي منشرح الصدر، وانصرف.

وبقي لونيف لوحده في القبو... كان أمرًا مستغربًا لديه تصور أن ماشا لن تظهر أبدًا في هذه الحفرة الضيقة القذرة، وأن بيرفيشكا سيطرد من هنا عما قريب.

ومن النافذة كانت تطل شمس نيسان، منيرة أرض الغرفة التي لم تُمسح منذ وقت بعيد. وكان كل شيء في القبو مشوشًا، قبيحًا، كئيبًا، مثلما تكون الحال عقب مأتم.

وكان إيليا، وهو جالس على الكرسي منتصب الجذع، يتطلع إلى المدفأة المتسخة القصيرة أمامه، والأفكار المرهفة تتوارد عليه تباعًا.

«أترى أذهب فأعترف؟»- لاحت هذه الفكرة الجلية فجأة في رأسه.

ولكنه صدها عنه بغيظ في الحال.

وفي مساء ذلك اليوم نفسه اضطر إيليا لمغادرة بيت بتروخا فيليمونوف. وقد حدث الأمر هكذا؛ عند عودته من المدينة، استقبله عمه في باحة البيت خائفًا، فأخذه إلى ما وراء كومة الحطب، وقال له هناك:

- أيوه... يا إيليوشا، عليك أن تغادر البيت... يا... لطيف، ماذا حدث عندنا؟!

وأغمض الأحدب عينيه في هلع، وراح يلوح بيديه، ويضرب ردفيه:

- ياشكا سكر حتى العمى، ولطع أباه قائلًا له في وجهه... لص، وغير ذلك من الكلمات الجارحة؛ فاسق عديم الحياء، عديم الرحمة... كان يصرخ من دون عقل..

وأما بتروخا فكم راح يلطمه على أسنانه، ويشد شعره، ويلبطه برجليه وبكل شيء ويضربه فيدميه. وياشكا الآن منطرح يتأوه... وبعد ذلك كم أخذ بتروخا يصرخ بي.. قال: «أنت، اطرد إيليا... فأنت أَثَرْت عليه ياشكا...» وصرخ صراخًا رهيبًا.. فحذرك أنت.

فخلع إيليا الحزام من كتفه، وقال وهو يسلم الصندوق لعمه:

- امسك.

- انتظر.. إلى أين؟

كانت يدا إيليا ترتعدان أسى على ياكوف وغيظًا على أبيه.

- أقول لك امسك. - قال إيليا من خلال أسنانه، ومضى إلى المطعم، وقد كان يصر على أسنانه بشدة أوجعت وجنتيه وفكيه، وشعر فجأة بضجيج في رأسه، ومن خلال هذا الضجيج سمع عمه يصيح به بشيء ما عن الشرطة، والهلاك، والسجن، فمضى كأنما هو منحدر من جبل.

وفي المطعم، كان بتروخا واقفًا قرب البوفيه يتحدث مبتسمًا مع أحد المشردين ذوي الأطمار، وكان نور المصباح ينصب على صلعته، فكان يبدو كأنما رأسه كله يتألق بابتسامة ارتياح. وحين رأى إيليا صاح به بلهجة ساخرة وحاجباه يتحركان في غضب:

- ها ها، التاجر.. أنا في حاجة إليك.

كان يقف قرب باب غرفته سادًّا إياه بظهره.

فأقبل عليه إيليا، في حزم وصرامة، وقال له بصوت عال:

- تنحّ.

- ماذا- آ؟ قال بتروخا ماطًّا كلامه.

- دعني أدخل لعند ياكوف.

- سأريك كيف تدخل لعند ياكوف.

فانهال إيليا، صامتًا، بكل قواه، بلطمة على خد بتروخا، فأطلق صاحب البوفيه صيحة ألم، وانهار على الأرض، فأقبل عليه المستخدمون من جميع الزوايا، وصاح أحدهم:

- امسكه.. اضربه.

وراح الجمهور يصطخب كأنما صب عليه ماء مغلي، ولكن إيليا تخطى بتروخا، ودخل الباب، وأغلقه من خلفه.

وفي الغرفة الصغيرة، المزدحمة بصناديق الخمور وبعض الخزائن الخشبية، كان يشتعل مصباح من التنك، مرتعش؛ فما أبصر لونيف رفيقه، على الفور، في العتمة والزحمة. كان ياكوف منطرحًا على الأرض، ورأسه في الظل، ووجهه يبدو أسود رهيبًا؛ فأمسك إيليا المصباح بيده وجلس القرفصاء، منيرًا المضروب.. كانت الكدمات والسحجات تغطي وجه ياكوف بقناع شنيع قاتم، وعيناه متورمتان، وأنفاسه ثقيلة، وقد كان يشخَّر، ولا بد أنه ما كان يبصر شيئًا، فقد سأل وهو يئن:

- من هنا؟

- أنا. - قال لونيف بصوت خفيض، ونهض على قدميه.

- هات لي ماء.

فتلفت إيليا حوله، كانوا يحاولون اقتحام الباب بالقوة، وأوعز أحدهم قائلًا:

- اذهب للدخول من الباب الخلفي.

ومن خلال الضجيج، انطلق صوت بتروخا رفيعًا نابحًا:

- أنا لم أمسسه.

فابتسم إيليا ابتسامة قصيرة خبيثة، فأقبل على الباب، وأخذ يتفاوض بهدوء مع الحاضرين:

- إيه يا هؤلاء.. كفى صراخًا... إذا كنت قد ضربته على شدقه، فإنه لن يفطس من جراء هذا، أما أنا فسأحاكم على هذا. وإذن فلا مجال لتدخلكم في أمره... لا تدفعوا الباب، فسأفتح في الحال.

وفتح الباب وانتصب فيه، كأنما هو ضمن إطار، شادًّا قبضتيه بقوة استعدادًا للطوارئ؛ فتراجع الجمهور أمام وقفته الصامدة وتأهبه للعراك، البادي جليًّا على وجهه، ولكن بتروخا راح يدفع الجميع بكوعيه، نابحًا:

- ها- ها.. يا ش... شقي!

- ابعدوه وتعالوا انظروا هنا- تفضلوا.- دعا إيليا الجمهور متنحيًا عن الباب- تأملوا كيف شوه الإنسان؟

فدخل بضعة من الضيوف إلى الغرفة، وهم يرمقون إيليا بأطراف عيونهم، وانحنوا على ياكوف، ودمدم أحدهم في دهشة وخوف:

- شوّ...هه- تشو...يهًا!

- هاتوا ماء، ويجب استدعاء الشرطة.- قال إيليا.

وكان الجمهور إلى جانبه، وقد رأى هو هذا وشعر به، فراح يقول بحدة وبصوت عال:

- إنكم جميعًا تعرفون بتروخا فيليمونوف، تعرفون أن هذا أول غشاش مختلس في الشارع، ولكن من يقول شرًّا عن ابنه؟ أيوه، هاكم الابن، منطرحًا مضروبًا، وربما كان قد أصيب بعطب على مدى الحياة، أما أبوه فلن يناله شيء على هذا. وأنا قد ضربت بتروخا مرة واحدة، ولسوف يحاكمونني، فهل هذا حسن؟ هل سيكون هذا إنصافًا؟ وهكذا في كل شيء، واحد تعطى له الحرية الكاملة، وآخر لا يستطيع تحريك حاجبيه.

فتنهد بضعة أشخاص تعبيرًا عن العطف، وانصرف آخرون في صمت، وأما بتروخا فقد راح يطرد الجميع، صائحًا بصوت حاد:

- روحوا.. روحوا.. هذا شغلي أنا، إنه ولدي، انقلعوا.. أنا لا أخاف الشرطة، ولا تلزم لي محاكمة، لا تلزم. وأنت سأقضي عليك هكذا، دون محاكمة، رح انقلع.

كان إيليا جاثيًا، يسقي ياكوف ماء، وهو ينظر بأسى إلى شفتي رفيقه الملتهبتين المتورمتين. وأما ياكوف فكان يجرع الماء ويقول هامسًا:

- أنفاسي منحبسة... خذني... إيليوشا.. يا عزيزي.

وانحدرت الدموع من الورم تحت العينين.

- ينبغي نقله إلى المستشفى.- قال إيليا عابسًا، مخاطبًا بتروخا.

فتطلع صاحب البوفيه إلى ابنه وبربر بكلام غير واضح اللفظ.. كانت إحدى عينيه محملقة، والأخرى تكاد تكون مغمضة، كعيني ياكوف، من أثر لطمة إيليا. فصاح إيليا.

- هل تسمع؟

- لا تصرخ. - قال بتروخا بلهجة هادئة مسالمة غير متوقعة. - لا يمكن أخذه إلى المستشفى... يشيع الخبر؛ هذا لا يليق بي.

- أنت سافل. - قال إيليا وبصق باحتقار على قدمي فيليمونوف. - أقول لك ابعث به إلى المستشفى.. فإذا لم تبعث به، فسأثير فضيحة أشنع.

- طول بالك.. الأمر لا يستدعي ذلك، لا تغضب. إنه، على الأرجح، يتظاهر.

فوثب إيليا قائمًا على قدميه، ولكن فيليمونوف تراجع إذ ذاك قافزًا نحو الباب، وصاح:

- إيفان.. استدع عربة، وإلى المستشفى، بخمسة عشر كوبيگًا... البس، يا ياكوف.. لا لزوم للتظاهر بالألم.. لم يضربك رجل غريب، بل والدك، أنا أيضًا ضربوني أكثر.

وراح يسعى في الغرفة، فيرفع الثياب عن الجدار، ويلقي بها لإيليا، مواصلًا الكلام بسرعة وانفعال عن الضرب الذي ناله في صباه.

كان تيرنتي واقفًا وراء البوفيه، وقد وصل صوته إلى مسامع إيليا وهو يقول في كياسة واستحياء:

- تريد حضرتك فودكا بثلاثة أم بخمسة كوبيكات؟ كافيار؟ الكافيار نفد... تمزز بالسليودكا.

وفي اليوم التالي وجد إيليا لنفسه مسكنًا، هو غرفة صغيرة بجانب مطبخ، وقد أجرّته إياها فتاة عليها بلوزة حمراء، وردية الوجه، ذات أنف عصفوري حاد، وفم صغير، وعلى جبينها الضيق ينسدل شعر أسود بشكل جميل، غالبًا ما كانت ترده بحركة سريعة من يدها الصغيرة الدقيقة.

- خمسة روبلات أجرة لهذه الغرفة اللطيفة ليست بالسعر الغالي! -قالت الفتاة بنشاط وابتسمت إذ رأت أن عينيها السوداوين تربكان الفتى الغض العريض المنكبين- ورق الجدران جديد كل الجدة، والنافذة تطل على الحديقة، فماذا تريد أيضًا؟ في الصباح أعدّ لك السماور، وأنت تأخذه إلى غرفتك بنفسك.

- أنتِ خادمة؟ - سأل إيليا بفضول.

فكفت الفتاة عن الابتسام، وارتعش حاجباها، وانتصبت قامتها، وقالت بأبهة:

- أنا لست خادمة، بل ربة هذا البيت، وزوجي...

- وهل أنت متزوجة؟ - هتف إيليا مندهشًا، وراح يتطلع غير مصدق إلى قامة ربة البيت النحيفة الممشوقة، فما غضبت هذه المرة، بل راحت تضحك ضحكة رنانة مرحة.

- يا لك من مضحك! تارة تسميني خادمة، وتارة لا تصدق أني متزوجة.

- وكيف أصدق ما دمت بنتًا صغيرة تمامًا! - قال لونيف بابتسامة ساخرة أيضًا.

- وأنا متزوجة منذ ثلاث سنوات، وزوجي رئيس مخفر الشرطة.

فحدّق إيليا في وجهها، وانطلق أيضًا يضحك ضحكة خفيفة، غير عارف هو نفسه سببًا لضحكه.

- عجيب! - هتفت المرأة، هازة كتفيها، وراحت تتطلع إليه بفضول. - طيب، ماذا.. هل تستأجر الغرفة؟

- هذا أمر مبتوت فيه.. أتأمرين بأن أعطيك سلفة؟

- طبعًا.

- سأرجع بعد ساعتين أو ثلاث.

- أهلًا وسهلًا... أنا مسرورة بمستأجر مثلك؛ إنك، على ما يبدو، مرح.

- ليس كثيرًا. - قال إيليا ضاحكًا في خبث.

وخرج إلى الشارع مبتسمًا، ينطوي في صدره على شعور مستطاب، فقد راقت له الغرفة، المكسوة الجدران بورق سماوي اللون، المرأة الصغيرة النشيطة. على أنه لأمر ما، بدا له ممتعًا بوجه خاص كونه سيسكن في منزل رئيس المخفر؛ فقد شعر في هذا بأمر مضحك ساخر، ولعله خطر عليه. وكان عليه أن يزور ياكوف، فاستدعى عربة، وجلس على المقعد، وراح يفكر قائلًا في نفسه: كيف ينبغي له أن يتدبر أمر النقود، وأين عليه الآن أن يخفيها؟

وحين وصل إلى المستشفى تبين أن ياكوف قد استحم منذ وقت قصير، وهو الآن نائم، فتوقف إيليا في الممشى، قرب النافذة، غير عارف ما ينبغي له أن يفعل، هل ينصرف أم ينتظر إلى حين استيقاظ رفيقه. وبالقرب منه كان يمر المرضى، الواحد إثر الآخر، لابسين مآزر صفراء، جارين بنطوفلاتهم بتراخ، ناظرين إليه بأعين يغشاها السأم، ومع نبرات كلامهم الخافت كانت تندغم أنّات منبعثة من بعيد، والصدى الهادر يردد الأصوات في بوق الممشى الطويل، فكان يخيل للمرء أن جو المستشفى العابق بالروائح يحلق فيه أحد ما، غير مرئي، ولا صاخب، متنهدًا متأوهًا.. فود إيليا لو ينصرف عن هذه الجدران الصفراء، ولكن أحد المرضى خطا نحو إيليا، فقال له بصوت خفيض، مادًّا إليه يده:

- مرحبًا.

فرفع لونيف عينيه إليه وارتد مندهشًا.

- بافل! وأنت هنا؟

- ومَن أيضًا؟ - سأل بافل بسرعة.

كان وجهه كالحًا بعض الشيء، وعيناه ترفان باضطراب وقلق، وقد حدثه إيليا باقتضاب عن ياكوف، وقال بانفعال:

- كم أنت متغير!

فتنهد بافل، وارتعشت شفتاه، وبهمس أجش كرر مطأطئًا رأسه، كأنه مرتكب ذنبًا ما:

- متغير!

- ماذا أصابك؟ - سأل إيليا بعطف.

- أيوه... كأنك لا تعرف!

ورمق بافل وجه رفيقه بنظرة خاطفة، وأخفض رأسه من جديد.

- لقطت مرضًا؟

- طبعًا.

- أهو من فيرا؟

- ومِمَنْ غيرها إذن؟ - أجاب بافل متجهمًا.

- وأنا أيضًا سأصاب ذات يوم.

فقال له بافل ناظرًا نظرة الواثق:

- كنت أتصور أنك ستقرف الآن مني، كنت أتمشى هنا، وأنظر فجأة، فإذا بك... أنت.. فخجلت، فارتددت، ومررت دون أن أتوقف.

- ذكي! - قال إيليا مؤنبًا.

- ومن يعرف كيف ستنظر إلى الأمر؟ فالمرض قذر، هذا ثاني أسبوع وأنا منحبس هنا، فأي غم.. وأي ألم! في الليل، أحس كأني أُشْوَى على جمر، والوقت يطول، كالشعر في الحليب، كأنما أنت تغوص في غور مستنقع، وما من أحد تستغيث به.

كان يتكلم بما يقرب من الهمس، أما وجهه فيرتعش، ويداه تدعكان أطراف مئزره في تشنج.

- وفيرا.. أين هي؟ - سأل مستغرقًا في التفكير.

- القرد يعرف أين هي! - قال غراتشيف بسخرية مريرة.

- ألا تأتي إليك؟

- جاءت مرة، فطردتها، فلست أستطيع رؤيتها. - همس بافل بغيظ.

فنظر إيليا إلى وجهه المشوه نظرة تأنيب، وقال له:

- هذه سخافة منك؛ فإذا كنت تريد الإنصاف، فكن أنت نفسك منصفًا. فما ذنبها هي؟

- وعلى من يجب أن أضع الذنب؟ - قال بافل متعجبًا بحرارة، بصوت خفيض.- على من؟ طول الليل وأنا أفكر، قائلًا في نفسي: ما الذي خرب حياتي؟ ألأني عشقت فيرا، آ؟ نجوم السماء لا تكفي لأن تكون كلمات تعبر عن حبي لها!

واحمرّت عينا بافل، وانحدرت منهما في تثاقل دمعتان كبيرتان، فمسحهما عن خديه بكم مئزره.

- كل هذه كلمات فارغة. - قال لونيف شاعرًا بأن حزنه على فيرا أشد من حزنه على بافل- كنت تجرع خمرة العسل فتثني عليها قائلًا: قوية.. وانتهيت من شربها، فأخذت تشتم قائلًا: شديدة! وكيف حالها هي؟ فهي أيضًا قد نقلوا إليها المرض؟

- هي أيضًا. - قال بافل، وسأل بصوت راجف: - وهل تتصور أني غير محزون عليها؟ لقد طردتها، وحين ذهبت، كم راحت تبكي، راحت تبكي بصوت خافت وبمرارة جعلت قلبي ينزف دمًا، ولولا أن روحي كانت فيها إذ ذاك حجارة، لبكيت أنا نفسي، وأخذت إذ ذاك أفكر في كل هذه الأمور.. إيه يا إيليا! ليس لنا نحن حياة.

- أي.. نعم. - قال لونيف ماطًّا كلامه، مبتسمًا ابتسامة غريبة. - يحدث شيء... عجيب! يضغط على الجميع، ويواصل الضغط. ياكوف لا يفسح له أبوه مجالًا للعيش، وماشوتكا حشروها زوجة لشيطان عجوز، وها أنت في هذه الحال.

وانطلق فجأة يضحك ضحكة خافتة، وقال مخفضًا صوته:

- أنا وحدي الموفق.. ما إن أفكر بشيء إذا به... تفضل، جاهز.

- كلامك سيئ، - قال بافل، ناظرًا إليه نظرة متفحصة. - هل تسخر؟

- كلا، سواي يسخر... ثمة من يسخر منا جميعًا... إني أتطلع إلى الحياة، فلا أرى فيها إنصافًا.

- وأنا أيضًا أرى هذا! - قال بافل متعجبًا بصوت خفيض، إلا أنه منبعث إلى حد ما من كل صدره.

وانتفخت عل وجهه بقع حمراء، وأما عيناه فقد راحتا تشعان بحيوية ونشاط، كعيون الأصحاء.

كانا واقفين في زاوية نصف معتمة من الممشى، قرب نافذة صبغ زجاجها باللون الأصفر، وفي ذلك المكان، لصق الجدار، كانا يتحادثان، متلقفين الأفكار، على الطائر، أحدهما من الآخر. ومن مكان بعيد كان يصل إلى مسامعهما أنين مديد متواصل، كرنين وتر، يضرب عليه أحدهم في فترات زمنية متساوية، وهو يرتعش ويرن في يأس، كأنما هو عارف أن ليس ثمة من قلب حي، أهل للتخفيف عن رعشته العليلة. كان بافل في حمّى من إدراك ما أنزلته به يد الحياة الثقيلة من إساءات، وقد كان هو أيضًا، كالوتر، يرتعش من الانفعال، ويهمس لرفيقه، على عجل ومن دون ترابط، بشكاواه وشبهاته. وأما إيليا فكان يشعر بأن كلمات بافل تنطلق كالشرارات من قلبه، فتشعل في صدره ذلك الشيء القاتم المتناقض الذي كان على الدوام مصدرًا لقلقه. كان يشعر بأن ما كان لديه من حيرة إزاء الحياة قد انبثق مكانه شيء آخر يوشك أن يضيء ظلمة نفسه ويشيع فيها الطمأنينة إلى الأبد.

- ما السبب في أنك إذا كنت شبعان فأنت قدّيس، وإذا كنت متعلمًا، فأنت على حق؟ - همس بافل وهو واقف قلبًا لقلب مقابل إيليا، وراح يتلفت حوله، كأنما يشعر باقتراب العدو الذي خرب حياته.

- ومن يفهم كلامنا؟ - قال إيليا متأثرًا، بلهجة قاسية.

- نعم.. ومع من نتكلم؟

وصمت بافل، وراح لونيف ينظر، مستغرقًا في التفكير، إلى أعماق الممشى. وفيما كانا إذ ذاك صامتين، أخذ الأنين ينطلق مسموعًا أكثر من ذي قبل، لا بد أن يكون كبيرًا وقويًّا هذا الصدر الذي يئن، ولا بد أن يكون ألمه شديدًا.

- أما تزال تعاشر أولمبيادا؟ - سأل بافل لونيف.

- بلى.. أعاشرها. -أجاب إيليا مبتسمًا في سخرية- هل تعلم، -أردف يقول، مبتسمًا في خبث، مخفضًا صوته:- لقد قرأ ياكوف كثيرًا حتى بات يشك في الله.

فتطلع إليه بافل، وسأل بلهجة غامضة:

- صحيح؟

- وجد كتابًا من هذا القبيل.. وأنت ما رأيك في هذا؟

- أنا.. يعني... - قال بافل مفكرًا وبصوت خافت، - أنا نوعًا ما... لا أذهب إلى الكنيسة.

- أما أنا فأفكر كثيرًا، لست أستطيع أن أفهم كيف يصبر الله؟

ومن جديد انعقد بينهما حديث سريع، وقد ظلا يتحادثان، وهما مندفعان به، إلى أن أقبل عليهما مستخدم، فسأل لونيف بلهجة جافة:

- ما لك مختبئ هنا، آ؟

- لست مختبئًا. - قال إيليا.

- وهلا ترى أن جميع الزوار قد ذهبوا؟

- لا بد أني ما رأيت.. خاطرك يا بافل، اذهب لزيارة ياكوف.

وصاح به المستخدم:

- ياللا... انصرف.

- تعال إليَّ بأسرع وقت.. - قال غراتشيف راجيًا.

وفي الشارع راح لونيف يفكر بمصير رفيقيه.

كان يرى أنه يعيش عيشة تفضل عيشتهما كليهما، ولكن هذا الإدراك ما كان يبعث في نفسه شعورًا طيبًا، فكان يقتصر على الابتسام في سخرية ويتلفت إلى ما حوله بارتياب.

وفي المنزل الجديد، أخذ يعيش عيشة مطمئنة، وكان صاحبا البيت موضع اهتمام شديد لديه، كانت ربة البيت تدعى تاتيانا فلاسييفنا؛ إنها مرحة ثرثارة، فما مضت بضعة أيام على إقامة لونيف في الغرفة الزرقاوية، حتى راحت تحدثه بإسهاب عن كل نظام حياتها.

وفي الصباح، وقت يكون إيليا في غرفته يشرب الشاي، كانت هي تروح وتجيء في المطبخ، لابسة وزرتها، مشمرة أكمامها إلى الكوعين، تطل عليه من الباب، وتتحدث بنشاط وحيوية:

- لسنا أنا وزوجي من الناس الأغنياء، إلا أننا متعلمون. درست أنا في المتوسطة، وأما هو ففي المدرسة الحربية، إلا أنه لم ينهها، ولكننا نريد أن نكون أغنياء وسنكون. ليس عندنا أولاد، فالأولاد أكبر مصروف.. أنا نفسي أطبخ، وأذهب بنفسي إلى السوق، أما الأعمال الصعبة فإني أستأجر بنتًا بروبل ونصف في الشهر على أن تسكن في بيتها. فهل تعلم كم أوفر؟

وتوقفت في الباب، وراحت تحسب بأصابعها، وهي تهز خصلات شعرها:

- الطباخة أجرتها ثلاثة روبلات، ولا بد من إطعامها بسبعة؛ صاروا عشرة.. وتسرق في الشهر ما قيمته ثلاثة روبلات، صاروا ثلاثة عشر.. وغرفتها أعطيها لك، صاروا ثمانية عشر. هاك كم تكلف الطباخة! ثم إني أشتري كل شيء بالجملة؛ زبدة، نصف بود، طحين، كيس، سكر، راس، وهلم جرًّا. ومن كل هذا أكسب اثني عشر روبلًا، صاروا ثلاثين روبلًا! ولو أني كنت أخدم في مكان ما- في الشرطة، أو في البريد- لكنت اشتغلت للطباخة... أما الآن فإني لا أكلف زوجي شيئًا، ولي الفخر بهذا؛ هكذا ينبغي العيش، أيها الشاب.. تعلم!

وراحت تتطلع بخبث إلى وجه إيليا بعينين مضطرمتين، فابتسم لها؛ فقد كانت تعجبه، وتبعث لديه شعورًا بالاحترام. ففي الصباح، ساعة يستيقظ، تكون هي كالمكوك تدور في المطبخ، مع البنت الصغيرة المجدورة الصامتة، الناظرة إليها وإلى كل شيء بعينين وجلتين كامدتين. وفي المساء، ساعة يجيء إلى البيت، تفتح له الباب مبتسمة، نحيفة، نظيفة، يفوح منها عبير طيب. وإذا كان زوجها في البيت، فإنه يعزف على القيثارة، وأما هي فتصاحبه مغنية بصوت رنان، أو يلعبان بالورق، متراهنين على الخاسر بقبلة. وكان إيليا في غرفته يسمع كل شيء؛ رنة الأوتار، مرحة تارة، وعاطفية تارة أخرى، وخبط الأوراق، ووسوسة الشفاه. وقد كانت الشقة مؤلفة من غرفتين، واحدة للنوم، وأخرى إلى جانب غرفة إيليا؛ كان الزوجان يستخدمانها غرفة للطعام وغرفة للاستقبال، وفيها كانا يمضيان أمسياتهما. وفي الإصباح، كانت تنطلق من هذه الغرفة أصوات الطيور الرنانة؛ القرقف يزقزق، والنغر والحسّون يغردان، يسابق أحدهما الآخر، كأنهما يتجادلان، وعصفور الصعو يدندن ويلقلق بوقار الشيخ، ومن حين لآخر ينفذ من بين هذه الأصوات العالية ترنيم الزقيقة متفكرًا هادئًا.

كان زوج تاتيانا، كيريك نيكوديموفيتش أفتونوموف، في السادسة والعشرين من عمره، طويل القامة، ممتلئ الجسم، كبير الأنف، أسود الأسنان، وجهه الأنيس مغمور بالبثور، وعيناه عديمتا اللون تنظران إلى كل شيء بهدوء لا يؤثر فيه مؤثر، وشعره الفاتح المحلوق حلاقة قصيرة منتصب فوق رأسه كالفرشاة، وكل ملامح أفتونوموف الثقيلة تنطوي على شيء ما أخرق مضحك، كان ثقيل الحركة. ولأمر ما سأل إيليا منذ أول لقاء معه:

- هل تحب الطيور المغردة؟

- أحبها.

- وهل تصطادها؟

- كلا! - أجاب إيليا، وهو ينظر إلى رئيس المخفر بدهشة.

فجعّد هذا أنفه، وفكر قليلًا، وسأل أيضًا:

- وهل كنت تصطاد؟

- وما كنت أصطاد.

- أبدًا؟

- أبدًا.

وهنا ابتسم كيريك أفتونوموف متسامحًا، وقال:

- إذن، فأنت لا تحبها؛ ما دمت لم تكن تصطادها، أما أنا فقد كنت أصطادها، بل وبسبب هذا أخرجوني من المدرسة الحربية، وقد كان من شأني أن أصطادها الآن أيضًا، إلا أني لا أريد أن أسيء إلى سمعتي في أعين الرؤساء؛ ذلك لأنه، برغم كون الولع بالطيور المغردة هواية نبيلة، إلا أن اصطيادها تسلية لا تليق بشخص له مكانته، ولو أني كنت مكانك لاصطدت عصافير النغر، لا محالة؛ إنه لعصفور مرح، وعن النغر بالذات قيل: عصفور الآلهة.

كان أفتونوموف يتكلم، وهو ينظر إلى وجه إيليا بعينين حالمتين، أما لونيف فكان، وهو يستمع إليه، يشعر بعدم ارتياح في نفسه؛ فقد بدا له أن رئيس المخفر يتكلم عن اصطياد الطيور كلامًا مبطنًا، وأنه يلمح إلى شيء ما. ولكن عيني أفتونوموف الفاتنتين أشاعتا الطمأنينة في نفسه، وقد قرر أن رئيس المخفر رجل غير خبيث، فابتسم متأدبًا، ولاذ بالصمت جوابًا على كلام كيريك. وكان جليًّا أن هذا قد أعجب بصمت المستأجر وبوجهه الرزين، فابتسم وعرض عليه قائلًا:

- تعال اشرب الشاي عندنا في المساء، تعال وكأنك في بيتك، سنلعب بالورق، على رهان... الضيوف نادرًا ما يأتون إلينا؛ فاستقبال الضيوف لذيذ، إلا أنه لا بد من إقرائهم، ولكن هذا غير مستحب، فهو غال.

كان إيليا يزداد إعجابًا بصاحبي البيت كلما تأمل حياتهما السعيدة؛ فقد كان كل شيء لديهما نقيًّا متينًا، وكل شيء يجري بهدوء، وهما، على ما يبدو، متحابان.

وقد كانت المرأة الصغيرة النشيطة أشبه بعصفورة القرقف المرحة، وزوجها أشبه بعصفور الصعو الأخرق، والمنزل متوافرة فيه أسباب الراحة، كما في عش الطير.

وفي الأمسيات، كان لونيف يتسمع إلى حديث صاحبي البيت، وهو جالس في غرفته، فيقول في نفسه:

«هكذا ينبغي العيش..».

ويتنهد غيرة، ويروح يحلم حلمًا متزايد القوة بالوقت الذي سيفتح فيه دكانه، فتصير لديه غرفة صغيرة نظيفة، ويجيء لنفسه بطيور ويعيش لوحده، في هدوء واطمئنان، كما في المنام. ومن خلف الجدار، كانت تاتيانا فلاسييفنا تحكي لزوجها عما اشترت من السوق، وكم أنفقت وكم وفرت، وأما زوجها فيضحك ضحكة صماء، ويثني عليها قائلًا:

- يا لك من ذكية! هاتِ أقبلك.

وكان هو يحكي لزوجته عن الأحداث في المدينة، وعن الضبوط التي نظمها، وعما قال له رئيس الشرطة أو رئيس آخر، وكانا يتحدثان عن إمكانية الترقية في الوظيفة، ويبحثان مسألة ما إذا كان ينبغي تغيير الشقة عند حدوث الترقية.

كان إيليا يستمع، فيستولي عليه فجأة سأم غامض، ثقيل، ويغدو الجو خانقًا في الغرفة الصغيرة الزرقاوية، فيروح يتأملها بقلق، كأنما هو يبحث عن سبب السأم، وإذ يشعر أنه لم يعد يستطيع احتمال الرهق في صدره، يمضي إلى أولمبيادا أو يتمشى في الشوارع.

كانت أولمبيادا تسلك معه مسلكًا قائمًا على التشدد المتزايد في المطالب وعلى الغيرة، فكان غالبًا ما يتخاصم معها. وما كانت قط، أثناء الخصام، لتذكره بمقتل بولوئيكتوف، إلا أنها، في اللحظات الطيبة، كانت على سابق عهدها تقنع إيليا بنسيانه، فكان لونيف يدهش لرباطة جأشها، وقد سألها ذات مرة بعد الخصام:

- ليبا.. ما السبب في أنك، حين تخاصمين، لا تشيرين إلى العجوز ولا بكلمة؟

فأجابته من غير تفكير:

- ذلك لأن هذه المسألة لا تخصني، ولا هي تخصك؛ فما داموا لم يقبضوا عليك، فمعنى ذلك أنه هكذا كان ينبغي له. ما كنت أنت في حاجة لأن تخنقه، أنت نفسك تقول هذا. إذن فقد نال، عن طريقك، عقابه.

فضحك إيليا ضحكة تعبر عن عدم التصديق، فسألته المرأة:

- ما لك؟

- ه...كذا... كنت أقول في نفسي إن الإنسان إذا كان غير أبله، فهو غشاش حتمًا، في وسعه تبرير كل شيء وإلقاء الذنب على الجميع.

- لست أفهم. - قالت أولمبيادا، ملوحة برأسها.

- وما هو غير المفهوم؟ - سأل إيليا، متنهدًا، شائلًا بكتفيه- إنه كلام بسيط! أقول: أرني في الحياة ما يقف موقفًا ثابتًا راسخًا على الدوام، هات لي شيئًا لا يمكن لأي إنسان مفرط الذكاء أن يدينه أو يبرره.. جدي لي مثل هذا! إنك لن تجديه.. لا شيء مثل هذا في الحياة.

وبعد إحدى المخاصمات، وقد ظل إيليا أربعة أيام ممتنعًا عن الذهاب إلى أولمبيادا، تلقى منها رسالة... وفيها تقول:

«فالوداع، يا إيليوشا الحبيب، إلى الأبد، وداعًا لا لقاء لنا بعده، لا تبحث عني؛ فإنك لن تجدني. سأرحل على أول باخرة عن هذه المدينة اللعينة؛ فقد حطمت فيها روحي على مدى الحياة. إني راحلة إلى بعيد ولن أعود، فلا تفكر ولا تنتظر. لك الشكر من كل قلبي على ما بدر منك من خير، وأما الشر فلن أتذكره. ولا بد لي أن أقول لك أيضًا إني غير راحلة إلى مكان غير معين، إنما أنا ذاهبة مع

الشاب أنانين، الذي كان يتردد عليّ منذ وقت بعيد، ويتشكى من أني سأقضي عليه إذا أنا لم أوافق على الحياة معه، وقد وافقت؛ فالأمر سواء. إننا راحلان صوب البحر، إلى قرية تملك فيها أسرة أنانين مصيدة سمك. إنه بسيط جدًّا، بل يعرض -الأحمق- أننا نتكلل في الكنيسة. وداعًا. أشعر كأني كنت أراك في المنام، واستيقظت فإذا... لا شيء. لو تعلم كم ينوح قلبي! أقبلك، أنت الرجل الوحيد. لا تتكبر على الناس؛ فنحن جميعًا بؤساء. أصبحت مستسلمة، أنا صاحبتك ليبا، وإني لأسير، كأني تحت الساطور، وروحي الممزقة مريضة.

أولمبيادا شليكوفا.

أرسلت إليك بالبريد خاتمًا للذكرى، فالبسه، أرجوك. أ.ش.».

تلا إيليا الرسالة، فعض على شفته حتى أوجعها، ثم تلاها ثانية فثالثة، وفي كل مرة كان يزداد بالرسالة إعجابًا، وقد كان من المؤلم والمستطاب معًا قراءة الكلمات البسيطة المكتوبة بحروف متفاوتة، ضخمة، ما كان إيليا، في السابق، يفكر في مدى جدية حب هذه المرأة له، أما الآن فقد تبين له أن حبها له شديد متين، وقد شعر، وهو يقرأ رسالتها، بارتياح واعتزاز في قلبه. إلا أن هذا الارتياح ما لبث أن أخلى المكان للشعور بفقدان إنسان قريب إليه عزيز عليه، وها هو إيليا يقول في نفسه مكتئبًا محزونًا: إلى أين؟ إلى من يذهب الآن ساعة ينتابه الضجر والسأم؟ كانت صورة المرأة ماثلة أمام عينيه، وهو يتذكر مداعباتها المحمومة، وأحاديثها الذكية، ونكاتها، فيزداد الشعور الحاد بالحسرة واللوعة إيغالًا في أعماق صدره. وقد راح، وهو واقف أمام النافذة، مقطب الحاجبين، ينظر إلى الحديقة، حيث كانت شجيرات البيلسان تتحرك بهدوء، في غسق المساء، وأغصان البتولا الرفيعة كالخيطان، تتمايل في الجو، وخلف الجدار كانت أوتار القيثارة ترن رنينًا حزينًا، وبصوت رفيع راحت تاتيانا فلاسييفنا تغني:

فليفتش من يشاء عن ثمين الكهرمان.

وكان إيليا ممسكًا بالرسالة في يده، ويشعر بأنه مذنب مع أولمبيادا، والحزن واللوعة يشدان على صدره ويأخذان بخناقه. وانطلق الغناء من وراء الجدار:

أما لي فخاتمًا هات لي من غور بحر.

ثم راح رئيس المخفر يقهقه بصوت أجش، وأما المغنية فانطلقت تعدو إلى المطبخ، ضاحكة هي أيضًا ضحكة رنانة، وما لبثت أن سكتت. وشعر إيليا بوجود ربة البيت في مكان ما على مقربة منه، إلا أنه ما كان راغبًا في أن يلتفت لينظر إليها، مع علمه أن باب غرفته مفتوح؛ فقد كان منصرف الذهن إلى خواطره، واقفًا دون حراك، يعاني الإحساس بالوحدة وقد آلمت به. كانت الأشجار من وراء النافذة لا تزال تتمايل، أما لونيف فقد بدا له أنه منفصل عن الأرض، سابح في مكان ما في الغسق البارد.

- إيليا ياكوفليفيتش.. هل ستشرب الشاي؟ - صاحت به ربة البيت.

- كلا.

ومن وراء النافذة دوى قرع الناقوس العنيف، ولامست الرنة الكثيفة زجاج النافذة بنعومة، ولكن بقوة، فارتعشت ارتعاشًا بالكاد يسمع، فرسم إيليا إشارة الصليب، وتذكر أن قد مضى عليه وقت طويل لم يذهب فيه إلى الكنيسة، ففرح بالفرصة المتاحة له لمغادرة البيت.

- إني ذاهب لصلاة المساء. - قال إيليا وقد التفت صوب الباب. كانت ربة البيت واقفة في الباب تمامًا، مسندة يديها إلى الدفتين، وهي تنظر إليه بفضول، وقد أربكت إيليا نظرتها الثابتة، فقال كأنما يعتذر منها:

- لم أذهب إلى الكنيسة منذ وقت بعيد.

- طيب.. سأعد السماور للساعة التاسعة.

وفي الطريق إلى الكنيسة، راح إيليا يفكر بالشاب أنانين. كان يعرفه؛ إنه تاجر غني، وهو العضو الأصغر في شركة «إخوان أنانين» لصناعة السمك، فتى أشقر نحيف، شاحب الوجه، أزرق العينين، وكان قد ظهر في المدينة منذ وقت غير بعيد، وفي الحال أخذ يتعاطى المتع والملذات باندفاع شديد. وراح إيليا يفكر في أسى قائلًا في نفسه:

«هاك كيف يعيش الناس، كالبواشق... ما إن ينبت لك جناحان حتى تكون الحمامة بين يديك».

ودخل الكنيسة متهدمًا، متهيجًا بفعل خواطره، ووقف هناك في زاوية معتمة موضوع فيها سلم لإشعال الثريات.

في الجوقة اليسرى كانوا يرتلون: «يا رب.. نجنا»، وكان ثمة صبي يردد الترتيل بصراخ منفر، ممزق للآذان، عاجزًا عن مجاراة صوت القندلفت الأجش الأصم؛ فكان تنافر الترتيل يثير أعصاب إيليا، باعثًا في نفسه الرغبة في أن يشد أذني الصبي. وكان الجو في الزاوية حارًا من جراء إيقاد المدفأة، ورائحة الخرق المحروقة عابقة، وأقبلت عليه عجوز ترتدي معطفًا، فقالت له مزمجرة:

- لست واقفًا في مكانك يا سيدي.

فتطلع إيليا إلى قبة معطفها الثري، المزينة بذيل السمور، فتنحى صامتًا، قائلًا في نفسه:

«وفي الكنيسة للإنسان مكانه المحدد...».

كانت هذه أول مرة يجيء فيها إلى الكنيسة بعد مقتل بولوئيكتوف، وقد ارتعش إذ تذكر هذا، فتمتم وهو يرسم إشارة الصليب:

- يا رب.. نجنا.

وراح المرتلون ينشدون في تناسق وبأصوات عالية، وأخذت أصوات ذوي الإيقاع المرتفع، الناطقين بكلمات النشيد نطقًا جليًا، ترن تحت القبة رنينًا صافيًا حلوًا، رنين أجراس صغيرة، وأصوات القرار الجهورية تهتز اهتزاز صوت منبعث من وتر رنان، مشدود، وعلى مهاد جرْسها المتواصل، الجاري

كالساقية، كانت الأصوات العالية ترتعش ارتعاش شعاعات الشمس على مسيل ماء رائق شفاف، وكانت نغمات المقطع الجهير الكثيفة القاتمة تتموج بجلال في الهواء، داعمة ترتيل الأولاد، ومن حين لآخر كانت تنفصل سحبات التينور الحلوة القوية، ومن جديد تشع أصوات الأولاد جلية مشرقة، مرتفعة إلى غبش القبة، حيث المسيح، بملابسه البيض، يتطلع متفكرًا، باسطًا يديه بمهابة فوق المصلين. وانسكب ترتيل الكورس في حشد الأصوات وأصبح كالسحابة ساعة الغروب، حين تشتعل وردية، قرمزية، أرجوانية، في أشعة الشمس بألوانها الرائعة وتذوب في متعة جمالها.

وتوقف الترتيل، فتنهد إيليا تنهدة عميقة خفيفة. كان في حالة نفسية طيبة؛ فما كان يشعر بالتوتر العصبي الذي جاء به إلى هذا المكان، وما كان في وسعه التفكير بالإثم الذي ارتكبه. كان الترتيل يطيب نفسه ويطهرها. وإذ شعر بنفسه في مثل هذه الحال الطيبة، حار في أمره، وما صدق إحساسه، ولكنه كان يبحث في نفسه عن الندامة، فلا يجدها.

وفجأة وخزته فكرة حادة، كالإبرة:

«ماذا لو دخلت ربة البيت غرفته بدافع من الفضول، وأخذت تفتش، فوجدت الفلوس؟».

فانتفض إيليا سريعًا من مكانه، وخرج من الكنيسة، فاستدعى عربة ومضى إلى البيت. وأثناء الطريق تطورت فكرته على نحو ثابت، مثيرة له.

«وتجدها... طيب، وماذا؟ إنهما لن يفضحا الأمر، إنما سيقتصران هما بالذات على سرقتها...».

ولكن الفكرة القائلة بأنهما لن يفضحا الأمر، بل يسرقان الفلوس، قد زادت من حدة ثائرته؛ فكان يخامره الشعور بأنه إذا ما حدث هذا فلسوف يمضي إلى دائرة الشرطة في الحال، وعلى هذه العربة، فيقول إنه هو الذي قتل بولوئيكتوف. كلا، إنه لم يعد يريد مزيدًا من العذاب، والعيش في قلق واضطراب، إذ سيعيش الآخرون بالمال الذي دفع ثمنًا له إثمًا كبيرًا، عيشة مطمئنة، مريحة، نظيفة. وبعثت هذه الفكرة في نفسه حنقًا شديدًا. وإذ وصل إلى البيت، رن الجرس بعنف، وشد على قبضتيه، صارًّا بأسنانه، منتظرًا فتح الباب له.

وفتحت الباب له تاتيانا فلاسييفنا، فهتفت بخوف وهي تتطلع إليه:

- أف، كم ترن الجرس بشدة! ما لك؟ ماذا جرى لك؟

فدفعها صامتًا، ومضى إلى غرفته، ومنذ النظرة الأولى أدرك أن تخوفه كان عبثًا؛ فقد كانت الفلوس موضوعة لديه وراء إطار النافذة العلوي، وعلى الإطار كان قد ألصق ريشة صغيرة إلصاقًا خفيفًا جدًّا بحيث لا بد للريشة أن تطير من مكانها، إذا ما مس أحدهم الفلوس. ولكن ها هو ذا يرى على الإطار الأسمر بقعتها البيضاء الصغيرة.

- نعم.. متوعك.. اعذريني؛ فقد دفعتك.

- بسيطة، انتظر. كم ينبغي أن أعطي للحوذي؟

- اعملي معروفًا، ادفعي له اللازم.

فانصرفت مسرعة، أما إيليا فقفز في الحال على الكرسي، فتناول الفلوس من وراء الإطار، فدسها في جيبه، وتنفس الصعداء، وبات في خجل من قلقه، وبدت له الريشة سخيفة مضحكة، شأنها في ذلك شأن هذا كله.

وفكر قائلًا: «تصورات!»، وضحك بسخرية في أعماق نفسه. ومن جديد ظهرت تاتيانا فلاسييفنا في الباب، وراحت تقول على عجل:

- دفعت للحوذي عشرين كوبيكًا. ماذا، هل تشعر بدوار في رأسك؟

- نعم... كنت واقفًا في الكنيسة، فإذا هذا.. فجأة.

- استلق في السرير، -قالت المرأة، وهي داخلة إلى الغرفة- استلق، لا تخجل، سأقعد معك، أنا لوحدي، زوجي ذهب بمهمة، إلى النادي.

فجلس إيليا على السرير، وأما هي فعلى الكرسي، الوحيد في الغرفة.

- أزعجتك. - قال إيليا، مبتسمًا بارتباك.

- معليش. - أجابت تايانا فلاسييفنا، متطلعة إلى وجهه متفحصة، من غير تكلف. ولزما الصمت قليلًا، فما كان إيليا يعرف عم يتحدث مع هذه المرأة، أما هي فقد ظلت تتطلع إليه، وفجأة راحت تبتسم ابتسامة غريبة، فسألها لونيف وقد أخفض عينيه:

- ما لك؟

- أقول؟ - سألت متخابثة.

- قولي.

- أنت لا تحسن التظاهر والتمثيل... تلك هي المسألة.

فارتعد إيليا، ونظر بقلق إلى المرأة.

- نعم، لا تحسن. أي مريض أنت؟ لست مريضًا الإطلاق، كل ما في الأمر أنك قد تلقيت رسالة لا تسر... وقد رأيتها، رأيتها.

- نعم، تلقيت... - قال إيليا بصوت خافت وبحذر.

وانطلقت من خلف النافذة وشوشة الأغصان، وراحت المرأة تنظر من خلال زجاج النافذة نظرة ثاقبة، ثم استدارت بوجهها إلى إيليا من جديد.

- هذا ريح أو طير. هاك، يا نزيلي الطيب، أتريد الإصغاء إليّ؟ فأنا، مع كوني امرأة فتية، لست

بالغبية.

- اعملي معروفًا، تكلمي. - قال لونيف راجيًا، متطلعًا إليها في فضول.

- مزق هذه الرسالة واطرحها. - شرعت ربة البيت تقول بلهجة صارمة- فإذا كانت قد هجرتك، فقد تصرفت تصرف بنت عاقلة، نعم! وقت زواجك لم يحن، وأنت رجل لا مورد لك، والناس الذين لا مورد لهم لا ينبغي لهم أن يتزوجوا. إنك شاب معافى، وفي وسعك أن تشتغل كثيرًا، وأنت جميل... وستجد دائمًا العاشقات.

وأما أنت نفسك فتمهل في العشق؛ اشتغل، تاجر، اجمع مالًا، اسع للحصول على شغلة أكبر قليلًا، اجهد لأن تفتح دكانًا، وإذ ذاك، حين يصير لديك شيء ثابت متين، تزوج. وكل هذا متيسر لك؛ فأنت لا تشرب، وأنت متواضع، وتعيش لوحدك.

كان إيليا يصغي، مسدلًا رأسه، وفي أعماق نفسه يبتسم، ولقد كان يود لو ينطلق ضاحكًا بصوت مسموع، ضحكة عالية، مرحة.

- لا داعي للفتور والقنوط. -أردفت تاتيانا فلاسييفنا تقول بلهجة امرئ ذي خبرة وتجربة- كل حال يزول.. والحرب مرض قابل للشفاء. أنا نفسي، قبل الزواج، عشقت ثلاث مرات عشقًا كدت أن أنتحر بسببه، ومع ذلك فقد زال. وحين رأيت أن قد آن لي أن أتزوج، تزوجت دون أن يكون ثمة أي حب. وبعد ذلك أحببت...

زوجي؛ ففي وسع المرأة أحيانًا أن تعشق زوجها أيضًا.

- وكيف هذا؟ -سأل إيليا، محملقًا بعينيه، فانطلقت تاتيانا فلاسييفنا تضحك ضحكة مرحة.

- كنت أمزح... ولكني جديًا أيضًا أقول لك: يمكن أن يتزوج المرء من دون حب، وبعد ذلك يحب.

ومن جديد راحت تتكلم مزقزقة، عابثة بعينيها، وكان إيليا يستمع بانتباه واهتمام واحترام، متطلعًا إلى قامتها الصغيرة الرشيقة، إلى هذا الحد هي صغيرة، وإلى هذا الحد مرنة، وأمينة، وذكية.

وقال في نفسه: «مع مثل هذه الزوجة لن تضيع حياتك». كان ممتعًا له أن تجلس معه امرأة متعلمة، متزوجة، غير خليلة، نظيفة، نحيفة، سيدة حقيقية، فلا تتباهى أمامه بشيء، هو الإنسان البسيط، بل تخاطبه بضمير الجمع «أنتم». وقد بعثت هذه الفكرة لديه شعورًا بالامتنان لربة البيت، وحين نهضت لتنصرف، هب هو أيضًا واقفًا على قدميه، فانحنى لها، وقال:

- أشكرك جزيل الشكر على تنازلك للحديث معي... إنك قد عزيتني بحديثك.

- عزّيتك! هاك أرأيت؟ - وضحكت ضحكة خفيفة، ولاحت على خديها بقع حمر، ونظرت عيناها إلى وجه إيليا بضع لحظات نظرات ثابتة لا تريم.

- طيب.. خاطرك. - قالت بلهجة خاصة بعض الشيء، وانصرفت بخطوات خفيفة رشيقة، خطوات

فتاة.

وبات إيليا يزداد كل يوم إعجابًا بالزوجين أفتونوموف. كان يعاني الكثير من الشراسة من رجال الشرطة، أما كيريك فكان يبدو له رجلًا شغيلًا، طيبًا، ضيق الأفق محدودًا.. كان هو الجسد وزوجته الروح، وقليلًا ما كان يوجد في البيت، وقليلًا كان شأنه فيه. وكانت تاتيانا فلاسييفنا تزداد باطراد بساطة في سلوكها نحو إيليا، فباتت تطلب منه تكسير الحطب، وجلب الماء، وطرح الغسالة، وكان هو ينفذ طلباتها بطيبة خاطر، وغدت هذه الخدمات الصغيرة ملزمة له من حيث لا يشعر، وإذ ذاك استغنت ربة البيت عن البنت المجدورة قائلة لها أن تأتي أيام السبت فقط.

وفي بعض الأحيان كان يأتي ضيوف إلى بيت الزوجين أفتونوموف منهم مساعد مفوض قسم الشرطة كورساكوف، وهو رجل نحيل، طويل الشاربين، كان يضع نظارتين قاتمتين، ويدخن لفائف ثخينة، وما كان يطيق الحوذيين، فهو يتحدث عنهم دائمًا بانفعال شديد، وقد كان يعبر عن رأيه بقوله:

- ما من أحد يخل بالنظام والحشمة كالحوذي؛ إنه مثل البهائم الوقحة! في الوسع دائمًا تلقين السائر على قدميه احترام النظام في الشارع، فليس يحتاج الأمر غير أن يصدر رئيس الشرطة اللائحة: «على السائرين نزولًا في الشارع أن يتخذوا الجهة اليمنى، والسائرين صعودًا- اليسرى»، فإذا الحركة في الشوارع تغدو في الحال منضبطة. أما الحوذي فلا يتقيد بأي قواعد، الحوذي هو... هو، القرد يعرف ما هو!

كان في وسعه أن يتحدث عن الحوذيين طول السهرة، وما سمع منه لونيف قط غير هذا الحديث. وكان يجيء أيضًا غريزلوف، ناظر ملجأ للأطفال، وهو رجل صموت، ذو لحية سوداء، وقد كان مولعًا بأن يغني بصوت أجش «عبر البحر، البحر الأزرق»، أما زوجته فامرأة فارعة القوام ممتلئة الجسم، كبيرة الأسنان، كانت في كل مرة تلتهم كل ما لدى تاتيانا فلاسييفنا من حلويات، الأمر الذي كان يجعل أفتونوموفا تشتمها بعد ذهابها.

- نكاية تفعل بي هذا!

وبعد ذلك ظهرت ألكسندرا فيكتوروفنا ترافكينا مع زوجها، وهي ممشوقة، نحيفة، شقراء، غالبًا ما كانت تتمخط بشكل غريب، كأن ثمة قماشًا يمزق. أما زوجها فكان حديثه وشوشة -فهو معتلّ الحلق- إلا أنه كان يتكلم دون كلل، وكأنما في فمه قشة يابسة تخشخش. كان رجلًا منعمًا، موظفًا في مصلحة الضرائب غير المباشرة، وعضوًا في مجلس إدارة إحدى الجمعيات الخيرية، وقد كانا معًا، هو زوجته، يشتمان الفقراء، ويتهمانهم بالكذب، والطمع، وعدم الاحترام للناس الذين يريدون لهم الخير.

وقد كان إيليا، وهو جالس في غرفته، يتسمع بانتباه، ماذا يتحدثون عن الحياة؟ وكان ما يسمعه غير مفهوم لديه. كان يبدو أن هؤلاء الناس قد حلوا كل شيء، وهم عارفون بكل شيء، وحسابهم عسير لجميع الناس الذين يعيشون خلافًا لعيشتهم.

وكان صاحبا البيت يدعوان المستأجر أحيانًا لشرب الشاي، وأثناء شرب الشاي، كانت تاتيانا فلاسييفنا تمزح في دعابة ومرح، وأما زوجها فيروح يحلم بأن يحل يوم سعيد، يغتني فيه دفعة

واحدة، فيشتري بيتًا، وكان يقول غامزًا بعينيه غمزة حلوة:

- إذن لربيت دجاجًا.. من جميع الأنواع؛ براما بوثرية، وكوجنجية، وقيصرية، وديوك حبشية، وطواويس! فجميل وحق الشيطان أن تجلس قرب النافذة، لابسًا المئزر المنزلي، تدخن، وترى كيف يمشي طاووسك الخاص، فارشًا ذيله كالمظلة.. يمشي كأنه رئيس الشرطة، ويبربر، برليو، برليو!

وكانت تاتيانا تضحك ضحكة هادئة لذيذة، وتحلم هي الأخرى، متطلعة إلى إيليا:

- أما أنا فأسافر إذ ذاك إلى القرم وإلى القفقاس صيفًا، وفي الشتاء أحضر جلسات جمعية من جمعيات رعاية الفقراء، ولكنت خطت لنفسي فستانًا أسود من الجوخ، في منتهى الحشمة، غير متزينة إلا بشكلة من الياقوت وقرطين من اللؤلؤ، وقد قرأت في «نيفا»[24] أشعارًا قيل فيها إن دم الفقراء ودموعهم تتحول في العالم الآخر إلى لؤلؤ وياقوت.

-وتنهدت تنهدة خافتة، وختمت كلامها قائلة: - حجارة الياقوت تلائم ذوات الشعر القاتم ملاءمة مدهشة.

ولزم إيليا الصمت، وابتسم. كان الجو في الغرفة دافئًا، صافيًا، تعبق فيه رائحة الشاي الطيبة، وشيء ما طيب آخر. وفي الأقفاص، كانت الطيور، وقد استحالت إلى أكوام من الزغب، ركنت إلى النوم، وعلى الجدران كانت معلقة لوحات صغيرة زاهية. وفي الفراغ ما بين النافذتين منضدة صغيرة مزينة بعلب جميلة، كانت من قبل علب أدوية، ودجاجات صغيرة خزفية، وبيوض عيد الفصح الملونة. وكان هذا كله يروق لإيليا، باعثًا في نفسه حزنًا هادئًا مستطابًا.

ولكن هذا الحزن كان في بعض الأحيان -وبخاصة أيام خيبة الحظ- يتحول لدى إيليا إلى شعور منغص مضطرب، فكانت الدجاجات والعلب والبيوض تزعجه، فيود لو يطرحها أرضًا ويدوسها بقدميه. وحين كانت هذه الحالة النفسية تستولي على إيليا، كان يلتزم الصمت، ناظرًا إلى نقطة واحدة؛ خائفًا أن يتكلم فيسيء بشيء ما إلى الشخصين اللطيفين. وذات مرة، فيما كان يلعب بالورق مع صاحبي البيت، سأل كيريك أفتونوموف، وهو يحدق النظر إلى وجهه:

- وكيف، يا كيريك نيكوديموفيتش، ألم يلقوا القبض على الذي خنق التاجر في شارع دفوريانسكايا؟

طرح هذا السؤال وأحس في صدره بدغدغة لاذعة مستطابة.

- يعني بولوئيكتوف؟ - قال رئيس المخفر متفكرًا، وهو يتأمل أوراقه، وكرر في الحال: - يعني بولئيكتو-ووو-ف.. لا، لم يلقوا القبض على بولوئيكتو-ووو-ف، يعني لا بولوئيكتوف، بل ذاك الذي... أنا ما تحرّيت... لست في حاجة إليه... بل في حاجة لأن أعرف، عند من البنت البستوني؟ بست- بست- بستوني! أنت.. يا تانيا، دخلت عليّ بالثلاثة، بنت السباتي، وبنت الديناري و... ماذا أيضًا؟

- سبعة ديناري... فكر بسرعة.

- وهكذا ضاع الرجل. - قال إيليا، مبتسمًا ابتسامة مفتعلة.

ولكن رئيس المخفر لم يعره انتباهًا، وهو يفكر في الورقة التي سيرميها.

- وهكذا ضاع، - كرر كيريك.- هكذا قتل بولوئيكتو-ووو-ف.

- كيريا، كفاك مطمطة. - قالت زوجته- العب بسرعة.

- لا بد أن القاتل شاطر. - قال إيليا غير متراجع، وقد أشعل فيه عدم الانتباه لما يقول الرغبة في الكلام عن حادث القتل.

- شا... طر! - قال رئيس المخفر ماطًّا كلامه. - كلا، إنما أنا... الشاطر.. هه!

وخبط الأوراق على الطاولة بصخب، ودخل على إيليا بورقة الخمسة، ووقعت الغلبة على إيليا، وراح الزوجان يضحكان عليه، فأثاره هذا على نحو أشد، فقال معاندًا، وهو يوزع الأوراق:

- قتل رجل في رابعة النهار، وفي الشارع الرئيس في المدينة، أمر لا بد له من الجسارة.

- حظ.. لا جسارة، - قالت تاتيانا فلاسييفنا مصححة كلامه.

فتطلع إيليا إليها، فإلى زوجها، وضحك ضحكة خفيفة، وسأل:

- القتل... حظ؟

- يعني عدم الوقوع في السجن.

- من جديد أعطيتماني الأس الديناري! - قال رئيس المخفر.

- لو أنه معي. - قال إيليا بلهجة مترصنة.

- اقتل تاجرًا، تحصل عليه. - وعدته تاتيانا فلاسييفنا، وهي تفكر في الأوراق.

- اقتل تنل آسًا من الجوخ، أما الآن فخذه من كارتون. -قال كيريك، ملقيًا بتسعتين وآس، وراح يقهقه بصوت مجلجل.

ومن جديد راح إيليا يتطلع إلى وجهيهما المرحين، وزالت من نفسه الرغبة في الكلام عن حادث القتل.

وجنبًا لجنب مع هذين المخلوقين، وبينه وبين الحياة النظيفة المطمئنة عازل من جدار رقيق، كان غالبًا ما يعاني هجوم السأم المرهق. ومن جديد كانت تخطر له الأفكار عن تناقضات الحياة، وعن الله، العارف بكل شيء، إلا أنه لا يعاقب.. فماذا ينتظر؟

وبدافع من الضجر أخذ لونيف يقرأ من جديد؛ وقد كان لدى ربة البيت بضعة مجلدات من «نيفا»

و«جيفوبيسنويه أوبوزرينيه»[25]، وكذلك بضعة كتب صغيرة عتيقة.

وكما في أيام الطفولة، كان لا يروق له غير القصص والروايات التي تصور له الحياة غير المعروفة لديه، لا الحياة التي كان يعيشها، فقد كان يجد القصص عن الحياة الفعلية، عن معيشة الناس العاديين مملة وغير صادقة. وقد كانت في بعض الأحيان تضحكه، إلا أنه كان يبدو، في الأغلب، أن هذه القصص مكتوبة من قبل أناس خبثاء يريدون تجميل الحياة القاتمة الثقيلة؛ فقد كان هو يعرف هذه الحياة ويزداد معرفة بها باطراد، وأثناء تجواله في الشوارع، كان يرى في كل يوم ما يثير فيه روح الانتقاد. ولدى ذهابه إلى المستشفى، كان يقول لبافل مبتسمًا في سخرية:

- أنظمة! رأيت اليوم نجارين وكلاسين ماشين على الرصيف.. فإذا بالشرطي يصيح فجأة: «آه منكم شياطين!» ويطردهم من الرصيف.. سر حيث تمشي الخيل، وإلا فإن الخواجات سيتسخون من ثيابك القذرة... ابن لي القصر، وانحشر أنت في الجحر.

وكان بافل يتلهب هو أيضًا ويلقي إلى النار بمزيد من الوقود. كان يضوي في المستشفى، كأنه في سجن، وعيناه تشتعلان حزنًا وغضبًا، وهو يهزل، ويذوب. وما كان يعجبه ياكوف فيليمونوف، فقد كان يعتبره شبه مجنون.

أما ياكوف، وقد ظهر لديه السل، فقد كان، وهو طريح في المستشفى، يتمتع بالسعادة الكاملة، وقد عقد صداقة مع جاره بالسرير، حارس الكنيسة، الذي قطعت رجله منذ وقت قريب. وكان هذا بدينًا، قصيرًا، ذا رأس أصلع ضخم، ولحية سوداء ملء صدره. حاجباه كبيران، كأنهما شاربان، وهو يحركهما على الدوام، أما صوته فأصم، كأنما هو منبعث من بطنه. وكلما جاء إيليا إلى المستشفى كان يجد ياكوف جالسًا على سرير الحارس. هذا مستلق، يحرك حاجبيه في صمت، وياكوف يقرأ بصوت خفيض في كتاب التوراة قصير بدين، كالحارس نفسه.

كان صوت ياكوف قد ضعف وبات وقعه في الأذن كصرير المنشار إذ يقطع الخشب. وأثناء القراءة، كان يرفع يده اليسرى إلى فوق كأنما هو يدعو المرضى في المهجع للإصغاء إلى نبوءة أشعيا الغاضبة. وكانت عيناه الكبيرتان الحالمتان تسبغان على وجهه الشاحب طابعًا رهيبًا. ولدى رؤية إيليا كان يلقي الكتاب، فيسأل رفيقه بقلق عن أمر واحد على الدوام:

- أما رأيت ماشوتكا؟

وما كان إيليا يراها، فيقول ياكوف في حزن وأسى:

- يا رب! كيف جرى كل هذا؟ كأنما هو في الحكاية! كانت موجودة، فاستلبها الساحر فجأة، فإذا هي تغيب عن الوجود.

- هل كان أبوك عندك؟ - سأل إيليا.

فارتعش وجه ياكوف، وراحت عيناه تطرفان مرتعبتين.

- كان.. قال «كفاك قعودًا، اخرج»، وقد حصلت من الطبيب على وعد بألّا يخرجوني من هنا، فالحال هنا طيبة، هادئة، متواضعة. هو ذا نيكيتا إيغوروفيتش، نقرأ معًا التوراة. قضى سبع سنوات في قراءته، فهو حافظ فيه كل شيء عن ظهر قلب، وفي وسعه تفسير النبوءة. ومتى تعافيت فإني سأسكن مع نيكيتا إيغوروفيتش، وأهجر أبي. سأساعد نيكيتا إيغوروفيتش في الكنيسة وأرتل في الجوقة اليسرى.

كان الحارس يرفع حاجبيه ببطء، وفي تثاقل تدور تحتهما، في وقبين عميقين، عينان مدورتان قاتمتان، تنظران إلى وجه إيليا نظرة هادئة، منطفئة، كامدة، جامدة.

- ما أحسن هذا الكتاب.. التوراة! - صاح ياكوف، وقد ردد نوبة من السعال. - وفيه أيضًا، أتتذكر ما قاله الشارح في المطعم: «بيوت اللصوص مطمئنة»؟ موجود، أنا وجدته.. وهناك ما هو أسوأ!

وغطى عينيه بيده المرفوعة إلى فوق، وراح يتلو بصوت مهيب عن ظهر قلب:

- «هل كثيرًا ما ينطفئ قنديل الحرم وتصيبهم المصيبة وينصبهم الله الآلام في غيظه؟» هل تسمع؟ «تقول: إن الله يصون لأطفاله بؤسه؛ ليجازيه كي يعلم».

- أيمكن أن يكون هذا واردًا؟ - سأل إيليا غير مصدق.

- حرفًا بحرف.

- في اعتقادي أن هذا أمر سيئ... معصية. - قال إيليا.

وحرك الحارس حاجبيه، فحجبا عينيه، وراحت لحيته تهتز، وقال بصوت أصم غريب:

- جرأة الإنسان، الباحث عن الحقيقة، ليست معصية، إذ هي تجري بإلهام علوي.

فارتعد إيليا، أما الحارس فقد تنهد وأردف يقول ببطء أيضًا وبجلاء:

- الحقيقة نفسها توحي للإنسان: ابحث عني.. فالحقيقة هي الله، وقد قيل: «مجد عظيم إطاعة الرب».

كان وجه الحارس، المتضخم بالشعر الكثيف يوحي لإيليا بالاحترام والاستحياء؛ فقد كان في هذا الوجه شيء ما وقور وصارم.

وها هما حاجبا الحارس يرتفعان، وقد صوب عينيه إلى السقف، وراح شعر لحيته يهتز على وجهه من جديد.

- اقرأ له، يا ياشا، بداية الأصحاح العاشر من يوحنا.

فأخذ ياكوف يقلب في صمت بضع صفحات من الكتاب، وراح يتلو بصوت خافت راعش:

- «لقد سئمت نفسي حياتي. أطلق شكواي وأتكلم بمرارة نفسي. وأقول لله لا تؤثمني. أعلمني على شيء تحاكمني؟ أيحسن لديك أن تأخذ بالعسف، أن تنبذ صنعة يديك...».

ومط إيليا رقبته وراح يتطلع إلى الكتاب، وهو يطرف بعينيه.

- ألا تصدق؟ - هتف ياكوف- يا لك من ساذج!

- ليس هو بساذج بل جبان. - قال الحارس بهدوء.

وبتثاقل نقل نظرته الكامدة من السقف إلى وجه إيليا، وأردف يقول بقسوة، كأنما يريد سحقه بالكلمات:

- ثمة أقوال أشد وطأة من هذه أيضًا لدى القراءة؛ فالآية الثالثة من الأصحاح الثاني والعشرين تقول لك بصراحة: «ما رضاء الخالق من كونك صالحًا؟ وهل له منفعة من أنك تسير السراط المستقيم؟»... ولا بد من وقت طويل للفهم؛ كيلا يخطئ المرء في هذه الأقوال.

- وهل أنت... تفهم؟ - سأل إيليا بصوت خفيض.

- هو؟ - هتف ياكوف. - نيكيتا إيغوروفيتش يفهم كل شيء.

ولكن الحارس قال، مخفضًا صوته أكثر من قبل:

- فات عليَّ الأوان... ينبغي لي أن أفهم الموت؛ قطعوا رجلي، ولكن ها هي تزداد ورمًا، والأخرى تتورم، والصدر كذلك، ولسوف أموت قريبًا من جراء ذلك.

كانت عيناه تضغطان على وجه إيليا، وهو يقول في أناة وهدوء:

- ولكني غير راغب في الموت؛ ذلك لأني عشت حياة سيئة، في منغصات وأحزان، وما كان في حياتي مسرة. في صباي كنت، مثل ياشا، أعيش في كنف أبي، وكان هو سكيرًا، وحشًا... ثلاث مرات كسر رأسي، ومرة سلق رجلي بالماء المغلي. ما كان لي أم؛ ماتت وهي تلدني، وقد تزوجت، وتزوجتني زوجتي مرغمة، فما كانت تحبني.

وفي اليوم الثالث من زواجنا شنقت نفسها. وكان لزوجتي أخ، وقد نهبني، قالت لي أختي إني أنا الذي شنقت زوجتي، وكان الجميع يقولون هذا، مع أنهم كانوا يعلمون أني لم أمسسها؛ إنها كانت عذراء، وهكذا... فطست وهي في هذه الحال، وبعد ذلك عشت تسع سنوات، رهيب أن يعيش المرء لوحده! كنت أبدًا أنتظر متى ستحل المسرة، وها أنا أعاني سكرات الموت.. هذا كل شيء.

وأغمض عينيه، وصمت قليلًا، ثم سأل:

- لماذا كنت أعيش؟

كان إيليا يصغي إلى كلامه والهلع يملأ قلبه. واكفهر وجه ياكوف، واغرورقت الدموع في عينيه.

- لماذا كنت أعيش؟ أنا أسأل... هأنذا منطرح، أفكر: لماذا كنت أعيش؟

وخفت صوت الحارس، انقطع دفعة واحدة، كأن ساقية عكرة تجري على الثرى، فإذا هي فجأة تغور تحت الأرض.

- «الموجود بين الأحياء، لا يزال لديه أمل، فحالة الكلب الحي خير من حالة الأسد الميت»، - أخذ الحارس يتكلم من جديد، فاتحًا عينيه، ومن جديد راحت اللحية تهتز.

- جاء أيضًا في الجامعة[26]: «في أيام اليسر تمتع بالخير، وفي أيام البؤس تأمل؛ إن الله خلقهما لكي لا يقول الإنسان شيئًا ما خلافًا له».

فلم يعد إيليا يطيق الاستماع، فنهض بهدوء، وشد على يد ياكوف، وانحنى للحارس تلك الانحناءة الخفيضة التي يشيع بها الأموات، وقد صدر هذا عنه عفوًا.

وحمل معه من المستشفى شيئًا ما ثقيلًا على نحو جديد، وصورة ذلك الشخص الكئيبة منحفرة عميقًا في ذاكرته. قد ازدادت كمية الناس، المنغصين بالحياة، واحدًا آخر. وتذكر أقوال الحارس جيدًا وقلبها على جميع الوجوه، محاولًا فهم معانيها؛ فقد كانت تشوشه، مثيرة أعماق روحه، حيث كان يحتضن إيمانه بعدالة الله.

وقد بدا له أن الإيمان بعدالة الله قد تزعزع في نفسه ذات يوم، على نحو غير ملحوظ منه، وأنه غير وطيد كما كان من قبل؛ فقد كان ثمة ما يأكله، أكل الصدأ للحديد. وكان في صدره ما لا يجتمع ولا يتوافق، كأنه الماء والنار. وبقوة جديدة انبعثت في داخل نفسه النقمة على ماضيه، وعلى الناس جميعًا وعلى جميع أوضاع الحياة وصورها.

كان الزوجان أفتونوموف يعاملانه بلطف متزايد؛ كيريك يربت على كتفه ربت حنان وحماية، ويمازحه ويقول له بوقار:

- أنت، يا أخ، تهتم بالترهات.. فتى مثلك، متواضع، رصين، ينبغي له الانفتاح على مدى أرحب وأوسع. فإذا كانت لدى شخص الأهلية لأن يكون مفوض شرطة، فليس يليق به أن يشغل وظيفة رئيس مخفر.

وباتت تاتيانا فلاسييفنا تسأل إيليا، بانتباه وإسهاب، عن تجارته كيف تسير، وعن مقدار ربحه الصافي شهريًّا. وكان هو يتحدث معها بارتياح وطيبة خاطر، ويزداد لديه باطراد الاحترام لهذه المرأة القادرة على أن تبني من التوافه حياة نظيفة لطيفة.

وذات مساء، فيما هو جالس في غرفته قرب النافذة المفتوحة، وأنظاره متجهة إلى الحديقة، والضجر مستول عليه، تذكر أولمبيادا، فإذا بتاتيانا فلاسييفنا تجيء إلى المطبخ وتدعوه لشرب الشاي، فذهب غير مرتاح النفس؛ إذ كان يؤسفه الابتعاد عن أفكاره، وما كانت لديه رغبة في الحديث عن أي شيء. فجلس إلى مائدة الشاي مكتئبًا صامتًا، وفيما هو يلقي بنظرة إلى صاحبي البيت رأى أن وجهيهما متوقران، منشغلان بشيء ما. كان السماور يقرقر قرقرة حلوة، وأحد العصافير يضطرب في قفصه، وقد استيقظ من نومه، وكانت تعبق رائحة بصل مقلي وكولونيا. ودار كيريك على كرسيه، وراح يغني ناقرًا بأصابعه على الطاولة:

- بوم، بوم، ترو- تو- تو! ترو- تو- تو!

- إيليا ياكوفليفيتش. -بادرت المرأة تقول بلهجة خطيرة- درسنا أنا وزوجي مسألة وبودنا التحدث معك جديًّا.

- قه، قه، قه! - انطلق رئيس المخفر يقهقه، فاركًا يديه الحمراوين بشدة، فارتعد إيليا، وهو يتطلع إليه بدهشة.

- درسنا! - هتف كيريك مبتسمًا ابتسامة عريضة وأضاف قائلًا، وهو يغمز بعينه نحو زوجته:- رأس كبير عبقري!

- جمعنا قليلًا من المال، يا إيليا ياكوفليفيتش.

- جمعنا! قه، قه! يا حبيبتي!

- كفى. - قالت تاتيانا فلاسييفنا بلهجة جافة، وبات وجهها جافًّا واشتدت حدته.

- جمعنا من المال حوالي ألف روبل. - قالت بصوت خفيض، مائلة صوب إيليا، موغلة بعينيها الحادتين في عينيه.- وهذه الفلوس موضوعة في البنك، وتعطينا فائدة قدرها أربعة بالمائة.

- ولكن هذا قليل. -صاح كيريك خابطًا على الطاولة- ونحن نريد...

فأوقفته زوجته بنظرة صارمة.

- هذه النسبة المئوية للفائدة كافية لنا تمامًا، بالطبع، ولكننا نريد مساعدتك على شق الطريق لنفسك.

وأردفت تقول، بعد أن وجهت بضع كلمات مجاملة لإيليا:

- كنت تقول إن مخزن النوفوتيه يمكن أن يعطي ربحًا يبلغ العشرين بالمائة ويزيد، تبعًا لتصريف الأمور. وعلى هذا، فنحن مستعدان لنعطيك فلوسنا بموجب سند لمهلة -غب الطلب لا غير- وافتح أنت المخزن. وستقوم أنت بالمتاجرة تحت إشرافي، وأما الربح فنتقاسمه مناصفة، والبضاعة تضمنها باسمي، وعدا ذلك تعطيني بها ورقة أخرى -ورقة تافهة، ولكنها ضرورية شكليًّا، أيوه.. فكر بهذا وقل: نعم أو لا.

كان إيليا يصغي إلى صوتها الرفيع الناشف ويفرك جبينه فركًا شديدًا، وقد تطلع عدة مرات أثناء كلامها إلى زاوية تلمع فيها نقوش أيقونة إلى جانبيها شمعتا الإكليل.. وما كان في دهشة، إنما كان ينتابه شيء من الارتباك، بل ومن الخوف؛ إن هذا الاقتراح المحقق لحلمه القديم قد أذهله وبعث في نفسه المسرة، ولقد راح ينظر إلى المرأة، مبتسمًا في شرود، ويفكر قائلًا في نفسه:

«هو ذا الحظ...».

وأما هي فكانت تكلمه بلهجة الأم:

- فكر جيدًا في هذا، ابحث الأمر من جميع وجوهه.. هل في وسعك القيام به؟ هل لديك الكفاية من

القوة والمقدرة؟ ثم قل لنا أي شيء في وسعك الإسهام به في العملية، عدا الشغل؟ فأموالنا قليلة... أليس كذلك؟

- في وسعي... - شرع إيليا يقول بهدوء- أن أساهم بقرابة ألف روبل، سيعطيني إياها عمي، وربما أكثر.

- هورّا! - صاح كيريك أفتونوموف.

- إذن أنت موافق؟ - سألت تاتيانا فلاسييفنا.

- أكيد. - صرخ رئيس المخفر وراح يقول بصوت عال واهتياج، وقد دس يده في جيبه:- والآن، فلنشرب شمبانيا! وليقبض الشيطان روحي! إيليا، هيا اركض، يا أخ، إلى الحانة، واجلب شمبانيا! خذ - إنك في ضيافتنا. اسأل عن شمبانيا الدون، بتسعين كوبيكا، وقل إنها لي، لأفتونوموف... يبيعونك إياها إذ ذاك بخمسة وستين... ياللا، عج... ل!

فنظر إيليا بابتسامة إلى وجهي الزوجين المتألقين المشعين، وانصرف.

وراح يفكر؛ هو ذا الحظ، وقد كان يحطمه، ويشد عليه الخناق، ويدفع به إلى ارتكاب الإثم الكبير، ويعكر نفسه، وأما الآن فيبسم له، كأنما هو يطلب منه المغفرة، ويسايره... فأمامه الآن ينفتح درب طليق إلى زاوية من الحياة نظيفة سيعيش فيها لوحده ويطمئن روحه. كانت الأفكار تدور في رأسه جوقة مرحة، ساكبة في قلبه ثقة لا عهد له بها من قبل.

وجاء من الحانة بشمبانيا أصلية، دافعًا سبعة روبلات ثمنًا لها.

- يا سلام! -هتف أفتونوموف- هذا ترف، يا أخ! فكرة صائبة، أي نعم!

أما تاتيانا فلاسييفنا فكان لها غير هذا الموقف، فقد هزت رأسها معترضة، وقالت لائمة، وهي تتأمل الزجاجة:

- بحوالي خمسة روبلات؟ آي، كم هذا غير عملي.

وكان إيليا واقفًا أمامها، سعيدًا منفعلًا، وهو يبتسم، فقال لها، مفعمًا بالبهجة:

- أصلية.. للمرة الأولى في حياتي أشرب أصلية! أي حياة كنت أعيش؟ كلها زائفة، قذارة، فظاظة، ضيق، منغصات للقلب، أترى يمكن للإنسان أن يعيش حياة كهذه؟

ومس مكان الألم من نفسه، وأردف يقول: - منذ حداثة سني كنت أبحث عن الأصيل، ولكني كنت أعيش كالريشة في مهب الرياح... تطرحني من جهة إلى جهة، وكل شيء كان من حولي عكرًا، قلقًا، وما من مستقر. وهأنذا قد قُذف بي إليكما؛ فأرى -للمرة الأولى في حياتي- أناسًا يعيشون في هدوء، ونظافة، ومحبة.

وتطلع إليهما بابتسامة مشرقة، وانحنى لهما.

- فلكما الشكر؛ عندكما طامنت روحي... قسمًا بالله! إنكما تمدان لي يد العون على مدى الحياة.. فأنا الآن، سأمشي إلى أمام.. الآن أعرف كيف ينبغي لي أن أعيش.

كانت تاتيانا فلاسييفنا تنظر إليه نظرة القطة إلى عصفور، مأخوذة بتغريده؛ في عينيها يشع قبس أخضر، وشفتاها ترتعشان. وكان كيريك يعالج الزجاجة، ضاغطًا إياها بين ركبتيه ومنحنيًا عليها، رقبته محتقنة بالدم، وأذناه تتحركان.

وانطلقت السدادة بصوت قوي، فارتطمت بالسقف، ثم سقطت على الطاولة، ورن الكأس الذي اصطدمت به.

وراح كيريك يصب الخمرة في الكؤوس، متمطقًا بشفتيه، ثم أصدر أمره:

- تناولا.

وحين أمسكت زوجته وأمسك لونيف بكأسيهما، رفع هو كأسه فوق رأسه وصاح:

- كأس نجاح شركة «تاتيانا فلاسييفا ولونيف» -هور- رآآ!

وظل لونيف بضعة أيام يدرس مع تاتيانا فلاسييفنا تفاصيل المؤسسة العتيدة، وكانت تعرف كل شيء وتتحدث عن كل شيء بثقة يُخيل للمرء معها أنها قضت حياتها كلها في العمل بتجارة النوفوتيه. وكان إيليا يستمع إليها مبتسمًا، ويلتزم الصمت وتعتريه الدهشة. كان يود مباشرة العمل بمزيد من السرعة، فراح يوافق على جميع مقترحات أفتونوموفا، غير ممعن فيها تفكيرًا.

وتبين أن تاتيانا فلاسييفنا قد وجدت مكانًا للمخزن، وكان بالضبط مثلما كان يحلم به إيليا؛ دكانًا صغيرة، في شارع نظيف، مرفقة بغرفة للبائع. وتم التوفيق في كل شيء، في كل شيء حتى التوافه، وكان لونيف في فرح عظيم.

ومضى إلى رفيقيه في المستشفى نشيطًا مبتهجًا، وهناك استقبله بافل، مرحًا هو أيضًا، وأعلن قائلًا لإيليا قبل تبادل التحية معه:

- غدًا سأتخرج. تلقيت من فيرا رسالة، تعنفني، الشيطانة!

كانت عيناه تشعان، وخداه ملتهبان بالاحمرار، وما كان يستطيع الوقوف في مكانه، فهو يجرجر بنطوفلته على الأرض، ويلوح بيديه.

- اوعا! - قال له إيليا- كن الآن على حذر.

- أنا؟ طبعًا. سؤال؛ ممزيل فيرا... هل أنت راغبة في أن نتكلل؟ تفضلي. كلا، سكين في قلبها.

وسرى التشنج في وجه بافل وفي جسده.

- على مهلك. - قال إيليا ضاحكًا ضحكة قصيرة ساخرة- قال... سكين!

- لا، لا.. كفى، لست أستطيع العيش من دونها، كفاها حياة قذرة، ينبغي أن تكون قد شبعت؛ فأنا قد شبعت حتى لأكاد أختنق. غدًا سيتم لدينا كل شيء، إما هكذا وإما هكذا.

وراح إيليا يمعن النظر إلى وجه رفيقه، فإذا بفكرة بسيطة واضحة تلمع في رأسه، فاحمر وجهه، ثم ابتسم.

- باشوتكا[27]! وجدت سعادتي، لو تعلم؟

وتحدث لرفيقه عن الأمر باقتضاب، وأصغى إليه بافل، فتنهد قائلًا:

- ن.... نعم، لقد حالفك التوفيق.

- حالفني التوفيق إلى حد أشعر معه أمامك بالخجل... حقًّا! بوجداني أتكلم.

- وعلى هذا لك الشكر. - قال بافل مبتسمًا ابتسامة مفتعلة.

- أتعرف ماذا؟ -شرع إيليا يقول في هدوء- الواقع إني بهذا غير متبجح، إنما أقول جديًّا إني في خجل.

فتطلع إليه بافل صامتًا، وأسبل رأسه من جديد مفكرًا.

- وأود أن أقول لك... عشنا في الأسى معًا، فهيا نقتسم المسرة أيضًا.

- همم.. - همهم بافل.- سمعت أن المسرة، كالمرأة، لا يمكن اقتسامها.

- بل يمكن. استخبر أنت ما يلزم لورشة سمكري، وما المعدات والمواد، وكل شيء، وما ثمنها، وأنا أعطيك الفلوس.

- صحيح؟ - قال بافل ماطًّا كلامه، غير مصدق، فأمسك لونيف بيده بحرارة وقوة وراح يشد عليها.

- أنت ساذج.. سأعطيك.

ولكن احتاج إلى كثير من الوقت لإقناع بافل بجدية ما ينتويه، وأما هذا فقد ظل يلوح برأسه، ويهمهم، ويقول:

- هذا لا يحدث له مثيل.

وأخيرًا أقنعه لونيف، وإذ ذاك عانقه هو بدوره، وقال له بصوت راعش أصم:

- شكرًا.. يا أخ! إنك تنتشلني من الهاوية، ولكن، إليك ماذا؛ الورشة لا أريدها، أيوه، يضرب الورشات القرد! أنا أعرفها، أنت أعطني الفلوس، فآخذ أنا فيرا وأرحل من هنا. وهكذا يكون الأمر عليك أنت أيضًا أيسر -إذ سآخذ فلوسًا أقل- ولي أنسب؛ سأرحل إلى مكان ما وأعمل أنا نفسي في ورشة.

- هذه سخافة! - قال إيليا- الأفضل أن تكون رب عمل.

- يا لي من رب عمل؟ - هتف بافل بمرح- كلا، إدارة العمل وما إلى ذلك، لا تتفق ونفسيتي؛ التيس لا يصير خنزيرًا مهما تقمص.

لم يفهم لونيف بجلاء موقف بافل من إدارة العمل، إلا أنه استطابه لأمر ما، فقال بدعابة ومرح:

- صحيح أنك شبيه بالتيس؛ معروق هزيل مثله. أتعرف، إنك أشبه بالإسكافي بيرفيشكا... حقًّا! فتعال غدًا وخذ الفلوس للمدة الأولى، ما دمت ستبقى من دون شغل. وأما أنا فذاهب الآن إلى ياكوف. كيف حالك مع ياكوف هذا؟

- لسنا... نوعًا ما... متفاهمين. - قال غراتشيف ضاحكًا ضحكة قصيرة.

- إنه بائس... - قال إيليا ساهيًا.

- ولكن هذا نصيب الكثيرين جدًّا. - أجاب بافل شائلًا بكتفيه- لا أزال أعتقد أنه غير متزن العقل، مختل.

وحين فارقه إيليا صاح به وهو واقف وسط الممشى:

- شكرًا، يا أخ.

فابتسم إيليا وحياه بإيماءة من رأسه.

ووجد ياكوف في كآبة وحزن، كان مستلقيًا على السرير ووجهه إلى السقف، يتطلع إلى فوق بعينين محملقتين، فما لاحظ كيف وصل إيليا إليه.

- أيوه، شيء مليح. -لاحظ إيليا مستحسنًا- إنه رهيب جدًّا.

فنظر إليه ياكوف نظرة لائمة، وراح يسعل.

- أما تتحسن صحتك؟

- ن...نعم! - أجاب ياكوف متنهدًا- حتى المرض لا أوفق بأن أنال منه قدر ما أريد... أمس جاء أبي من جديد، قال إنه اشترى بيتًا، ويريد فتح مطعم آخر، وكل هذا...

على رأسي.

كان إيليا راغبًا في أن يبعث بفرحه البهجة في نفس فريقه، إلا أن شيئًا ما كان يعيقه عن الكلام.

كانت شمس الربيع الزاهية تطل بحنان من النافذة، إلا أن جدران المستشفى الصفراء كانت تبدو أشد اصفرارًا، وفي ضوء الشمس كانت تبرز على الجص بقع لا تعرف ماهيتها، وشقوق، وثمة مريضان، جالسان على السرير، يلعبان الورق، يخبطانها في صمت، ورجل مديد القامة، نحيل،

يتمشى في المهجع في سكينة، مطأطئًا رأسه المضمد. وكان الهدوء سائدًا، رغم أن سعالًا مخنوقًا كان يصل إلى السمع من مكان ما، وفي الممشى تتجرجر بنطوفلات المرضى. كان وجه إيليا الشاحب خاليًا من الحياة، وعيناه تنظران نظرات حزينة، وقد راح يقول بصوت أجش:

- إيه، لو أني أموت! هأنذا أفكر وأنا مستلق؛ الموت أمر يثير الاهتمام. - وانقطع صوته وازداد خفوتًا- ملائكة الرحمة... تستطيع الإجابة عن كل شيء، وإيضاح كل شيء...- وصمت بعض الوقت، مرفرفًا بعينيه، وراح يتتبع أشعة الشمس الشاحبة وهي تتراقص على السقف، منعكسة من شيء ما. - أما رأيت ماشوتكا؟

- ل... لا. لا يدخل في رأسي شيء.

- لم يدخل في قلبك؟

فسكت لونيف مرتبكًا.

وتنهد ياكوف وراح يقلب رأسه على الوسادة مضطربًا.

- ها هو نيكيتا إيغورويتش لا يريد، إلا أنه يموت... مساعد الطبيب قال لي إنه يموت. وأما أنا فأريد، ولكني لا أموت... سأتعافى، فأذهب من جديد إلى المطعم، دون جدوى لأحد.

وانفرجت شفتاه عن ابتسامة كئيبة، وتطلع إلى رفيقه بنظرة غريبة بعض الشيء، وشرع يقول من جديد:

- لكي يعيش المرء في هذه الحياة، ينبغي أن يكون له جنبان من حديد، وقلب من حديد.

وفي كلمات ياكوف شعر إيليا بشيء غير ودي، وجاف، فاكفهر وجهه.

- وأما أنا فمثل الزجاج بين الحجارة؛ ألتفت، فإذا ثمة كسر.

- أنت تحب التشكي! - قال لونيف بشكل غامض.

- وأنت؟ - سأل ياكوف.

فأدار إيليا ظهره، ولاذ بالصمت. وإذ شعر بعد ذلك أن ياكوف غير معتزم الكلام، قال وعليه سيماء التفكير:

- الحال ثقيلة على الجميع، لنأخذ بافل، مثلًا.

- لست أحبه. - قال ياكوف مقطبًا وجهه.

- وما السبب؟

- هكذا... لا أحبه.

- إيه.. ينبغي لي أن أذهب.

فمد ياكوف يده صامتًا، وعلى نحو مفاجئ قال راجيًا، حزينًا، بصوت كصوت المتسول:

- استخبر عن ماشوتكا، آ؟ إكرامًا للمسيح.

- طيب. - قال إيليا.

وتنفس الصعداء، وهو منصرف، وقد بعث فيه رجاء ياكوف بالاستخبار عن ماشا ما يشبه الخجل من موقفه حيال بنت بيرفيشكا، فقرر أن يمر على ماتيتسا التي تعرف، في الراجح، كيف حال ماشوتكا.

ومضى في اتجاه مطعم فيليمونوف، ولكن الأحلام عن المستقبل راحت تنبثق في نفسه الواحد إثر الآخر. كان المستقبل يبسم له، وفيما هو منشغل بالأفكار عنه، مر بالمطعم غير متلفت إليه، دون أن يلحظ ذلك، إلا أنه حين أدرك هذا لم تعد في نفسه رغبة في العودة. وخرج إلى ضاحية المدينة؛ كان الحقل منبسطًا رحبًا، يحيط به من بعيد جدار الغابة المظلم، والشمس تميل إلى الغروب، وعلى العشب الأخضر اليافع دثار من إشعاع وردي. كان إيليا يسير رافعًا رأسه، يتطلع إلى السماء، إلى بعيد، حيث السحب المعصفرة، الواقفة فوق الأرض من دون حراك، تتلهب في أشعة الشمس. وكان المسير ممتعًا له؛ فكل خطوة إلى أمام، وكل جرعة من الهواء، تلد في نفسه حلمًا جديدًا. وقد راح يتصور نفسه غنيًّا، ذا سطوة، مدمرًا لبتروخا فيليمونوف، بل لقد تم له تدميره، وها هو بتروخا يقف أمامه باكيًا، وأما هو، إيليا لونيف، فيقول له:

«تريد مني أن أشفق عليك؟ ولكن أكنت أنت تشفق على أحد؟ ابنك أنت، أما كنت تعذبه؟ وعمي أنا أما جررته إلى ارتكاب المعصية؟ وأنا أما كنت تسخر مني؟ بيتك اللعين لم يكن أحد سعيدًا فيه، ولا رأى أحد فيه مسرة، بيتك الفاسد سجن للناس».

ويرتعد بتروخا ويغدو في هلع منه، وفي حالة يرثى لها، كأنه المتسول. وأما إيليا فيهدر قائلًا له:

«سأحرق بيتك لأنه مصيبة على الجميع. وأما أنت فاسرح في الأرض، واطلب الرحمة ممن أسأت إليهم؛ اسرح حتى الموت، وافطس جوعًا، كالكلب!».

وغمر الحقل غسق المساء، وباتت الغابة بعيدًا متماسكة السواد، كأنها الجبال. وفي الجو كان وطواط يتلامح بقعة سوداء، دون حس، وكأنما هو الذي ينثر الظلام. وبعيدًا، في النهر، كان يسمع خبط دواليب باخرة في الماء، فكان يخيل للمرء أن طائرًا ضخمًا يطير في مكان ما بعيد، وأن جناحيه الواسعين هما اللذان يلطمان الهواء بخفقات جبارة. وراح لونيف يتذكر جميع الناس الذين كانوا ينغصون عيشه، وينزل العقاب بهم جميعًا، دون رحمة. ونتيجة لهذا بات يشعر بمزيد من المتعة والارتياح... ولوحده وسط الحقل، والظلمة تطوقه من كل جانب، انطلق يغني بصوت خفيض.

ولكن ها هي ذي رائحة الزبل النتنة الفاسدة تعبق في الجو، فيكف إيليا عن الغناء؛ فقد أيقظت هذه الرائحة في نفسه ذكريات حلوة. وجاء إلى المكان الذي تطرح فيه نفايات المدينة، إلى الحفرة التي كان ينبش فيها مع الشيخ إيرميا، وانتصبت في ذاكرته صورة اللمّام العجوز. وتلفت إيليا حوله

محاولًا التعرف في العتمة إلى المكان الذي كان الشيخ يحب أن يرتاح فيه معه، ولكن هذا المكان لم يكن له وجود؛ لا بد أنه قد طمر بالقمامة. فتنهد إيليا، وشعر أن في نفسه أيضًا شيئًا ما قد انطمر بالقمامة، وفجأة خطر له خاطر، فقال في نفسه:

- لو أني لم أخنق التاجر، لكان في وسعي أن أعيش الآن عيشة حلوة تمامًا..»، ولكن صوتًا انطلق من قلبه على إثر ذلك، كأنما ثمة شخصًا آخر يجيب: «وما التاجر؟ إنه شقائي، لا معصيتي...».

وانطلقت ضجة؛ فقد انزلق كلب صغير من تحت قدمي إيليا واختفى نابحًا نباحًا خافتًا، وارتعد إيليا؛ فكأن قسمًا من ظلمة الليل قد ردت إليه الحياة أمامه، ثم تلاشى وهو ينوح. ولاح لذهنه خاطر يقول:

«الأمر سواء... ومن دون التاجر ما كان لقلبي أن يكون في طمأنينة؛ فكم رأيت من إساءات لنفسي، وللآخرين! وإذا كان القلب طعينًا، فالألم سيستمر فيه على الدوام...».

كان يتمشى ببطء على حافة الحفرة، وقدماه تغوصان في الأوساخ، وقطع الأخشاب تطقطق تحتهما، والأوراق تخشخش؛ وها هي ذي قطعة غير مردومة من الأرض تبرز في الحفرة تلة ضيقة، فمضى إلى تلك التلة، وحين بلغ طرفها الحاد، جلس هناك مسدلًا رجليه من حافتها. كان الهواء هنا أصفى، وفيما كان إيليا يلقي بنظرة إلى الحفرة بطولها، رأى على البعد رقعة النهر الفولاذية. وعلى سطح الماء، الجامد كالجليد، كانت أنوار سفن غير مرئية ترتعش في هدوء، ويتحرك أحدها في الجو، كأنه طير أحمر. وثمة نور آخر، أخضر، كئيب، يلتهب جامدًا، من دون شعاع... وكان شدق الحفرة الواسع تحت قدمي إيليا مليئًا بالظلمة الحالكة، والحفرة كالنهر تجري فيها أمواج الهواء الأسود. وغمرت الكآبة قلب لونيف؛ فقد كان ينظر إلى الحفرة ويفكر قائلًا في نفسه: «كانت حالي الآن حسنة...

وابتسمت، ثم... تلاشت...»، وتذكر كيف كان ياكوف يتكلم معه اليوم بلهجة غير ودية، فزاده هذا اكتئابًا... وضج شيء ما في الحفرة؛ لا بد أن كتلة من التراب قد انهارت، ومط إيليا عنقه، ونظر إلى تحت، إلى العتمة... ففاحت في وجهه رطوبة الليل، فألقى بنظرة إلى السماء. كانت ثمة نجوم مشتعلة وجلة، ومن وراء الغابة ترتفع بأناة كرة القمر الكبيرة الحمراوية، كأنها عين هائلة. وكما كان الوطواط يرتفع في الغسق قبل وقت قليل من هذا، كذلك كانت الأفكار والذكريات القاتمة تتلامح بسرعة في خاطر إيليا؛ تظهر وتنمحي دون جواب، والعتمة في أعماق نفسه تزداد حلوكة.

ولقد ظل وقتًا طويلًا جالسًا يفكر، ناظرًا إلى الحفرة حينًا، وإلى السماء حينًا آخر. وأطل نور القمر على عتمة الحفرة فكشف في سفحها عن شقوق عميقة وشجيرات، وكانت الشجيرات تلقي على الأرض ظلالًا شوهاء، وما كان في السماء غير النجوم والقمر. وابترد الجو، فنهض إيليا، وسار في الحقل على هُدى أنوار المدينة، وهو يرتعش من نداوة الليل، وما عادت لديه رغبة في التفكير بشيء؛ فقد كان صدره إذ ذاك زاخرًا باللامبالاة الباردة وبالفراغ الكئيب الذي كان يراه في السماء، حيث كان الله موجودًا من قبل.

ووصل إلى البيت في ساعة متأخرة، فوقف أمام الباب مستغرقًا في التفكير، متضايقًا من أن يدق الجرس. ما كان في النوافذ نور، فصاحبا البيت، إذن، نائمان. وكان يستحي أن يزعج تاتيانا

فلاسييفنا؛ فهي التي كانت تفتح الباب دائمًا... ولكن لا بد مع ذلك من دخول البيت. فهز لونيف ساعد الجرس بخفة، وفي الحال تقريبًا، انفتح الباب، وانتصبت أمام إيليا قامة ربة البيت النحيفة، بثيابها الداخلية.

- أغلق الباب بسرعة! - قالت بصوت لا عهد لإيليا به- الجو بارد... وأنا خالعة ثيابي... وزوجي غير موجود.

- عفوًا. - دمدم لونيف.

- كم أنت متأخر! من أين أنت آت، آ؟

وأغلق إيليا الباب والتفت لكي يجيب، فإذا به يواجه صدر المرأة، وما ارتدّت عنه، بل كأنما راحت تزداد به لصوقًا، وما كان في وسعه هو أيضًا أن يرتدّ؛ فقد كان الباب من ورائه، وأما هي فراحت تضحك، ضحكة خفيفة، راجفة. فرفع لونيف يديه، وحط راحتيهما بحذر على كتفيها، وأخذت يداه ترتعشان بدافع من الوجل حيال هذه المرأة ومن الرغبة في معانقتها. وإذ ذاك تطاولت هي نفسها، فضمت عنقه بساعدين رقيقين متلهبين، وقالت بصوت ذي رنين:

- أين تدور في الليالي؟ ولماذا؟ عندك من هي أقرب.. يا حبيبي.. يا حلو.. يا قوي.

وراح إيليا، كأنما هو في حلم، يتلقى قبلاتها اللاهبة ويترنح بفعل تشنجات جسدها اللدن، وظلت هي تقبله، متشبثة بصدره كالقطة، وتناولها بساعدين شديدين، فحملها إلى غرفته ومضى بها في خفة، كأنه طائر في الهواء.

واستيقظ إيليا صباحًا وفي نفسه هلع.

كان يفكر متسائلًا: «كيف سأنظر الآن إلى عيني كيريك؟»، وبالإضافة إلى الخوف من رئيس المخفر، كان يشعر بالخجل منه.

«لو أني كنت غاضبًا على هذا الرجل، أو لو أنه ما كان يروق لي، ولكني أسأت إليه من دون داع... ولا سبب»، - هكذا كان يفكر بقلق، وفي نفسه يسري شيء ما غير طيب حيال تاتيانا فلاسييفنا. كان يبدو له أن كيريك سيحس، لا محالة، بخيانة زوجته.

«وما الذي دعاها لأن تلقي بنفسها عليّ، كالجائعة؟»- راح يسائل نفسه بارتباك شديد، ويشعر في الوقت نفسه بدغدغة حب الذات تدب في قلبه؛ فقد اهتمت به امرأة حقيقية، نظيفة، متعلمة، متزوجة.

«إذن، فأنا أنطوي على شيء خاص- وانبعثت في خاطره فكرة رضى عن النفس- عيب.. عيب... ولكني لست من حجر! وما كان يصح لي أن أطردها...».

كان في ريعان الشباب؛ فتذكر مداعبات هذه المرأة، هذه المداعبات ذات السمة الخاصة بعض الشيء، التي لم يكن له بها عهد من قبل. وكان رجلًا عمليًّا؛ فخطر له عفويًّا أن هذه العلاقة قد توفر له كثرة من شتى أسباب الراحة، ولكن أفكارًا أخرى، عقب هذه، تواردت عليه في سحابة دكناء:

«من جديد أوقعت نفسي في موقف حرج، أكنت أنا راغبًا في هذا؟ الواقع أني كنت أحترم هذه المرأة، أبدًا لم تخطر لي بشأنها فكرة خبيثة... وهاك ما حدث...».

ولكن كل ما في نفسه من اضطراب، وجميع ما فيها من تناقضات، غطت عليها فيما بعد فكرة بهيجة مآلها أن حياة حقيقية، نظيفة، ستبدأ الآن بالنسبة له، عما قريب. ومن جديد انبثقت الفكرة الحادة القائلة:

«على أن من الأفضل لو أن هذا لم يحدث...».

وتعمد عدم مبارحة السرير حتى يذهب أفتونوموف إلى الوظيفة، فكان يسمع رئيس المخفر كيف يقول لزوجته متمطقًا بشفتيه في شهية:

- اطبخي على الغداء برگًا، يا تاتيانا، أكثري فيها من لحم الخنزير واقليها على النار هادئة؛ حتى تنظر إليّ من الصحن، يا حبوبة، نظرة الخنانيص.. مم-آ! وزيدي، يا نور عيني، من البهارات!

- أيوه.. أيوه، رح.. كأني لا أعرف ذوقك! - قالت له زوجته بلطف.

- نور عيني، يا تاتيانا، اسمحي لي بقبلة.

وارتعد إيليا لدى سماع رنة القبلة، فقد كان ذلك مقيتًا لديه ومضحكًا.

- تشيك.. تشيك.. تشيك.. - انطلقت هذه الأصوات من أفتونوموف وهو يقبل زوجته، أما هي فكانت تضحك، وما إن أغلقت الباب خلف زوجها حتى نطت في الحال إلى غرفة إيليا، فوثبت إليه على السرير، صائحة بمرح:

- قبلني بسرعة، فليس عندي وقت.

فقال لها إيليا متجهمًا:

- ولكنك كنت الآن تقبلين زوجك.

- م... ماذا؟ هكذا تخاطبني[28]؟ إنه غيران.

-هتفت المرأة بارتياح، وقفزت من السرير ضاحكة، وراحت تسدل الستائر على النافذة، قائلة:- غيران... حسن هذا.. الذين يغارون يحبون بحرارة.

- ليس هذا مني بدافع من الغيرة.

- اسكت. -أمرت تاتيانا فلاسييفنا متخابثة، وقد أغلقت بيدها فمه.

وبعد ذلك، حين ارتويا من القبل، لم يستطع إيليا إلا أن يقول لها، وهو ينظر إليها مبتسمًا:

- إنك لجريئة، مغامرة حقيقية، تحت أنف زوجك، تقومين بمثل هذا!

فشع في عينيها الخضراوين بريق من السخرية، وقالت:

- بل إنه لأمر عادي جدًّا، وليس فيه ألبتة أي شيء خارق! أتراك تحسب أن ثمة نساء كثيرات لا يتعاطين الغراميات؟ ليس غير القبيحات والعليلات... أما النسوة الحلوات فيشتهين دائمًا ممارسة حكايات الغرام.

وظلت الصباح بكامله تعلّم إيليا، راوية له بمرح مختلف الحكايات عن خداع النسوة للأزواج، كيف يجري. كانت تحوّم في المطبخ كالطائر، في مهارة وخفة، لابسة مريلة وبلوزة قصيرة حمراء، مشمرة أكمامها، تعد البرك لزوجها، وصوتها الرنان يكاد لا ينقطع عن الانسياب إلى غرفة إيليا.

- هل تحسب - الزوج- يكفي للمرأة؟ الزوج يمكن أن يكون غير مستطاب إلى حد بعيد، حتى وإن يكن محبوبًا، ثم إنه هو أيضًا لا يجد أبدًا حرجًا في أن يخون زوجته إذا هو وقع على واحدة يمشي حالها... وممل للمرأة أيضًا ألَّا تتذكر في حياتها كلها غير واحد... الزوج، الزوج، الزوج! فالتفكه برجل آخر مجلبة للتسلية؛ تعرف الواحدة أنواع الرجال الموجودين، وما الفرق بينهم. فالواقع أن الكفاس[29] أيضًا مختلف الأنواع؛ الكفاس العادي، والكفاس البافاري، والعرعري، والعلّيقي، بل من السخف ألَّا يشرب المرء دائمًا غير الكفاس.

كان إيليا يصغي، ويشرب الشاي، ويخيل إليه أن الشاي يكتسب طعمًا مرًّا؛ فقد كان في أقوال هذه المرأة شيء صارخ غير مستطاب الوقع، جديد عليه. وعلى نحو عفوي، تذكر أولمبيادا، وصوتها الرصين، وتصرفاتها الهادئة المطمئنة، وكلماتها الحارة، التي ترن فيها القوة المؤثرة في القلب. أجل، كانت أولمبيادا امرأة غير متعلمة، بسيطة. ولعلها لهذا كانت، حتى في انعدام حيائها، أكثر بساطة. ولقد كان إيليا، وهو يستمع إلى تاتيانا، يضحك على غير رغبة منه؛ كان غير منشرح النفس، وإنما كان يضحك لأنه ما كان يعرف عم يتكلم وكيف يتكلم، ولقد قال أخيرًا، وعلى وجهه سيماء التفكير:

- ما كنت أتوقع أن تكون في حياتكم النظيفة أحوال مثل هذه!

- الأحوال، يا حبيبي، واحدة في كل مكان. الأحوال يصنعها الناس، والناس جميعًا يريدون شيئًا واحدًا؛ يريدون أن يعيشوا عيشة حلوة؛ في اطمئنان، وشبع، وارتياح، ومن أجل هذا لا بد من امتلاك المال، والمال يُنال إما بالوراثة أو إما بالتوفيق، ومن يملك أوراقًا رابحة يكن في وسعه الأمل بالتوفيق. المرأة الجميلة تملك ورقة رابحة من الطبيعة؛ هي جمالها. وبالجمال يمكن نوال الكثير، أووه! وأما من ليس لديه أهل أغنياء، وأوراق رابحة، وجمال، فلا بد له من الكد والجهد.

والكد طول الحياة أمر ينغص النفس... وها أنا أكد وأجهد رغم أني أملك ورقتين، ولكني قررت رصدهما لك في المخزن... الورقتان شيء قليل.. وطبخ البرك وتقبيل رئيس المخفر على نمشه أمر ممل مضجر! وها أنا قد اشتهيت تقبيلك.

ورمقت إيليا بنظرة وسألته متخابثة:

- أما تشمئز من هذا؟ لماذا تنظر إليَّ هذه النظرة الغاضبة؟

وأقبلت عليه، فحطت يديها على كتفيه، وراحت تتطلع إلى وجهه بفضول، فقال لها إيليا:

- لست غاضبًا.

فانطلقت تقهقه، صائحة من خلال ضحكها:

- نعم؟ أخّ... ما أطيبك!

- إني أفكر، - أردف إيليا يقول لافظًا كلماته بهدوء - إنك تتكلمين وكأن كلامك هو الصدق، ولكنه كلام غير حسن نوعًا ما.

- يا سلام! يا لك من... قنفذ! وما هو غير الحسن؟ أيوه، أوضح؟

ولكنه ما كان يستطيع إيضاح شيء؛ فما كان يدرك هو نفسه ما الذي لا يرضيه في أقوالها. كانت أولمبيادا تتكلم كلامًا أشد فجاجة إلى حد بعيد، ولكنها ما كانت تجرح القلب هذا الجرح الأليم، شأن هذه العصفورة الصغيرة، النظيفة. وقد ظل طول النهار يمعن التفكير بالامتعاض الغريب الذي تولد في قلبه من هذه العلاقة الممتعة له، وما كان في وسعه أن يدرك ما مبعثه؟

وحين عاد إلى البيت، استقبله كيريك في المطبخ، فأعلن في مرح:

- أيوه، اليوم طبخت تانيوشا أي طبخة! المرء إذا أكل هذه البرك يأسف ويخجل، كما يخجل إذا أكل بلابل حية... وأنا، يا أخ، قد تركت حتى لك أنت صحنًا، فانزع المخزن من رقبتك، واجلس فتناول طعامك، واعرف من نحن.

فتطلع إليه إيليا بنظرة تنطوي على الشعور بالذنب، وضحك ضحكة خافتة، قائلًا:

- شكرًا.

ثم أضاف، بعد أن تنهد:

- إنك لرجل طيب... والله!

- أي، ما هذا؟ - هتف كيريك ملوحًا بيده متنحيًا عنه- صحن برك... لا يستحق الذكر.. كلا، يا أخ، لو أني كنت رئيس شرطة- هم! - إذ ذاك كان يمكنك أن تقول لي شكرًا... أي نعم. ولكني لن أصير رئيس شرطة، وسأترك الخدمة في الشرطة، يبدو أني سأشتغل وكيلًا لدى أحد التجار، هذا أحسن قليلًا. وكيل! هذا... وجيه؟!

كانت زوجته منهمكة بالشغل قرب الموقد، وهي تدندن بأغنية، فتطلع إليها، فشعر من جديد بالحرج والضيق. ولكن هذا الشعور زال من نفسه تدريجيًّا تحت دفق انطباعات أخرى ومشاغل جديدة. وما كان لديه في هذه الأيام من مجال للتفكير؛ فقد انهمك كثيرًا في تنظيم المخزن وشراء البضاعة. ومن يوم لآخر، وعلى نحو غير ملحوظ من قبله، ألف هذه المرأة، وقد كانت، كعشيقته، موضع الإعجاب المتزايد لديه، رغم أن مداعباتها كانت تبعث في نفسه على الدوام الخجل، بل والمخافة منها. ولقد

كانت هذه المداعبات، مع أحاديثها، تقضي شيئًا فشيئًا على ما كان في نفسه من احترام لها. ففي كل صباح، بعد أن تشيع زوجها الذاهب إلى الوظيفة، أو في المساء، حين كان يذهب بالنوبة، كانت تدعو إيليا إليها أو تأتي هي إلى غرفته وتروح تحكي له مختلف الحكايات اليومية. وكانت هذه الحكايات كلها بسيطة جدًّا، وكأنما كانت تجري في بلاد آهلة بالغشاشين المحتالين من الجنسين، وهؤلاء الغشاشون جميعًا يسيرون عراة، وأما متعتهم الحبيبة فهي الزنا.

- أيمكن أن يكون هذا صحيحًا؟- كان يسال إيليا؛ فما كان يود تصديق أقوالها، إلا أنه كان يشعر في نفسه بالعجز حيالها، وما كان في وسعه أن يدحضها. أما هي فكانت تقهقه وتقدم له البراهين، وهي تقبله:

- لنبدأ من فوق؛ المحافظ يعاشر زوجة مدير المالية، والمدير خطف منذ وقت قريب زوجة أحد موظفيه، واستأجر لها شقة في زقاق «الكلاب»، وهو يأتي إليها على المكشوف تمامًا مرتين في الأسبوع. وأنا أعرفها؛ فهي بنيّة تمامًا، لم يمض عام على زواجها. وأما زوجها فقد أرسلوه مفتش ضرائب إلى أحد الأقاليم، وهو أيضًا أعرفه... أي مفتش هذا؟ نصف متعلم، مغفل، ذليل النفس.

كانت تحكي له عن التجار، الذين يشترون البنات القاصرات للعهر والفسق، وعن زوجات التجار اللواتي يحتضنّ العشاق، وعن آنسات المجتمع الراقي، اللواتي يحبلن ويجهضن.

وكان إيليا يستمع، فتبدو له الحياة أشبه بحفرة قاذورات يتخبط فيها الناس كالديدان، فيقول متعبًا:

- تفو! ولكن قولي هل للطاهر، الحقيقي، وجود في مكان ما؟

- أي حقيقي؟! -سألت المرأة مندهشة- عن الحقيقي أنا أتكلم... عجيب! فما اخترعت أنا نفسي كل هذا!

- أنا... لست بصدد هذا.. بالفعل، هل ثمة في مكان ما شيء ما حقيقي، طاهر، أم لا؟

فكانت لا تفهمه، فتضحك. وأحيانًا كان حديثها يتخذ طابعًا آخر، فقد كانت تسأله، وهي تحدق في وجهه بعينين خضراوين تقدحان شررًا رهيبًا:

- قل لي كيف عرفت للمرة الأولى ما هي المرأة؟

كان إيليا يخجل من هذه الذكرى، ويشمئز، فكان يتحول عن نظرة عشيقته المتشبثة به، ويقول بصوت أصم وبلهجة تأنيب:

- تسألين عن مثل هذه القذارات... حريّ بك أن تستحي.

ولكنها كانت تلتصق به من جديد، ضاحكة بمرح، وكان لونيف يشعر في بعض الأحيان، وهو إلى جانبها، بأنه ملطخ بكلماتها الفاحشة، تلطخ المرء بالقطران.

وحين كانت ترى الامتعاض منها في وجه إيليا، والأسى في عينيه، كانت تبادر بجرأة إلى إيقاظ

أحاسيس الذكورة فيه وتصقل بمداعباتها ما في نفسه من عداوة لها.

وذات مرة، إذ كان إيليا عائدًا إلى البيت من المخزن، حيث كان النجارون يقيمون الرفوف، اعترته الدهشة؛ إذ رأى ماتيتسا في المطبخ. كانت جالسة قرب الطاولة، واضعة عليها يديها الكبيرتين، تتحدث مع ربة البيت الواقفة قرب الموقد، وقد قالت له تاتيانا فلاسييفنا، مشيرة برأسها في ابتسامة إلى ماتيتسا:

- هذه المدام تنتظرك... منذ مدة طويلة.

- مساء الخير. - قالت المدام، ناهضة عن المقعد بتثاقل.

- أف! - قال إيليا بدهشة- لا تزالين حية؟

فأجابته ماتيتسا قائلة باكتئاب:

- حتى الخنازير تعاف المعلف القذر.

لم يكن إيليا قد رأى ماتيتسا منذ وقت بعيد، فراح إذ ذاك ينظر إليها بمزيج من السرور والأسف. كانت ترتدي فستانًا مخرّقًا من البازان، وعلى رأسها شال حائل اللون من القدم، وأما قدماها فحافيتان، وقد جرتهما بالكاد جرًّا على الأرض، مستندة بيديها إلى الجدران، فدخلت ببطء إلى غرفة إيليا، وجلست على الكرسي ثقيلة الوطأة، قائلة بصوت صافر متخشب:

- قريبًا أفطس... رجلاي ستتعطلان، بل ستنقطعان، لم يعد في وسعي البحث عن طعام، وإذ ذاك سيدركني الموت.

كان وجهها متنفخًا بصورة رهيبة، مغمورًا تمامًا بلطخات قاتمة، وعيناها الضخمتان قد تورمتا وباتتا ضيقتين.

- ما لك تتطلع إلى سحنتي؟! - قالت لإيليا- تظن أني مضروبة؟ كلا، إني مصابة بمرض.

- كيف حالك؟ - سألها إيليا.

- أطلب الإحسان على أبواب الكنائس.- دندنت ماتيتسا بغير مبالاة، بصوت كأنه صادر عن بوق- جئتك لأمر من الأمور، عرفت من بيرفيشكا أنك تسكن في بيت موظف، فجئت...

- أأقدم لك شايًا؟ - اقترح إيليا، وقد كان يزعجه سماع صوت ماتيتسا والنظر إلى جسدها المهترئ، الجسيم، المترهل، المقبور وهو حي.

- فلتغسل الشياطين أذنابها بشايك... إنما أعطني خمسة كوبيكات، ولكن اسأل لماذا جئت إليك؟

كانت تتكلم بصعوبة، وتتنفس تنفسًا قصير المدى، وتفوح منها رائحة خانقة.

- لماذا؟ - سأل إيليا معرضًا عنها، متذكرًا كيف أساء إليها ذات مرة.

- هل تتذكر ماشا؟ أصبحت متخومًا فنسيت! صرت من الأغنياء.

- ماذا... كيف حالها؟ - سأل إيليا مستعجلًا.

فراحت ماتيتسا تهز رأسها ببطء، وقالت باقتضاب:

- لم تشنق نفسها بعد.

- ولكن تكلمي على المكشوف! -صاح إيليا مغضبًا- لماذا توبخينني؟ أنت نفسك بعتها بثلاثة روبلات.

- لست أوبخك... إنما أوبخ نفسي. -قالت المرأة معترضة بهدوء، وراحت تتحدث عن ماشا لاهثة.

الزوج العجوز يغار على ماشا ويعذبها، لا يسمح لها بالذهاب إلى أي مكان، حتى إلى الدكان، وماشا تقعد في الغرفة مع الولدين، ولا تستطيع -بغير استئذان العجوز- حتى الخروج لقضاء الحاجة. وقد أعطى العجوز الولدين لأحد الأشخاص، وبات يعيش لوحده مع ماشا. وهو يهينها ويزدري بها لأن زوجته الأولى قد خانته. والولدان -كلاهما- ليسا منه. وقد هربت ماشا منه مرتين، ولكن الشرطة أعادتها إلى زوجها، وأما هو فراح يشدد عليها الخناق ويميتها جوعًا.

- أي نعم، لقد رتبتما الشغلة أنت وبيرفيشكا. - قال إيليا عابس الوجه.

- كنت أظن أن هذا أحسن، - تمتمت المرأة بصوت متخشب.- وكان ينبغي عمل الأسوأ... كان ينبغي بيعها إذ ذاك لأحد الأغنياء؛ إذن لكان أعطاها شقة وملابس وكل شيء، ولكانت طردته فيما بعد وعاشت، فكثيرات يعشن هكذا، من وراء الشيوخ.

- طيب، لماذا جئت؟ - سأل إيليا.

- أنت ساكن عند شرطي، وهم دائمًا يلقطونها، فقل له ألَّا يلقطوها، فلتهرب؛ لعلها تهرب إلى مكان ما... أفليس للإنسان من مهرب؟

فراح إيليا يفكر، ماذا بوسعه أن يفعل من أجل ماشا؟

ونهضت ماتيتسا عن الكرسي، محركة رجليها بحذر، وتمتمت قائلة:

- وداعًا. قريبًا سأفطس، فشكرًا لك، يا نظيف! يا غني!

وحين اندلقت خارجة من باب المطبخ، هرعت ربة البيت إلى غرفة إيليا فسألته ضاحكة وهي تعانقه:

- أهذا حبك الأول... هه؟

فنزع إيليا ساعدي عشيقته، المتشبثتين بعنقه تشبثًا شديدًا، ودمدم في عبوس:

- بالكاد تجر قدميها، ولكنها، تهتم بمن تحب.

- ومن تحب؟ - سألت المرأة، وهي تتطلع إلى وجه إيليا المهموم بدهشة وفضول.

- اصطبري، يا تاتيانا -قال إيليا- اصطبري.. لا تمزحي.

وحكى لها عن ماشا باقتضاب، وسألها:

- ما العمل في هذا الأمر؟

- لا مجال هنا لعمل شيء. -أجابت تاتيانا فلاسييفنا مرخية كتفيها- فالمرأة، بموجب القانون، تابعة لزوجها، وليس يحق لأحد انتزاعها منه.

وبوقار امرئ، عارف بالقوانين معرفة جيدة ومقتنع بعدم قابليتها للتغير، راحت تاتيانا تقول لإيليا، إن على ماشا أن تخضع لمطالب زوجها.

- فلتصطبر، إنه عجوز، وعما قريب يموت، وإذ ذاك تصير حرة طليقة، وتؤول إليها جميع أملاكه، وتتزوج أنت الأرملة الصبية الثرية... أيوه؟

وانطلقت تضحك، واستطردت من جديد تعلّم إيليا:

- على أنه سيكون من الأفضل أن تقطع علاقاتك مع معارفك القدامى؛ فما هم الآن بأنداد لك، بل قد يشوشون عليك؛ فهم جميعًا قذرون، أجلاف.. مثلًا، ذاك الذي كان يأخذ منك الفلوس؟ ذلك النحيل؟ ذو العيون الخبيثة؟

- غراتشيف!

- أي نعم... تلك الكنى العصفورية المضحكة التي يكنى بها التافهون من الناس؛ غراتشيف، لونيف، بيتوخوف، سكفورتسوف، حتى الكنى في وسطنا أحسن وأجمل؛ أفتونوموف! كورساكوف! وكنية أبي فلوريانوف! وحين كنت بنتًا، كان يغازلني غلوريانتوف، المرشح لوظيفة قضائية، وذات مرة، في ساحة التزلج، نزع ربطة ساقي وهدد بإثارة فضيحة إذا لم أجئ بنفسي إليه لكي آخذها.

كان إيليا يستمع إلى حكاياتها ويتذكر ماضيه هو أيضًا، وهو يحس داخل نفسه بخيوط غير مرئية تربطه ربطًا وثيقًا بدار بتروخا فيليمونوف. ولقد كان يبدو له أن هذه الدار ستحول دائمًا بينه وبين الحياة في هدوء وطمأنينة.

وأخيرًا تحقق حلم إيليا لونيف.

وقد كان، والفرحة الهادئة تملأ جوانحه، يقف من الصباح حتى المساء خلف منضدة مخزنه، ويتعشقه، ومن حوله، تتبخر العلب والمجامع على الرفوف، مرتبة بأناقة، وقد أقام في النافذة معرضًا وضع فيه شكلات لمّاعة، وجزادين، وصابون، وأزرارًا، وشرائط زاهية معلقة، ودانتيلا. وكان هذا كله متألقًا بهيجًا. وكان، وهو الرزين الجميل، يستقبل المشترين بانحناءة متأدبة وينثر أمامهم البضائع ببراعة على المنضدة.. وفي وسوسة الدانتيلا والشرائط كان يسمع موسيقى مستعذبة، والبنات العاملات في الخياطة، اللواتي كن يتقاطرن ليشترين من عنده ببضع كوبيكات، كن يترائين له جميلات لطيفات. وباتت الحياة مستطابة، هيّنة، وصار لها معنى بسيط جليّ، وأما الماضي فكأنما

بات خلف ستار من الضباب. وما كان ثمة ما ينصرف إليه التفكير غير التجارة، والبضاعة، والمشترين. وقد أخذ إيليا صبيًّا للخدمة لديه، فألبسه سترة رمادية وراح يسهر باهتمام على أن يغتسل الغلام بعناية، ويكون على أوفى نصيب ممكن من النظافة، وقد كان يقول له:

- نحن، يا غافريك، نبيع بضاعة ناعمة، فعلينا أن نكون نظيفين.

وغافريك هذا مخلوق له من العمر قرابة اثني عشر عامًا، ممتلئ الجسم، مجدور قليلًا، أفطس، ذو عينين صغيرتين رماديتين، ووجه ينم عن الحيوية. كان قد تخرج لتوه من المدرسة الابتدائية فهو يعتبر نفسه امرأً راشدًا رزينًا. وقد استطاب هو أيضًا الخدمة في المخزن الصغير النظيف؛ فكان ينهمك بالعلب والمجامع في غبطة وارتياح، ويجهد لأن يكون مسلكه حيال المشترين متأدبًا، كمسلك صاحب المخزن.

وكان إيليا يتطلع إليه، متذكرًا نفسه في حانوت السمك، لدى التاجر ستروغاني، فكان يشعر بميل خاص إلى الصبي، ويروح يمازحه ويحادثه بلطف، حين تخلو الدكان من المشترين. وقد كان ينصح معاونه قائلًا:

- لكي لا تمل، يا غافريك، اقرأ في كتاب، حين لا يكون لديك شغل، فالوقت، حين يقرأ المرء في كتاب، يمر دون أن يشعر به، وقراءة الكتب ممتعة للنفس.

ولقد بات لونيف يسلك حيال الناس جميعًا مسلكًا أنيسًا مجاملًا، ويبتسم ابتسامة يخيل للمرء أنها تقول:

«أنا، يا هؤلاء، قد واتاني الحظ، فعليكم بشيء من الصبر. وقد يواتيكم الحظ أنتم أيضًا، عما قريب...».

كان يفتح مخزنه في الساعة السابعة صباحًا، ويغلقه في التاسعة مساء، وكان المشترون غير وافري العدد، فكان لونيف يجلس على كرسي قرب الباب، فيستدفئ بأشعة شمس الربيع ويستريح غير مفكر بشيء ولا متمنيًا شيئًا. وهناك أيضًا، في الباب، كان يجلس غافريك، فيراقب المارة، ويقلدهم، ويستدعي إليه الكلاب، ويقذف بالحجارة الحمائم والغربان، أو يقرأ في كتاب، وهو ينشق بأنفه. وكان رب العمل يحمله أحيانًا على القراءة بصوت مسموع، إلا أن القراءة ما كانت تروق له؛ فقد كان يصيخ بسمعه إلى السكينة والهدوء في نفسه، وكان يستمع إلى هذه السكينة بغبطة، ويسكر بها؛ إذ كانت جديدة عليه وممتعة إلى درجة لا توصف. ولكن الكفاية العذبة كانت تتعكر أحيانًا بشيء ما، وكان ذلك حدسًا بالقلق غريبًا، بالكاد يدرك، وما كان يزعزع النفس الهادئة، بل يمسها مسًّا خفيفًا، كأنه الظل.

وإذ ذاك كان إيليا يبادر إلى الحديث مع الصبي:

- غافريك.. بم يشتغل أبوك؟

- موزع بريد، يحمل رسائل.

- وعائلتكم كبيرة؟

- كبيرة! نحن كثيرون، بعضنا كبار، وبعضنا لا يزالون صغار.

- وكم عدد الصغار؟

- خمسة، والكبار ثلاثة... الكبار جميعًا يشتغلون؛ أنا عندك، وفاسيلي في سيبيريا، موظف في التلغراف، وأما سونكا فتعطي دروسًا، إنها شيء عظيم! تجلب بالشهر حوالي اثني عشر روبلًا. وهناك أيضًا ميشكا... إنه بين بين، هو أكبر مني، يدرس في الثانوية.

- إذن فالكبار أربعة، لا ثلاثة.

- كيف؟! - قال غافريك متعجبًا، وأضاف بلهجة الواعظ الحكيم:- ميشكا لا يزال يدرس فقط، والكبير، إنما هو من بات يشتغل.

- وهل تعيشون عيشة فقر؟

- طبعًا. - أجاب غافريك بهدوء ونشق الهواء بأنفه نشقة عالية الصوت، ثم راح يحكي لإيليا عن خططه للمستقبل.

- أكبر، فأذهب للجندية، فتنشب إذ ذاك حرب، فأروح إلى الحرب. إني جسور، وقدّام الجميع أقذف بنفسي على العدو، فأنزع العلم، هكذا نزع عمي العلم، فقدم له الجنرال غوركو وسامًا وخمسة روبلات.

كان إيليا يبتسم وهو ينظر إلى الوجه المجدور والأنف العريض، الدائم الارتعاش. وفي المساء كان إيليا يغلق مخزنه، فيمضي إلى الغرفة الصغيرة، وراء المنضدة.

وهناك يكون السماور قد بات يغلي على الطاولة، وقد أعده الصبي، والخبز واللحم المقدد موضوعان عليها. وكان غافريك يشرب كأس شاي مع الخبز ويذهب فينام في المخزن، أما إيليا فيظل جالسًا خلف السماور وقتًا طويلًا، ساعتين متواليتين أحيانًا.

كان أثاث مسكن إيليا الجديد يتألف من كرسيين، وطاولة، وسرير، وخزانة تحتوي على الأواني والصحون، وكانت الغرفة ضيقة، واطئة السقف، ذات نافذة مربعة ترى منها أرجل المارة من قربها، وسطح البيت القائم في الجهة المقابلة من الشارع، والسماء من فوق السطح. وقد علق على النافذة ستارة بيضاء من الشاش، وكانت النافذة مرتجة من ناحية الشارع بقضبان متشابكة من الحديد، وكان إيليا شديد المقت لها. وأما فوق السرير، فقد علق لوحة «درجات العمر البشري»، وقد كانت هذه اللوحة تروق لإيليا، والرغبة في شرائها كانت قديمة لديه، إلا أنه لأمر ما لم يشترها قبل فتح المخزن، مع أن سعرها عشرة كوبيكات فقط.

كانت «درجات العمر البشري» مرصوفة على شكل قوس، ومن تحته صورة الجنة. وفي الجنة يقف الرب، محاطًا بهالة من نور وزهور، وهو يتحدث مع آدم وحواء. كانت الدرجات كلها سبع عشرة،

على الأولى منها يقف طفل تسنده أمه، وقد كتب من تحتها بأحرف حمراء: «الخطوات الأولى»، وعلى الثانية يقرع الطفل على الطبل وهو ينط ويقفز، وقد كتب تحتها: «خمس سنوات... إنه يلعب»، وفي الواحدة والعشرين من عمره يقف على الدرجة وبين يديه بندقية وعلى وجهه ابتسامة، وقد كتب تحتها «يخدم في الجيش»، وعلى الدرجة التالية يكون في الخامسة والعشرين؛ يلبس الفراك ويحمل بيده قبعة أنيقة وبالأخرى باقة زهور- «برسم الزواج»، ثم تنبت له لحية، ويرتدي ردنكوتًا طويلًا ويضع ربطة عنق وردية اللون، وهو واقف بجانب امرأة سمينة عليها فستان أصفر، يشد على يدها بقوة، وفيما بعد يتم الرجل الخامسة والثلاثين؛ عليه قميص، مشمر الكمين، وهو واقف أمام سندان، يطرق الحديد. وفي أعلى السلم، يجلس في مقعد وثير أحمر، يقرأ جريدة، وأربعة أولاد وامرأة يستمعون إليه، وهو نفسه، وكذلك أسرته، عليهم ثياب لائقة، نظيفة، ووجوه الجميع معافاة مرتاحة؛ إنه إذ ذاك في الخمسين من العمر. ولكن ها هي ذي درجات السلم تنحدر؛ لحية الرجل قد اشتعلت شيبًا، وعليه قفطان طويل أصفر، وبين يديه كيس من ورق يحتوي على سمك وإبريق فيه شيء ما، وقد كتب تحت هذه الدرجة: «الشغل المنزلي»؛ وعلى الدرجة التالية يرعى الرجل حفيده، وفي الأسفل من ذلك «يقودونه»، ذلك أنه قد بلغ الثمانين، وفي الدرجة السفلى يكون في العام الخامس والتسعين من مولده، وإنه لجالس في المقعد، واضعًا رجليه في التابوت، وخلف مقعده يقف الموت حاملًا بيده المنجل.

كان إيليا، وهو جالس خلف السماور، يتطلع إلى اللوحة مستطيبًا النظر إلى حياة الإنسان، وقد وضعت لها هذه المقاييس الدقيقة البسيطة. وقد كانت اللوحة توحي بالطمأنينة، وألوانها الزاهية تبتسم، كأنما هي على ثقة ويقين من أن الحياة الحقة قد رسمت بها رسمًا حكيمًا، كما هي بالضبط، وكما ينبغي لها أن تجري، لتكون أمثولة للناس. ولقد كان لونيف، وهو يتأمل هذا التصوير لحياة الإنسان، يفكر في أنه قد بلغ ما كان يتمنى، وأن حياته لا بد لها الآن أن تجري بالدقة، كما هي الحياة المرسومة على اللوحة. فلسوف ترتفع إلى القمة، وعلى القمة بالذات، حين سيكون قد جمع الكفاية من المال، سيتزوج بفتاة متواضعة متعلمة.

كان السماور يبقبق ويصفر في اكتئاب، ومن خلال زجاج النافذة وشاش الستارة، كانت السماء تطل في شحوب على وجه إيليا، والنجوم فيها بالكاد تراها العين.

وأن في نجوم السماء أبدًا لشيئًا ينم عن القلق.

السماور يصفر صفيرًا خافتًا، إلا أنه حاد، وهذا الصوت الرفيع ينفذ إلى الأذنين، أشبه بطنين البعوض، فيقلق ويشتت الأفكار، ولكن إيليا لا يود أن يغلق مدخنة السماور بالغطاء؛ فحين يكف السماور عن الصفير، يغدو السكون في الغرفة أكثر مما ينبغي، وقد ظهرت لدى لونيف في المنزل الجديد أحاسيس لا عهد له بها حتى ذلك الحين؛ فمن قبل كان يعيش دائمًا مع الناس، تفصله عنهم حواجز رقيقة من خشب، أما الآن فتفصله جدران من حجر ما كان يشعر بوجود بشر من ورائها.

«لماذا ينبغي للمرء أن يموت؟» - تساءل لونيف فجأة، وهو ينظر إلى الإنسان الهابط من ذروة السعادة إلى القبر... وتذكر ياكوف فيليمونوف، الدائم التفكير بالموت، وقول ياكوف: «إن الموت أمر يثير الاهتمام».

وبصورة لاشعورية يدفع لونيف عنه بهذه الذكريات، ويحاول الانصراف عنها إلى جهة ما، فيَرِد على خاطره سؤال جديد لا داعي له:

«ترى كيف حال بافل مع فيرا؟».

وتمر في الشارع عربة، فيرتعد زجاج النوافذ من ضجة العجلات على حجارة الجادة، ويهتز المصباح، ثم تنطلق في المخزن أصوات غريبة؛ إنه غافريك يدمدم في نومه، ويخيل للعين أن الظلمة الكثيفة في زوايا الغرفة تترنح هي أيضًا. وإيليا جالس، مستندًا بكوعيه على الطاولة، يتطلع إلى اللوحة، ضاغطًا براحتيه على صدغيه، إلى جانب الرب يقف أسد وقور، وعلى الأرض تزحف سلحفاة، ويجري غرير، وتنط ضفدعة، وأما شجرة معرفة الخير والشر فمزدانة بزهور ضخمة، حمراء كالدم، والعجوز الذي رجلاه في التابوت أشبه بالتاجر بولوئيكتوف، أصلع نحيل مثله، ورقبته رفيعة كرقبته. وينطلق في الشارع وقع خطوات أصم؛ ثمة من يمشي على الرصيف، قرب المخزن، على مهل. وانطفأ السماور، وباتت الغرفة إذ ذاك في سكون يحسب المرء معه أن الهواء أيضًا قد تجمد فيها وأصبح كثافة جدرانها.

لم يكن تذكر التاجر مبعث تخوف لدى إيليا، وما كانت الأفكار على العموم مصدر قلق لديه؛ إنما كانت تربك نفسه في رفق وتوقّ، مغشية إياها، كما تغشي السحابة القمر. ومن جرائها كانت ألوان لوحة «درجات العمر البشري» تكمد بعض الشيء؛ وكأنما تظهر عليها لطخة. وقد كان لونيف، كلما فكر بمقتل بولوئيكتوف، يقول في نفسه إثر ذلك إن الحياة لا بد أن تكون فيها عدالة، وإذن فلا بد للمرء إن عاجلًا أو آجلًا، أن يلقى العقاب على معصيته، إلا أنه، وهو على هذا النحو، كان يتأمل الزوايا المظلمة من الغرفة، حيث السكون شديد، وحيث يخيل للمرء أن الظلمة توشك أن تتخذ شكلًا ما محدودًا... وبعد ذلك كان إيليا يخلع ملابسه، ويستلقي في السرير، ويطفئ المصباح، وما كان يطفئه دفعة واحدة، بل كان يعمد أولًا إلى إدارة البرغي المحرك للفتيل، صعودًا وهبوطًا؛ فكان النور في المصباح يتلاشى طورًا ويظهر من جديد طورًا آخر، والعتمة تقفز حول السرير، منقضة عليه من جميع الجهات، ومرتدة في قفزتها إلى زاوية الغرفة من جديد. وكان إيليا يتتبع الموجات السود غير المحسوسة كيف تحاول أن تغمره، ويظل يعبث هكذا وقتًا طويلًا، متلمسًا العتمة بعينين محملقتين، كأنما يتوقع أن تقع نظرته فيها على شيء ما... وأخيرًا يتلاشى النور، بعد أن يرتعش لآخر مرة، وبلحظة تغمر الظلمة الغرفة كلها، وكأنما هي تترنح غير متمكنة بعد من الهدوء إثر صراعها مع النور. وإذا كانت الليلة مقمرة، تساقطت على الطاولة وعلى أرض الغرفة ظلال سوداء من القضبان الحديدية خلف النافذة. وكان يحل في الغرفة سكون متوتر يخيل للمرء معه أنه إذا ما تنفس بشدة فلسوف يرتعد فيها كل شيء. وكان لونيف يلتحف بالبطانية على نحو محكم، ويغطي رقبته بعناية، ويروح يتأمل غسق الغرفة، ووجهه مكشوف، إلى أن يتغلب عليه النوم. وفي الصباح يستيقظ متنشطًا، مطمئنًا، يكاد يكون في خجل من تذكر سخافات الأمس. وكان يشرب الشاي مع غافريك ويتأمل مخزنه كأنما هو شيء جديد. وأحيانًا، كان بافل يجيء إليه بعد شغل، مغمورًا بالوسخ والشحم، لابسًا قميصًا محرّقًا، ووجهه أسود من السخام؛ فقد كان يشتغل من جديد في ورشة سنكري، ويجرجر معه طنجرة تحتوي على قصدير، وأنابيب من رصاص، وأدوات لحام، وقد كان على الدوام يستعجل الذهاب إلى البيت، أما إذا راح إيليا يقنعه بأن يجلس قليلًا، فقد كان يقول مبتسمًا بارتباك:

- لا أستطيع. أنا، يا أخ، أشعر كأن في بيتي طاووسًا، والقفص ضعيف عليه؛ أيامًا بكاملها تقعد هناك لوحدها، فمن يدري بم تفكر؟ أصبحت حياتها كالحة، وإني لأفهم هذا جيدًا... لو كان ثمة ولد.

ويتنهد غراتشيف تنهدة عميقة، وقد قال لرفيقه ذات مرة متجهمًا:

- جلبت الماء كله لحاكورتي، ولكني أخشى الغرق.

ومرة أخرى، جوابًا عن سؤال إيليا عما إذا كان ينظم الشعر، قال غراتشيف وقد ضحك ضحكة قصيرة مفتعلة:

- أتراني أكتب بأصبعي على السماء... إيه! فليذهب الشِّعر للقرد! من أين لنا بالحساء من طبخ الحذاء! مركبي، الآن، يا أخ، جانح. ما من شرارة في الرأس، ولا شُرَيْرَة! تفكيري منصرف إليها على الدوام... أشتغل - أبدأ باللحام- فإذا الأحلام بها تظل تجري في الرأس، كأنها القصدير. هاك القصائد... هه-هه! مفروغ منه أن المجد لمن يهب كل نفسه، كلها... أي نعم، إن الوضع ثقيل عليها.

- وعليك؟ - سأل إيليا.

- وعليّ... ثقيل من جراء هذا... قد اعتادت المرح... تلك هي المسألة؛ تظل دائمًا تحلم بالمال، تقول: «لو أحصل على مال من مكان ما؛ لانقلب كل شيء دفعة واحدة... إنما أنا مغفلة؛ كان عليّ أن أنهب تاجرًا من التجار...» على العموم، تقول أشياء سخيفة، بدافع من الشفقة عليّ... أنا فاهم... الوضع ثقيل عليها.

واعترى القلق بافل فجأة، فهرب.

وغالبًا ما كان الإسكافي يمر على إيليا بأطماره البالية متأبطًا الهارمونيكا التي لا تفارقه، فيروح يحكي عن الأحداث في بيت فيليمونوف، وعن ياكوف. كان بيرفيشكا يسند نفسه إلى باب المخزن هزيلًا، قذرًا، أشعث الشعر، فيبتسم ابتسامة تغمر وجهه بكامله، ويلقي بنكاته.

- بتروخا تزوج، وزوجته مثل الشمندرة، أما ابنها فمثل الجزرة؛ حاكورة كاملة، أقسم بالله! زوجة سمينة، قصيرة، حمراء، لها سحنة من ثلاثة طوابق، لهذه المرأة ثلاث ذقون، أما الفم فواحد على كل حال. لها عينان كعيني الخنزير الأصيل؛ صغيرتان لا تريان لفوق، وابنها أصفر، طويل، له نظارتان. أرستقراطي! اسمه سافا، يتكلم من منخريه. إذا كان برفقة أمه فهو يحسن الكلام، أما بغيابها فثرثار أبله... زمرة، يا سلام! أما ياشوتكا[30] فإن له الآن هيئة يبدو معها كأنما يتمنى لو يجد شقًّا يندس فيه، على شاكلة الصرصور الخائف. يشرب، يا عيني، على النصت، ويسعل بكل ما فيه من قوة. أكيد أن أباه قد ضربه وأتلف كبده كثيرًا! إنهم ينكدون عيشه تنكيدًا. والفتى رخو، وسيلتهمونه بسهولة... عمك بعث برسالة من كييف.. في رأيي أنه عبثًا يسعى؛ فالأحدب لا يُسمح له بدخول الجنة، على ما أعتقد! أما ماتيتسا فقد تعطلت رجلاها كليًّا؛ وهي تركب عربة. استأجرت أعمى على أساس المناصفة، فهي تكدنه على العربة وتسوقه كالحصان...

يا للنكتة المضحكة! تعيش على كل حال، إنها لامرأة طيبة، والحق يقال! ولو لم تكن عندي تلك

الزوجة المدهشة، لكنت تزوجت ماتيتسا هذه بالذات، من كل بد.

أقول بصراحة: ليس في الدنيا كلها غير امرأتين عن حق وحقيق، غير زوجتي وماتيتسا، أقولها من صميم القلب... أكيد إنها سكّيرة، ولكن الإنسان الطيب سكير دائمًا.

- وماشوتكا؟ - سأله إيليا مذكرًا.

وما كان يذكر الإسكافي بابنته حتى تتلاشى لديه النكات والابتسامات، كأنما هبت الريح على شجرة فانتزعت أوراقها الخريفية اليابسة، ويتطاول وجهه الأصفر، ويقول بصوت مضطرب خافت:

- لست أعرف شيئًا عنها، خرينوف قال لي بصراحة: «ولا تمر عليّ، وإلا ضربتها فشوهتها» تكرم علي، يا إيليا ياكوفليفيتش، لشراء نصف زجاجة فودكا أو ربع زجاجة.

فقال له إيليا بأسف:

- إنك تقضي على نفسك، يا بيرفيلي.

- أقضي على نفسي نهائيًّا؛- قال الإسكافي موافقًا بهدوء- لا بد أن يأسف عليَّ كثيرون حين سأموت؛ -أردف يقول بلهجة واثقة- ذلك لأني مخلوق مرح، أحب إضحاك الناس؛ فهم جميعًا في تأوه وتحسر، ومعصية وتضرع إلى الله، أما أنا فأغني لهم وأضحك. إذا أنت ارتكبت المعاصي من أجل فلس تموت، أما من أجل ألف فتفطس، والشياطين سيعذبون الجميع على السواء، فعلى الإنسان أن يعيش على الأرض مرحًا.

وينصرف ضاحكًا، مازحًا، ساخرًا، أشبه ببلبل هرم منتوف الريش، فيشيعه إيليا بابتسامة ملوحًا برأسه، ويشعر بأنه يشفق على بيرفيشكا، فيدرك أن هذه الشفقة لا داعي لها، ويرى أنها مزعجة له. كان الماضي غير بعيد وراء لونيف، فكلما تذكره انبعث في نفسه شعور قلق. كان أشبه برجل حل به التعب، فخلد إلى الراحة يغفو إغفاءة حلوة، فإذا بذباب الخريف يطن فوق أذنيه طنينًا مزعجًا فيمنع عنه الراحة. وقد كان إيليا، حين يتحدث مع بافل أو يستمع إلى حكايات بيرفيشكا، يبتسم في عطف، هازًّا برأسه، منتظرًا انصرافهما. وكان يحزنه أحيانًا ويضايقه سماع أحاديث بافل، وفي تلك اللحظات كان يعرض عليه المال مستعجلًا ملحًّا، ويقول باسطًا يديه:

- بأي شيء غير هذا أستطيع مساعدتك؟ لو أن الأمر لي لنصحتك بأن تترك فيرا.

فيقول له بافل بهدوء:

- لست أستطيع تركها، إنما يترك ما لا حاجة إليه. أما هي فإني بحاجة إليها، إنهم ينتزعونها مني انتزاعًا، تلك هي القضية. قد لا أكون أحبها روحيًّا، بل حنقًا وغيظًا. إنها في حياتي كل نصيبي الزهيد من السعادة. أفيعقل أن أتخلى عنها؟ وماذا يبقى لي، لن أرضى... يكذبون! أقتل، ولا أتخلى عنها.

وغمرت وجه غراتشيف الجاف بقع حمر، وشد قبضتيه بقوة، فسأله إيليا وعلى وجهه سماء التفكير:

- وهل تلاحظ أن ثمة من يترددون عليها؟

- هذا غير ملحوظ.

- فمن تعني بقولك: ينتزعونها؟

- ولكن ثمة قوة تود انتزاعها من بين يديّ... إيه، يا للشيطان! أبي هلك بسبب المرأة، وظاهر أنه قد أورثني هذه القسمة ذاتها.

- لا حيلة في اليد لمساعدتك. - قال لونيف وشعر لدى هذا القول بشيء من الارتياح. ولقد كانت شفقته على بافل أشد مما هي على بيرفيشكا، وحين كان غراتشيف يتكلم بغيظ، كان صدر إيليا أيضًا يغلي بالغيظ على شخص ما. ولكن العدو المسيء، العدو الذي كان ينغص حياة بافل، لم يكن ظاهرًا للعيان، إنما كان عدوًّا مجهولًا. ومن جديد، كان لونيف يشعر بأن غيظه لا داعي له هو أيضًا، كما لا داعي للشفقة ولمعظم مشاعره نحو الآخرين. كانت هذه كلها مشاعر نافلة، لا طائل تحتها. وأما بافل فيقول عابس الوجه:

- أنا عارف... مساعدتي أمر غير مستطاع.

ثم يتابع قائلًا بيقين صارم مشؤوم، وهو ينظر إلى وجه رفيقه:

- ها أنت قد لطوت إلى زاوية، فاقعد في أمان، ولكني أقول لك إن ثمة من لا ينام الليل وهو يفكر بوسيلة للإطاحة بك من هنا... لطردك.. سيطردونك وإلا، فإنك أنت نفسك ستنفض يدك من كل شيء.

فقال إيليا، ضاحكًا:

- لا تتوقع هذا، لن أنفض يدي.

ولكن غراتشيف ظل متمسكًا برأيه، وراح يقنعه بإصرار، ناظرًا إلى وجه رفيقه نظرة ثاقبة:

- أما أنا فأقول لك ستنفض يدك؛ فليس لديك المزاج الذي يؤهلك للقعود كول حياتك هادئًا في شق مظلم. أغلب الظن أنك إما أن تغرق في السكر أو تبدد ثروتك، فيحدث لك شيء ما.

- ولماذا؟! - قال لونيف مندهشًا.

- هكذا، الحياة المطمئنة لا تتلاءم معك؛ فأنت فتى طيب، حساس. ثمة أناس من هذا النوع؛ يعيشون حياتهم كلها صامدين، لا تصيبهم العلل قط، فإذا بهم فجأة... طخ!

- ماذا... طخ؟

- يقع، فيموت.

فانطلق إيليا يضحك، باسطًا ذراعيه، وشد عضلاته المتينة، وتنفس بعمق، بكل قوة صدره، وقال:

- هراء كل هذا!

إلا أنه حين جلس مساء خلف السماور تذكر على غير إرادة منه كلام غراتشيف، فراح يفكر بعلاقات الشغل مع أفتونوموفا. لقد أسعده اقتراحها فتح المخزن، فوافق على كل اقتراح عرض عليه، وفجأة، بات كل شيء الآن جليًّا، فاتضح أنه، وإن يكن قد وظف في الشغل قسطًا من المال أكبر من قسطها، إلا أنه وكيل على الحساب، أكثر منه شريكًا، وقد أذهله هذا الاكتشاف وأثار حنقه.

وفي نفسه راح يخاطب تاتيانا فلاسييفنا: «يا سلام! هكذا تعانقينني بشدة لكي تضعي يدك في جيبي بحيث لا أشعر!» وفي الحال قرر أن يضع جميع أمواله قيد التداول ويشتري المخزن من عشيقته، ويقطع كل علاقة معها. وقد كان يسيرًا عليه البت في هذا؛ فقد كانت تاتيانا فلاسييفنا من قبل أيضًا شيئًا لا لزوم له في حياته، أما في الآونة الأخيرة فباتت ثقيلة عليه. وما كان في وسعه أن يألف مداعباتها، فقال لها ذات مرة بصراحة، وجهًا لوجه:

- يا لك، يا تاتيانا، من قليلة الحياء.

فما أجابته إلا بالقهقهة.

ولقد كانت، كسابق عهدها، تحكي له كل شيء عن حياة أبناء وسطها، وقد لاحظ إيليا ذات مرة قائلًا:

- إذا كان كل ما تقولين صحيحًا، يا تاتيانا، فذلك يعني أن حياتكم المحترمة في منتهى الفساد!

- ولماذا؟ إنها حياة مرح! - قالت أفتونوموفا، هازة بكتفيها.

- وأي مرح عظيم! شح في النهار، وفسق في الليل.

- يا لك من ساذج! - قالت تاتيانا فلاسييفنا متعجبة، ضاحكة.

ومن جديد راحت تغدق أمامه المديح والثناء على الحياة النظيفة، البرجوازية الصغيرة اللائقة، المريحة كاشفة بذلك عن قسوة هذه الحياة وقذارتها. فسألها إيليا:

- وهل هذا حسن؟

- يا للشخص المضحك المسلي.. لست أقول إن هذا حسن، ولكن إذا لم يكن هذا، لكان العيش مضجرًا.

وكانت في بعض الأحيان تقول له بلهجة المعلم:

- آن لك أن تطرح عنك هذا القميص القطني؛ فالشخص المحترم ينبغي أن يلبس قميصًا من كتان... واسمع، من فضلك، كيف أنطق الكلمات، وتعلّم؛ لا ينبغي القول أف، بل ألف ولا تقل لوُ، بل قل: لَوْ. لوُ، وهلأ، وها اليوم، كلها تعابير فلاحية، وأنت لم تعد فلاحًا.

كانت غالبًا ما تشير إلى الفرق بينه هو الفلاح وبينها هي المرأة المتعلمة، وما كان بالأمر النادر أن

يستاء إيليا من هذه الإشارات. حين كان يعيش مع أولمبيادا، كان يشعر أحيانًا بأن هذه قريبة منه قرب الرفيق. أما تاتيانا فلاسييفنا فما كانت قط تبعث في نفسه الشعور بالرفقة. كان يرى أنها أدعى للاهتمام من أولمبيادا، إلا أنه لم يعد ينطوي على أي احترام لها؛ وقد كان أيام سكناه في منزل الزوجين أفتونوموف، يسمع أحيانًا كيف تبتهل تاتيانا فلاسيیفنا إلى الله قبل أن تستلقي للنوم.

كانت وشوشتها العالية المتعجلة، تنطلق من وراء الحاجز الخشبي:

- «أبانا الذي في السموات... خبزنا الجوهري أعطنا اليوم، واترك لنا ما علينا...» كيريا! قم أغلق الباب المفتوح على المطبخ، فالهواء يهب على رجليّ.

فيسألها كيريك متكاسلًا:

- لماذا تركعين بركبتيك على الأرض العارية؟

- كفى، لا تشوش عليّ!

ومن جديد، كان إيليا يسمع الوشوشة السريعة المنهمكة:

- ارحم، يا رب، عبيدك فلاس، ونيقولاي، والراهب الناسك... مارداري، وعبدتك أودوكيا وماريا، وامنح العافية لتاتيانا، وكيريك، وسيرافيما.

وما كان إيليا يستطيب استعجالها في الصلاة؛ فقد كان يدرك بجلاء أنها تصلي لا عن رغبة، بل بدافع من العادة. وقد سألها ذات مرة:

- هل أنت مؤمنة بالله يا تاتيانا؟

فقالت بدهشة:

- يا لهذا السؤال! أكيد أني مؤمنة... ولماذا تسأل؟

- هكذا... إنك دائمًا تستعجلين، بشدة، الانفصال عنه... - قال إيليا مبتسمًا.

- أولًا، لا ينبغي أن تقول بشدة، حين يمكن القول: كثيرًا. ثانيًا، إني أتعب كثيرًا في النهار، بحيث لا يمكن لله ألّا يغفر لي إهمالي.

وأضافت قائلة في ثقة ويقين، رافعة عينيها إلى فوق بهيئة حالمة:

- إنه يغفر كل شيء؛ إنه رحيم.

«لستم في حاجة إليه إلا لكي يكون ثمة من تطلبون منه الغفران»- هكذا قال إيليا في نفسه مغتاظًا، وتذكر أولمبيادا؛ فقد كانت هذه تصلي طويلًا وفي صمت؛ كانت تجثو أمام الأيقونة على ركبتيها، مطأطئة رأسها، وتظل هكذا واقفة دون حراك، كأنما هي قد تحجرت... وفي تلك اللحظات كان وجهها يبدو مغمومًا صارمًا.

وحين أدرك لونيف أن تاتيانا فلاسييفنا قد لعبت به لعبة بارعة في قضية المخزن، شعر نحوها بما يشبه القرف، فكان يقول في نفسه:

«لو أنها كانت شخصًا غريبًا عني لما همني الأمر؛ فهم جميعًا يسعون لخداع بعضهم بعضًا... ولكنها في الواقع من قبيل الزوجة؛ تقبّل، وتداعب... قطة نجسة!

ليس غير العاهرات يفعلن هكذا... وما كلهن يفعلن هكذا...» وبات مسلكه حيالها جافًّا مرتابًا، وأخذ يمتنع بمختلف المعاذير عن اللقاء معها. وفي ذلك الحين ظهرت لعينيه امرأة أخرى، هي أخت غافريك، وقد كانت في بعض الأحيان تمر مسرعة على الدكان لرؤية أخيها. كانت طويلة، نحيفة، ممشوقة، غير جميلة، ومع أن غافريك قد أفاد بأنها في التاسعة عشرة من عمرها، فقد كانت تبدو لإيليا أكبر كثيرًا. وكان لها وجه مستطيل، أصفر، منهك، وجبينها العالي مخطط بغضون رفيعة، وفتحتا أنفها البطي الواسعتان تبدوان متضخمتين حنقًا، وشفتا فمها الصغير الرقيقتان مطبقتان بإحكام. وقد كانت تتكلم كلامًا واضح النبرة، ولكن كأنما هي تنطق من خلال أسنانها، عن غير طيبة خاطر. وكانت مشيتها سريعة، وهي تسير شامخة برأسها، كأنما هي مزهوة بوجهها القبيح. ولعل رأسها إنما كانت تشد به إلى الخلف ضفيرة شعرها القاتم الطويلة... وكانت عينا هذه الفتاة السوداوان الواسعتان تنظران نظرات صارمة مترصنة، وجميع ملامح وجهها، مجتمعة، تسبغ على قامتها المديدة سمة من الاستقامة والصلابة. ولقد كان لونيف يشعر أمامها بالخجل؛ فقد كانت تبدو له مزهوّة، وتوحي بالاحترام لها. وكلما ظهرت في الدكان، كان يقدم لها كرسيًّا، بتأدب وكياسة، قائلًا:

- تفضلي، اجلسي.

فتقول له باقتضاب: «شكرًا»، محنية له رأسها، وتجلس. وكان لونيف ينظر خلسة إلى وجهها، المختلف اختلافًا صارخًا عن جميع الوجوه النسائية التي رآها حتى الآن، وإلى فستانها الأسمر، العتيق جدًّا، وحذائها المرقع، وقبعتها الصفراء المصنوعة من القش. كانت تجلس، فتتحدث مع أخيها، وأصابع يدها اليمنى الطويلة تنقر باستمرار على ركبتها نقرات سريعة غير مسموعة، وبيدها اليسرى تلوح في الفضاء بحزام تربط به الكتب. وكان غريبًا على إيليا أن يرى فتاة مزهوة، وعليها مثل هذه الملابس الرديئة. كانت تقول لأخيها بعد أن تجلس في الدكان دقيقتين أو ثلاثًا:

- أيوه، خاطرك.. لا تتشيطن كثيرًا.

وتحيي صاحب الدكان بانحناءة من رأسها، وتروح تمشي مشية جندي مقدام ذاهب إلى الهجوم.

- يا لأختك من فتاة صارمة! - قال لونيف ذات مرة لغافريك.

فصعّر غافريك أنفه، وحملق عينيه بشراسة، وبوّق شفتيه، فأكسب هذا وجهه تعبيرًا جامحًا كاريكاتوريًّا، يذكر بوجه أخته على نحو جد موفق، ثم أوضح لإيليا قائلًا وهو يبتسم:

- هكذا هي... تتظاهر فقط.

- وما الذي يدعوها للتظاهر؟

- هكذا... يحلو لها.. أنا أيضًا أصعّر حنكي كما أشاء.

ولقد كانت الفتاة مثار اهتمام شديد لدى إيليا، فراح يقول في نفسه عنها، كما قال من قبل عن تاتيانا فلاسييفنا:

«مثل هذه لو أتزوج...».

وجاءت معها ذات مرة بكتاب ضخم، فقالت لأخيها:

- خذ، اقرأ.

فسأل إيليا بتأدب:

- ما هذا، أرنيه من فضلك؟

فأخذت الكتاب من يد أخيها، وقدمته إلى لونيف قائلة:

- دون كيشوت... حكاية فارس طيب.

-آ! قرأت كثيرًا عن الفرسان. - قال إيليا بابتسامة لطيفة وهو يتطلع إلى وجهها، فارتعش جفناها وراحت تقول متعجلة، بصوت جاف:

- كنت تقرأ أقاصيص، أما هذا فكتاب رائع ينطوي على الحكمة؛ يصور رجلًا وقف نفسه على الدفاع عن الناس البؤساء، المظلومين، وكان هذا الرجل على استعداد دائم للتضحية بحياته في سبيل سعادة الآخرين... مفهوم؟ الكتاب مصوغ بروح ساخرة، ولكن هذا أمر اقتضته الظروف الزمنية التي كُتب فيها، ومن اللازم قراءته بجد وانتباه.

- وهكذا ستكون قراءتنا له. - قال إيليا.

كانت تلك أول مرة تحدثت فيها الفتاة معه؛ فشعر من جراء هذا بارتياح خاص، وابتسم. ولكنها تمتمت بلهجة جافة، وهي تنظر إلى وجهه:

- ما أظن أنه سيعجب حضرتك.

وانصرفت. وبدا لإيليا أنها قد نطقت بكلمة «حضرتك» نطقًا شديد الوضوح، وصدمه هذا، فقال مغضبًا لغافريك، الذي كان يتفرج على الصور في الكتاب:

- ليس الوقت الآن وقت قراءة.

- ولكن ليس ثمة مشترون؟ - قال غافريك معترضًا، غير مغلق الكتاب، فنظر إليه إيليا والتزم الصمت، وفي ذاكرته راحت ترن كلمات الفتاة عن الكتاب، أما الفتاة نفسها فكان يقول عنها في قلبه بامتعاض:

«يا لها من شخصية متنفخة!».

ومضت الأيام تجري، وكان إيليا يقف خلف المنضدة، يبيع ويفتل شاربيه، ولكن بات يبدو له أن الأيام تبطئ في مسراها. وكانت تراوده نفسه أحيانًا بأن يغلق الدكان ويذهب للنزهة في مكان ما، إلا أنه كان يعلم أن من شأن هذا أن يضر بالتجارة، فلا يذهب. وما كان الخروج مساء بالملائم أيضًا؛ فقد كان غافريك يخشى البقاء لوحده في المخزن، وكان من الخطر ترك المخزن في عهدته؛ فقد يحرقه عن غفلة أو يدخل إليه أحد النشالين. وكانت التجارة تسير سيرًا لا بأس به، وقد فكر إيليا بأنه ربما سيكون عليه أن يستأجر مساعدًا. وكانت العلاقات مع أفتونوموفا تضعف تدريجيًّا من تلقاء نفسها، وكان يبدو على تاتيانا فلاسييفنا كأن ليس لديها من اعتراض على هذا؛ فقد كانت تضحك في عبها بمرح، وتحقق بدقة في دفتر الحسابات اليومية. وحين كانت تجلس في غرفة إيليا، حاسبة بالعدادة، كان يشعر بأن هذه المرأة العصفورية الوجه كريهة إليه، ولكنها كانت تجيء إليه في بعض الأحيان مرحة، نشيطة، تمزح وتلعب بعينيها في هزل وسخرية، وتسمي إيليا بالشريك؛ فكان هو يندفع ويستأنف ما كان يسميه بينه وبين نفسه النغمة المكرورة القذرة. وكان كيريك يمر عليه، فيرتمي على الكرسي قرب المنضدة ويمزح مع الخياطات إذا جئن أثناء وجوده، وكان قد خلع بزة الشرطي، وبات يرتدي طقمًا من الحرير ويتباهى بنجاحه في الخدمة لدى التاجر.

- ستون روبلًا الراتب، وأكسب مثل هذا المقدار، لا بأس، آ؟ أكسب بحذر، وبصورة مشروعة، وقد غيرنا منزلنا... أتسمع؟ ولنا الآن منزل جميل، وقد استأجرنا طباخة، تطبخ، الحيوانة، طبخًا ممتازًا! وابتداء من الخريف سنشرع باستقبال المعارف، وسنلعب بالورق... شيء لذيذ، يضربه قرد! تمضي الوقت بمرح، ويمكن أن تربح، نحن الاثنين نلعب، أنا وزوجتي، وواحد يربح دائمًا، والربح يغطي استقبال الضيوف، قه-قه، يا روحي.. ذلك ما يسمى بالحياة الرخيصة الممتعة.

واسترخى على الكرسي، وراح يعب دخان اللفافة، وأردف يقول مخفضًا صوته، وهو ينفث الدخان:

- سافرت، يا أخ، منذ وقت قريب، إلى الريف، أتسمع؟ وإني لأقول لك: البنات هناك... أوه، يا سلام! بنات الطبيعة؛ أجسام قوية، لا تقرص، وكل هذا رخيص، يضربني قرد! قنينة نبيذ، وليبرا من الحلوى، فإذا البنت لك.

كان لونيف يصغي ويلتزم الصمت. كان لأمر ما يرثي لحال كيريك، يرثي لحاله دون أن يبين لنفسه سببًا معينًا لرثائه لهذا الفتى السمين الضيق الأفق.. وفي الوقت ذاته كان الضحك يراود نفسه على الدوام لدى رؤية أفتونوموف. وما كان يصدق حكايات كيريك عن مغامراته في الريف؛ فقد كان يبدو له أن كيريك يتبجح، ويتكلم عن سماع. أما حين يكون متعكر المزاج، فقد كان يقول في نفسه، وهو يستمع إلى كلامه:

«يا للتافه!».

- أي... نعم، يا أخ، رائع أن يتعاطى المرء الغرام في أحضان الطبيعة، تحت ظلال الأشجار، كما يعبرون في الكتب.

- وإذا عرفت تاتيانا فلاسييفنا؟ - سأل إيليا.

فأجاب كيريك وهو يغمزه بعينيه متخابثًا:

- إنها، يا أخ، لن ترغب في معرفة هذا، هي تعرف أن ليس ينبغي لها معرفة هذا؛ فالرجل ديك بطبيعته، وكيف أنت، يا أخ... أما لديك عشيقة؟

- واقع في الإثم. - قال إيليا ضاحكًا.

- خياطة؟ أيوه؟ سمراء؟

- كلا، ليست خياطة.

- طباخة؟ الطباخة أيضًا مليحة، إنها حامية، مكتنزة.

وانطلق إيليا يقهقه كالمجنون، فأقنعت ضحكته هذه كيريك بوجود الطباخة، فقال له ناصحًا بلهجة العارف الخبير بالأمر:

- بدّلهن غالبًا بدّل في الغالب.

- ولكن ما الذي يدعوك للاعتقاد بأنها طباخة أو خياطة؟ أتراني لا أتوصل إلى واحدة غيرهما؟ - سأل لونيف من خلال ضحكه.

- إنهن، يا أخ، مناسبات لك أكثر من سواهن، من حيث الوضع الاجتماعي؛ فأنت لا تستطيع عقد صلة غرامية مع سيدة راقية، أو مع بنت من بنات المجتمع اللائق، موافق؟

- ولماذا؟

- إيه، هذا مفهوم... لست أريد الإساءة إليك، ولكنك، يا صاحبي، تعرف، على كل حال، أنك... رجل بسيط... فليّح، كما يقال.

- ولكني.. على صلة بسيدة راقية. -قال إيليا وهو يلهث من الضحك.

- إنك مازح - قال كيريك متعجبًا، وانطلق يقهقه هو أيضًا.

وحين انصرف أفتونوموف، وراح إيليا يفكر بأقواله، اعتراه شعور بالمهانة؛ فقد كان جليًّا لديه أن كيريك، على كونه فتًى طيبًا، يعتبر نفسه شخصًا ذا صفة خاصة، غير مساو له، هو إيليا، أرفع منه وأحسن. وفي الوقت نفسه يستغلانه، هو وزوجته، استغلالًا كبيرًا. ولقد أبلغه بيرفيشكا أن بتروخا يسخر من تجارته وينعته بالغشاش، أما ياكوف، فكان يقول للإسكافي إنه هو، إيليا، كان من قبل أحسن وأكثر إخلاصًا، وما كان يزدهي ازدهاءه الآن، وكذلك كانت أخت غافريك تقنع إيليا على الدوام بأنها غير مساوية له. كانت، وهي ابنة موزع البريد، واللباس الذي ترتديه يكاد يكون أسمالًا بالية، تنظر إليه نظرة يحسب المرء معها أنها مغضبة لكونه يعيش معها على أرض واحدة. ومنذ أن

فتح إيليا المخزن، نما حبه لذاته، وبات أشد حساسية من ذي قبل. وكان اهتمامه بهذه الفتاة القبيحة، إلا أنها ذات لون خاص، يتطور باطراد، فكان يود أن يدرك من أين لها، وهي الفقيرة، هذه الكبرياء التي يعتريه حيالها على الدوام مزيد من الخشية والارتباك. وما كانت قط لترغب في أن تبدأه بالحديث، فكان هذا أيضًا يجرح كرامته... إن أخاها يخدم عنده، وقد كان عليها لهذا أن تنظر إليه، هو صاحب المخزن، نظرة أكثر لطفًا.. ولقد قال لها ذات مرة:

- أقرأ كتابك عن دون كيشوت.

فسألته دون أن تنظر إليه:

- أيوه، وماذا يعجبك؟

- يعجبني جدًّا.. مضحك... كان شخصًا غريب الطباع.

وبدا لإيليا أن عينيها السوداوين المزهوتين تخترقان وجهه بكراهية، وقد دمدمت ببطء وبنبرة واضحة:

- وقد كنت أعرف أنك ستقول شيئًا من هذا القبيل.

وأحس إيليا في هذه الكلمات بشيء مهين، معاد له، فقال لها، وقد شال بكتفيه:

- أنا رجل جاهل.

فكان جوابها عليه الصمت، كأنما هي لم تسمع كلامه.

ومن جديد أخذ يجتاح نفس إيليا مزاج لم يهيمن عليه منذ وقت بعيد، ومن جديد غضب على الناس، وراح يفكر تفكيرًا شديدًا وطويلًا بالعدالة، وبالإثم الذي ارتكبه، وبما هو في انتظاره. أتراه سيعيش هكذا دائمًا؛ يندس في المخزن من الصباح حتى المساء، ثم يجلس خلف السماور بصحبة أفكاره، وينام بعد ذلك، ويستيقظ فيذهب إلى المخزن من جديد؟ كان يعلم أن كثيرًا من التجار، بل ربما جميعهم، يعيشون هكذا بالضبط. ولكنه كان يجد في حياته الخارجية وفي حياته الداخلية أسبابًا كثيرة تدعوه لاعتبار نفسه شخصًا ذا صفة خاصة، لا يشبه الآخرين. ولقد كان يتذكر قول ياكوف له:

«لا وفقك الله... فأنت طماع...».

وكانت هذه الكلمات تبدو له أعمق إيلامًا للنفس، فما هو بطماع، كلا، بل راغب فقط في أن يعيش حياة نظيفة مطمئنة، وفي أن يحترمه الناس، وألَّا يشير إليه أحد في كل خطوة، قائلًا:

«أنا أعلى منك، يا إيليا لونيف، أنا خير منك».

ومن جديد راح يسائل نفسه: ماذا ينتظره في الأيام المقبلة؟ وهل سيلقى عقابًا على القتل أم لا؟ وقد كان يدور في خاطره أحيانًا أن العقاب على الإثم إذا ما نزل به فلسوف يكون عقابًا غير عادل، ففي المدينة الكثير من قتلة الأنفس البشرية، ومن الفجار واللصوص، وإنهم ليعيشون، متمتعين بخيرات

الحياة وما من عقاب لهم حتى الآن. والعدالة تقضي بأن كل إساءة تنزل بإنسان ينبغي أن يحاسب عليها المسيء. وقد جاء في التوراة: «فليجازه الرب حتى يعرف». وكانت هذه الأفكار تنكأ جراح قلبه القديمة، فيتأجج القلب بشعور جارف، شعور الظمأ إلى الانتقام لحياته المحطمة. وكان يخطر له أحيانًا القيام بعمل جسور آخر؛ أن يذهب فيحرق دار بتروخا فيليمونوف، فإذا ما اشتعل البيت، وتراكض إليه الناس، صاح بهم:

«أنا الذي أحرقته.. أنا الذي خنقت التاجر بولوئيكتوف».

فيقبض عليه الناس، ويحاكم ويُنفى إلى سيبيريا، كما نُفي أبوه... وكان هذا يثير ثائرته، فيرهف ظمأه إلى الثأر، فإذا الرغبة تنازعه بأن يحكي لكيريك عن علاقته بزوجته، أو يذهب إلى العجوز خرينوف فيوسعه ضربًا لقاء ما ينزل بماشا من عذاب ونكال.

ولقد كان أحيانًا، وهو مستلق على سريره في العتمة، يصيخ سمعه في السكون العميق، فيخيل إليه أن كل شيء من حوله يوشك أن يتزلزل ويتداعى ويلفه إعصار وحشي في صخب وهدير، وهذا الإعصار، بما له من قوة، سيدور به هو أيضًا، كورقة منتزعة من شجرة، ويدور به، فيهلكه... فتأخذ لونيف الرعدة من هاجس ينبؤه بوقوع أمر خارق للعادة.

وذات مساء، إذ كان لونيف يعتزم إغلاق المخزن، جاء بافل، فقال بصوت هادئ، من غير أن يسلّم:

- فيرا هربت.

وجلس على الكرسي، وأسند كوعيه على المنضدة، وراح يصفر بصوت خافت، وهو ينظر إلى الشارع. كان وجهه متحجرًا، إلا أن شاربيه الأشقرين الصغيرين كانا يتحركان تحرك شاربي القط، وسأله إيليا:

- لوحدها؟ أم مع أحد ما؟

- لا أعرف... ثلاثة أيام مضت على اختفائها.

ومضى إيليا ينظر إليه في صمت. إن وجه بافل الهادئ وصوته ما كانا يتيحان له فهم موقف غراتشيف من فرار صديقته، إلا أنه كان يشعر في هذا الهدوء بقرار قاطع لا مردّ له، فسأل بصوت خافت؛ إذ رأى أن بافل لا يعتزم الكلام:

- وما تنوي أن تفعل؟

وإذ ذاك، كف غراتشيف عن الصفير، فأعلن باقتضاب غير ملتفت إلى رفيقه:

- الذبح.

فقال إيليا في عجب، نافضًا يده بحركة تعبر عن الامتعاض:

- إيه! لا تزال على رأيك أيضًا؟

- عليها حَطَمْتُ قلبي كله.. - قال بافل بصوت مخنوق. - هي ذي السكين.

وسحب من عبّه سكينًا صغيرة لتقطيع الخبز، وراح يفتلها أمام وجهه.

- سأطعنها في عنقها.

ولكن إيليا انتزع السكين وألقى بها وراء المنضدة، قائلًا بغضب:

- تحمل السلاح لذبابة.

فوثب بافل عن الكرسي واندار إليه بوجهه؛ كانت عيناه تتأججان بنار الغيظ، ووجهه قد تشوه، والرعدة تجتاح كل كيانه، ولكنه ترامى في الحال على الكرسي، وقال باحتقار:

- أنت أبله.

- أنت فهيم.

- ليست القوة في السكين، بل في الساعد.

- احك!

- وإذا انقطعت يداي، فسأقطع عنقها بأسناني.

- يا للهول!

- لا تتكلم معي، يا إيليا... - قال بافل من جديد في هدوء وبصوت خافت- صدق أو لا تصدق، ولكن لا تشاكسني... ففي مشاكسة الأقدار كفاية لي.

- ولكن فكر أنت قليلًا، أيها الغريب الطباع.- قال إيليا بلطف محاولًا إقناعه.

- فكرت في كل شيء... على أني ذاهب؛ فما جدوى الكلام معك؟ أنت شبعان، ولست لي برفيق.

- ولكن دع عنك هذا السخف! - صاح لونيف لائمًا.

- إني جائع روحًا وجسدًا.

- يدهشني كيف يفكر الناس! - قال إيليا هازًّا بكتفيه:- المرأة للرجل كالدابة... كالفرس! تحملينني؟ أيوه، حاولي، فلا أضربك. لا تريدين حملي؟ فينهال ضربًا على رأسها! ولكن، أفّ لكم! إن المرأة إنسان هي أيضًا، ولها مزاجها.

فنظر إليه بافل، وشرع يضحك بصوت أجش.

- ومن أكون أنا؟ ألست إنسانًا؟

- ولكن أمن واجبك أن تكون منصفًا أم لا؟

- رح للقرد أنت وهذا الإنصاف! - صاح غراتشيف محنقًا وهب واقفًا عن الكرسي- كن أنت المنصف؛ فليس في هذا ما يزعج الشبعان... سامع؟ طيب.. خاطرك.

وانصرف مسرعًا من المخزن، ولدى وصوله إلى الباب، نزع لأمر ما كاسكيته عن رأسه، فقفز إيليا من خلف المنضدة منطلقًا وراءه، ولكن غراتشيف كان قد مضى يمشي في الشارع، ممسكًا الكاسكيت بيده، يلوح بها بانفعال، وصاح إيليا:

- بافل.. قف قليلًا.

فما توقف، ولا التفت، وانعطف إلى الزقاق، فاختفى، فعاد إيليا ببطء إلى وراء المنضدة، شاعرًا بأن وجهه ملتهب من كلمات رفيقه، كأنما كان يتطلع إلى موقد مشتعل. وانطلق صوت غافريك:

- يا له من شرس!

فضحك إيليا ضحكة مبتورة.

- من يعتزم أن يذبح؟ - سأل غافريك وقد أقبل على المنضدة؛ كانت يداه مشبكتين وراء ظهره، ورأسه مرفوعًا إلى فوق، ووجهه المتوتر محمرًا.

- زوجته. - قال إيليا، وهو يتطلع إلى الصبي.

فصمت غافريك قليلًا، ثم تحفز بعض الشيء، فأخبر صاحب المخزن بصوت خافت وبلهجة المفكر:

- ولنا جارة سممت زوجها في عيد الميلاد بالزرنيخ... وهو خياط.

- يصادف. - دمدم لونيف ببطء وهو يفكر ببافل.

- وهذا... هل سيذبحها حقًّا؟

- كفى يا غافريك.

فانفتل الصبي، ومضى إلى الباب، وراح يتمتم وهو في طريقه:

- ويتزوجون، هؤلاء الشياطين!

كان غسق المساء قد حل على الشارع، واشتعل النور في نوافذ الدار المواجهة لدكان لونيف، فقال غافريك بصوت خفيض:

- حان وقت الإغلاق.

وكان إيليا يتطلع إلى النوافذ المضاءة؛ إنها مغطاة في أدناها بالزهور، وفي أعلاها بالستائر البيض، ومن خلال أوراق الزهور يرى إطار من ذهب معلق على الجدار، وحين تكون النوافذ مفتوحة، تنداح

منها على الشارع رنات قيثارة، وأغنيات، وضحكات صاخبة، وفي كل مساء تقريبًا كانوا، في هذا البيت، يغنون، ويعزفون، ويضحكون. وكان لونيف يعلم بأن القاطن هناك عضو محكمة الدائرة غروموف، وهو رجل بدين متورد الوجه، ذو شاربين أسودين كبيرين. وكذلك كانت امرأته سمينة، شقراء، زرقاء العينين، تمشي في الشارع بأبهة، شأن ملكات الأساطير، وإذا هي تكلمت فالابتسامة تشع من وجهها على الدوام. وكان لغروموف أيضًا أخت صبية، برسم الزواج، ممشوقة القوام، سوداء الشعر، سمراء الوجه، وكان يحوّم حولها كثير من الموظفين الشبان، ولقد كانوا جميعًا يضحكون، ويغنون كل مساء تقريبًا.

- حان وقت الإغلاق حقًّا، - دمدم غافريك ملحًّا.

- أغلق.

وأغلق الصبي الباب، فحلت العتمة في المخزن، ثم طقطق القفل الحديدي، وقال إيليا في نفسه:

«كأني في سجن».

كانت كلمات رفيقه المهينة عن الشبع تخز في قلبه، وكان وهو جالس خلف السماور يفكر بباافل بجفاء، غير مصدق أن غراتشيف يمكن أن يذبح فيرا، فقال في نفسه بقسوة: «عبثًا دافعت عنها، على كل حال... حدهم جهنم! لا يستطيعون هم أن يعيشوا، فيزعجون الآخرين».

وكان غافريك يشرب الشاي من الصحن بصخب ويحرك رجليه تحت الطاولة، وفجأة سأل صاحب المخزن:

- هل ذبحها أم لم يذبحها بعد؟

فنظر إليه لونيف عابسًا، وقال:

- هيا اشرب أنت، واذهب للنوم.

كان السماور يصفر ويهدر، كأنما يوشك أن يقفز عن الطاولة.

وفجأة انتصب أمام النافذة شبح قاتم، وسأل صوت متهيب راعش:

- هنا يسكن إيليا ياكوفيليفيتش؟

- هنا. - صرح غافريك، وقفز عن الكرسي، وانطلق صوب الباب المؤدي إلى الباحة بسرعة، لم يستطع معها إيليا أن يقول له شيئًا.

وظهر في الباب شبح امرأة نحيلة على رأسها منديل، كانت تستند بإحدى يديها إلى عضادة الباب، وتعبث بالأخرى بطرفي المنديل على عنقها، وكانت واقفة وقفة جانبية، كأنما هي على استعداد للانصراف على الفور، فقال لها إيليا بغير ارتياح، وهو يتطلع إليها دون أن يعرفها:

- ادخلي.

وارتعدت من صوته، فرفعت رأسها، وابتسم وجهها الشاحب الصغير..... فإذا إيليا يثب عن كرسيه، صائحًا:

- ماشا!

فضحكت ضحكة خفيفة، وخطت نحوه، وتمتمت وقد توقفت وسط الغرفة:

- لم تعرفني... بل حضرتك لم تعرفني.

- يا ألله! وهل في الوسع معرفتك.. كيف أصبحت!

وبتأدب مفرط، أمسك إيليا بساعدها، فأوصلها إلى الكرسي، منحنيًا متطلعًا إلى وجهها، غير متجرّئ على أن يقول كيف أصبحت؛ فلقد كانت من الهزال إلى درجة لا يصدقها العقل، وكانت تخطو خطوات يحسب المرء معها أن رجليها معطلتان، فتمتم وهو يجلسها على الكرسي ويواصل التطلع إلى وجهها:

- إيه... كيف أصبحت؟

فقالت، وهي تنظر إلى وجه إيليا:

- هاك كيف أصبحت.

وإذ ذاك، وقد جلست مقابل المصباح، بات يراها جيدًا؛ كانت مستندة إلى ظهر الكرسي، مرخية ساعديها النحيلين، مائلة الرأس، وأنفاسها المتسارعة تعلو وتهبط بصدرها الأمسح، وإنها لتكاد تبدو بلا جسد، وكأنها مكونة من عظم فقط؛ فعلى فستانها ترتسم نواتئ كتفيها وكوعيها وركبتيها، وأما وجهها فرهيب من شدة نحوله، والبشرة الزرقاوية منبسطة على الصدغين والوجنتين، والذقن، والفم نصف منفتح انفتاحًا مرضيًّا، والشفتان الرقيقتان كاشفتان عن الأسنان، وعلى وجهها الصغير المتطاول يتجمد تعبير عن ألم لا يوصف، وأما العينان فتنظران نظرات كابية لا حياة فيها.

- هل كنت مريضة؟ - سألها إيليا بصوت خفيض.

- كل...لا، - أجابته- أنا في تمام الصحة... هو الذي صيّرني هكذا.

كانت كلماتها الممطوطة الخافتة تقع في السمع كأنها الأنّات، وأسنانها المكشوفة تسبغ على وجهها ملامح من السمكة.

وكان غافريك واقفًا قرب ماشا، ينظر إليها، مطبقًا شفتيه بشدة، وفي عينيه خوف، فقال له لونيف:

- رح، نم.

فانصرف الصبي إلى المخزن، فتشاغل هناك قرابة دقيقة، ثم أبرز رأسه من وراء عضادة الباب.

كانت ماشا جالسة دون حراك، وليس غير عينيها، الدائرتين في وقبيهما بتثاقل، تتحركان من شيء لآخر، وقد صب لها لونيف الشاي، وراح ينظر إليها غير مستطيع سؤال صديقته عن شيء، فبادرت هي تقول:

- يعذبني عذابًا شديدًا.

وارتعشت شفتاها، وانغمضت عيناها لحظة، وحين فتحتهما، سالت من تحت الرموش قطرات من الدمع كبيرة، ثقيلة، فقال إيليا، وقد حوّل وجهه عنها:

- لا تبك... الأحسن... أن تشربي الشاي... وتحكي لي كل شيء... يهون عليك الأمر.

- أخاف أن يأتي. - قالت ماشا، ملوحة برأسها.

- هل هربت منه؟

- ن...نعم... وهذه للمرة الرابعة، حين لا أعود أطيق صبرًا.. أهرب... في المرة الماضية هممت بأن ألقي نفسي في البئر، ولكنه أمسك بي، وكم ضربني.. وكم عبني!

وتضخمت عيناها من الهلع، وراح فكها الأسفل يرتعش.

- دائمًا يكسر رجليّ.

فقال إيليا بدهشة وانفعال:

- إيه! ولكن ما لك؟ أبلغي الشرطة... إنه يعذبك.. السجن جزاء على هذا.

- أي...يوه، هو نفسه قاضي. - قالت ماشا منقطعة الرجاء.

- خرينوف؟ أي قاض هو، ماذا تقولين؟

- أنا عارفة.. جلس مؤخرًا في المحكمة أسبوعين على التوالي... وظل يحاكم... وكان يعود من هناك مغتاظًا، جائعًا، فأمسك ثديي بملقط السماور، وراح يفتله، ويفتله... هاك، انظر!

وبأصابع راجفة فكت أزرار فستانها، وكشفت لإيليا عن ثديين صغيرين نحيلين، مغمورين ببقع قاتمة، كأنما هما معضوضان عضًّا.

- تستّري. - قال لها إيليا متجهمًا؛ فقد كان مزعجًا له النظر إلى هذا الجسد المحطم الباعث على الأسى، وما كان يصدق أن الجالسة أمامه هي صديقة أيام الطفولة، البنت اللطيفة ماشا. وأما هي فقد راحت تقول بصوت متزن، وهي تعرّي كتفيها:

- أما كتفاي، فكم كان يضربهما! وكل شيء... كان يقرص كل بطني، وينتف الشعر من تحت إبطي.

- ولكن لماذا؟ - سأل إيليا.

- يقول... لا تحبينني! ويروح يقرصني.

- لعلك... ما كنت عذراء، حين تزوجت به؟

- إي... يه! كيف هذا؟ كنت أعيش معك ومع ياكوف... ولم يمسسني أحد قط... ولكني الآن أيضًا... غير قادرة على هذا... إنه مؤلم لي ومقرف... أحس دائمًا بالغثيان.

- اسكتي، يا ماشا. - قال لها إيليا ملتمسًا بصوت خفيض.

فلاذت بالصمت، وتحجرت من جديد، وهي جالسة على الكرسي مكشوفة الصدر.

ونظر إيليا من وراء السماور إلى جسمها النحيل المحطم، وكرر قوله:

- تستّري.

- لست أستحي منك. - أجابت بصوت مخنوق، وهي تزرر فستانها بأصابع راجفة.

وساد سكون، ثم سمعت من المخزن شهقات عالية، فنهض إيليا، ومضى إلى الباب ففتحه، قائلًا بوجه عابس:

- كفى، يا غافريوشكا[31].

- هذا... الصبي؟ - سألت ماشا- ما له؟

- يبكي.

- خائف؟

- كلا... لا بد أنه محزون.

- على من؟

- عليك.

- يا سلام! - قالت ماشا من غير مبالاة، ووجهها الذي لا أثر فيه للحياة لا يزال على جموده، ثم راحت تشرب الشاي، ويداها ترتجفان، والفنجان يقرع على أسنانها. ومن خلف السماور، كان إيليا يتطلع إليها غير عارف أهو آسف عليها أم غير آسف؟ وقد سألها بعد صمت طويل:

- وماذا ستفعلين؟

- لست أدري. - أجابت وتنهدت- ماذا عليّ أن أفعل؟

- يجب أن تشتكي. - قال لونيف بحزم.

فاستأنفت ماشا تقول:

- هكذا كان يعامل زوجته السابقة، بضفيرتها كان يربطها بالسرير ويروح يقرصها... مثلما يفعل بي... أكون أنا نائمة، فإذا بي فجأة أحس بالوجع، فأستيقظ، وأصرخ... ويكون هو قد أشعل عود ثقاب ووضعه على بطني.

فهب لونيف واقفًا عن كرسيه، وقال بصوت عال وبلهجة محنقة، إن عليها أن تذهب غدًا بالذات إلى الشرطة، وتكشف هناك عن جميع كدماتها وتطالب بمحاكمة زوجها. فتحركت على الكرسي بقلق، وهي تسمع كلامه، فقالت وأبصارها زائغة خوفًا:

- لا تصح من فضلك؛ فسيسمع.

ما كانت كلماته لتفعل غير إثارة الخوف في نفسها، وكان هو يدرك هذا، فقال لها، وهو يجلس على الكرسي من جديد:

- طيب، لا بأس... أنا نفسي سأتولى هذا الأمر... وأنت، يا ماشوتكا، باتي الليلة عندي، نامي على سريري... أما أنا فسأذهب إلى المخزن.

- حبذا أن أنام؛ فأنا متعبة.

فدفع الكرسي عن السرير في صمت، فارتمت عليه ماشا، وحاولت التدثر باللحاف، إلا أنها لم تستطع، فابتسمت ابتسامة خفيفة، قائلة:

- يا لي من مضحكة، كأني سكرانة.

فألقى إيليا عليها اللحاف، وسوّى الوسادة تحت رأسها، وهمّ بالانصراف إلى المخزن، ولكنها استأنفت تقول بقلق:

- اقعد معي؛ فأنا أخاف لوحدي... أتصور شيئًا ما.

فجلس على الكرسي بالقرب منها، ونظر إلى وجهها الشاحب، المغمور بخصلات الشعر، فحول أنظاره عنها؛ فقد بات من المخجل النظر إليها وهي غير موصولة بالحياة إلا بشعرة.. وراح يتذكر التماس ياكوف، وأحاديث ماتيتسا عن حياة ماشا، فطأطأ رأسه.

وفي البيت المقابل، كان يغني ثنائي، وكلمات الأغنية تتسرب من النافذة المفتوحة إلى غرفة إيليا.. الصوت الأجش القوي يغني بحماسة:

خا....ئب الآ.... ما.... ل لا يفهم...

- ها أنا على وشك الإغفاء. - تمتمت ماش- جميل ما لديك... يغنون.. وغناؤهم جميل.

- ن...نعم.. يغنون كثيرًا. - قال إيليا متهانفًا في اكتئاب- ناس تُسلخ جلودهم، وناس ينبحون.

ومن جدي...د أعجز أن أشرعا..

وفي سكون الليل رنت نغمة جميلة وانطلقت إلى الأعالي خفيفة طليقة.

فنهض لونيف، فأغلق النافذة بغضب؛ فقد بدت له الأغنية في غير محلها، وقد كان فيها إغاظة له، فارتعدت ماشا من خبطة مصراعي النافذة، وفتحت عينيها، وسألت، وقد رفعت رأسها مرتعبة:

- من هذا؟

- أنا... أغلقت النافذة.

- يا يسوع المسيح! أأنت ذاهب؟

- لا، لا تخافي.

وأدارت رأسها على الوسادة، وأغفت من جديد. كانت أقل حركة من إيليا ووقع الخطوات في الشارع، بل كان كل شيء يقلقها، فتفتح عينيها في الحال وتصيح وهي نائمة:

- حالًا... أوه! حالًا.

وكان لونيف، وهو يحاول الجلوس بلا حراك، وينظر من خلال النافذة التي فتحها من جديد، يتصور كيف السبيل لمساعدة ماشا، فقرر محنقًا ألَّا يدعها تذهب من عنده إلى أن تتدخل الشرطة في القضية.

«ينبغي العمل بواسطة كيريك».

ومن نوافذ منزل غروموف انطلقت صيحات حارة:

- من فضلك، من فضلك.

وكان أحدهم يصفق بيديه، وأخذت ماشا تئن، وأما في بيت غروموف، فانطلقوا يغنون من جديد:

جوادان أصبهان، منذ الفجر مقرونان...

فراح لونيف يهز رأسه بما يقرب من الجنون؛ فقد كان في هذا الغناء، وهذه الصيحات المرحة، وهذا الضحك، ما يزعجه. وكان، وهو مستند بكوعيه إلى برطاش النافذة، يتطلع إلى النوافذ المضاءة مقابله بحنق واستنكار عاصف، ونفسه تراوده بالخروج إلى الشارع وقذف إحدى النوافذ بحجر، أو بإطلاق قذيفة من الخردق على هؤلاء الناس المبتهجين؛ والخردق يصل إليهم، وتصور السِحَن الهالعة الدامية، والاختباط، والصراخ، فابتسم وفي قلبه فرحة وحشية. كانت كلمات الأغاني تتسرب إلى أذنيه على غير إرادة منه، فيرددها بينه وبين نفسه، فإذا به يدرك والدهشة تستولي عليه أن هؤلاء الناس الفرحين يغنون عن فتاة من بنات الهوى كيف قبروها، فصعقه ذلك، فراح يصغي بانتباه شديد، ويقول في نفسه، وهو يتسمع:

«لماذا يغنون هذا؟ وأي بهجة في مثل هذا الغناء؟ أي شيء ابتكروا، هؤلاء الحمقى! ولكن هنا، على بعد خمسة أمتار منهم، إنسانًا حيًّا معذبًا طريح الفراش... وما من أحد عارف بما يعانيه من آلام».
وسرت في الشارع صيحات:

- برافو... برا...فو...و!

فابتسم لونيف، وهو ينظر إلى ماشا تارة، وإلى الشارع تارة أخرى، وكان قد بدا له من المضحك في هذه المرة أن ثمة أناسًا يبتهجون بالغناء عن دفن عاهرة، وتمتمت ماشا:

- فاسيلي... فاسيليتش.

وتقلبت على السرير كالمحروقة، وألقت باللحاف عنها إلى الأرض، وتجمدت باسطة ساعديها على رحبهما؛ كان فمها نصف مفتوح، وهي تشخر، فأسرع لونيف للانحناء عليها، مخافة أن تكون تعاني سكرات الموت، ثم غطاها باللحاف، وقد طمأنه تنفسها، وتسلق على أرضية النافذة وأسند وجهه على حديد شبكتها، متطلعًا إلى نوافذ بيت غروموف؛ كانوا هناك لا يزالون يغنون، بصوت منفرد حينًا، وثنائي حينًا آخر، ويغنون غناء جوقة. وكانت الموسيقى تصدح، والضحك يلعلع. ومن النوافذ كانت تتلامح نسوة عليهن ملابس بيضاء ووردية وزرقاوية. وكان إيليا يستمع إلى الأغاني ويفكر في حيرة متسائلًا في نفسه كيف يستطيع هؤلاء الناس أن يغنوا أغاني رتيبة حزينة عن الفولجا، وعن الدفن، والحقل غير المحروث، ويضحكون بعد كل أغنية كأن ليس في الأمر شيء، وكأنما ما كانوا هم المغنون... أتراهم بالحزن أيضًا يتسلون؟

وكلما ذكرته ماشا بوجودها، كان ينظر إليها نظرة بلهاء، ويتساءل في نفسه عما سيحدث لها... تأتي تاتيانا فجأة فتراها... فماذا ينبغي له أن يفعل بماشا؟ كان يشعر كأنما هو في دوار. وحين أدركه النعاس، نزل عن برطاش النافذة، وتمدد على الأرض قرب السرير، ووضع المعطف تحت رأسه، ورأى في منامه أن ماشا قد ماتت وهي منطرحة على الأرض وسط عنبر كبير، ومن حولها سيدات بيض وزرق ورديات، ينشدن المراثي عليها، وحين ينشدن المراثي الحزينة يقهقهن على غير إيقاع النشيد، وإذا هن غنين غناء مرحًا، رحن يبكين مُر البكاء، ملوحات برؤوسهن في حزن وأسى، ماسحات دموعهن بمناديل بيض. وكان العنبر مظلمًا، رطبًا، وفي زاويته يقف الحداد سافيول يصنع شبكة حديدية، ضاربًا بالمطرقة بصخب على قضبان متوهجة، وعلى سطح العنبر يسير أحدهم ويصيح:

- إي...ليا!

أما هو، إيليا، فمستلق في العنبر نفسه، مربوطًا بشيء ما ربطًا شديدًا، يصعب عليه أن ينفتل، ولا يستطيع الكلام.

- إيليا! قم، من فضلك.

وفتح عينيه فأبصر بافل غراتشيف، وقد كان بافل جالسًا على الكرسي يدفر برجله قدميه، وشعاع ساطع من الشمس نافذ إلى الغرفة، ينير السماور وهو يغلي على الطاولة، فراح يطرف بعينيه، وقد

بهره النور.

- اسمع، يا إيليا.

كان صوت بافل أجش، كأنما ذلك نتيجة لسكرة طويلة، ووجهه شاحبًا، وشعره أشعث، فنظر إليه إيليا وهب واقفًا عن الأرض، صائحًا بصوت خفيض:

- ماذا؟

- وقعت! - قال بافل، ملوحًا برأسه.

- ما هذا؟ أين هي؟ - سأل لونيف منحنيًا عليه، ممسكًا إياه بكتفه، فترنح بافل ودمدم في حيرة وذهول:

- حبسوها.

- لأي شيء؟ - سأل إيليا هامسًا بصوت مرتفع.

واستيقظت ماشا، فارتعدت لمرأى بافل، مثبتة في وجهه عينين وجلتين. ومن باب المخزن كان يتطلع غافريك، طاويًا شفتيه بشكل يعبر عن الامتعاض.

- يقولون... سرقت حافظة نقود من أحد التجار.

فدفر إيليا رفيقه في كتفه، وتنحى عنه صامتًا.

- ضربت مساعد رئيس الشرطة... على سحنته.

- طبعًا. - قال إيليا، وقد ابتسم ابتسامة صارمة جافة- ما دامت قد وقعت في الحبس، فلا مخرج لها.

وإذ أدركت ماشا أن لا شأن لها بكل هذا، ابتسمت فقالت في هدوء:

- ليتني أنا في الحبس.

فتطلع بافل إليها ثم إلى إيليا، فسأله إيليا:

- أما عرفتها؟ إنها ماشا، بنت بيرفيشكا، أتتذكرها؟

- آ-آ. - أجاب بافل ماطًّا كلامه دون اكتراث، وأعرض عن ماشا، مع أنها قد عرفته فابتسمت له.

- إيليا. -قال غراتشيف متجهمًا- وماذا لو كانت أقدمت على ذلك من أجلي؟

كان لونيف جالسًا على السرير عند قدمي ماشا، أشعث الشعر، ووجهه لم يُغسل بعد، وفيما هو يتطلع إليها تارة، وإليه تارة أخرى، كان يشعر بالذهول يستولي عليه، فراح يقول ببطء:

- كنت أعلم أن هذه الحكاية لن تنتهي على خير.

- لم تكن تسمع كلامي. - قال بافل بصوت متهدم.

- أي...وه! - صاح لونيف بلهجة ساخرة- القضية كلها هي في أنها ما كانت تطيعك! وما كان بوسعك أن تقول لها؟

- كنت أحبها.

- ولأي قرد هي بحاجة لحبك؟

وأخذ لونيف يفور ويغلي، فقد كانت هذه الحكايات كلها -حكايات ماشا وبافل- تثير في نفسه الحنق؛ وإذ لم يكن يدري أين ينبغي له أن يصب هذا الشعور، فقد صبه على رفيقه.

- كل امرئ يود أن يعيش عيشة نظيفة بهيجة، وهي أيضًا تود ذلك.. أما أنت فتقول لها: أنا أحبك، وإذن فعليك أن تعيشي معي وتحتملي جميع الحرمانات..

أتعتقد أن هذا ما ينبغي؟

- وكيف ينبغي أن أتصرف؟ - سأل بافل باقتضاب وهدوء.

فبرّد هذا السؤال لونيف بعض الشيء، فراح يفكر على غير إرادة منه.

وأطل غافريك من المخزن.

- هل أفتح المخزن؟

فصاح لونيف باهتياج:

- الله يخربه! أي بيع وشراء هنا!

- هل أزعجك؟ - قال بافل.

كان جالسًا على الكرسي منحني الظهر، مسندًا كوعيه إلى ركبتيه، متطلعًا إلى الأرض، وعلى صدغه ينبض بتوتر عرق محتقن بالدم.

- أنت! - صاح لونيف بدهشة، وهو ينظر إليه- إنك لا تزعجني، وماشا لا تزعجني... ثمة ما يزعجنا جميعًا... أنت، وأنا، وماشا... الحماقة أم ماذا؟ لست أدري...

كل ما في الأمر أن لا وسيلة للعيش عيشة البشر! لست أحب رؤية أي حزن، وأي قباحات... الآثام وأي سفالة من السفالات... لا أريدها! ولكني أنا نفسي...

والتزم الصمت، وشحب وجهه، فقال له بافل ملاحظًا:

- أنت دائم التحدث عن نفسك.

- وأما أنت... فعن مَن؟ - سأل إيليا بلهجة ساخرة- لكل امرئ وجعه، وكلٌّ بصوته ينوح. أنا لا أتكلم عن نفسي، بل عن الجميع؛ ذلك لأن الجميع يزعجونني.

- أنا ذاهب. -قال غراتشيف وقد نهض عن الكرسي بتثاقل.

- إيه! -صاح إيليا- عليك أن تفهم، ولا تغضب.

- أنا، يا أخ، كمن أصيب بحجر على رأسه... إني آسف على فيرا.. فما العمل؟

فقال إيليا بلهجة قاطعة:

- لا مجال للعمل. ليكن في علمك أنها ضاعت؛ سيحكمون عليها.

ومن جديد، جلس بافل على الكرسي، ثم سأل:

- وإذا أبلغت أنها إنما فعلت ذلك من أجلي؟

- أنت يا أمير! قد يحشروك أنت أيضًا في السجن... طيب... علينا أن نرتب أمورنا. ماشا، نحن ذاهبان إلى المخزن، أما أنتِ قومي البسي... وأعدّي لنا الشاي.

فارتعدت ماشا، فسألت إيليا، وقد رفعت رأسها عن الوسادة- أعليّ أن أذهب إلى البيت؟

- بيت الإنسان.. حيث لا يعذبونه على الأقل.

وحين دخلا المخزن، سأل بافل عابسًا:

- لماذا هي عندك؟ كم هي هزيلة!

فحدثه لونيف عن الأمر باقتضاب، وأدهشه أن حكاية ماشا كأنما قد أنعشت غراتشيف.

- يا للشيطان العجوز! - قال بافل شاتمًا الحانوتي، بل ابتسم أيضًا.

كان إيليا واقفًا إلى جانبه يتطلع إلى مخزنه، قائلًا:

- قلت لي منذ وقت غير بعيد إن هذه الموسيقى كلها لن تبعث الطمأنينة في نفسي.

واندار على المخزن بحركة واسعة، وراح يهز رأسه، وعلى وجهه ابتسامة مغيظة.

- تمام. إنها لا تبعث الطمأنينة... أي مغنم لي في أن أبيع وأشتري، وأنا واقف في مكان واحد؟ إني محروم من الحرية؛ ليس في وسعي الخروج. كان الواحد يتمشى في الشوارع، حيث يشاء... فيجد مكانًا أفضل وأجلب للراحة، فيقعد، ويروق له الجو... أما الآن فإني منتصب هنا من يوم إلى آخر، ولا شيء غير هذا.

- ليتك تأخذ فيرا مستخدمة. - قال بافل.

فألقى إيليا إليه بنظرة ولاذ بالصمت.

ودعتهما ماشا، قائلة:

- تعالوا.

وأثناء تناول الشاي، كان الثلاثة لا يكادون يتبادلون الحديث. وفي الشارع كانت الشمس قد أشرقت، وعلى الرصيف يطبطب صبية حفاة، ومن أمام النافذة يمر باعة الخضار.

كان كل شيء ينم عن الربيع، عن الأيام الحلوة الدافئة المشرقة، أما في الغرفة فتعبق الرطوبة، ومن حين لآخر تنطلق كلمة كئيبة خافتة، والسماور يبقبق، والشمس تنعكس عليه.

- إننا جالسون كأننا في مأتم! - قال إيليا.

- على فيرا؛ - أضاف غراتشيف- فأنا قاعد وفكري يقول لي: «فما إذا كنت أنا الذي دفعت بها إلى السجن؟».

- بل إن هذا لممكن جدًّا. - أكد إيليا بقسوة.

فنظر غراتشيف إلى رفيقه نظرة لوم وتبكيت.

- أنت شرس!

- وأنّى لي أن أكون لطيفًا شفوقًا؟ - صاح إيليا- ومن ذا الذي مسح رأسي؟ لعل شخصًا واحدًا كان يحبني... وهو امرأة عاهرة!

واحمر وجهه من دفق الهيجان اللاهب، واحتقنت عيناه بالدم، وانتفض عن الكرسي بفورة من الحنق، وقد تملكته رغبة في الصراخ والشتم وتخبيط الطاولة والجدران بقبضتيه.

ولكن ماشا ارتعبت منه، فراحت تبكي كالطفل بكاء عاليًا شجيًّا.

- أنا ذاهبة... اتركاني. - قالت من خلال الدموع بصوت راجف، وأسدلت رأسها تهزه، كأنما تود إخفاءه في مكان ما.

ولزم لونيف الصمت؛ فقد كان يرى أن بافل أيضًا ينظر إليه نظرة عداء، ثم قال مغضبًا:

- ما لكِ تبكين؟ فما كنت أصرخ عليكِ... ليس لديك مكان تذهبين إليه، أما أنا فذاهب، إني مضطر لذلك... أما بافل فسيقعد معك... غافريك.. إذا جاءت تاتيانا فلاسييفنا... من هذا أيضًا؟

كان الباب المؤدي إلى الباحة يقرع، فألقى غافريك على صاحب المخزن نظرة تساؤل، فقال له إيليا:

- افتح.

وعلى عتبة الباب ظهرت أخت غافريك، ظلت بضع ثوان واقفة بلا حراك، منتصبة القامة، شامخة

برأسها، تتطلع إلى الجميع بعينين موصوصتين، ثم بدت على وجهها القبيح الجاف تكشيرة قرف، فقالت لأخيها، غير مجيبة على تحية إيليا:

- غافريك، تعال إليّ دقيقة.

واحتقن إيليا، وتدفق الدم إلى وجهه من المهانة بقوة جعلت عينيه تتأججان، وقال برزانة ووقار:

- ولكن عليك، يا آنسة، أن تردي التحية إذا حييت!

فزادت من شموخ رأسها، وتقطب حاجباها، وراحت، وشفتاها مطبقان بشدة، تقيس إيليا بعينيها، وما نطقت بكلمة، وكذلك كان غافريك يتطلع إلى صاحب المخزن بغضب. واستأنف لونيف يقول، مرتجفًا من شدة التوتر:

- إنكِ ما جئتِ لعند سكارى، ولا لعند غشاشين نشالين، تُستقْبَلين باحترام... وعليكِ، بوصفك آنسة متعلمة، أن تردي بمثل ذلك.

- لا تتبختري يا صوفيا. - قال غافريك فجأة بصوت مسالم، وأقبل عليها فوقف إلى جانبها، ممسكًا بيدها.

وحل صمت ثقيل، وكان إيليا والفتاة ينظران أحدهما إلى الآخر بتحد، وينتظران شيئًا ما. وتنحت ماشا إلى الزاوية بهدوء، وراح بافل يطرف بعينيه ببلاهة.

- أيوه، تكلمي، يا صوفيا. - قال غافريك وقد فرغ صبره- تظنين أنهم يريدون الإساءة إليك؟ - سألها أخوها، ثم أضاف قائلًا، وقد ابتسم على نحو غير متوقع: - إنهم... غريبو الطباع!

فشدته أخته من يده، وسألت لونيف بجفاف وحدّة:

- ماذا تريد مني؟

- لا شيء، بس...

ولكن فكرة طيبة نيّرة ولدت إذ ذاك في رأسه، فخطا نحو الفتاة، وشرع يقول لها بأقصى ما استطاع من التأدب:

- اسمحي بأن نقترح عليك... إننا هنا، كما ترين، ثلاثة... من الناس الجهلة، غير المتعلمين... وأنت متعلمة.

وقد كان في عجلة إلى عرض فكرته فما استطاع ذلك؛ فقد منعته النظرة الثابتة الصارمة من عينيها، وكأنما كانتا تصدانه عنها، فأسبل إيليا عينيه وتمتم بارتباك وانزعاج:

- لست أستطيع قول ذلك على الفور، فإذا كان لديك متسع من الوقت، فتعالي اجلسي قليلًا.

وارتد عنها.

- قف هنا.. يا غافريك. - قالت الفتاة، ومضت إلى الغرفة، مبقية أخاها عند الباب، فدفع لونيف إليها بمقعد خشبي، فجلست. وذهب بافل إلى المخزن، وتقوقعت ماشا خائفة في الزاوية قرب المدفأة، أما لونيف فقد وقف بلا حراك على قيد خطوتين من الفتاة، وهو لا يزال عاجزًا عن مباشرة الحديث، فقالت له:

- أيوه؟

فشرع إيليا يقول، منحبس الأنفاس:

- هاك... ما المسألة... تصوري... فتاة، لا فتاة، بل متزوجة من شيخ، يجور عليها، هربت وجسمها كله محطم مقروص، جاءت لعندي... وأنتِ، يمكن، تظنني سوءًا؟ ما من شيء.

كان يتكلم متلعثمًا، مخطئًا في الكلمات، وقد ازدوج بين الرغبة في سرد حكاية ماشا، وعرض فكرته بصدد هذه الحكاية على الفتاة؛ فقد كان جد راغب في أن يعرض أفكاره بالذات على المستمعة، وكانت هي تنظر إليه وقد غدت نظرتها أكثر طراوة، فقطعت كلامه قائلة:

- أنا فاهمة... إنك لا تدري كيف ينبغي أن تتصرف؟ قبل كل شيء يجب الذهاب إلى الدكتور، فليفحصها هو، وأنا أعرف طبيبًا، فهل تريد أن آخذها؟ غافريك، انظر كم الساعة؟ الحادية عشرة؟ عال، هذه ساعة الاستقبال... غافريك، ناد حوذيًّا.. وأما أنت، فعرفني بها.

ولكن إيليا لم يتزحزح من مكانه، فما كان يتوقع أن تكون هذه الفتاة المترصنة القاسية قادرة على الكلام بمثل هذا الصوت الناعم. وقد أدهشه وجهها أيضًا، فبعد أن كان مزهوًّا على الدوام، بات الآن مهمومًا فقط، ومع أن فتحتي الأنف قد ازدادتا فيه اتساعًا، فقد كان ينطوي على طيبة وبساطة لم يسبق لإيليا أن رآهما، فراح يتأمل الفتاة، ويبتسم صامتًا ابتسامة مرتبكة.

أما هي فكانت قد تحولت عنه، وأقبلت على ماشا، ومضت تقول لها بهدوء:

- لا تبكي، يا عيني، لا تخافي... الدكتور رجل طيب، سيفحصك، ويعطيك ورقة... وبس! وسأجيء بك إلى هنا... أيوه، يا حبيبتي، لا تبكي.

وحطت يديها على كتفي ماشا وهمت بأن تضمها، فصدرت عن ماشا أنّة خافتة:

- أوي... يؤلمني.

- ماذا يؤلمك هنا؟

كان لونيف يستمع والابتسامة لا تزال على وجهه.

- الشيطان يعرف ماذا! - صاحت الفتاة منفعلة، وهي تبتعد عن ماشا، وشحب وجهها، وشع في عينيها الاستنكار والغضب.

- كم هي محطمة... ويلاه!

- هاك كيف نعيش! - قال لونيف بانفعال، وقد احتقن وجهه بالدم من جديد،- أرأيت؟ وفي وسعي أن أريك الآخر، هاك، إنه واقف، اسمحي بأن أعرفك عليه؛ رفيقي بافل سافيوليتش غراتشيف.

فمد بافل يده إلى الفتاة، دون أن ينظر إليها.

- ميدفيديفا، صوفيا نيكونوفنا. - قالت وهي ترمق وجه بافل الحزين، ثم أردفت مخاطبة لونيف: - أما أنت فتُدعى إيليا ياكوفليفيتش!

- هكذا بالضبط. - أكد إيليا منتعشًا، مصافحًا يدها بقوة، واستطرد يقول دون أن يفلت يدها: - إليك المسألة... ما دمت هكذا... يعني إذا أخذت على عاتقك الواحد، فلا تقرفي من الآخر.. فثمة أيضًا عقدة.

كانت تنظر بانتباه وجدية إلى وجهه الجميل المنفعل، محاولة بلطف تخليص يدها من بين أصابعه، ولكنه راح يحكي لها عن فيرا، وعن بافل، ويحكي بحرارة وحماسة، ولقد كان يهز يدها بقوة ويقول:

- كان ينظم قصائد، وأي قصائد! ولكنه احترق في هذه القضية بكل كيانه، وكذلك هي... أتعتقدين أنها إذا كانت على هذه الشاكلة، فلا مجال للقول؟ كلا، لا تعتقدي هذا الاعتقاد! فالإنسان ليس أبدًا خيرًا كله، ولا شرًّا كله!

- كيف؟ - سألت الفتاة.

- أعني أن الإنسان حتى إذا كان سيئًا، فإن فيه جانبًا من الطيبة، وإذا كان طيبًا فإن فيه جانبًا من السوء... فالنفوس لدينا، لدى الجميع، مبرقشة، لدى الجميع.

- إنك تجيد في كلامك هذا، - قالت الفتاة مؤيدة له، هازة رأسها بوقار- ولكن دع يدي، من فضلك؛ فقد أوجعتها!

فراح إيليا يلتمس منها المعذرة، ولكنها كانت لم تعد تسمعه، وهي توجه المواعظ إلى بافل بالحجة والبرهان:

- هذا عيب، هكذا لا يجوز.. ينبغي بذل المساعي؛ يجب البحث عن مدافع عنها، محام، فاهم؟ وسأجده لك، سامع؟ ولن يصيبها شيء؛ إذ إنهم سيقضون ببراءتها... أعطيك كلام شرف.

كان وجهها مصطبغًا بالحمرة، وشعرها مشعثًا على صدغيها، وعيناها ملتهبتين.

وكانت ماشا، وهي واقفة إلى جانبها، تنظر إليها بفضول سريع الثقة والتصديق، هو فضول الطفل. أما لونيف، فراح يتطلع إلى ماشا وبافل بنظرات المنتصر، وبهيئة مترصنة، مزهوًّا بوجود هذه الفتاة في غرفته، ثم قال بصوت راعش:

- إذا كنت بالفعل تستطيعين المساعدة... فساعدي.

- تعال لعندي في الساعة السابعة، مليح؟ وغافريك يقول لك أين.

- سآتي، أما الشكر لك فلا أستطيع التعبير عنه.

- لندع هذا؛ فلزام على الناس أن يساعدوا بعضهم بعضًا.

- وهم يساعدون. - قال إيليا بسخرية.

فالتفتت الفتاة إليه بسرعة، ولكن غافريك، شعر على ما يبدو، بأنه الشخص الوحيد الصامد السليم التفكير وسط ذلك الاختباط والتشوش، فشد أخته من يدها وقال لها:

- ولكن اذهبي أنت.

- ماشا، ارتدي ملابسك.

- ليس عندي ما ألبسه. - أعلنت ماشا في خجل.

- آه... وليكن. هيا بنا... أنت ستأتي، يا غراتشيف، نعم؟ خاطرك، إيليا ياكوفليفيتش.

وصافحها الرفيقان باحترام وصمت، فمضت تسير بماشا ممسكة بيدها، ولكنها التفتت من جديد عند الباب، فقالت لإيليا شامخة برأسها:

- نسيت... إني لم أبادلك التحية... هذه قلة أدب، وأنا أعتذر، سامع؟

وتضرج وجهها وانسبلت عيناها خجلًا، وكان إيليا ينظر إليها والبهجة تغمر قلبه.

- المعذرة... حسبت أن لديكم... قصفًا.

وتوقفت، كأنما هي تبتلع كلمة ما.

- أما حين... وبختني، فقد قلت في نفسي... إنه صاحب المخزن يتكلم، وقد أخطأت.. وإني لسعيدة جدًّا؛ فقد كان هذا شعور الكرامة البشرية.

وشع كل كيانها بابتسامة طيبة مشرقة، ثم قالت بحرارة وغبطة، كأنما هي تستعذب الكلمات:

- إني جد سعيدة بأن انتهى كل شيء هكذا، نهاية رائعة الطيبة.. رائعة الطيبة!

وانصرفت مبتسمة، كأنها سحابة رمادية صغيرة مضاءة بنور الفجر، وشيعها الرفيقان بنظراتهما. كان وجهاهما كليهما في حلة من الأبهة، وإن يكن يشوبهما شيء يبعث عى الضحك، ثم ألقى لونيف بنظرة على الغرفة، وقال دافرًا بيده بافل:

- ظريف؟

فضحك هذا ضحكة خافة، وأردف لونيف وقد أرسل تنهدة خفيفة:

- أي نعم... إنها شخصية! كيف رأيتها... آ؟

- كالريح، بددت كل شيء!

- أيوه... أرأيت؟ - قال إيليا باحتفال، نافشًا شعره الأجعد بحركة من يده- وكيف اعتذرت، آ؟ هذا هو الشخص المتعلم الحقيقي الذي يستطيع احترام كل شخص، ولكنه هو نفسه لا يكون البادئ بالتحية لأي أحد! فاهم؟

- شخصية طيبة. - أكد غراتشيف، مبتسمًا.

- لمعت كالنجمة.

- أي نعم... وفي الحال أدركت كل شيء، ووضعت كل شيء موضعه.

وضحك لونيف ضحكة عاصفة؛ فقد ابتهج لكون الفتاة المزهوة قد ظهرت على مثل هذه البساطة والنشاط، وارتاح لكونه قد استطاع أن يسلك حيالها المسلك اللائق.

وكان غافريك يفتل من حولهما وقد أدركه الضجر، فأمسك به إيليا من كتفه، وقال له:

- غافريك.. إن أختك لباسلة.

فقال الصبي متسامحًا:

- إنها طيبة. هل سنبيع ونشتري اليوم؟ وإلا فليكن لدينا يوم من قبيل العيد... فأذهب إذ ذاك إلى الحقول.

- لا بيع وشراء اليوم.. فهيا بنا، يا أخي بافل، نتنزه نحن أيضًا.

فقال غراتشيف وقد اكتأب من جديد:

- أنا ذاهب إلى الشرطة؛ فقد تتيسر لي المقابلة.

- أما أنا، فذاهب للنزهة.

وبانطلاق وانشراح، كان يمشي في الشارع غير متعجل، مفكرًا بالفتاة، مقارنًا بينها وبين الناس الذين أُتيح له أن يقابلهم حتى ذلك الحين، وفي ذاكرته ترن كلمات اعتذارها منه، وهو يتصور وجهها المعبر بكل خط من ملامحه، عن تطلع مستديم إلى شيء ما.

«وكيف كانت تقاطعني أول الأمر؟» - قال في نفسه متذكرًا، وراح يمعن تفكيرًا في سبب مباشرتها حياله ذلك المسلك المتعالي المغضب، دون أن تكون على معرفة به، ودون أن تتبادل معه كلمة من القلب؟

كانت الحياة من حوله في غليان؛ تلامذة يمشون ضاحكين، وعجلات تمر موسوقة بالبضائع، وعربات تجري، ومتسول يعرج خابطًا حجارة الرصيف برجله الخشبية خبطًا صاخبًا، وسجينان مخفوران يحملان بالعتلة برميلًا يحتوي على شيء ما، وكلب صغير، يتدلى لسانه، يمشي متكاسلًا...

وكان الهدير، والقرقعة، والصيحات، ووقع الأقدام، وكل شيء يندغم في ضجيج حي مثير. وفي الهواء يرتفع غبار دافئ يدغدغ المناخر، والشمس لاهبة في السماء الصافية العميقة، تسكب على كل ما في الأرض وهجًا حارًّا، ولونيف يتطلع إلى كل شيء بارتياح لم يعد له به عهد منذ وقت بعيد، وقد كان كل شيء ذا لون خاص يسترعي الاهتمام؛ هي ذي فتاة حسناء، ذات وجه وردي ينبض بالحيوية، ذاهبة إلى مكان ما، تنظر إلى إيليا نظرة صافية حلوة، كأنما تهم بأن تقول له:

«كم أنت لطيف!».

وابتسم لها لونيف.

ويركض صبيّ، خارجًا من مخزن، وبيده إبريق شاي نحاسي، فيسفح الماء البارد، فيصيب رذاذه أرجل المارة، ويقرقع غطاء الإبريق بمرح. والجو في الشارع حار خانق صاخب، وأشجار الزيزفون الكثيفة المعمرة في مقبرة المدينة تجتذب المرء إليها، إلى السكينة والظل الرطيب. وإلى السماء تتصاعد بموجة عارمة تلك الخضرة الضخمة في المقبرة القديمة، مطوقة بالسور الحجري الأبيض، وقمة الموجة مكللة بدانتلا من الأوراق الخضر، كأنها الزبد. وهناك، في الأعالي، ترتسم كل ورقة في السماء الزرقاء ارتسامًا دقيقًا، وترتعش بهدوء، كأنما هي تذوب.

واجتاز لونيف سور المقبرة، وراح يسير الهوينا في ممشى عريض، مستنشقًا بعمق عبير الزيزفون العطر، وبين الأشجار وفي ظلال أغصانها كانت تقوم أنصاب من رخام وجرانيت، جسيمة، ثقيلة، يغطي جوانبها الطحلب، وهنا وهناك يتلامع في غبش الظلام صلبان مذهبة شاحبة الألق، وأحرف الكتابات عبثت بها أيدي الزمن، وقد نمت في الأسيجة شجيرات زهر العسل، والأكاسيا، والزعرور، والبيلسان، فغطت القبور بأغصانها. وفي أمواج الخضرة الكثيفة يتلامح في هذا المكان وذاك صليب من خشب أغبر اللون، تحتضنه من جميع جوانبه أغصان رفيعة، وجذوع أشجار البتولا البيضاء تشع بمخملها خلال شبكة الأوراق الكثيفة، وكأنما تعمدت، وهي اللطيفة المتواضعة، التواري في الظل لكي تكون أكثر بروزًا للعيان، وخلف قضبان الأسيجة، وعلى التلال الخضر، تتألق زهور متعددة الألوان، وفي السكون يطن زنبور، وفي الهواء تتلاعب فراشتان بيضاوان، ويحوّم نوع من البرغش من دون حس... وفي كل مكان تشرئب من الأرض إلى النور أعشاب وشجيرات، فتغطي القبور المتواضعة، وقد كانت كل خضرة المقبرة منصرفة إلى السعي الجاهد للنمو والاتساع، والتهام النور والهواء، وتحويل نسغ التربة الدسمة إلى ألوان وروائح ونضرة تطيب للقلب وتلذ للعين؛ فالحياة تنتصر في كل مكان، والحياة تتغلب على كل شيء.

وقد استطاب لونيف النزهة في أحضان السكينة، مستنشقًا ملء رئتيه روائح الزيزفون والزهور العطرة، ولقد كان كل شيء في داخلته أيضًا ساكنًا مطمئنًا، فهو يريح نفسه غير مفكر بشيء، مستمتعًا بهناءة الوحدة وقد بَعُدَ عهده بها.

وانعطف من الممشى يسارًا إلى درب ضيق ومضى يتمشى فيه، قارئًا الكتابات على الصلبان والأنصاب. وكانت تحيط به وتزحمه أسيجة القبور، وكلها غنية، مزخرفة، مطروقة من الحديد، أو مسكوبة.

«تحت هذا الصليب يرقد جثمان عبد الرب فونيفاتي»- قرأ هذا وابتسم؛ فقد بدا له الاسم مضحكًا، وكان موضوعًا فوق رفات فونيفاتي حجر ضخم من الجرانيت الرمادي، وإلى جانبه، داخل سياج آخر، يرقد بيوتر بابوشكين، في الثامنة والعشرين من العمر.

فقال إيليا في نفسه: «إنه لشاب».

وقرأ على رخامة بيضاء متواضعة بشكل عمود:

افتقدت الأرض زهرة...

واغتنت السماء بنجمة!

فراح لونيف يفكر بهذين الشطرين، شاعرًا فيهما بما يهز أوتار القلب، ولكنه ما لبث أن أحس كأن شيئًا قد صدمه في قلبه مباشرة، فأغمض عينيه إغماضًا شديدًا، وهو يترنح. إلا أنه، مع إغماضه عينيه، كان يبصر بجلاء الكتابة التي صعقته؛ إنها أحرف ذهبية لماعة على رخامة سمراء كأنما تحفر في رأسه حفرًا:

«هنا يرقد يرقد جثمان التجر من النخبة الثانية فاسيلي غافريلوفيتش بولوئيكتوف».

وبعد بضع ثوان خاف لونيف من خوفه، وسرعان ما فتح عينيه فأخذ يتفحص الدغل المحيط به بنظرات ارتياب، فما وقعت عينه على أحد، إنما كان ثمة قداس يرتل في مكان بعيد، وفي غمرة السكينة ينداح صوت الكاهن هاتفًا بنبرة عالية بعض الشيء:

- نبتهل إليك يا.... رب.

فيجيب صوت غليظ، كأنما هو ممتعض من شيء ما:

- يا.... رب... ارحم!

وبالكاد كانت تصل إلى السمع وسوسة مبخرة.

وكان لونيف يتطلع إلى قبر الرجل، قتيل يده، مستندًا بظهره إلى جذع شجرة قيقب، وقد ضغط مؤخرة الكاسكيت على الشجرة، فارتفعت عن جبينه، وتقطب حاجباه، وارتعشت شفته العليا، كاشفة عن أسنانه، ودس يديه في جيبي الجاكيت، واعتمد برجليه على الأرض.

كان نصب بولوئيكتوف يمثل ضريحًا، منحوت على سطحه كتاب مفتوح، وجمجمة وعظام ساق مرصوفة على صورة صليب، وإلى جانبه، داخل ذلك السياج، يقوم ضريح آخر، أصغر منه، وعليه كتابة تذكر أن الراقدة تحته هي عبدة الرب إيفبراكسيا بولوئيكتوفا، وعمرها اثنان وعشرون عامًا.

فقال لونيف في نفسه: «إنها الزوجة الأولى»، وقد فكر في هذا بذلك الجزء الصغير من دماغه، الذي ظل غير منشغل بعمل ذاكرته المتوتر؛ فقد كان بكل كيانه منهمكًا بالذكريات عن بولوئيكتوف، عن أول لقاء معه، عن كيفية خنقه إياه، وعن هذا الشيخ كيف كان يبلل بلعابه يديه. ولكن لونيف ما كان،

وهو يتذكر كل هذا، ليشعر بأي هلع وبأي ندامة؛ فقد كان ينظر إلى الضريح بكراهية، وغضب في النفس، وألم، وبصمت، واستنكار في القلب، وثقة عميقة بصحة كلماته، راح يخاطب التاجر:

«بجريرتك، يا لعين، خربت حياتي كلها، بجريرتك! إنك لشيطان هرم! فكيف سأعيش؟ لقد تلوثت بك إلى الأبد».

ولقد كان يود لو يصرخ بكل قواه، وبالكاد كان يستطيع كبح هذه الرغبة العاصفة في نفسه. كان يمثل أمامه وجه بولوئيكتوف الضئيل الهزيل، ورأس ستروغاني الأصلع الغضوب، بحاجبيه الأشقرين، وسحنة بتروخا المعجب بنفسه، وكيريك المغفل، وخرينوف الأشيب، الأفطس الأنف، الصغير العينين؛ شلة كاملة من المعارف. ولقد كان في أذنيه ضجيج، وإنه ليشعر بأن هؤلاء الأشخاص جميعًا يطوقونه، ويضيقون عليه الخناق، ويزحفون نحوه مباشرة وبخطوات راسخة لا تتزعزع.

فانتفض عن الشجرة، وسقطت الكاسكيت عن رأسه، وإذ انحنى لرفعها لم يستطع صرف عينيه عن نصب الصراف المتعامل بالمسروقات، وانحبست أنفاسه، وساءت حاله، واحتقن وجهه بالدم، وآلمته عيناه من شدة التوتر، فصرفهما عن الحجر بكثير من الجهد، وتقدم نحو السياج حتى بات لصقه، فأمسك القضبان الحديدية بيديه، وبصق على الضريح، تعصف به الكراهية عصفًا... ولقد كان، وهو يبتعد عنه، يقرع الأرض بأقدامه كأنما يود إيلامها.

ما كان يشتهي العودة إلى البيت؛ فقد كان يشعر بألم في نفسه وبسأم عليل يشد عليه الخناق، فراح يمشي الهوينا، غير ناظر إلى أحد، ولا مهتم بشيء، ولا مفكر، واجتاز أحد الشوارع، وانعطف تلقائيًّا لدى الناصية، وتابع سيره قليلًا، فأدرك أنه على مقربة من مطعم بتروخا فيليمونوف، وتذكر ياكوف. وحين بلغ بوابة دار بتروخا، بدا له أن عليه أن يقوم بزيارة عابرة لها، وإن يكن غير راغب بهذه الزيارة. وفيما هو يصعد درجات الباب الخلفي، ترامى إلى سمعه صوت بيرفيشكا:

- رحمة بأيديكم، أيها الناس الطيبون، لا تكسروا أضلاعي.

فوقف لونيف في الباب المفتوح، ومن خلال سحب الغبار ودخان التبغ، أبصر بياكوف خلف البوفيه، وقد كان هذا مصقول الشعر عليه ردنكوت أبتر، قصير الكمين، منهمكًا، يصب الشاي في الأباريق، ويعد قطع السكر، ويسكب الفودكا، ويحرك درج النقود بصخب، والمستخدمون يتراكضون إليه صائحين، وهم يلقون بالفيشات على البوفيه:

- نصف زجاجة.. اثنين بيرة.. بعشرة لحم مشوي.

فقال لونيف في نفسه بفرح خبيث، وقد رأى كيف تتلامح في الفضاء يدا رفيقه الحمراوان: «تعلم الصنعة!».

وحين أقبل لونيف على البوفيه، أطلق ياكوف صيحة تعبر عن الارتياح، وألقى في الحال نظرة قلقة إلى الباب القائم خلفه. كان جبينه مبتلًّا بالعرق، وخداه شاحبان، وعليهما بقع حمر، وقد تلقف يد إيليا وراح يهزها، وهو يسعل سعالًا جافًّا.

- كيف حالك؟ -سأل إيليا، وقد أرغم نفسه على الابتسام- كدنوك؟

- وما العمل؟

كان كتفا ياكوف منسدلين، وكأنما قامته قد قصرت، وقد قال وهو يتطلع إلى وجه إيليا بعينين طيبتين مكتئبتين:

- من زما...ن لم ير أحدنا الآخر! لعلنا نتحادث قليلًا. أبي، بالمناسبة، غير موجود... هاك؛ تعال أنت إلى هنا، وأنا سأرجو زوجة أبي بأن تتولى أمر البيع.

وفتح باب غرفة أبيه، وصاح بلهجة احترام:

- خالتي.. دقيقة واحدة من فضلك.

ودخل إيليا تلك الغرفة، التي كان يسكنها ذات حين مع عمه، وراح يتأملها بإمعان؛ كل ما طرأ عليها اسوداد كسوة الجدار الورقية، وقد قام بدل السريرين سرير واحد، من فوقه رف تشغله الكتب، وفي المكان الذي كان ينام فيه إيليا يقوم صندوق عال غليظ الشكل.

- ها أنا قد تحررت لمدة ساعة. - أعلن ياكوف مبتهجًا وهو يدخل ويغلق الباب بالمزلاج- أتريد شايًا؟ عال... إيفا...ن، شاي.- وقد صاح فانتابه السعال، وظل يسعل طويلًا، مستندًا بيده على الجدار، مسدلًا رأسه، محنيًا ظهره كأنما يهم بأن يقذف شيئًا من صدره.

- سعالك كقرع المطارق!- قال لونيف.

- إني أتلاشى... أنا سعيد برؤيتك من جديد؛ ها أنت قد أصبحت شخصًا ذا شأن... أيوه، كيف حالك؟

- أنا... ماذا؟ - قال لونيف غير مجيب على الفور- أنا ماشي الحال، ولكن يهمني أن أعرف كيف حالك أنت؟

ما كان لونيف يشعر برغبة في الحديث عن نفسه، ولا كانت لديه رغبة في الكلام بوجه عام، وقد راح يتأمل ياكوف ويرثي لحال رفيقه؛ إذ يراه فيما هو عليه من محنة، ولكنه كان رثاءً فاترًا، كان شعورًا تافهًا غير ذي محتوى. وبصوت خافت قال ياكوف:

- أنا، يا أخ... أحتمل حياتي بكثير من الجهد.

- أبوك امتص منك الدم.

ومن وراء الجدار كان بيرفيشكا يقرع الكلام منشدًا، عازفًا على الهارمونيكا:

وللروبل، يا صاح، ما حاجتك؟

هلم احتفل بي دون مقابل!

وسأل إيليا:

- وما هذا الصندوق؟

- هذا؟ هذا أرغن صغير، اشتراه لي أبي بخمسة وعشرين روبلًا، وقال: «هاك... تعلم. وبعد ذلك اشتري واحدًا جيدًا، فنضعه في المطعم، وتعزف أنت للزبائن، وإلا فلا فائدة منك»، وقد حسب هذا بشطارة؛ ففي كل مطعم الآن أرغن، أما عندنا فلا، وإني لأستطيب العزف.

- يا للنذل! - قال لونيف وعلى وجهه ابتسامة مفتعلة.

- لا، دعه وشأنه؛ فأنا بالفعل مخلوق لا فائدة له منه.

فرمق إيليا رفيقه بنظرة صارمة، وقال بغضب:

- أشر عليه، وقل له: حين سأحتضر، يا أبي العزيز، اسحبني إلى المطعم، وخذ من كل راغب في مشاهدة ميتتي ولو خمسة كوبيكات... وهكذا ستجلب له الفائدة والغنم.

فانطلق ياكوف يضحك ضحكة مضطربة، وراح يسعل من جديد ممسكًا بيديه صدره حينًا وعنقه حينًا.

أما بيرفيشكا فكان يروي حكاية شخص ما بلسان طليق:

كم ذا تمادى مفرطًا بالصوم!

وقلل الطعام كم يوم...

وكم شكا من وجع الأمعاء!

وأجره... نظافة الأحشاء!

- إيه... الله الله! - وكانت آلته الموسيقية، الهارمونيكا، ترفق كلمات الأغنية المرحة بألحان عنيفة السخرية.

وحين انتهى ياكوف من سعاله، سأله إيليا:

- وكيف حالك مع أخيك من زوجة أبيك؟

فأجاب هذا لاهثًا، وهو يرفع وجهه المزرقّ من الجهد:

- لا يسكن هنا؛ المدير لا يسمح له... يقول: هنا مطعم، وهو يسلك سلوك البكوات.

وأخفض ياكوف صوته، وأردف يقول بلهجة حزينة:

- هل تذكر ذلك الكتاب؟ ذاك؟ انتزعه هو مني... قال إنه كتاب نادر يساوي كثيرًا من المال، فأخذه...

فقلت له ملتمسًا: دعه، فما وافق.

فانطلق إيليا يقهقه، ثم شرع الرفيقان يشربان الشاي. كانت كسوة جدران الغرفة متمزقة، ومن خلال شقوق الحاجز كانت الأصوات والروائح تتسرب من المطعم إلى الغرفة دون عائق، وقد لعلع في المطعم صوت جهوري مهتاج غطى على كل شيء:

- متري نيقولايينتش! إياك أن تعتبر كلام الشرف الذي أقوله لك من باب الخداع والغش.

وكان ياكوف يتكلم قائلًا:

- أنا الآن، يا أخ، أقرأ حكاية، اسمها «يوليا أو قبو قصر مادزيني»، طريفة جدًّا! فكيف أنت في هذا المجال؟

فأجاب إيليا متجهمًا:

- ألا لو أبصق على هذا القبو! فأنا نفسي أعيش في غير مرتفع من الأرض.

فنظر إليه ياكوف نظرة عطف واهتمام، وسأله:

- هل لديك أنت أيضًا ما يكدر عيشك؟

فراح إيليا يفكر متسائلًا: أيحكي لياكوف عن ماشا أم لا؟ ولكن ياكوف نفسه شرع يتكلم بصوت رقيق:

- إنك يا إيليا تعاند وتغضب، ولكن هذا، في رأيي، لا طائل تحته؛ فما من أحد، على ما ترى، مسؤول عن شيء.

كان لونيف يشرب الشاي ملتزمًا الصمت.

- والواقع أن «كلًّا يجزى على عمله»... هذا صحيح.. خذ أبي مثلًا؛ إنه بصريح القول معذب للبشر، ولكن ها قد ظهرت فيوكلا تيموفييفنا، فإذا هو قد بات تحت قدمها، وهو الآن يعيش أي عيشة... أوي- أوي- أوي! وقد بلغ به الأمر أن شرع يشرب الخمر، وهل ترى مضى على زواجهما وقت طويل؟ إن في انتظار كل امرئ مثيلة لفيوكلا تيموفييفنا؛ جزاء له على ما ارتكب من قبائح.

وسئم إيليا الاستماع، فدفع كأسه على الصينية بفراغ صبر، وسأله رفيقه فجأة على نحو غير متوقع لديه هو نفسه:

- وماذا تنتظر الآن؟

- من أين؟ - قال ياكوف بصوت خافت، وقد حملق عينيه.

- يعني... من.... من... المستقبل، ماذا تنتظر؟ - كرر إيليا سؤاله بحدة.

فطأطأ ياكوف رأسه صامتًا، وراح يفكر.

- أيوه؟ - قال إيليا بصوت خفيض شاعرًا بقلق لاهب في قلبه، ورغبة في الانصراف من المطعم بأقصى السرعة.

- وماذا عليّ أن أنتظر؟ - شرع ياكوف يقول بهدوء غير ناظر إلى إيليا- لا شيء أنتظر.. سأموت، وينتهي كل شيء.

ورفع رأسه وأردف يقول وعلى وجهه المرهق ابتسامة هادئة راضية:

- إني أرى أحلامًا زرقاوية.. فاهم! كأن كل شيء زرقاوي، لا السماء فقط، بل الأرض أيضًا، والأشجار، والأزهار، والأعشاب... كل شيء! ويا لها من سكينة، كأن لا شيء في الوجود، كل شيء لا حراك له، وكل شيء زرقاوي، وتمشي كأنما إلى مقصد، تمشي دون أن يعتريك التعب، بعيدًا، من دون نهاية، وغير ممكن أن تدرك؛ أموجود أنت أم لا؟ الأمر جد يسير... إن الأحلام الزرقاوية مقدمة للموت.

- خاطرك. - قال لونيف، وقد نهض عن كرسيه.

- إلى أين أنت ذاهب؟ اقعد قليلًا!

- لا، خاطرك.

ونهض ياكوف أيضًا.

- طيب... رح.

فشد لونيف على يده الحارة، وحدّق في وجهه صامتًا، غير عارف ما ينبغي أن يقول لرفيقه لحظة الوداع، وقد كان من شدة الرغبة في أن يقول شيئًا بحيث انقبض قلبه.

- وماشا؟ هي أيضًا... منغصة في عيشتها؟- قال ياكوف مكتئبًا.

- نعم.

- الظاهر أن نصيبنا جميعًا واحد؛ فأنت أيضًا منكّد العيش، آ؟

كان ياكوف يتكلم ويبتسم ابتسامة ضعيفة، ولقد كانت رنة صوته وكلمات حديثه، وكل ما فيه من دون دم، ومن دون لون... وأفلت لونيف يده، وانسدلت يد ياكوف متراخية.

- سامحني، يا ياكوف.

- الله يسامحك.. أما ستمر علي؟

وانصرف إيليا، دون أن يجيب.

وفي الشارع أحس بانفراج في صدره؛ كان يدرك بجلاء أن ياكوف سيموت عما قريب، فكان هذا يثير في نفسه شعورًا بالنقمة على أحد ما. وما كان في أسى على ياكوف؛ لأنه ما كان يستطيع أن يتصور كيف يمكن أن يعيش بين الناس هذا الفتى الهادئ. ولقد كان منذ وقت بعيد ينظر إلى رفيقه نظرته إلى مقضيّ عليه بالزوال.

إلا أن ثمة فكرة كانت تثيره؛ لأي ذنب يعذب إنسان وديع غير مؤذ؟ ولأي ذنب يُطرد من الدنيا قبل الأوان؟ ومن جراء هذه الفكرة نمت ورسخت في وجدانه نقمة على الحياة، هي الآن الأساس الذي تقوم عليه نفسه.

وفي الليل، ما كان النوم يراود جفنيه، وقد كان الجو في الغرفة خانقًا، رغم كون النافذة مفتوحة، فكان يخرج إلى الباحة فيتمدد على الأرض تحت شجرة دردار، قرب السياج، ويروح يتطلع إلى السماء الصافية، وهو مستلق على ظهره، وكلما أمعن فيها نظرًا، أبصر مزيدًا من النجوم؛ نهر المجرة ينفرش في السماء، من أولها لآخرها، بساطًا من فضة، وقد كان التطلع إليه من خلال الأغصان ممتعًا للنفس ومحزنًا. في السماء المقفرة من الناس تشع النجوم، وأما الأرض... فما زينتها؟ ووصوص إيليا بعينيه، فبدا له إذ ذاك أن الأغصان ترتفع أعلى فأعلى، وكانت زخارف أوراق الشجر السود على صفحة السماء المخملية الزرقاء المرصعة بالنجوم الساطعة أشبه بأكف منبسطة إلى السماء تحاول بلوغ شوامخها. وتذكر إيليا أحلام رفيقه الحلوة، فمثلت أمامه صورة ياكوف، زرقاء كلها هي أيضًا، خفيفة، شفافة، ذات عينين مشرقتين طيبتين كأنهما نجمتان. ألا فليتأمل المرء، كان إنسان يعيش، ويلقى العذاب جزاء له على عيشته الوديعة المسالمة... أما معذبوه، فيعيشون على هواهم.

باتت أخت غافريك تتردد على دكان لونيف كل يوم تقريبًا، وقد كانت تظهر منهمكة أبدًا بشيء ما، فتسلم على إيليا وتهز يده بقوة، وتتبادل معه بضع كلمات، ثم ما تلبث أن تغيب عن الأبصار مخلفة شيئًا جديدًا في فكر إيليا. ولقد سألته ذات مرة:

- أيروق لك البيع والشراء؟

فأجابها لونيف شائلًا بكتفيه:

- ليس كثيرًا... على أن المرء لا بد له من وسيلة يعيش بها.

فحدقت في وجهه بعينيها الرصينتين، وازداد وجهها بعض الشيء اندفاعًا إلى أمام، ثم سألته:

- ولكن أما حاولت أن تعيش بشغل ما؟

فما فهم إيليا سؤالها:

- ماذا قلت؟

- هل كنت تشتغل ذات حين؟

- دائمًا، طول عمري. ها أنا أتاجر. - أجاب لونيف بحيرة وارتباك.

فابتسمت، وكان في ابتسامتها ما يجرح، وسألت مسرعة في كلامها:

- وهل تحسب التجارة شغلًا؟ أتحسب أنهما على حد سواء؟

- وكيف لا؟

وقد كان لونيف، وهو يتطلع إلى وجهها، يشعر أنها جادة في كلامها، لا هازلة.

واستطردت الفتاة تقول مبتسمة ابتسامة تنازل وتسامح:

- كلا، إنما يكون الشغل حين يبدع الإنسان شيئًا ما باذلًا من قوته، حين يصنع؛ شرائط، خيوطًا، طاولات، خزائن... فاهم؟

فهز لونيف رأسه صامتًا، واحمر وجهه؛ كان يستحي أن يقول إنه غير فاهم. وبلهجة من يحاول الإقناع، قالت الفتاة وهي ترمق وجه إيليا بنظرة متفحصة:

- أما التجارة، فأي شغل هي؟ إنها لا تعطي الناس شيئًا!

- طبعًا، - استأنف يقول ببطء وحذر،- أنت على صواب؛ فليس في التجارة كبير صعوبة، على من اعتادها، ولكن التجارة أيضًا تعطي، فإذا هي لم تعط ربحًا، فلماذا يتاجر المرء؟

ولاذت بالصمت، وأعرضت عنه، وراحت تتكلم مع أخيها، وانصرفت بسرعة، مقتصرة على توديع إيليا بهزة من رأسها. وقد كان وجهها على عهده -قبل حكاية ماشا- جافًّا، متكبرًا. وراح إيليا يفكر متسائلًا: أما تراه قد أساء إليها بكلمة زل بها لسانه؟ واستعاد من ذاكرته كل ما قال لها، فما وجد ما يسيء، ثم أخذ يفكر فيما صدر عنها من كلمات، فشغلت باله. ما الفرق الذي تراه بين التجارة والشغل؟

ما كان في وسعه أن يدرك مصدر ما يكسو وجهها من قسوة وتهكم، في حين أنها طيبة وتحسن لا العطف على الناس فقط، بل ومساعدتهم أيضًا. وقد كان بافل يتردد على بيتها، ويغدق الثناء بحماسة عليها، وعلى كل نظام بيتها.

- تذهب إلى بيتهم، فإذا بهم يستقبلونك مرحبين «أهلًا وسهلًا»، وإذا كانوا على مائدة الغداء، دعوك لتناول الطعام، وإذا كانوا يشربون الشاي، قالوا لك: تفضل اشرب الشاي.. يا لها من بساطة! وكم عندهم من صنوف الناس.. يعيشون في مرح؛ يغنون، يصيحون، يتناقشون حول الكتب، والكتب عندهم قدر ما في المكتبة، والمكان ضيق، فهم يتصادمون، ويتضاحكون. الجماعة متعلمون كلهم؛ هناك واحد محام، وآخر سيصبح طبيبًا عما قريب، وتلامذة وما شاكل من الشخصيات.

وإنك لتنسى من أنت بينهم تمامًا، فتروح تقهقه معهم، وتدخن، وكل شيء، جماعة طيبون.. مرحون، إلا أنهم جديون.

- أما أنا فهي لا تدعوني... - قال لونيف عابس الوجه- إنها متكبرة.

- هي؟ - قال بافل بانفعال- أقول لك: إنها بسيطة. ليس ينبغي لك أن تنتظر دعوة، بل اذهب رأسًا... وتروح، فينتهي كل شيء على ما يرام؛ فالأمر عندهم على حد سواء، كما في المطعم، أقسم لك. جو طليق... الحق أقول لك... فما أنا بالنسبة إليهم؟ ولكني بتّ منهم وفيهم بعد زيارتين... شيء حلو.. يعيشون كأنهم في لعب.

- وكيف حال ماشا؟ - سأل إيليا.

- لا بأس، تعافت قليلًا؛ تقعد، وتبتسم. يعالجونها بدواء ما، يسقونها حليبًا. خرينوف سيقع بجريرتها؛ المحامي يقول إن الشيطان العجوز سيلقى عقابًا شديدًا.

وهم يأخذون ماشا إلى المحقق. وبشأن صاحبتي أيضًا يسعون لكي تجري المحاكمة بأسرع وقت. لا، الحال عندهم حسنة؛ الشقة صغيرة والناس كثيرون مثل الحطب في الموقد، وهم جميعًا مثله متأججون باللهب.

- وأما هي، هي نفسها؟ - قال لونيف مستفسرًا.

فراح بافل يتحدث عنها حديثه أيام الطفولة، عن السجناء الذين علموه القراءة والكتابة، كان في حال من التوتر تشد كل كيانه، وهو ينبئ بوقار، مازجًا حديثه بعبارات التعجب:

- إنها، يا أخ، يا سلام! هي الآمرة الناهية على الجميع، فما يكاد يصدر عن أحد قول أو شيء غير مضبوط، حتى تروح تهر: فرررر! كأنها القطة.

- هذا أمر معروف عندي. - قال إيليا، وضحك ضحكة مبتورة.

كان في غيرة من بافل؛ فهو شديد الرغبة في زيارة التلميذة الصارمة، ولكن عزة نفسه ما كانت تسمح له بالمبادرة التلقائية.

وقد كان، وهو واقف خلف المنضدة، يمعن في التفكير قائلًا في نفسه:

«الخلق كثيرون، وكلٌّ يسعى ليفيد من الآخر شيئًا، ولكن ما الفائدة التي تجنيها هي من بسط حمايتها على ماشا، وفيرا؟ إنها فقيرة، وبدهي أن كل نتفة في البيت بحساب، فهي، إذن، طيبة جدًّا... أما معي فتتكلم بأي صورة، فبأي شيء أنا أسوأ من بافل؟».

وكان من شدة هيمنة هذه الأفكار عليه، أن بات غير مبال بكل ما سواها، فكأنما انفتحت ثغرة في ظلمات نفسه كان يشعر من خلالها شعورًا، لا بصرًا، ببصيص شيء ما، بعيد، لم يلتق به بعد.

كانت تاتيانا فلاسييفنا تقول له بلهجة جافة متوقرة:

- الشرائط، يا صاحبي، كان ينبغي شراؤها صوفية ضيقة، والبريم أيضًا يكاد ينفد، وتنقص الخيطان السود نمرة خمسون، الأزرار الصدف تعرضها شركة، كان وكيلها عندي، وأرسلته إلى هنا، فهل

جاء؟

فأجاب إيليا باقتضاب:

- لا.

لقد باتت هذه المرأة مقيتة لديه، وقد كان يشتبه بأن تاتيانا فلاسييفنا اتخذت عشيقًا لها كورساكوف، الذي عُيِّن مؤخرًا مفوض شرطة. وكانت المواعيد التي تضربها له هو تتضاءل باستمرار، وإن يكن مسلكها حياله لا يزال على عهده من الملاطفة والمداعبة. ولكن لونيف كان يتعلل بمختلف المعاذير للتهرب من هذه اللقاءات أيضًا؛ وإذ رأى أنها ما كانت تغضب عليه من جراء هذا، راح يشتمها قائلًا في نفسه:

«ساقطة... سافلة...».

وكان يشتد استقباحًا لها حين تجيء إلى المخزن لتفحص البضائع؛ فقد كانت تدور في الدكان كالدوامة، وتنط على المنضدة، فتتناول العلب من على الرفوف العليا، فتنفض عنها الغبار، وتلوح برأسها وتوبخ غافريك.

- على الصبي في المخزن أن يكون شاطرًا خدومًا؛ فصاحب المخزن لا يطعمه الخبز ليقعد طول النهار على الباب، وينكش أنفه بأصبعه، وحين تتكلم ربة العمل، عليه أن يستمع بانتباه ولا ينظر شزرًا.

ولكن غافريك كان له مزاجه؛ فلقد كان، وهو يستمع إلى زقزقة ربة العمل، يتخذ موقف اللامبالاة التامة، وكان حديثه معها فجًّا، خاليًا من علائم الاحترام لمقامها كربة عمل، وأما حين تنصرف، فقد كان يقول لرب العمل ملاحظًا:

- كرجت الزقزوقة.

فيقول له إيليًا منبهًا، محاولًا عدم الابتسام:

- لا يجوز الكلام هكذا عن ربة العمل.

فيحتج غافريك قائلًا:

- وأي ربة عمل هي؟ تجيء، فتزقزق، ثم تكرج... رب العمل أنت.

- وهي أيضًا.- يرد عليه إيليا بفتور، وقد كان مولعًا بالصبي الرزين الصريح.

- ولكنها قزمة تافهة. - قال غافريك بعناد.

ولقد كانت أفتونوموفا تقول لإيليا:

- أنت لا تهذب الصبي، وبصورة عامة، لا بد لي من القول إن كل شيء عندنا يجري نوعًا ما، من

دون حماسة، من دون محبة للعمل.

فكان إيليا يلوذ بالصمت، ويقول في نفسه، والكراهية لها تملأ كل جوانحه:

«ليت رجلك تنخلع، يا شيطانة، وأنت تنطين هنا».

وقد تلقى رسالة من عمه، فعلم أن تيرنتي لم يكن في كييف وحسب، بل وفي دير سيرغي أيضًا، وهمّ بأن يرحل إلى سولوفكي، ووصل إلى دير فالآم، وعما قريب سيعود، فكان إيليا يقول في نفسه بامتعاض:

«هي ذي تسلية أخرى؛ لا شك أنه سيرغب في السكنى معي».

وأقبل مشترون، وحين كان منشغلًا بهم، دخلت أخت غافريك، فألقت عليه التحية، وهي متعبة تكاد تنحبس منها الأنفاس، فسألته مشيرة برأسها إلى باب الغرفة:

- أيوجد هناك.... ماء؟

فقال لها إيليا:

- والآن أقدم لك.

- أنا بنفسي.

ومضت إلى الغرفة، وظلت هناك، إلى أن دخل عليها لونيف بعد أن صرف الزبائن، فألفاها واقفة أمام «درجات العمر البشري»، وأدارت الفتاة رأسها نحو إيليا، فقالت مشيرة إلى اللوحة بعينيها:

- يا للتفاهة!

فارتبك إيليا من ملاحظتها، وابتسم، وقد خامره الشعور بذنب ما، إلا أنها انصرفت قبل أن يتاح له التماس تفسير منها.

وبعد بضعة أيام جاءت لأخيها بثياب داخلية، وأنبته لفرط استهتاره بملابسه؛ فهو يمزقها ويوسخها، فقال غافريك متمردًا:

- أيوه... بلّشت، ربة العمل تلسعني على الدوام، وأنت أيضًا ستبدئين الآن!

فسألت التلميذة إيليا:

- كيف... هل يتشيطن كثيرًا؟

- ليس زيادة عما يستطيع. - أجاب لونيف بلباقة، فقدم الصبي نفسه قائلًا:

- أنا... هادئ تمامًا.

- لسانه طويل نسبيًّا. - قال إيليا.

- سامع؟ - سألت غافريك أخته، وقد قطبت حاجبيها.

- أيوه، سامع. - أجاب هذا بغضب.

- هذا معليش. - قال إيليا متنازلًا- فمن يستطيع النهش له الغنم مع ذلك حيال الآخرين... أما من يتلقى الضربات، فيسكت يضربونه حتى الموت.

كانت الفتاة تستمع إليه، وقد بدا على وجهها ما يشبه الارتياح. ولاحظ إيليا هذا، فقال لها مرتبكًا بعض الشيء:

- ما أريد أن أسألك عنه...

- ماذا؟

فأقبلت عليه حتى أوشكت تلاصقه، ونظرها مثبت على عينيه، فما أطاق احتمال نظرتها، فأسبل عينيه، وتابع كلامه:

- أنت، على ما فهمت، لا تحبين التجار؟

- نعم.

- لأي سبب؟

- هم يعيشون من كد الآخرين. - قالت الفتاة موضحة بجلاء.

فشمخ إيليا برأسه ورفع حاجبيه، فلم تكن هذه الكلمات مدهشة له وحسب، بل ومهينة أيضًا إهانة مباشرة. أما هي فقد قالتها بتلك البساطة، وبذلك الجلاء...

وبعد صمت قليل أعلن إيليا بصوت مرتفع:

- هذا غير صحيح.

فارتعش إذ ذاك وجهها، واصطبغ بالحمرة، وبلهجة جافة وصارمة سألته:

- كم تكلفك هذه الشريطة؟

- هذه؟ الذراع بسبعة عشر كوبيكًا.

- وبكم تبيعها؟

- بعشرين.

- أيوه، الكوبيكات الثلاثة التي تأخذها ليست لك، بل لمن اشتغل الشريطة. فاهم؟

- لا. - اعترف لونيف بصراحة.

فاتقد إذ ذاك في عيني الفتاة وهج من العداء له، وكان هو يرى هذا بجلاء، فاعتراه الخجل منها، إلا أنه ما لبث أن أنكر على نفسه هذا الخجل، وقد قالت له وهي متراجعة عن المنضدة صوب الباب:

- بلى، ليس يسيرًا عليك، في اعتقادي، فهم هذه الفكرة البسيطة، ولكن تصور أنك عامل وأنك تشتغل كل هذا.

واستدارت على المخزن بحركة واسعة من يديها، واستطردت تحدثه عن العمل كيف يغدق الثراء على الجميع، خلا العامل الكادح. كانت في البداية تتكلم على عهدها دائمًا، بجفاف وجلاء، ووجهها غير الجميل في جمود، ولكن حاجبيها راحا فيما بعد يرتعشان ومنخراها يتوسعان، وشمخت برأسها، وأخذت تمطر إيليا بوابل من كلمات عاصفة، تزخر بإيمان ناشئ لا يتزعزع بصحتها وصوابها.

- التاجر يقف بين العامل والشاري، هو لا يعمل شيئًا، ولكن يزيد في سعر الأشياء، التجارة سرقة قانونية.

كان إيليا يشعر بالمهانة تناله، إلا أنه ما كان يجد ما يقول ردًّا على هذه الفتاة الجريئة، القائلة له في وجهه مباشرة إنه بطّال وسارق، فكان يصر بأسنانه، ويستمع إليها غير مصدق كلماتها، ولا قادر على تصديقها. وفيما هو يبحث في ذهنه عن كلمة من شأنها أن تطيح بكلامها كله دفعة واحدة، وأن تحملها على السكوت، كان في الوقت نفسه معجبًا بجرأتها، أما الكلمات الجارحة المهينة، التي كانت تثير دهشته واستغرابه، فقد كانت تستدعي في نفسه سؤالًا يقلقه: «لأي سبب؟».

وأخيرًا قاطعها بصوت عال، وقد شعر أن لم يعد في وسعه الاستماع إلى كلامها من دون جواب:

- كل هذا! ليس هكذا.. كلا... أنا غير موافق.

كان يفور في صدره غيظ عاصف، وقد غمرت وجهه بقع حمر.

- اعترض. -قالت الفتاة بهدوء، وهي تجلس على المقعد الخشبي، وقد ألقت بضفيرتها الطويلة على ركبتيها، وأخذت تعبث بها.

كان إيليا يدير رأسه تجنبًا لمواجهة نظرتها غير الودية؛ وإذ لم يعد في وسعه امتلاك زمام نفسه، صاح قائلًا:

- وسأعترض.. أنا... بحياتي كلها أعترض. أنا قد أكون ارتكبت إثمًا كبيرًا قبل بلوغي ما أنا فيه الآن.

- زدت الطين بلة، ولكن هذا ليس اعتراضًا. - قالت الفتاة، وكأنما سفحت وجه إيليا بماء بارد، فأسند يديه على المنضدة، وانحنى كأنما يهم بأن يقفز من فوقها، وراح ينظر إليها في صمت بضع ثوان،

هازًّا رأسه الأجعد الشعر، وهو في غيظ منها، ودهشة من هدوئها، وقد كانت نظرتها وجمودها ووجهها المطمئن الواثق، تكبح جماح غضبه وتوقعه في الارتباك، وكان يشعر لديها بعنصر من الصلابة والجسارة، وما خرجت على لسانه الكلمات اللازمة للاعتراض؛ وإذا هي تسأله متحدية بدم بارد:

- أيوه، ما لك؟

ثم ابتسمت وقالت بلهجة الظافر:

- الاعتراض عليّ غير ممكن؛ ذلك لأني قلت الحقيقة.

- غير ممكن؟ - كرر لونيف كلمتها سائلًا بصوت خافت.

- نعم، غير ممكن.. وما وجه اعتراضك؟

وابتسمت من جديد ابتسامة المتسامح المتنازل، قائلة له:

- خاطرك.

وانصرفت شامخة برأسها أكثر من العادة.

- هذه سخافات.. غير صحيح! - صاح لونيف على إثرها، ولكنها لم تلتفت على صيحاته.

وترامى إيليا على المقعد الخشبي، وكان غافريك، الواقف عند الباب، يتطلع إليه وهو بالتأكيد شديد الارتياح لسلوك أخته؛ فقد كان على وجهه سيماء عظمة وانتصار. وشعر لونيف بالامتعاض من هذه النظرة، فصاح به مغضبًا:

- ما لك تنظر؟

- لا شيء. - أجاب الصبي.

- أيوه... اوعا. - قال لونيف بصوت منذر، وصمت قليلًا، ثم أضاف: رح... العب.

ولكنه، حتى بعد أن لبث لوحده، لم يكن بقادر على استجماع أفكاره، وما كان يفكر في معنى ما قالت له الفتاة، فقد كانت كلماتها، قبل كل شيء، كلمات مهينة.

«ماذا فعلت لها؟ جاءت، فوبخت، فانصرفت، طيب، تعالي مرة أخرى.. ولسوف أرد عليكِ».

ولقد كان، وهو يتوعدها، يبحث متسائلًا: ما الذي دعاها للإساءة إليه؟ وتذكر حديث بافل عن ذكائها وبساطتها.

«أكيد أنها لا تسيء إلى بافل».

ورفع رأسه، فأبصر نفسه في المرآة؛ الشاربان الأسودان الصغيران يتحركان على شفته، وعيناه

الكبيرتان مرهقتا النظرات، ووجنتاه متوقدتان بالحمرة، ولكن وجهه المضطرب العابس، الجميل مع ذلك جمالًا فجًّا، كان حتى في تلك اللحظة خيرًا من وجه بافل غراتشيف المعلول الأصفر الناتئ العظام.

«أمعقول أن يروق لها بافل أكثر مني؟! - هكذا راح يفكر متسائلًا، وما لبث أن اعترض على نفسه بنفسه:- وما لها ولسحنتي؟ لست خطيبًا لها!».

ومضى إلى الغرفة، فشرب كأس ماء، وتلفت حوله، فوقعت عينه على بقعة اللوحة المشرقة، وركز أبصاره على «درجات العمر البشري» المقيسة المضبوطة، وهو يفكر قائلًا في نفسه:

«خدع هذا... أترى يعيش الناس هكذا؟».

ثم أضاف فجأة بلهجة قانطة:

«ولكن، حتى لو كانوا يعيشون هكذا، فإنه لمضجر أيضًا».

وتقدم ببطء صوب الجدار، فنزع عنه اللوحة، وحملها إلى المخزن، وهناك بسطها على المنضدة، وراح يتأمل من جديد تحولات الإنسان، حتى زاغ بصره من اللوحة، فدعكها إذ ذاك وشدها بين قبضتيه وألقاها تحت المنضدة، ولكنها تدحرجت من هناك إلى تحت رجليه، فارتعد من جراء ذلك، فرفعها من جديد، ودعكها بمزيد من الشدة وقذف بها من الباب إلى الشارع.

كان الشارع في صخب، على تلك الناحية من الرصيف كان أحدهم يمشي ويضرب بعكازته على الرصيف، والعكازة تقرع على الحجارة غير متوافقة مع قدمي الماشي، فكأنما كانت له أقدام ثلاثة، وكانت ثمة حمائم تهدل، وفي مكان ما، تسمع قرقعة حديد؛ لا بد أنه منظف المداخن يمشي على السطح. ومر أمام المخزن حوذي وسنان على مقعده في العربة، ورأسه يترنح، وقد كان كل شيء حول إيليا يترنح. وتناول جهاز الحساب، فتطلع إليه، ثم أفرز عشرين، وتطلع أيضًا فطرح منها سبعة عشر، فكان الباقي ثلاثة كوبيكات، كان يحرك الكريات بأظافره، فتدور على السلك موسوسة، ثم تتوقف بعد انفصالها عن الأخريات.

وتنهد إيليا، ثم دفع بالجهاز جانبًا، وأكب بصدره على المنضدة ولبث جامدًا، يستمع إلى قلبه كيف يخفق.

وفي اليوم التالي أقبلت أخت غافريك من جديد، كانت على سابق عهدها، لابسة فستانها العتيق ذاته، ووجهها هو هو.

«يا سلام عليكِ!» - قال لونيف في نفسه بروح عدائية، وقد لحظها من الغرفة.

وجوابًا على انحناءة رأس الفتاة بالتحية، أحنى لها رأسه بغير ارتياح، أما هي فقد ابتسمت فجأة ابتسامة طيبة، وسألته ملاحظة:

- ما لك شاحب الوجه هكذا؟ أأنت متوعك الصحة؟

- أنا بعافية. - أجابها إيليا باقتضاب محاولًا ألَّا يبدي أمامها ما يشعرها باكتراثه لاهتمامها. ولكن الشعور كان طيبًا ومفرحًا؛ فإن ابتسامة الفتاة وكلماتها قد لامست قلبه بكثير من الحنان والدفء، إلا أنه قرر أن يبدي لها استياءه؛ آملًا في سره بأن تقول له الفتاة كلمات لطيفة أخرى، وتبتسم أيضًا. قرر ذلك، ولبث ينتظر، عابسًا، غير ناظر إليها.

وانطلق صوتها الصارم يقول:

- أنت، على ما يبدو، مستاء مني؟

وقد كان هذا الصوت من شدة التميز عن الرنة التي قالت بها كلماتها الأولى، بحيث أخذ إيليا يتطلع إليها بقلق، أما هي فكانت قد عادت إلى سابق عهدها، وفي عينيها القاتمتين ضرب من الغطرسة والحماسة المتقدة.

- أنا معتاد على الإساءات. - قال لونيف مبتسمًا ابتسامة تحدٍّ وناظرًا إلى وجهها، شاعرًا في صدره ببرودة خيبة الأمل، وقد كان يقول في نفسه:

«ألا إنك لتعبثين.. تلاطفين ثم تلطمين. لا يا هذه».

- ما كنت أريد الإساءة لك.

- صعب عليك أن تسيئي إليّ؛ - قال إيليا بتحدّ وبصوت عال- فأنا أعرف قيمتك؛ أنت طائر لا يحلق عاليًا!

فانتصبت قامتها لدى سماع هذه الكلمات، وقد عرتها الدهشة وحملقت بعينيها. ولكن إيليا ما كان إذ ذاك ليرى شيئًا؛ فالرغبة الجامحة في الانتقام منها كانت تعصف به كالنار، وقد راح ينهال عليها بكلمات ثقيلة فجة، متعمدًا عدم الاستعجال في نطقها:

- إن عجرفتك، وكبرياءك هذه، لا تكلفانك غاليًا، فكلٌّ يستطيع أن يهضم هذا في الثانويات، ولولا المدرسة لكنت خياطة أو خادمة؛ فليس يمكنك، وأنت على فقرك هذا، أن تكوني غير هذا.. صحيح؟

- ماذا تقول؟! - قالت مندهشة، بصوت خافت.

كان إيليا يتطلع إلى وجهها، فيرى بارتياح كيف تتضخم فتحتا أنفها ويحمر خداها.

- أقول ما أعتقد؛ وإني لأعتقد بأن عجرفتك الرخيصة تسوى فلسًا!

- ليس عندي عجرفة. - صاحت الفتاة بصوت رنان؛ فهرع أخوها الصغير إليها، وأمسك بيدها وصاح هو أيضًا، ملقيًا على رب العمل نظرات حانقة:

- هيا بنا، يا صوفيا.

فراح إيليا يلفهما بنظراته، وقد قال لهما بكراهية وبرودة دم:

- أي.... وه، اذهبا؛ لا أنا بحاجة إليكما، ولا أنتما بحاجة إليّ.

ولمعا كلاهما أمام ناظريه على نحو غريب بعض الشيء، وتلاشيا؛ فانطلق يضحك على إثرهما؛ وإذ بقي لوحده في المخزن، ظل واقفًا بضع دقائق بلا حراك، سكران بحلاوة الانتقام الحادة، وقد كان وجه الفتاة المنفعل المرتبك الخائف بعض الشيء منطبعًا جيدًا في ذاكرته.

«وهذا الصبي، يا سلام!»- كانت تدور في رأسه فكرة غير مترابطة؛ فقد أزعجه تصرف غافريك بعض الشيء، وعكر مزاجه.

وقال في نفسه، ساخرًا في داخلته:

«أين عجرفتك الآن؟ ألا لو تأتي الآن تاتيانا؛ للقيت مني الشيء نفسه».

كان يحس في نفسه رغبة بدفع جميع الناس عنه، دفعهم بفظاظة، وعلى نحو مهين، ومن غير رحمة.

ولكن تاتيانا لم تأت، وظل طول النهار لوحده، وكان ذلك نهارًا غريبًا بطوله. وحين استلقى إيليا للنوم شعر بوحدته، وأحس بمهانة من جراء هذه الوحدة أشد من تلك التي أصابته بها كلمات الفتاة، وراح، وعيناه مغمضتان، يتسمع إلى سكينة الليل وينتظر الأصوات، أما حين كانت الأصوات تنطلق، فقد كان إيليا يرتعد، فيرفع رأسه عن الوسادة في خوف، ويحدق في العتمة بعينين محملقتين. وقد ظل حتى الصباح لا يعرف إلى الرقاد سبيلًا، متوقعًا شيئًا ما، شاعرًا بنفسه كالحبيس في قبو، لاهثًا من شدة الحرارة، ومن الأفكار الخرقاء غير المترابطة. وبارح سريره مثقل الرأس، وهمَّ بأن يشعل السماور، إلا أنه لم يشعله، بل غسل وجهه وشرب طاسًا من الماء وفتح المخزن.

وحوالي منتصف النهار ظهر بافل، مغضبًا، مقطب الحاجبين، فسأله رفيقه من غير أن يبادره بالتحية:

- ما لك تتعنفص هكذا؟

وأدرك إيليا عمَّ يدور كلامه، فلوح برأسه في يأس، ولاذ بالصمت، وهو يقول في نفسه:

«وهذا أيضًا ضدي».

وكرر بافل السؤال بلهجة قاسية، وهو واقف أمامه:

- لماذا أهنت صوفيا نيكونوفنا؟

وفي وجه غراتشيف العابس، وفي نظرات التأنيب المنطلقة من عينيه، كان إيليا يرى الإدانة له، إلا أنه كان يقف من ذلك موقف اللامبالاة، وقد قال بصوت متعب، متمهلًا في كلامه:

- كان يحسن بك أولًا أن تؤدي التحية، وترفع قبعتك؛ فهنا توجد أيقونة.

ولكن بافل أمسك بطرف كاسكيته فزادها إحكامًا على رأسه، وشد شفتيه في تحدّ، وراح يقول على

عجل، بحرارة، وبصوت راعش:

- تعنفص! صرت من الأغنياء! شبعت! لعلك تتذكر كيف كنت تقول: «ما من إنسان معين لنا»، وها هو قد وُجِد، وأنت طردته، إيه، يا تاجر!

كان يحول بين لونيف وبين الرد على رفيقه إحساس بليد بالكسل، فهو ينظر إلى وجه غراتشيف المنفعل الساخر نظرة لامبالاة، ويشعر بأن التوبيخات لا تؤثر في نفسه. وكان الشعر الأصفر على شاربي غراتشيف وذقنه أشبه بالعفن على وجهه النحيل. وفيما كان لونيف ينظر إلى هذا الزغب، كان يفكر قائلًا في نفسه:

«أتراني قد أسأت إليها كثيرًا؟ كان يمكن أن يصدر عني ما هو أسوأ».

وقال بافل بأسلوبه المعتاد الزاخر بصيحات التعجب:

- هي تفهم كل شيء، وفي وسعها إيضاح كل شيء، أما أنت فقد تكلمت معها بشكل... أف!

- كفى. - قال لونيف- أتلقي عليّ الدروس؟ أنا كما أريد، أفعل... وكما أريد، أعيش... كنتم جميعًا مزعجين لي، تأتون، وتتكلمون.

ثم نطق كأنما يسائل نفسه، وهو مستند بشدة على رفوف البضائع:

- وماذا في وسعكم أن تقولوا؟

- في وسعها هي كل شيء. - قال بافل متحمسًا، مقتنعًا عميق الاقتناع، بل لقد رفع يده إلى فوق كأنما يستعد لحلف يمين- إنهم يعرفون كل شيء.

- طيب، اذهب لعندهم. - أشار عليه إيليا بغير اكتراث. كان كلام بافل وثورانه موضع امتعاضه، إلا أنه لم يكن راغبًا في الاعتراض على رفيقه؛ فقد كان في ضجر ثقيل متشبث به يمنعه من الكلام ومن التفكير، ويكبله.

- وإني لذاهب. -قال بافل مهددًا- ذاهب؛ لأني أفهم أن ليس يمكنني العيش إلا إلى جانبهم، إلى جانبهم يمكن أن أجد لنفسي كل شيء، نعم.

- لا تعيّط. - قال له إيليا بصوت خافت خائر.

وجاءت بنت فطلبت دزينة أزرار للقمصان، فأعطاها إيليا ما طلبت، غير متعجل، وتناول من يدها قطعة من ذوات العشرين كوبيكًا، ففركها بين إصبعيه، ثم ردها إلى الشارية، قائلًا:

- ليس معي فراطة... تدفعين لي فيما بعد.

كانت الفراطة في الصندوق، ولكن مفتاحه في الغرفة، ولونيف غير راغب بالذهاب للإتيان به. وحين انصرفت البنت، لم يستأنف بافل الحديث. كان واقفًا قرب المنضدة يخبط على ركبته بكاسكيته

المرفوعة عن رأسه، ويتطلع إلى رفيقه كأنما ينتظر منه شيئًا، ولكن لونيف أعرض عنه، وراح يصفر بهدوء عبر أسنانه، فسأله بافل متحديًا:

- أيوه، ما قولك؟

- لا شيء. - أجاب لونيف، وما كان جوابه فوريًّا.

- تمام تمام.. لا شيء؟

- كفى.. بحق المسيح! - صاح إيليا وقد فرغ صبره. فألقى غراتشيف بكاسكيته على رأسه، وانصرف، فشيعه إيليا بنظراته وراح يصفر من جديد.

ونظر من الباب كلب كبير أصهب، فلوح بذنبه، واختفى. وبعد ذلك ظهرت في الباب عجوز متسولة، كبيرة الأنف، فراحت تقول بصوت خفيض، وهي تنحني للتحية:

- حسنة، يا عم؟

فهز لونيف رأسه لها بصمت ورفض التصدق عليها. وفي الجو الحار، في الشارع، كانت ضجة يوم العمل قائمة قاعدة، فكأن ثمة موقدًا هائلًا مشتعلًا، تطقطق فيه الأحطاب، وقد باتت طعامًا للنار، ويتصاعد منه لهب لافح، ويسمع هدير حديد؛ إنها عربات نقل تجري وقد ربطت عليها قضبان طويلة، متدلية منها، تصطدم بحجارة الطريق، فتصأى كأنما من ألم، وتعوي، وتزمجر، وثمة مجلّخ يشحذ سكاكين، والصوت الشنيع الجارح يحز الجو حزًّا.

وكل دقيقة من الوقت تلد شيئًا جديدًا، غير متوقع، والحياة تصدم السمع بصيحاتها المتنوعة، وحركتها التي لا تعرف الهدوء، وقوة الخلق والإبداع لا يعتريها الكلل. أما نفس لونيف فيغمرها السكون والموت؛ فكأنما قد توقف فيها كل شيء... لا تفكير ولا رغبة، وما هناك غير العناء الثقيل. وفي مثل هذه الحال أمضى النهار كله ومن بعده الليل، مليئًا بالكوابيس، وكثيرًا من أمثال هذا النهار وهذا الليل؛ يأتي الناس فيشترون ما يحتاجون، وينصرفون، أما هو فتلازمه هذه الفكرة الفاترة:

«ما هم بحاجة إليّ، ولا أنا بحاجة إليهم... سأعيش لوحدي».

وبدلًا من غافريك، كانت تعد له السماور وتجيء له بطعام الغداء طباخة صاحب البناية، وهي امرأة عبوس، نحيلة، حمراء الوجه، عيناها جامدتان، لو لون لهما. وقد كان لونيف، حين ينظر إليها، يحس أحيانًا في مكان ما من أعماق روحه بصيحة استنكار:

«أيمكن أني لن أرى خيرًا؟».

كان قد ألف شتى أنواع الانطباعات، ومع أنها كانت تثيره وتحنقه، فقد كانت الحياة معها أفضل؛ لقد كان يأتي بها الناس، أما الآن فقد زال الناس وما بقي غير الزبائن، ثم راح الإحساس بالوحدة والحنين إلى حياة حلوة يتلاشيان من جديد في اللامبالاة بكل شيء، وأخذت الأيام تتجرجر بطيئة الخطوات من جديد، في جو لاهب خانق.

وذات صباح، وكان إيليا قد استيقظ لتوه، وجلس على السرير، قائلًا في نفسه: ها أنَّ نهارًا جديدًا قد أقبل، ولا بد من معاناته.

فإذا بالباب المؤدي إلى الباحة يقرع قرعات متوازنة جلية النبرات.

فهب إيليا واقفًا، وفي اعتقاده أن الطباخة قادمة لإعداد السماور، ومضى إلى الباب ففتحه، فإذا هو أمام الأحدب وجهًا لوجه، وإذا بتيرنتي يقول، ملوحًا برأسه، مبتسمًا:

- هي- هي- هي! الساعة الثامنة ونيف، ودكانك، يا تاجر، لم تفتح بعد!

كان إيليا واقفًا أمامه، حائلًا بينه وبين دخول الباب، ومبتسمًا هو أيضًا، وكان وجه تيرنتي قد لوحته الشمس، إلا أن شيئًا ما جديدًا قد طرأ عليه، وعيناه تنظران بفرح وحيوية، وعند قدميه تنطرح أكياس وصرر، وكان هو نفسه يبدو بينها وكأنه صرة.

- خلني أدخل البيت.

ومن غير أن ينطق إيليا بكلمة، شرع يحمل الضرر إلى الداخل، أما تيرنتي فبحث بعينيه عن الأيقونة، فرسم شارة الصليب، وقال وهو ينحني:

- حمدًا لك يا رب... ها أنا في بيتي.. مرحبًا إيليا.

وشعر إيليا، وهو يعانق عمه، أن جسم الأحدب بات صلبًا قويًّا.

- لو أغسل وجهي. -قال تيرنتي وعيناه تجوبان الغرفة، وكان يبدو على حدبته كأنما هي هبطت إلى تحت من جراء الترحال سيرًا على القدمين وحمله فوق ظهره.

وفيما كان يقذف وجهه بحفنات الماء، سأل ابن أخيه:

- كيف حالك؟

وقد سر إيليا برؤية عمه، وقد طرأ عليه هذا التجدد. وقد كان يروح ويجيء حول الطاولة، وهو يعد الشاي، إلا أن رده على سؤال الأحدب كان متحفظًا، حذرًا.

- وأنت كيف؟

- أنا؟ عال. - وأغمض تيرنتي عينيه، وراح يهز رأسه وهو يبتسم بسمة ارتياح - ما كان أحسن رحلتي.. شربت ماء الحياة، والحق يقال.

وجلس إلى الطاولة، ولف لحيته على أصبعه، وراح يحكي، مميلًا رأسه:

- زرت القديس إثناسيوف الجالس، وزرت أصحاب المعجزات في بيرياسلافل، وزرت ميتروفانيوس الفورونيجي،وزرت تيخون ما وراء الدون، وسافرت إلى جزيرة فالآم، اجتزت أراضي كثيرة، وابتهلت لدى كثير من القديسين. والآن كنت عند القديسين بطرس وفافرونيا في موروم.

أكيد أنه كان يشعر بعظيم الارتياح لتعداد أسماء القديسين والمدن؛ فقد كان وجهه حلوًا، وعيناه مزهوتي النظرات، وقد كان ينطق بكلمات حديثه على تلك الطريقة التي يحسنها القصاصون، رواة حكايات القديسين أو سير حياتهم.

- في كهوف الكنيسة المقدسة صمت كلي، وعتمة رهيبة، وفي العتمة تتلألأ مصابيح صغيرة ويفوح عبير المر المقدس...

وفجأة انصب وابل من المطر، وانطلق خلف النافذة هدير وصرير، وراح حديد الأسطحة يطقطق، والماء المنسرب منها ينوح، والجو كأنما تهتز فيه شبكة من خيوط فولاذية سميكة.

- أي... نعم! -قال إيليا بلهجة ممطوطة- أيوه، يعني... انشرحت.

وصمت تيرنتي دقيقة، ثم قال لإيليا مخفضًا صوته، وهو ينحني له:

- أقول لك على سبيل المثال؛ كانت المعصية، التي ارتكبتها بغير إرادتي، تشد على قلبي شد الجزمة على القدم، ارتكبتها بغير إرادتي، ذلك لأني، لو لم أطع بتروخا إذ ذاك، لكان قال... رح عني.. لكان طردني... ما صحيح؟

- صحيح. - قال إيليا مقرًّا.

- أيوه، هه؟ - وأما حين رحلت، فكم ارتاحت نفسي، كنت أمشي وأقول: «يا رب، أما ترى؟ أنا ذاهب أحج إلى قديسيك».

- يعني... صفيت الحساب؟ - سأله إيليا مبتسمًا.

- كيف سيتلقى صلواتي... لا أعرف. - قال الأحدب وقد شخص ببصره إلى فوق.

- ولكن ضميرك، كيف حاله؟ مطمئن؟

ففكر تيرنتي قليلًا كأنما هو يستمع إلى شيء، ثم قال:

- ساكت.

وهب إيليا واقفًا، فمضى إلى النافذة؛ جداول واسعة من المياه العكرة تجري قرب الرصيف، وبين الأحجار، وفي الجادة، برك صغيرة، والمطر ينصبّ عليها، فترتعش، وكأن الجادة كلها في ارتعاش. والبيت المقابل لدكان إيليا عابس مكفهر، مبلل كله، وزجاج نوافذه متغبش، فلا ترى من خلفه الزهور. والشارع مقفر ساكن، فليس ثمة غير وشوشة المطر وخرير الجداول. حمامة منفردة لائذة بأحد الأطناف، مستقرة على إطار نافذة، وكل مكان في الشارع تهب منه الرطوبة، والضجر الثقيل. وفي خاطر لونيف لاحت هذه الفكرة:

«إنها بداية الخريف».

وقال تيرنتي، وهو يحل كيسه:

- بأي شيء غير الصلاة يمكن نوال الغفران؟

- بسيطة جدًّا. -لاحظ إيليا باكتئاب، غير متلفت إلى عمه- ارتكب المعصية، فصلى، فبات طاهر الذيل! ياللا، ابدأ من جديد، ارتكب المعاصي.

- ولماذا؟ عش بتقوى.

- في سبيل ماذا؟

- ولكن... الضمير يكون طاهرًا.

- وما الفائدة منه؟

- إي....ي...يه.. - قال تيرنتي بلهجة ممطوطة تنم عن عدم الموافقة- كيف تقول هكذا؟

- هكذا أقول. - أردف إيليا بإصرار وصرامة، واقفًا وظهره إلى عمه.

- حرام!

- وليكن حرامًا.

- تنال عليه العقاب!

- كلا.

واندار إذ ذاك عن النافذة وراح ينظر إلى وجه تيرنتي. كان الأحدب مبوّقًا شفتيه، باحثًا طويلًا عن كلمات يعترض بها، وحين وجدها قال بلهجة متوفرة:

- بل ستعاقب.. فهاك أنا، أثمت فعوقبت.

- بماذا؟ - سأل إيليا عابس الوجه.

- بالهلع.. كنت أعيش في خوف دائم، ماذا لو انكشف الأمر فجأة؟

- ولكني أنا ارتكبت معصية، ولست بخائف. - أعلن إيليا ضاحكًا باستهزاء.

فقال تيرنتي بصوت صارم:

- سخافة ما تقول!

- لست خائفًا.. على أن حياتي شاقة.

- ها- ها! - قال تيرنتي بلهجة الظافر- هو ذا العقاب!

- على أي شيء؟ - صاح إيليا بنبرة تكاد تعبر عن حنق عاصف، وراح فكه يرتعش، وأخذ تيرنتي ينظر إليه برعب، هازًّا بخيط قنب في الفضاء، ثم قال بصوت خافت:

- لا تصرخ، لا تصرخ!

ولكن إيليا ظل يصرخ؛ فقد مضى عليه وقت طويل وهو منقطع عن الحديث مع الناس، فراح إذ ذاك يفرغ بكل ما تراكم في نفسه خلال أيام الوحدة هذه.

- لا تسلب فقط، بل اقتل أيضًا، ولن يحدث شيء؛ لن ينزل العقاب بأحد، إنما ينزل العقاب بغير الشطار، أما الشاطر ففي وسعه فعل كل شيء، كل شيء.

وفجأة انهار شيء خلف الباب، وتدحرج قليلًا، وقرقع، ثم توقف قرب الباب مباشرة، فارتعدا، وصمتا كلاهما، ثم قال الأحدب بصوت خافت وقد اعتراه الخوف:

- ما هذا؟

ومضى إيليا إلى الباب، ففتحه وألقى بنظرة إلى الباحة، وهب على الغرفة صفير هادئ، وقرقرة، ووشوشة، وإعصار من الأصوات، وقال إيليا، وقد أغلق الباب، ومضى من جديد إلى النافذة:

- الصناديق سقطت.

وقعد تيرنتي على الأرض يرتب أكياسه، قائلًا:

- كلا، عليك أن تفكر قليلًا.. بأي كلمات تصيح، يا لطيف يا لطيف! يا أخ.. بالكفر لا تثير غضب الرب، بل تهلك نفسك، هذه كلمات حكيمة، أنا، يا عزيزي، سمعتها من أحد الناس، وكم سمعت من حكم.

وشرع من جديد يحكي عن ترحاله، ناظرًا بطرف عينه إلى إيليا. أما هذا فكان يصغي إلى حديثه إصغاءه إلى صخب المطر، مفكرًا في سكناه مع عمه، كيف ستكون.

وقد عاشا معًا عيشة لا بأس بها؛ اتخذ تيرنتي سريرًا من الصناديق، أقامه بين الباب والمدفأة، في زاوية يكون الظلام فيها، ليلًا، أشد حلكة منه في الأماكن الأخرى من الغرفة، وقد ائتلف حياة لونيف، فأخذ على عاتقه القيام بوظائف غافريك؛ فكان يعد السماور، ويرتب المخزن والغرفة، ويذهب إلى المطعم للإتيان بطعام الغداء، مدمدمًا دائمًا بالأدعية والتراتيل. وفي الأمسيات كان يحكي لابن أخيه عن امرأة أنقذت المسيح من أعدائه؛ إذ ألقت بطفلها إلى الموقد اللاهب، واحتضنت المسيح بدلًا منه. وكان يحكي عن أحد الرهبان، كيف ظل ثلاثمائة عام يصغي إلى تغريد العصافير، وعن كيريك وأوليتا وأشياء كثيرة أخرى. وكان لونيف يستمع إليه، وهو منصرف إلى أفكاره، وعند المساء كان يخرج للنزهة، وعلى الدوام كانت الضواحي تجتذبه؛ فهناك، في الحقول، تسود في الليل السكينة والظلمة والخلاء، كما هي الحال في نفسه.

وبعد أسبوع من العودة، مر تيرنتي على بتروخا فيليمونوف، ورجع من عنده خامدًا متكدرًا، وحين

سأله إيليا -ماذا جرى له؟- أجاب متعجلًا:

- لا شيء، لا شيء.. كنت.. يعني، رأيت كل شيء.. يعني... تحادثنا قليلًا.

- وكيف ياكوف؟ - سأل إيليا.

- ياكوف هذا، على حافة القبر؛ أصفر، يسعل.

وسكت تيرنتي، وهو ينظر إلى إحدى الزوايا، مكتئبًا حزينًا.

كانت الحياة تجري على نسق واحد، وصورة واحدة؛ الأيام تمر الواحد إثر الآخر، كأنها قطع نقدية متماثلة في قيمتها وتاريخ صكها. وفي الأعماق من نفس لونيف يكمن الحقد الكئيب كالأفعوان يلتهم كل انطباعات هذه الأيام. لم يكن يمر عليه أحد من معارفه القدامى: بافل وماشا، على ما يبدو، وجدا لنفسيهما طريقًا آخر في الحياة، وماتيتسا دعسها حصان، وماتت في المستشفى، واختفى أثر بيرفيشكا، كأنما انشقت الأرض فابتلعته. وقد كان لونيف يهم دائمًا بالذهاب إلى ياكوف، إلا أنه ما كان يستطيع التصميم؛ لشعوره بأن لا مجال لديه للحديث مع رفيقه المحتضر. كان في الصباح يقرأ جريدة، وفي النهار يقعد في الدكان متطلعًا إلى رياح الخريف، كيف تعصف في الشارع بالأوراق الصفر المتساقطة من الأشجار، وإلى الدكان أيضًا، كان يتطاير أحيانًا بعض من هذه الأوراق، وبصوت مخشخش، كالأوراق اليابسة، كان تيرنتي يدندن، وهو منهمك بمشاغله في الغرفة:

- صل إلى الرب من أجلنا، أيها الأب المقدس تيخون.

وذات يوم أحد، فيما كان إيليا يفتح الجريدة، وجد على صفحتها الأولى قصيدة: «أمس واليوم، مهداة إلى الآنسة ص.ن.م»، والتوقيع «ب. غراتشيف».

في الهذيان والمرض العضال، أمضيت أيام صباي.

لا عقلي ولا قلبي كان يقلقهما السؤال:

- أين، أنا الضرير، أين، ترى، أسير؟

طوق من ظلام يطبق على روحي يعمي بصري وبصيرتي...

ولكني، ليل نهار، كنت أحلم بما ينير!

وطلعت لي، فجأة، عزيزة، أبية، بالضوء نفسك ملية..

فإذا ستار الظلام يترنح وعن عيني وروحي ينزاح!

ألا قبحًا لهذا الظلام!

أراني، ومنه قد خلصت، الصديق، الصديق، وجدت!

والعدو، بجلاء، عرفت!

قرأ لونيف القصيدة ورفع بالجريدة عنه محنقًا.

«أنظم! اخترع! صديق.. عدو! الأحمق يرى كل شخص عدوًا له، أي نعم!» - وضحك ضحكة صفراء، ثم راح يقول في نفسه، فجأة، وكأنما بقلب آخر:

«وماذا لو أذهب إلى هناك؟ أذهب فأقول... هأنذا جئت... المعذرة».

«على أي شيء؟» - سأل نفسه في الحال، وختم هذا كله بكلمة حاسمة متجهمة:

«ستطردني».

ثم شرع يقرأ القصيدة من جديد، ومن جديد راح يفكر بالفتاة، وفي قلبه موجدة وحسرة.

«إنها متكبرة، ستنظر إليَّ هكذا، فأعود بخفي حنين».

وفي تلك الجريدة ذاتها، قرأ في قسم الأخبار أن محكمة الدائرة ستنظر يوم 23 أيلول بالدعوى المقامة بتهمة السرقة على فيرا كابتونوفا، فانبثق في داخلته شعور خبيث، وقال في نفسه، مخاطبًا بافل:

«أنت تنظم القصائد؟ وأما هي، فلا تزال قاعدة في السجن؟».

- يا رب! ارحمنا نحن الخطاة. - تمتم تيرنتي، وهو يتنهد، ويهز رأسه بأسى واكتئاب، ثم ألقى بنظرة إلى ابن أخيه، وهو يخشخش بالجريدة، وصاح به:

- إيليا.

- أيوه؟

- بتروخا هذا...

وابتسم الأحدب ابتسامة مؤثرة، ولزم الصمت، فسأله لونيف:

- ماذا؟

- نهبني. - قال تيرنتي بصوت خافت، وبلهجة تنم عن الشعور بالذنب، وضحك ضحكة مخنوقة، فتطلع إيليا إلى وجه عمه دون مبالاة، وسأله:

- وكم سرقتما؟

فابتعد العم عن الطاولة مع كرسيه، وطأطأ رأسه، وأسند يديه على ركبتيه، وراح يحرك أصابعه، طيًّا وبسطًا. وسأل لونيف من جديد:

- عشرة آلاف، آ؟

فرفع الأحدب رأسه وقال بدهشة، يمط كلامه مطًّا:

- عشرة آ-لا-ف! ماذا تقول بالله عليك؟ كل ما هنالك ثلاثة آلاف وستمائة وكسور، أما أنت.. فتقول عشرة آ-لا-ف! زدتها!

- كان عند الشيخ أكثر من عشرة. - قال إيليا، متضاحكًا في خبث.

- ما صحيح.

- أي نعم، هو نفسه كان يقول...

- ولكن هل كان يعرف الحساب؟

- ليس أسوأ منك ومن بتروخا.

وراح تيرنتي يفكر، وانسدل رأسه من جديد، ثم سأله إيليا:

- كم أكل عليك بتروخا؟

- حوالي سبعمائة. - قال تيرنتي متنهدًا- هكذا إذن... أكثر من عشرة آلاف؟ أين كان مثل هذا المال المملوك مخفيًّا؟ كنا نظن أننا أخذنا كل شيء... ولكن ربما كان بتروخا قد غشني في ذلك الحين أيضًا...آ؟

- أحرى بك أن تسكت.- قال لونيف بلهجة قاسية.

- لم يعد للكلام فائدة الآن. - قال تيرنتي موافقًا، وتنهد متحسرًا.

أما لونيف فمضى يفكر بطمع الإنسان، وبكثرة ما يرتكب الناس من القبائح في سبيل الفلوس، إلا أنه ما لبث أن راح يتصور نفسه وقد بات يملك عشرات ومئات الألوف، وكيف كان من شأنه أن يظهر نفسه للناس؟ كان من شأنه أن يحملهم على الجري أمامه على أربع، كان من شأنه أن... وتحمس لونيف بعاطفة الثأر والانتقام، فخبط بقبضته على الطاولة، وارتعش من الخبطة، وتطلع إلى عمه، فرأى الأحدب ينظر إليه، وفمه نصف مفتوح، وفي عينيه هلع، فقال عابسًا وقد نهض عن الطاولة:

- كنت أفكر...

- يحدث مثل هذا... - قال العم موافقًا، غير مصدق.

وحين مضى إيليا إلى المخزن، لاحقه عمه بنظرة متفحصة، وشفتاه تتحركان من دون صوت، وما كان إيليا يرى هذه النظرة المرتابة من وراء ظهره، إلا أنه كان يشعر بها؛ وقد كان يلاحظ منذ وقت بعيد أن عمه يتعقبه، يود أن يفهم شيئًا ما، ويسأل عن شيء ما، وكان هذا يحمل لونيف على التهرب من الحديث مع عمه. وكل يوم كان يزداد شعورًا بأن الأحدب يزعجه في عيشته، وغالبًا ما كان

يطرح على نفسه هذا السؤال:

«هل سيدوم هذا طويلًا؟».

وفي نفس لونيف كأنما كان يتورم دمل، وكانت عيشته تغدو أدعى للاشمئزاز باطراد، وكان أسوأ شيء عدم رغبته في أن يعمل شيئًا؛ فما كان ثمة ما يجذبه، إلا أنه كان يبدو أحيانًا أنه يتدهور شيئًا فشيئًا وأعمق فأعمق إلى هاوية مظلمة.

وبعد قليل من قدوم تيرنتي، ظهرت تاتيانا فلاسييفنا، وكانت قد سافرت من المدينة إلى مكان ما، وحين أبصرت الرجل الأحدب، وعليه قميص أسمر من البازان، شدت شفتيها بقرف، وسألت إيليا:

- هذا عمك؟

فأجابها إيليا باقتضاب:

- نعم.

- سيسكن معك؟

- حتمًا.

وأحست تاتيانا فلاسييفنا بنوع من التحدي في أجوبة شريكها، فكفت عن الاهتمام بالأحدب، أما تيرنتي، الواقف في الباب، مكان غافريك، فقد كان يفتل لحيته ويلاحق بنظرات فضولية قامة المرأة النحيلة ذات الفستان الرمادي، وكذلك كان لونيف ينظر إليها، كيف تنط في المخزن كالعصفور الدوري، وينتظر في صمت أن تواصل طرح الأسئلة، مستعدًّا لقذفها بكلمات ثقيلة غاضبة. ولكنها، وقد نظرت بطرف عينها إلى وجهه المغيظ، لم تسأل عن أي شيء. وقد كانت، وهي واقفة خلف المكتب، تتصفح دفتر الواردات اليومية، وتتحدث عن حلاوة الحياة في القرية، ومدى رخص تكاليفها، وحسن أثرها على الصحة.

- هناك نهر صغير، ما أهدأه! وصحبة مرحة؛ موظف بإدارة التلغراف يعزف عزفًا رائعًا على الكمان، وأنا تعلمت التجديف... ولكن، يا لأولاد الفلاحين! إنهم تعذيب.. مثل البرغش، يؤذون، يشحذون؛ أعطني، أعطني.. آباؤهم وأمهاتهم يعلمونهم هذا.

- لا أحد يعلمهم. - قال إيليا بلهجة جافة- آباؤهم وأمهاتهم يشتغلون، وأما الأولاد فيعيشون من دون رعاية. غير صحيح ما تقولين.

فتطلعت إليه تاتيانا فلاسييفنا بدهشة، وفتحت فمها تهم بأن تقول شيئًا، ولكن تيرنتي تبسم في تلك اللحظة بتأدب وقال:

- الأفندية الآن نادرون في القرى... سابقًا كان الأفندي يقضي كل عمره في القرية، أما الآن فيأتون عابرين.

حولت أفتونوموفا أنظارها إليه، فإلى إيليا من جديد، ثم أوقفتها على الدفتر دون أن تنبس ببنت شفة، فاضطرب تيرنتي، وراح يحكم وضع قميصه، وظل الجميع في المخزن صامتين قرابة دقيقة، فما كان يسمع غير حفيف الصفحات، وغير خشخشة؛ فقد كان تيرنتي يحك حدبته على عضادة الباب، وفجأة، انطلق صوت إيليا يقول بجفاف وهدوء:

- ولكن عليك قبل الدخول في حديث مع الأفندية أن تسأل: «اسمحوا لي، من فضلكم، بالكلام..» وأن تجثو على ركبتيك.

فأفلت الدفتر من يد تاتيانا فلاسييفنا، وزحل على المكتب، ولكن المرأة أمسكت به، خابطة إياه بيدها خبطة قوية، وانطلقت تضحك، وخرج تيرنتي إلى الشارع، مطأطئًا رأسه؛ وإذ ذاك ألقت تاتيانا فلاسييفنا إلى وجه إيليا العابس بنظرة باسمة من تحت الحاجبين، وسألته بصوت خفيض:

- زعلان؟ لأي سبب؟

كان وجهها يشف عن المكر والملاطفة، وعيناها تشعان بالتحدي، فبسط لونيف ساعده وأمسك بها من كتفها، كان يتبجس في نفسه الكره لها والرغبة الوحشية في ضمها، والضغط على صدرها، وسماع طقطقة عظامها الدقيقة، فراح يشدها إليه، وهو يصر بأسنانه، وأما هي فأمسكت بيده وأخذت تحاول نزعها عن كتفها، هامسة:

- أوي! اتركني! أوجعتني! هل جننت؟ هنا لا تجوز المعانقة... و... اسمع.. لا يناسب أن يشتغل عمك هنا؛ إنه أحدب، سيخافون منه... اتركني.. يجب تدبير شغلة له في مكان ما.. سامع؟

ولكنه كان قد احتضنها وراح يميل برأسه شيئًا فشيئًا فوق وجهها المحملق العينين:

- ما لك؟ هنا لا يجوز... بس.

وانفلتت فجأة وانزلقت من بين ساعديه، لدنة كالسمكة. وعبر ضباب لاهب في عينيه، رآها لونيف قرب الباب المؤدي إلى الشارع، كانت تقول له، وهي تركز هندام قميصها بيدين مرتعشتين:

- أف، يا لك من جلف! أما تستطيع الانتظار؟

كان في رأسه ضجيج، كأن جداول تجري فيه، وانه لواقف بلا حراك وراء المنضدة، شادًّا بقوة بأصابعه على ساعديه، يتطلع إليها كأنما كان يرى فيها لوحدها كل ما في حياته من شر ومن ضيق.

- جميل أنك شهواني، ولكن ينبغي، يا عيني، أن تكون ضابطًا لنفسك.

- روحي. - قال إيليا.

- رايحة... اليوم لا أستطيع استقبالك، ولكن بعد غد، اليوم الثالث والعشرين من الشهر، عيد ميلادي، هل ستأتي؟

كانت، وهي تتكلم، تتلمس شكلتها بأصابعها، غير ناظرة إلى إيليا.

- روحي. - كرر قوله لها، وهو يرتعد من شدة الرغبة في أن يمسك بها ويعذبها.

وانصرفت، وظهر تيرنتي في الحال، فسأل بتأدب:

- هذه هي شريكتك؟

فهز لونيف رأسه، وهو يتنفس الصعداء.

- يا سلام عليها... آه منك! صغيرة، آ...

فقال إيليا بصوت أجش:

- نجسة.

- م م.. - همهم تيرنتي غير مصدق. وأحس إيليا على وجهه بنظرة عمه المتفحصة المتحزرة، فسأله بغضب:

- ما لك تنظر هكذا؟

- أنا؟ أعوذ بالله! لا شيء.

- أنا أعرف ما أقول، قلت إنها نجسة، والسلام. وسأقول ما هو أسوأ، وسيكون هذا صحيحًا.

- إذن هذه هي المسألة. - قال الأحدب بصوت ممطوط وبلهجة مؤاسية.

- ماذا؟ - صاح إيليا بخشونة.

- يعني...

- ماذا... يعني؟

كان تيرنتي واقفًا أمامه، متأرجحًا من رجل إلى أخرى، خائفًا متأثرًا من الصيحات؛ وجهه حزين، وعيناه تطرفان بتواتر، وقد قال، بعد صمت قليل:

- يعني... إنك أدرى بالأمر.

كان الجو في الشارع كئيبًا؛ منذ بضعة أيام على التوالي، والمطر في تهطال، حجارة الجادة الرمادية النظيفة تشخص إلى السماء الكالحة في سأم وضجر، وهي أشبه بوجوه الناس، والحفر القائمة فيما بينها يستقر فيها الوحل، مبرزًا نظافتها الفاترة... والأوراق الصفر على الأشجار ترتعش ارتعاشة ما قبل الموت، وثمة في مكان ما مَن ينفض الغبار عن السجاد أو ملابس الفراء بضربات عصا متواترة، فينتشر في الفضاء وقعها الرتيب. ومن وراء أسطحة البيوت، في نهاية الشارع، ترتفع إلى السماء سحب كثيفة، شهباء قاتمة، وبيضاء، تزحف كتلًا هائلة، بتثاقل، الواحدة إثر الأخرى، أعلى فأعلى، مبدلة أشكالها باستمرار، فهي تارة أشبه بدخان حريق، وتارة أشبه بالجبال أو بأمواج النهر

العكرة، وإنه ليتراءى كأنما لا غاية لها من الارتفاع إلى العلاء الأشهب غير الانقضاض بشدة من هناك على البيوت والأشجار والأرض. وكان لونيف يتطلع إلى جدارها الحي أمامه، مرتعدًا من الشجر والبرد.

«ينبغي هجر المخزن وكل شيء، وليتاجر عمي مع تاتيانا، أما أنا فسأرحل».

ولقد كان يتمثل حقلًا عظيم الاتساع، مخضّلًا، وسماء مغطاة بسحب شهباء، ودربًا عريضًا على جانبيه أشجار البتولا، وهو سائر، يحمل خرجًا على كاهله، وقدماه تغوصان في الوحل، وقطرات مطر باردة تلسع وجهه، وأما الحقل والدرب فمقفران من الناس، والأشجار مقفرة حتى من الغربان، وفوق رأسه غيوم زرقاوية تتحرك من دون حس. ومن غير مبالاة كان يفكر قائلًا في نفسه:

«سأشنق نفسي».

وبعد الغد من ذلك اليوم، استيقظ صباحًا فأبصر على ورقة الرزنامة الرقم 23، فتذكر أن فيرا ستجري اليوم محاكمتها، فابتهج للفرصة المتاحة له لمبارحة المخزن، وشعر بفضول حار نحو مصير الفتاة، فشرب الشاي على عجل، ومضى إلى المحكمة يكاد يركض ركضًا. ما كان يسمح للناس بدخول المبنى، وكان ثمة جمع يتزاحم عند المدخل، منتظرًا وقت فتح الباب، فوقف لونيف هو أيضًا عند الباب، مسندًا ظهره إلى الجدار. كانت الساحة منبسطة أمام المحكمة، وفي وسطها تقوم كنيسة.

قرص الشمس الشاحب المتعب يظهر تارة، ويتوارى خلف السحب تارة أخرى، وكل دقيقة تقريبًا ينبسط ظل، بعيدًا في الساحة، فينسرب على الحجارة، ويتسلق على الأشجار، وإنه لمن الثقل بحيث تترنح أغصان الأشجار تحت وطأته، وبعد ذلك كان يلف الكنيسة من قاعدتها حتى الصليب، وينفذ منها، ويمضي بعيدًا من دون حس حتى يصل إلى مبنى المحكمة، وإلى الناس على بابها.

وقد كان الناس من الصنف المغمور، ذوي وجوه جائعة، ينظرون بعضهم إلى بعض بعيون متعبة، ويتكلمون بتوان. وكان أحدهم -وهو طويل الشعر، يرتدي معطفًا خفيفًا مزررًا حتى ذقنه، وعلى رأسه قبعة مدعوكة- يفتل بأصابعه المتجلدة الحمراء لحيته الحادة الصهباء، ويخبط الأرض فارغ الصبر بقدمين تنتعلان قبقابًا مهترئًا. وثمة آخر يلبس معطفًا قصيرًا ويعتمر بكاسكيت مسدلة على عينيه، يقف ورأسه مرخي على صدره، داسًّا إحدى يديه في عبه، والأخرى في جيبه، وكان يبدو عليه النعاس. وهناك شخص قميء أسمر، يرتدي جاكتة وينتعل بجزمة طويلة الساق، يشبه الخنفساء، كان يبدو عليه القلق؛ فهو يشخص إلى العلاء بسحنة شاحبة حادة التقاطيع، ويتطلع إلى السماء، ويصفر، ويقطب حاجبيه، ويلقط شاربيه بلسانه، ويحكي أكثر من الجميع، وقد قال بانفعال، مائلًا برأسه، متسمعًا:

- هل سيفتحون؟ كلا... أف! ولكن مر وقت طويل... وأنت، مونشير، ألم تمر على المكتبة؟

- لا، بكّير. - أجاب ذو الشعر الطويل بنقرتين، ولكن بنغمة واحدة.

- أف! الحقيقة، برد.

فتأوه ذو الشعر الطويل مؤيدًا، وقال وعلى وجهه سيماء التفكير:

- أين يمكن للمرء أن يجد الدفء لولا وجود المحكمة والمكتبة؟

وراح الأسمر يهز كتفيه في صمت. وكان إيليا يتأمل هؤلاء الناس ويستمع إلى أحاديثهم، وقد كان يرى أنهم «بطّالون»، «دوّارون»، أناس يعيشون من وراء أعمال مشبوهة، يحتالون على الفلاحين، كاتبين لهم العرائض ومختلف الأوراق، أو يمرون على البيوت حاملين مكاتيب يلتمسون فيها العون والمساعدة.

وحط زوج من الحمام على الجادة، غير بعيد عن مدخل المحكمة، وراح الذكر السمين، ذو الحوصلة المتدلية، يدور حول الأنثى، متأرجحًا من قائمة لأخرى، مقرقرًا بنبرة عالية.

- في...و! - صفر الشخص الأسمر صفرة حادة، فارتعد لابس المعطف القصير، ورفع رأسه؛ كان وجهه متورمًا، أزرق، وعيناه كأنهما من زجاج.

- لا أستطيع احتمال الحمام. - صاح الأسمر، ملاحقًا بأنظاره زوج الحمام الطائر- سمينة.. مثل أصحاب الدكاكين الأغنياء... وتقرقر... مقرف. عندك محاكمة؟ - وجه هذا السؤال بغتة إلى إيليا.

- لا.

وراح الأسمر ينظر إلى لونيف من تحت إلى فوق، ثم دمدم بصوت خافت:

- غريب!

- وما وجه الغرابة؟ - سأل إيليا متضاحكًا.

- وجهك وجه متهم. - قال الرجل بسرعة- هه، إنهم يفتحون.

وكان هو أول من شك رأسه داخلًا باب المحكمة المفتوح، ولحق به إيليا، وقد جرحه قوله، فاصطدم كتفه في الباب بالرجل ذي الشعر الطويل.

- على مهلك يا جلف. - قال ذو الشعر الطويل بهدوء، وصدم إيليا بدوره هو أيضًا، فتخطاه.

ولكن هذه الصدمة لم تثر الاستياء لدى إيليا، بل الدهشة فقط؛ فقد راح يقول في نفسه:

«عجيب! يطاحم كأنه الأفندي، وفي وسعه التقدم في كل مكان، بينما هو على هذه الشاكلة».

كانت قاعة المحكمة في قتام وسكون؛ الطاولة المديدة، المغطاة بجوخ أخضر، والمقاعد الوثيرة ذات المساند العالية، وصورة القيصر بحجمه الطبيعي، في إطار ذهبي، وكراسي المحلفين الحمراء، والمقعد الخشبي الكبير خلف شبكة الموقوفين؛ كل شيء هناك كان ثقيلًا يوحي بالاحترام، والنوافذ عميقة الغور في الجدران الرمادية، وقد علقت عليها ستائر سميكة الثنيات، وأما زجاج النوافذ فكان من النوع الأغبش، وكانت الأبواب الثقيلة تنفتح من دون حس ولا ضجيج، وأناس ببدلات رسمية

يروحون ويجيئون بسرعة. وتطلع لونيف إلى ما حوله، فانقبض قلبه بفعل شعور مرعب، أما حين صاح الموظف: «محكمة»، فقد ارتعد، وهبّ واقفًا على قدميه قبل الجميع، رغم أنه ما كان يدري وجوب القيام. وكان أحد الأربعة الداخلين إلى القاعة غروموف، الشخص الساكن في البيت المقابل لمخزن إيليا، وقد جلس على المقعد الأوسط، فمر بيديه الاثنتين على شعره فقبّبه، وركّز ياقته المطرزة تطريزًا وافرًا بالذهب، وقد بعث وجهه شيئًا من الطمأنينة في نفس إيليا؛ إنه على عهده دائمًا متورد الوجه منشرح، سوى أنه عاقف طرفي شاربيه لفوق. وإلى اليمين منه كان يجلس عجوز جليل الهيئة، ذو لحية صغيرة شائبة، أفطس الأنف، على عينيه نظارتان، وإلى اليسار شخص أصلع، له لحية صهباء ذات شقين ووجه جامد أصفر. ولدى المكتب كان يقف قاض شاب، مدور الرأس، أنيق الحلاقة، عيناه سوداوان جاحظتان. وقد ظلوا جميعًا صامتين بعض وقت، يرتبون الأوراق على الطاولة. وأما لونيف فكان يتطلع إليهم باحترام، ويتوقع أن ينهض أحدهم بين لحظة وأخرى، فيقول شيئًا ما بصوت عال ووقار.

ولكن إيليا التفت برأسه يسارًا، فإذا به، فجأة، يرى وجهًا معروفًا لديه، سمينًا لمّاعًا كأنما هو مطلي بصبغة الأظافر، هو وجه بتروخا فيليمونوف. وكان بتروخا قاعدًا في الصف الأول من الكراسي الحمراء، مسندًا قفاه إلى ظهر الكرسي، يرمق الجمهور بهدوء واطمئنان. وقد مرت عيناه مرتين بوجه إيليا مرورًا خاطفًا، وفي كلتا المرتين كان لونيف يحس بالرغبة في أن ينهض على قدميه، ويقول شيئًا ما لبتروخا، أو لغروموف، أو لجميع الناس في المحكمة:

«سارق.. كان يضرب ابنه حتى الموت» - كانت هذه الفكرة تنبثق في رأسه، أما في حلقه، فكان يحس بما يشبه الحرقة.

- إنك متهم بأنك... - هكذا راح غروموف يقول بصوت لطيف، ولكن إيليا ما كان يرى لمن يوجه غروموف كلامه؛ فقد كان ينظر إلى وجه بتروخا، والحيرة الشديدة تضغط عليه بوطأتها، غير قادر على الاستسلام لفكرة أن فيليمونوف قاض.

- قل، أيها المتهم. - سأل النائب العام بصوت متراخ، وهو يمسح جبينه- كنت تقول لصاحب الدكان أنيسيموف: «انتظر.. سأريك!».

وفي مكان ما كانت فرجة نافذة تدور وتطلق صريرها:

- ي...يو... ي...يو... ي...يو.

وبين المحلفين رأى إيليا وجهين آخرين يعرفهما، ففي مكان أعلى من بتروخا، إلى الخلف منه، كان يجلس متعهد التجصيص سيلاتشيف، وهو رجل ضخم، طويل الساعدين، ذو وجه صغير غضوب، صديق لفيليمونوف، يلعب معه دائمًا بالدامة. ويقول الناس عن سيلاتشيف إنه تشاجر مرة، في الشغل، مع صانع، فشده عن الصقالة، فمرض ومات. أما في الصف الأول، بعد بتروخا بشخص، فكان يقعد دودونوف، وهو صاحب مخزن كبير للنوفوتيه. وقد كان إيليا يشتري البضاعة من عنده، ويعلم أنه رجل غليظ القلب، شحيح، كثيرًا ما يجهد ليدفع بدل الروبل عشرة كوبيكات.

- قل، أيها الشاهد.. عندما رأيت بيت أنيسيموف يحترق...

وأطلقت فرجة النافذة أنينها:

- ي...يو... بيو...يو... يو!

وفي صدر إيليا أيضًا كان يتردد أنين.

- أبله. - قال أحدهم إلى جانبه بصوت هامس، فألقى بنظرة جهة الصوت، كان الرجل الأسمر قاعدًا إلى جانبه مقلصًا شفتيه في احتقار.

- من هو؟ - همس إيليا، متطلعًا إليه ببلاهة.

- الموقوف... توفرت له فرصة رائعة لشقلبة الشاهد... فضيعها... ألا لو كنت مكانه... إيه!

ونظر إيليا إلى الموقوف، فإذا هو فلاح طويل القامة ذو رأس مضلع الشكل، قاتم الوجه مرتاعه، مكشرًا عن أسنانه تكشيرة كلب متعب مضروب، منحشر في زاوية، مطوق بالأعداء، عاجز عن الدفاع عن نفسه. وأما بتروخا، وسيلاتشيف، ودودونوف والآخرون، فكانوا ينظرون إليه بهدوء، بعيون شبعانة، وكان يخيل للونيف أنهم جميعًا يقولون عن الفلاح في نفوسهم:

«أوقع نفسه، فهو إذن مذنب».

- شيء ممل. - قال جاره هامسًا- الدعوى لا تثير الاهتمام... المتهم أبله، والنائب العام سخيف، والشهود مغفلون كما هي حالهم دائمًا. لو كنت نائبًا عامًّا لانتهيت منه بعشر دقائق.

- هو مذنب؟ - سأل إيليا همسًا، مرتعدًا من رعشة ألمت به.

- أشك في ذلك، ولكن يمكن أن يحكم عليه؛ فهو لا يحسن الدفاع عن نفسه... الفلاحون عمومًا لا يحسنون الدفاع عن أنفسهم.. عظم ولحم، أما الذكاء، والشطارة، فليس لديهم منها ولا قطرة.

- هذا صحيح.

- معك قطعة عشرين كوبيكًا؟ - سأل الرجل بغتة.

- معي.

- هات.

وسحب إيليا كيسه وأعطى القطعة النقدية قبل أن يتمكن من أن يقرر في ذهنه هل يجدر به أن يعطيه؟ ولكنه حين كان قد أعطاه، فقد قال في نفسه، باحترام عفوي، وهو ينظر إلى جاره بطرف عينه:

«شاطر».

- أيها السادة المحلفون. - قال النائب العام بلطف ووقار- انظروا إلى وجه هذا الشخص، فهو أبلغ من

أقوال الشهود التي أدانت المتهم إدانة قاطعة.. إنه لا يمكن إلا أن يقنعكم بأن الواقف أمامكم مجرم نموذجي، عدو للنظام، عدو للمجتمع.

كان «عدو المجتمع» جالسًا، فلا بد أن يكون الجلوس قد بات مربكًا له حين قيل عنه إنه واقف، فقام على قدميه شيئًا فشيئًا، مطأطئ الرأس، ساعداه منسدلان في استرخاء على طول جذعه، وكل هيكله المديد الكالح في انحناء، كأنما هو على أهبة الإلقاء بنفسه إلى شدق العدالة.

وحين أعلن غروموف رفع الجلسة، خرج إيليا إلى الممشى مع الرجل الأسمر، فتناول هذا من جيب جاكيته لفافة تبغ مدعوكة، وأخذ يقول وهو يسوّيها بأصابعه:

- يحلف، الأبله، على أنه لم يحرق... هنا لا ينبغي لك أن تحلف، بل انزع سروالك رأسًا وانبطح... الدعوى صعبة.. ألحقوا الضرر بصاحب دكان.

- الفلاح هذا، برأيك، مذنب؟ - سأل إيليا، وعلى وجهه سيماء التفكير.

- لا بد أنه مذنب؛ لأنه مغفل... الناس الأذكياء لا يكونون مذنبين. -قال الرجل باطمئنان مسرعًا في كلامه، مدخنًا لفافته باستهتار.

- على مقاعد المحلفين، -شرع إيليا يقول بصوت خافت وبانفعال- يجلس أناس...

- دكنجية بالأصح. - قال الأسمر بهدوء مصححًا، فتطلع إليه إيليا واستأنف كلامه:

- أعرف بعضًا منهم.

- ها - ها!

- جماعة... أرذال.. بصريح العبارة.

- حرامية. - قال محدثه ملقنًا إياه.

كان هذا يتكلم بصوت عال، وقد قذف بلفافته، فبوق شفتيه، وراح يصفر بصوت غليظ، وينظر إلى الجميع نظرات وقحة، وكل ما فيه، كل جارحة من جوارحه، ترتعش من سورة القلق الدائم، وكان يقول، هازًّا بكتفيه:

- يصادف أن يكون الأمر هكذا. وعلى العموم، إن ما يسمى بالعدالة هو في معظم الحالات مهزلة خفيفة، كوميديا. الناس الشبعانون يتدربون على إصلاح ما لدى الجياع من عيوب. وأنا غالبًا ما أحضر جلسات المحاكم، ولكني ما رأيت جياعًا يحاكمون شبعانين... وإذا ما حاكم الشبعانون شبعانًا، فإنما يحاكمونه عن طمع، ولسان حالهم يقول: لا تأخذ كل شيء دفعة واحدة، بل ابق لنا شيئًا.

فقال له إيليا:

- المثل يقول: الشبعان لا يفهم الجوعان.

- خلط! - قال محدثه معترضًا- بل يفهمه كل الفهم، ولهذا يقسو عليه.

فقال إيليا بصوت خافت:

- إذا كان الشبعان شريفًا، فلا بأس.. ولكن حين يجتمع للمرء الشبع والنذالة، فكيف يمكن أن يحاكم إنسانًا؟

فأعلن الأسمر قائلًا بهدوء:

- الأنذال هم أقسى القضاة، أيوه، سنسمع محاكمة بدعوى سرقة.

- إنها من معارفي. - قال لونيف بصوت خافت.

- هه! - قال الرجل بدهشة، وألقى إليه بنظرة خاطفة- فلنر هذه التي تعرفها.

كان كل شيء في رأس إيليا مشوشًا مختلطًا؛ وقد كان بوده لو يسأل هذا الرجل النشيط، المتدفق بالكلمات تدفق السيل عن أشياء كثيرة، ولكنه كان ينطوي على ما يخيف إيليا وينفره. وفي الوقت نفسه كانت الفكرة الثابتة عن بتروخا القاضي تضغط بكابوسها على كل شيء في نفسه، كانت تشد على قلبه كأنها طوق من حديد فتجعله في ضيق.

وحين أقبل على باب القاعة، أبصر أمامه في الزحام قذال بافل غراتشيف القصير وأذنيه الصغيرتين، فسرت في نفسه البهجة، فشد لونيف من كم معطفه، وابتسم في وجهه ابتسامة عريضة، وابتسم بافل أيضًا ابتسامة بادية التكلف، غير صادرة عن طيب خاطر.

وقد وقفا وجهًا لوجه بضع ثوان صامتين، ولا بد أنهما كانا كلاهما يشعران في هذه الثواني بدافع يحدوهما إلى الكلام في وقت معًا؛ فقد سأل بافل مبتسمًا ابتسامة صفراء:

- هل جئت تتفرج؟

- وهل تلك... هنا؟ - سأل إيليا بارتباك.

- من هي؟

- صاحبتك صوفيا.

- هي ليست صاحبتي. - أجاب بافل بجفاف، قاطعًا كلامه.

ودخلا القاعة، واقترح لونيف قائلًا:

- اجلس بقربي.

فارتبك بافل، ثم أجاب:

- تعرف... معي ناس.

- طيب... معليش.

- خاطرك.

ومضى غراتشيف متنحيًا بسرعة، فتبعه إيليا بنظراته وهو يحس كأنما نكأ بافل بيده جرحًا على جسده، بشدة وعنف، وشعر بوجع لاهب. كان مزعجًا أن يرى على رفيقه معطفًا متينًا جديدًا، ويرى أن وجهه بات في هذه الشهور أكثر عافية ونظافة. وعلى المقعد الجالس عليه بافل، كانت تجلس أخت غافريك، وها هو قد قال لها شيئًا، فإذا هي تلتفت بسرعة نحو لونيف؛ وإذ رأى إيليا وجهها الجامح، الناتئ، حول بصره عنها، وقد عصف بنفسه مزيد من الاستياء والغيظ.

وجاؤوا بفيرا؛ فوقفت خلف الشبكة، عليها ثوب سجن أغبر يصل إلى كعبيها، ومنديل أبيض، على صدغها الأيسر خصلة شعر ذهبية، وخدها شاحب، وشفتاها مطبقتان بشدة، وعينها اليسرى محملقة، تنظر إلى غروموف نظرة جامدة جدية، وكان صوتها يرن في أذني إيليا رنة فاترة:

- نعم... نعم... لا.

وكان غروموف ينظر إليها متلطفًا، ويكلمها بصوت غير مرتفع، ناعم، كأنه غرغرة القط، وكان صوته المرن العذب ينسرب إلى فيرا قائلًا لها:

- ولكنك، يا كابيتانوفا، تعترفين بالتهمة الموجهة إليك، بأنك في الليل...

وتطلع إيليا إلى بافل، وكان هذا قاعدًا محني الظهر، مطأطئ الرأس، يدعك قبعته بيديه، وجارته منتصبة الجذع، تنظر كأنما هي التي تحاكم الجميع، تحاكم فيرا، والقضاة، والجمهور. وفي الوقت نفسه تدور برأسها من ناحية إلى ناحية، وشفتاها مشدودتان بقرف، وعيناها تشعان تحت حاجبيها المقطبين بنور بارد صارم.

- أعترف. - قالت فيرا بصوت راعش، كأنه النقرة على قدح، رقيق منثلم.

فتدانى رأسا اثنين من المحلفين - هما دودونوف وجار له، أشقر، حليق الوجه- وراحا يحركان شفاههما من دون صوت، وأما عيونهما فكانت تبتسم، وهي تتأمل الفتاة. واندفع بتروخا فيليمونوف بكل جسده إلى أمام، وازداد وجهه احمرارًا، وتحرك شارباه. وكذلك راح بضعة محلفين آخرين يتطلعون إلى فيرا، وكانوا جميعًا يتطلعون إليها باهتمام خاص؛ مفهوم لدى لونيف ومثير لاشمئزازه.

كان يقول في نفسه وهو يشد على أسنانه شدًّا قويًا: «يحاكمون، وهم أنفسهم يلمسونها بنظراتهم». وقد ود لو يصيح ببتروخا: «أنت، يا غشاش، بم تفكر؟».

وأحس بما يشد على خناقه ويحبس أنفاسه.

وقال النائب العام، محركًا لسانه بتكاسل، محملقًا عينيه كأنه الخروف المتعب من الحر:

- قولي لي... أيوه، يا كابيتانوفا... من زما....ن... تتعاطين الدعارة؟

فمرت فيرا بيدها على وجهها تمسحه، كأنما التصق هذا السؤال على وجنتيها المحمرتين.

- من زمان.

وكان جوابها قاطعًا. وانطلقت بين الجمهور وشوشة كأنها فحيح الأفاعي، وازداد غراتشيف انحناء، كأنما يود أن يتوارى، وهو لا يزال يدعك كاسكيته.

- منذ متى بالضبط؟

فلزمت فيرا الصمت، وهي تنظر إلى وجه غروموف، وهو محملق بعينيه حملقة تنم عن الجدية والصرامة.

- سنة؟ سنتان؟ خمس سنوات؟ -أردف النائب العام يسأل بإلحاح.

وظلت الفتاة على صمتها. كانت تقف دون حراك، كالحة، كأنما هي مقدودة من حجر، وليس غير أطراف منديلها ترتعش على صدرها.

- لك الحق في عدم الإجابة إذا كنت لا تريدين. - قال غروموف، وهو يمسد شاربيه.

وهنا هب المحامي واقفًا، وهو رجل نحيل ذو لحية حادة الرأس وعينين مستطيلتين، أنفه رفيع طويل، وأما قذاله فعريض، ولذلك كان وجهه أشبه بالبلطة، وقد سأل بصوت رنان حاد:

- قولي يا كابيتانوفا، ما الذي أرغمك على تعاطي هذه المهنة؟

- لم يرغمني شيء. - أجابت فيرا، وهي تنظر إلى القضاة.

- هم....م... ليس الأمر هكذا تمامًا! معروف عندي... أنتِ حكيت لي.

- لا شيء معروف عندك. - قالت فيرا، والتفتت إليه، فأردفت تقول بغضب، وصوتها يعبر عن الانزعاج، وهي تلقي عليه نظرات صارمة: - ما حكيت لك شيئًا.

وألقت نظرة سريعة على الجمهور، ثم التفتت إلى القضاة، فسألتهم مشيرة برأسها إلى المحامي:

- هل يمكن عدم التكلم معه؟

ومن جديد انطلق فحيح الأفاعي في القاعة، أعلى وأشد وضوحًا هذه المرة.

كان إيليا يرتعد من شدة الانفعال، وينظر إلى غراتشيف.

وقد كان ينتظر منه شيئًا، وينتظره في ثقة ويقين. ولكن بافل ظل صامتًا لا يتحرك، وهو يتطلع من وراء كتف الشخص الجالس أمامه. وكان غروموف ينطق، مبتسمًا، بكلمات ناعمة ملساء... وبعد ذلك أخذت فيرا تتكلم بصوت خفيض صارم:

- كل ما في الأمر أني اشتهيت أن أصبح غنية.. فأخذت.. ولا شيء أكثر من هذا، وكنت هكذا دائمًا.

فأخذ المحلفون يتهامسون؛ وقد تجهمت وجوههم، كما ظهر على وجوه القضاة شيء من عدم الارتياح. وشمل القاعة سكون، وكان يسمع من الشارع وقع خطوات موزون ثقيل؛ إذ كان ثمة جنود يمرون. وأخذ النائب العام يتكلم:

- نظرًا لاعتراف المتهمة فإني أعتقد...

وشعر إيليا انه لم يعد بقادر على الجلوس في ذلك المكان، فنهض وشرع يخطو، فقال الحاجب ملاحظًا بصوت مرتفع:

- سكو...ت.

فجلس إذ ذاك من جديد، مطأطئ الرأس، مثل بافل، فما كان يستطيع رؤية وجه بتروخا الأحمر، وقد بات الآن متنفخًا متعظمًا، كأنما هو مستاء من أمر ما، أما نعومة غروموف الثابتة المرفقة بطيبة القاضي، فكان إيليا يشعر حيالها بأن هذا الرجل المرح قد اعتاد محاكمة الناس اعتياد النجار تنجير الأخشاب، وإذ ذاك تولدت في ذهن إيليا فكرة رهيبة مقلقة:

«إذا أنا اعترفت، فسيفعلون بي هكذا.. بتروخا سيحاكمني، ويبعثون بي إلى سجن الأشغال الشاقة، أما هو فيبقى».

ولازمته هذه الأفكار فلبث جالسًا، غير ناظر إلى أحد، ولا سامع شيئًا.

- ل... لا أريد أن يتكلموا عن هذا. - أطلقت فيرا هذه الصيحة الراعشة الغاضبة، وأخذت تنتحب، ممسكة صدرها بيديها، نازعة منديلها عن رأسها.

وامتلأت القاعة بضجيج مضطرب، وتشوش كل ما فيها بفعل صيحات الفتاة، أما هذه فراحت تتخبط خلف الشبكة، كالمصابة بحرق، وتنوح مُر النواح.

وانتفض إيليا من مكانه وقذف بنفسه إلى أمام، ولكن الجمهور كان يمشي بعكس اتجاهه، فإذا هو يجد نفسه في الممشى بصورة لم يكد يلحظها، وسمع صوت الرجل الأسمر يقول:

- فضحوها.

كان بافل غراتشيف يقف قرب الجدار، شاحبًا أشعث الشعر، وفكه السفلي يرتعش، فأقبل عليه إيليا وراح ينظر إلى وجه رفيقه عابسًا، بعينين غاضبتين، وأخذ يسأل:

- ماذا؟ ما رأيك؟

فتطلع إليه بافل، وفغر فاه دون أن ينطق بكلمة، واستمر لونيف يسأل:

- خربت حياتها!

فارتعد بافل إذ ذاك، كأنما أصابته ضربة سوط، ورفع يده فحطها على كتف لونيف، وأخذ يتكلم

بانفعال:

- أتراني أنا فعلت ذلك؟ سنقدم دعوى أيضًا.

فنفض إيليا يده عن كتفه، وهمّ بأن يقول له:

«أنت.. لم تعلن أنها إنما سرقت من أجلك!»- ولكنه قال بدلًا من هذا:

- ولكن بتروخا فيليمونوف يحاكم... أهذا عدل، آ؟ - وضحك باستهزاء.

ونصب بافل قامته، وكان وجهه ملتهبًا، فأخذ يقول شيئًا ما في استعجال، إلا أن لونيف انصرف عنه، غير مستمع إليه. وهكذا خرج إلى الشارع، وعلى وجهه ابتسامة ساخرة، وظل حتى المساء يتسكع من شارع لشارع، كالكلب الشارد، إلى أن أحس بدوار من شدة الجوع.

كانت الأنوار قد أخذت تشتعل في نوافذ البيوت، وعلى أرض الشارع تحط شرائط ضوء عريضة صفراء ترتسم فيها ظلال الزهور الموضوعة في النوافذ، فتوقف لونيف، وفيما هو يتطلع إلى زخارف هذه الظلال، تذكر الزهور في منزل غروموف، وزوجته الشبيهة بملكات الأساطير، والأغاني الشجية التي لا تحول دون الضحك... وعبرت قطة الشارع بخطوات حذرة، نافضة قوائمها نفضًا، فقال في نفسه مصممًا: «سأذهب إلى مطعم»، ومشى إلى وسط الجادة، فإذا بصيحة تنطلق:

- اوعا!

وإذا بشدق فرس أسود يواجهه ويغمره بأنفاس دافئة، فوثب متنحيًا، وأصاخ بسمعه إلى شتائم الحوذي، وانصرف مبتعدًا عن المطعم، وراح يقول في نفسه بهدوء:

«العربة الخفيفة لا يميت دعسها... لا بد لي من الطعام... فيرا الآن هالكة تمامًا... يا لها من أبية النفس... لم تشأ أن تتكلم عن بافل. ترى أن ليس من شخص يستحق أن يقال له هذا... إنها خير من الجميع... لو كانت أولمبيادا مكانها، كلا، أولمبيادا أيضًا طيبة، ولكن تاتيانا...».

وتذكر أن تاتيانا تحتفل، هذا اليوم بالضبط، بعيد ميلادها. بدأت له فكرة الذهاب إليها كريهة، أول الأمر، ولكن إحساسًا حادًّا لاذعًا راح يلامس قلبه في الحال تقريبًا.

فاستدعى حوذيًّا، وركب العربة، وما هي إلا بضع دقائق حتى كان يقف في باب غرفة طعام آل أفتونوموف، مرفرفًا جفنيه من النور، يبتسم ببلاهة ويتطلع إلى الناس الجالسين بازدحام حول المائدة في الغرفة الكبيرة. وصاح كيريك:

- آ- آ! جئت! هل جئت بحلويات؟ هدية عيد الميلاد، آ؟ ما لك، يا أخي؟

- من أين أنت قادم؟ - سألت ربة البيت.

وأمسك به كيريك من كمه ودار به حول المائدة، يعرفه بالضيوف. وراح لونيف يصافح أكفًّا دافئة، وأما وجوه الضيوف فقد اندغمت في عينيه بوجه واحد طويل مبتسم كبير الأسنان. وكانت رائحة

المأكولات المقلية تدغدغ منخريه، وحديث النسوة الرنان يطن في أذنيه، وشعر بلهب في عينيه، وغشيهما ضباب أرقش. وحين جلس، شعر بساقيه وقد حطمهما التعب، وأحس بالجوع يفري في أحشائه، فتناول قطعة خبز، وهو صامت، وراح يأكل. وأخذ أحد الضيوف يضحك بصوت عال، وقالت له تاتيانا فلاسييفنا، في الوقت نفسه، ملاحظة:

- لا تريد أن تهنئني؟ شيء عال! جاء، فلم يفه بكلمة، وجلس يأكل.

ومن تحت الطاولة دفرت رجله برجلها دفرة قوية، ومالت بوجهها على إبريق الشاي، فأضافت إليه ماءً ساخنًا من السماور.

وإذ ذاك وضع قطعة الخبز على الطاولة، وفرك يديه بشدة، وقال بصوت مرتفع:

- كنت طول النهار قاعدًا في المحكمة.

فغطى صوته على ضجة الحديث، وصمت الضيوف، فارتبك لونيف، وقد أحس بنظراتهم على وجهه، وراح هو أيضًا يرمقهم من تحت حاجبيه. كانوا ينظرون إليه بارتياب، وكان جليًّا أن كل واحد منهم يشك في أن يكون في وسع هذا الفتى العريض المنكبين، الأجعد الشعر، قول شيء ذي بال. وحل في الغرفة صمت ثقيل، وكانت تدور في رأس إيليا أفكار متقطعة، قاتمة، لا رابط بينها، ما لبثت أن تبددت فجأة في ظلمات نفسه، كأنما غارت في مكان ما.

- أحيانًا تكون في المحكمة أشياء طريفة جدًّا. - قالت فيليتساتا غريزلوفا بصوت خافض، وتناولت علبة حلوى وراحت تنكش فيها بالملقط.

وطفحت عل خدي تاتيانا فلاسييفنا بقع حمر، أما كيريك فقد تمخط بصوت شديد، وقال:

- ما لك، يا أخ، بدأت الكلام ولم تنهه؟ أيوه، كنت في المحكمة...

«إني أربكهم». - قال إيليا في نفسه، وتحركت شفتاه شيئًا فشيئًا بابتسامة، فاستأنف الضيوف كلامهم دفعة واحدة بعدة أصوات.

- حضرت ذات مرة محاكمة بدعوى قتل. - قال موظف البرق، وهو شاب شاحب الوجه، أسود العينين، صغير الشاربين.

- أنا شديدة الولع بالقراءة والاستماع عن حوادث القتل. - قالت ترافكينا بحرارة.

أما زوجها فقد نظر إلى الجميع، وقال:

- المحكمة العلنية مؤسسة طيبة.

- حوكم رفيقي إيفغينييف... كان يقف مناوبًا عند صندوق المال، يمزح مع صبي، فإذا به يقتله فجأة بطلق ناري...

- أوه، يا للفظاعة! - صاحت تاتيانا فلاسييفنا.

- قتله على الفور. - أضاف موظف البرق بشيء من الارتياح.

- وأنا كنت مرة شاهدًا في دعوى، - شرع ترافكين يقول بصوته الصاخب الجاف- أما في دعوى غير هذه، فقد كان يحاكم شخص قام بثلاث وعشرين سرقة.. لا بأس.

فانطلق كيريك يقهقه بصوت عال، وانقسم الجمع إلى فئتين، إحداهما تستمع إلى حكاية موظف البرق عن قتل الصبي، والأخرى إلى خبر ترافكين الممل عن الشخص الذي قام بثلاث وعشرين سرقة. وكان إيليا يراقب ربة البيت، وهو يحس في داخله ببصيص نار يلتهب شيئًا فشيئًا، غير منير شيئًا بعد، إلا أنه يحرق قلبه بإصرار. ومنذ اللحظة التي أدرك فيها لونيف أن أفتونوموف وزوجته يخشيان أن يربكهما أمام ضيوفهما، باتت أفكاره أوفر انسجامًا.

كانت تاتيانا فلاسييفنا منشغلة في الغرفة الأخرى قرب طاولة وضعت عليها زجاجات الخمر، قميصها الحريري القرمزي يرتسم بقعة وهاجة على كسوة الجدران الورقية البيضاء، والمرأة الرقيقة تفتل في الغرفة كأنها الفراشة، وعلى وجهها تشع كبرياء سيدة بيت كل شيء يجري عندها على أحسن ما يرام. وقد رآها إيليا مرتين تدعوه إليها بإشارتين خفيفتين بالكاد تلحظان، إلا أنه لم يذهب إليها، شاعرًا بالارتياح لما في هذا من إزعاج لها. وفجأة خاطبه كيريك قائلًا:

- ما لك، يا صاحبي، جالسًا كالبومة؟ احك شيئًا ما... لا تستح... هنا ناس متعلمون، فإذا بدر منك شيء فلن يؤاخذوك.

فبدأ إيليا الكلام دفعة واحدة وبصوت عال:

- كانوا اليوم يحاكمون فتاة أعرفها... هي من بنات الهوى، ولكنها فتاة طيبة.

فلفت إليه الانتباه العام من جديد، وتركزت عليه أنظار جميع الضيوف من جديد، وكشفت ابتسامة عريضة ساخرة عن أسنان فيليتساتا إيغوروفنا، وستر موظف البرق فمه بيده وأخذ يفتل شاربيه، وحاول الجميع تقريبًا أن يظهروا بمظهر المستمعين الجديين المنتبهين. وكان للسكاكين والشوكات، التي دلقتها تاتيانا فلاسييفنا فجأة، وقع الموسيقى العسكرية الصاخبة في قلب إيليا، فأجال في وجوه الضيوف نظرات من عينيه المحملقتين، وأردف قائلًا:

- ما لكم تبتسمون؟ يوجد بينهن طيبات جدًّا.

فقاطعه كيريك بقوله:

- يوجد يوجد... ولكن لا تتكلم عن هذا، لا تتكلم على نحو جد مكشوف.

- أنتم ناس متعلمون، - قال إيليا، - فلا تؤاخذوني إذا أخطأت.

وأحس كأن كومة بكاملها من الشرارات الساطعة تنبثق في داخلته، فابتسم ابتسامة حادة، وابترد قلبه

انشراحًا في طلاقة لسان تولدت لديه فجأة.

- هذه الفتاة سرقت فلوسًا من أحد التجار.

- اتسع الخرق. - قال كيريك مغضنًا وجهه بشكل هزلي، ولوح برأسه محزونًا.

- أنتم أنفسكم تدركون متى وكيف استطاعت السرقة، وقد لا تكون سرقة، بل أخذت منحة.

- تانيتشكا[32]! -صاح كيريك- تعالي إلى هنا.. إيليا هنا يروي نكات، يا لها من نكات!

ولكن تاتيانا فلاسييفنا كانت واقفة قرب إيليا، وقد أخذت تقول، وهي تتصنع الابتسام، وتشيل بكتفيها:

- وما هذا؟ كل شيء عادي جدًا، أنت تعرف المئات من هذه الحكايات، وليس هنا آنسات، ولكن هذا سيجيء دوره فيما بعد، أما الآن، فتفضلوا كلوا، أيها السادة.

وصاح كيريك:

- أرجوكم تفضلوا.. وأنا معكم سآكل... قه- قه. ليست السجعة رائعة، إلا أنها مرحة.

- تثير الشهية. - قال ترافكين ومسّد رقبته.

وانصرف الجميع بأنظارهم عن إيليا، فأدرك أن الضيوف غير راغبين في الاستماع إليه؛ لأن صاحبي البيت لا يريدان ذلك، فزاده هذا غليانًا، فهب واقفًا عن كرسيه، واستأنف يقول مخاطبًا الجميع:

- ويحاكم هذه الفتاة أناس ربما كانوا هم أنفسهم قد استعملوها غير مرة، وإني لأعرف بعضًا منهم، قليل عليهم نعتهم بالغشاشين المحتالين.

- من فضلك. - قال ترافكين بصرامة، رافعًا سبابته- هذا لا يجوز. هؤلاء محلفون، وأنا نفسي أيضًا.

- هه... محلفون! - صاح إيليا- ولكن أيمكن أن يكونوا عادلين، ما داموا...

- من فض.... لك، القضاء مع المحلفين هو، كما يقال، إصلاح عظيم أجراه في سبيل المصلحة العامة الإمبراطور ألكسندر الثاني.. فكيف تتجاسر على الطعن بمؤسسة من مؤسسات الدولة؟

كان يخرخر بصوته في وجه إيليا، وخداه السمينان الحليقان يرتعشان، وعيناه تدوران ذات اليمين وذات الشمال، والتفت الجميع من حولهما في حشد متراص، ووقفوا في الباب وقد استولى عليهم حدس ممتع بوقوع مشادة. وكانت ربة البيت تمسك الضيوف بأكمامهم، صائحة، وقد شحب وجهها واعتراها القلق:

- لننه هذا الأمر، يا سادة. صحيح، المسألة لا قيمة لها. كيريك، التمس منهم...

وكان كيريك يتخبط مرتبكًا، ويقول راجيًا:

- من فضلكم.. طيب، الله معها الإصلاحات والإملاحات وكل هذه الفلسفات.

- هذه ليست فلسفة، بل هي سي...يا... سة. -صاح ترافكين مخرخرًا بصوته- والناس الذين لديهم مثل هذه الأفكار مشبوهون سي...يا... سيًّا.

واجتاح إيليا إعصار لاهب، كان يطيب له الوقوف مقابل الرجل السمين ذي الشفتين المبللتين والوجه الحليق، ويرى كيف يأخذه الغضب، وكان يبهجه عميق البهجة شعوره بأن الزوجين أفتونوموف قد ارتبكا أمام ضيوفهما، فكان يزداد هدوءًا واطمئنانًا باطراد، وكان السعي لمشاكسة هؤلاء الناس، وتوجيه كلمات مهينة إليهم، وإغضابهم حتى الحنق، يشتد في داخلته كأنه زنبرك من فولاذ، ويرفعه إلى شاهق ممتع رهيب. وكان صوته يزداد باطراد هدوءًا وصرامة.

- سمني كما تشاء، فأنت رجل متعلم، ولكني لن أتراجع عن رأيي. وهل ترى يفهم الشبعان الجائع؟ وليكن الجائع لصًّا، ولكن الشبعان لص أيضًا.

واستأنف ترافكين الخرير بصوته:

- كيريك نيكوديموفيتش؟ ما هذا؟ هذا...

ولكن تاتيانا فلاسييفنا أشبكت ساعدها بساعده، وسحبت الرجل المهتاج وراءها، وأخذت تقول له بصوت عال:

- فطائرك الحبيبة، السمك المدخن، والبيض المسلوق، والبصل الأخضر، المفروك مع الزبدة.

- أي نعم! أعرف هذا. - قال ترافكين مغضبًا، متلمظًا بشفتيه بصوت مرتفع. ونظرت زوجته إلى إيليا نظرة صاعقة، وقالت لزوجها وهي ممسكة إياه من ساعده الآخر:

- لا تنفعل، يا أنطون، بسبب ترهات...

وظلت تاتيانا فلاسييفنا تهدئ من ثائرة ضيفها العزيز، قائلة له:

- سمك منقوع بالبندورة.

وفجأة استأنف ترافكين الكلام مؤنبًا متعاظمًا، وقد التفت إلى إيليا وثبت قدميه على الأرض:

- هذا غير حسن، أنت شاب.. يجب أن تحسن التقدير... يجب أن تفهم، أي نعم!

- ولكني لا أفهم. -صاح إيليا- ولهذا أتكلم... ما السبب في أن بتروخا فيليمونوف السيد في الحياة؟

وانصرف الضيوف عن لونيف، محاولين عدم المساس به. أما كيريك فقد أقبل عليه حتى بات لصقه، وقال له بلهجة فظة مهينة:

- يضربك قرد! أنت أبله، وبس.

فارتعد إيليا وغشيت عينيه سحابة قاتمة، كأنما بفعل ضربة نزلت على رأسه، فشد قبضتيه بعنف وخطا نحو أفتونوموف، ولكن كيريك تحول عنه بسرعة، غير ملاحظ حركته، ومضى إلى مائدة الطعام، فتنهد إيليا تنهدة ثقيلة.

كان، وهو واقف في الباب، يرى ظهور الناس المزدحمين حول المائدة ويسمع كيف يلوكون، وكان قميص ربة البيت القرمزي يصبغ كل ما حول إيليا بلون يغشي عينيه بضباب.

- مم.. - دمدم ترافكين- طعام لذيذ رائع... رائع!

فسألته ربة البيت بصوت رخيم:

- أتريد أن أرش لك فلفلًا؟

«أنا سأذيقك الفلفل» -قال لونيف في نفسه مصممًا بحنق عاصف، وبخطوتين واسعتين اقترب من المائدة، شامخًا برأسه، وتناول قدحًا من الخمر لأحد الشاربين، فمده إلى تاتيانا فلاسييفنا، وقال لها بلفظ واضح جلي، كأنما هو راغب في أن يصفعها بالكلمات صفعًا:

- لنشرب يا تانكا[33].

ففعل هذا بالجميع فعل شيء انخبط خبطة تصم الآذان، أو كأنما انطفأ النور في الغرفة، فأطبق على كل شيء دفعة واحدة ظلام كثيف، وجمد الناس في هذا الظلام، كلٌّ على وضعه. وكانت الأفواه المفتوحة، بما فيها من لقم الطعام، أشبه بجروح متقيحة على وجوه هؤلاء الناس المرتعبة المرتبكة.

- لنشرب، هيا.. كيريك نيكوديموفيتش، قل لعشيقتي أن تشرب معي.. وماذا في الأمر؟ وما الداعي لارتكاب القبائح سرًّا؟ بل سنفعلها جهارًا.. ها أنا قررت أن أفعلها جهارًا؛ لكي...

فصاحت المرأة بصوت حاد نابح:

- سافل!

وقد رأى إيليا كيف لوحت بيديها، فرد جانبًا بقبضة يده الصحن الذي قذفت به، وبدا كأن ضجة انكسار الصحن زادت الضيوف انصعاقًا وذهولًا، فراحوا يتنحون شيئًا فشيئًا، مبقين إيليا وجهًا لوجه مع الزوجين أفتونوموف. كان كيريك ممسكًا بسمكة من ذيلها وهو يرفرف بأجفانه، وقد اكتسى وجهه حلة من الشحوب والأسى والبلاهة. وكانت تاتيانا فلاسييفنا ترتجف، وهي تهدد إيليا بقبضتيها، وكان وجهها قد بات بلون قميصها، وعجز لسانها عن النطق بالكلمات، فراحت تصأى، ماطة عنقها نحو إيليا:

- أن...ت... تك...ذب.. تك.. ذب.

- إذا كنت تريدين، سأصف جسمك في عريه. - قال إيليا بهدوء- أنت نفسك أريتني كل شاماتك، وزوجك يعرف ما إذا كنت كاذبًا أم لا.

وانطلقت ضحكة مخنوقة، فلوحت أفتونوموفا بيديها، وأمسكت بعنقها وسقطت على الكرسي من دون حس، وصاح موظف البرق:

- استدعوا الشرطة.

والتفت كيريك إليه، وأغار على لونيف، بغتة، مخفضًا رأسه، كالثور.

فبسط إيليا ذراعه، فلطمه على جبينه، وقال بعنف:

- إلى أين؟ أنت رخو... أضربك فتهوي على الأرض. اسمع... أنت.. وأنتم جميعًا، اسمعوا... إنكم لا تسمعون الحقيقة في أي مكان.

ولكن كيريك، بعد أن اندفع مبتعدًا عن إيليا، أسدل رأسه من جديد، وأغار عليه. وكان الضيوف ينظرون في صمت، لم يتحرك أحد من مكانه، عدا ترافكين، فقد سار على طرف حذائه، وتنحى من دون حس إلى الزاوية، فقعد هناك على مصطبة المدفأة، وأشبك راحتيه ودسهما بين ركبتيه.

- أضربك، هه! -أنذر إيليا كيريك بوجه عابس- لست أريد الإساءة إليك؛ فأنت أبله، لا تؤذي... وأنا لم أر منك شرًّا... انقلع.

ودفره من جديد بمزيد من القوة، وابتعد هو نفسه صوب الجدار، وهناك استأنف الكلام، مستندًا بظهره إلى الجدار، ناظرًا إلى الجميع:

- زوجتك بنفسها ارتمت على عنقي... إنها ذكية... في الدنيا كلها لا توجد امرأة أسفل منها، وإنكم كلكم سفلة أيضًا. أنا كنت في المحكمة، وقد تعلمت المحاكمة.

وقد كان من شدة الرغبة في الإكثار من الكلام بحيث بات عاجزًا عن ترتيب أفكاره، فراح يقذف بها كأنها قطع الحجارة.

- الواقع أني لا أفضح تانكا... إنما جرى الأمر هكذا... من تلقاء نفسه... طول عمري كانت الأمور تجري معي من تلقاء نفسها، بل لقد خنقت رجلًا عن غير قصد، ما كنت أريد ذلك، ولكني خنقته. تانكا.. إننا نتاجر معًا بالنقود ذاتها التي أخذتها من القتيل.

- إنه مجنون! - صاح كيريك مبتهجًا، واستمر يصرخ وهو يقفز في الغرفة من واحد إلى آخر، بقلق وفرح:

- أما ترى؟ فقد عقله! إيه، يا إيليا! آه منك، يا أخ!

وانطلق إيليا يقهقه، وشعر بمزيد من الارتياح والطمأنينة حين تكلم عن حادث القتل. كان واقفًا، لا يحس بالأرض تحت قدميه، كأنما هو في الفضاء، وخيل إليه أنه يحلق مرتفعًا أعلى فأعلى، وكان، وهو البدين المتين البنية، يدفع بصدره إلى أمام، ويشمخ برأسه إلى العلاء، وكان شعره الأجعد يغمر جبينه الواسع الشاحب وصدغيه، وعيناه ترسلان نظرات ساخرة حانقة.

ونهضت تاتيانا، فمضت مترنحة نحو فيليتساتا إيغوروفنا، فقالت لها بصوت مرتعش:

- كنت أرى من زمان... أنه من زمان... عيناه وحشيتان، مرعب.

فقالت فيليتساتا بوقار، وهي تتأمل وجه لونيف:

- إذا كان قد جن، فلا بد من استدعاء الشرطة؛ فأخذ كيريك يصيح:

- جن، جن.

وهمس غريزلوف، متلفتًا بقلق:

- سيضرب الجميع أيضًا.

كانوا يخشون الخروج من الغرفة؛ فقد كان لونيف واقفًا قرب الباب، وكان لا بد من المرور على مقربة منه. إنه لا يزال يضحك، كان ممتعًا له أن يرى هؤلاء الناس في خوف منه، وقد لاحظ أن الضيوف غير متأسفين لما حل بالزوجين أفتونوموف، وأنهم يودون، لولا الخوف منه، لو يظلون طول الليل يستمعون إلى سخريته.

واستأنف يقول، محركًا حاجبيه بصرامة:

- أنا لست مجنونًا... ولكن انتظروا فقط، قفوا.. لن أسمح لكم بالذهاب إلى أي مكان، أما إذا هجمتم عليّ، فسأضربكم، حتى الموت... فأنا قوي.

وبسط ذراعه الطويلة، المنتهية بقبضة كبيرة متينة، ولوح بها في الفضاء ثم أسدلها.

- قولوا لي أي بشر أنتم؟ لماذا تعيشون؟ أنتم خسيسون... أنذال.

- أنت. - صاح كيريك- اخرس!

- أنت نفسك اخرس! أما أنا فسأتكلم... ها أنا أنظر إليكم.. إنكم تلتهمون الطعام، وتشربون، ويغش بعضكم بعضًا، لا تحبون أحدًا، فماذا تبتغون؟ كنت أنا أبحث عن حياة شريفة، نظيفة، لا وجود لها قط، فما انتهيت إلا إلى إفساد نفسي... الإنسان الطيب لا يستطيع العيش معكم؛ إنكم تميتون الناس الطيبين تعذيبًا... ها أنا غاضب، قوي، ولكني بينكم أشبه بالهرة الضعيفة بين الجرذان في قبو مظلم... أنتم في كل مكان، تحاكمون، وتتحكمون، وتسنون القوانين، ولكنكم أنذال.

وأثناء ذلك، كان موظف البرق قد وثب عن الجدار، كالبالون، وانطلق هاربًا من الغرفة، مارقًا بخفة من قرب لونيف، فقال إيليا ضاحكًا بسخرية:

- إيه! فلت واحد.

وصاح موظف البرق:

- أنا ذاهب لاستدعاء الشرطة.

فقال إيليا:

- طيب، استدعهم.. الأمر عندي سواء.

ومرت تاتيانا فلاسييفنا بالقرب منه، مترنحة كالنائمة، غير ناظرة إليه، واستأنف لونيف يقول مشيرًا إليها برأسه:

- آ لمتها.. تستحق ذلك... سافلة.

- اخرس! - صاح أفتونوموف من الزاوية، حيث كان جاثيًا على ركبتيه يبحث في درج خزانة صغيرة.

- لا تصرخ يا أبله. -أجابه إيليا وقد جلس على الكرسي وأشبك يديه على صدره- ما لك تصرخ؟ كنت أعاشرها، فأنا أعرفها، وقد قتلت أنا رجلًا، هو التاجر بولوئيكتوف... أتتذكر أني تحدثت معك غير مرة عن بولوئيكتوف؟ ذلك لأني خنقته... وقسمًا بالله إن المخزن مفتوح بماله.

وأجال إيليا طرفه في الغرفة، كان يقف لدى الجدران، في صمت، أناس خائفون، في حالة يرثى لها، فاحتقرهم وغضب على نفسه لتحدثه لهم عن القتل، فصاح بهم:

- أتحسبون أني أقدم الاعتراف لكم؟ مستحيل. إنما أنا أضحك عليكم.

ووثب كيريك من الزاوية، احمر الوجه، أشعث الشعر، فشهر المسدس، وصاح وعيناه تدوران في وقبيهما بوحشية:

- الآن... لا مفرّ لك.. ها-ها! أنت قتلت.

وانطلقت صيحات الذعر من النسوة، وراح ترافكين، الجالس على مصطبة المدفأة، يحرك رجليه ويقول بصوته الأجش:

- يا سادة، لم أعد أطيق.. دعونا نخرج... هذه قضية عائلية بينكم.

ولكن أفتونوموف لم يسمع صوته، وقفز إلى أمام إيليا، فصوب إليه مسدسه، وصاح:

- إلى سجن الأشغال الشاقة، نحن سنريك.

- ولكن أليس مسدسك هذا فارغًا؟ - سأله إيليا مستهترًا، وهو ينظر إليه بعينين متعبتين.- ما لك غاضب؟ لست ذاهبًا، فما من مكان أذهب إليه... تهددني بسجن الأشغال الشاقة؟ طيب... أشغال شاقة.

وانطلقت همسة عالية من زوجة ترافكين:

- أنطون، أنطون.. اذهب.

- لا أقدر يا عيني.

فأمسكت بساعده، ومرا بجانب إيليا متلازمين، مسدلين رأسيهما. وفي الغرفة المجاورة، كانت تاتيانا فلاسييفنا تنتحب في شهيق وزفير.

وتكوّن في صدر إيليا فجأة فراغ مظلم بارد طلع فيه، كالقمر الأغبش في سماء الخريف، سؤال فاتر: «وماذا بعد؟» فقال مفكرًا، بصوت خفيض:

- ها هي حياتي كلها قد تحطمت.

وكان أفتونوموف واقفًا أمامه يصيح بلهجة المنتصر:

- لا تسترحم.

- لن أحاول... وليأخذكم الشيطان جميعًا! أنا نفسي أشفق على الكلب أكثر مما أشفق عليكم... ألا لو كان بوسعي، لقضيت عليكم... جميعًا. ليتك، يا كيريك، تذهب من وجهي، فأنا أقرف من النظر إليك.

وراح الضيوف يتسللون من الغرفة من دون حس، وعيونهم تتطلع إلى إيليا بخوف. وكان هو يرى بقعًا كالحة تمر سابحة بجانبه، غير مثيرة لديه فكرة ولا إحساسًا؛ فقد تعاظم الفراغ داخل نفسه والتهم كل شيء. ولزم الصمت قرابة دقيقة، متسمعًا إلى صيحات أفتونوموف، ثم اقترح عليه فجأة، قائلًا بسخرية:

- هلّم نتصارع، يا كيريك.

فزأر كيريك، قائلًا:

- بل أرمي رأسك برصاصة.

- ولكن ليس لديك رصاصة. - قال لونيف ساخرًا، ثم أضاف بلهجة واثقة:- لو تعلم كيف سأطرحك أرضًا؟

وتطلع بعد ذلك إلى الجمع، فقال ببساطة وبصوت هادئ:

- لو أعلم بأي قوة يمكن سحقكم؟ لست أعلم.

وبعد هذه الكلمات انقطع نهائيًّا عن الكلام، وهو جالس دون حراك.

وأقبل أخيرًا شرطيان ومفوض.

وظهرت من خلفهم تاتيانا فلاسييفنا، فقالت بصوت لاهث، باسطة يدها نحو إيليا:

- اعترف لنا... بأنه قتل الصراف بولوئيكتوف... منذ مدة، أما تتذكرون؟

فسأل المفوض بسرعة:

- أيمكنك أن تؤكد ذلك؟

فأجاب إيليا بسرعة وبصوت متعب:

- وماذا؟ يمكن أن أؤكد...

فجلس المفوض خلف الطاولة وشرع يكتب شيئًا، والشرطيان واقفان عن يمين لونيف وشماله، فنظر إليهما، وتنهد تنهدة ثقيلة، وطأطأ رأسه. وساد السكون، وسمع صرير الريشة على الورق، وكان الليل خلف النوافذ ينتصب جدارًا أسود لا يشف عن شيء، وبالقرب من إحدى النوافذ، كان كيريك واقفًا يتطلع إلى العتمة، فإذا به فجأة يقذف بمسدسه إلى زاوية في الغرفة، ويقول للمفوض:

- سافيلييف.. اصفعه على رقبته واتركه، فهو مجنون.

فألقى المفوض بنظرة إلى كيريك، وفكر قليلًا، ثم أجاب:

- لا يجوز مثل هذا الإعلان.

- إيه! - تنهد أفتونوموف.

فقال إيليا متضاحكًا باحتقار:

- أنت طيب، يا كيريك نيكوديميتش. ثمة كلاب، يضربونها، فتتمرغ على الأقدام، ولكنك قد لا تكون مشفقًا عليَّ، بل خائف من أن أحكي عن زوجتك في المحكمة؟

لا تخف، هذا لن يكون؛ إني أخجل حتى من التفكير فيها، فضلًا عن الكلام عنها.

فخرج أفتونوموف مسرعًا إلى الغرفة المجاورة، فجلس هناك على الكرسي بصخب، وشرع المفوض يقول مخاطبًا إيليا:

- أي نعم... هذه الورقة.. أيمكن أن توقع عليها؟

- يمكن.

وتناول الريشة، فأجرى على الورقة، دون أن يقرأها، أحرفًا ضخمة: إيليا لونيف. وحين رفع رأسه رأى المفوض ينظر إليه بدهشة، وظلا بضع ثوان يتبادلان النظرات المتفحصة، أحدهما باهتمام وارتياح لشيء ما، والآخر دون مبالاة، وبهدوء واطمئنان. وسأل المفوض بصوت خفيض:

- هل عذبك ضميرك؟

فأجابه إيليا بصرامة:

- لا وجود للضمير.

ولاذا بالصمت، ثم انطلق صوت كيريك من الغرفة المجاورة:

- لقد فقد عقله.

- هيا بنا. - اقترح المفوض، وهو يهز كتفيه- لن أكبل يديك، ولكن إياك أن تهرب.

فسأل إيليا باقتضاب:

- وأين المهرب؟

- احلف بأنك لن تهرب... وحق الله!

فألقى لونيف بنظرة إلى وجه المفوض المقطب الآسف، وقال عابسًا:

- لا أؤمن بالله.

فلوح المفوض بيده تعبيرًا عن الضجر، وقال:

- روحوا، يا شباب.

وحين أطبقت على إيليا ظلمة الليل وغمرته النداوة، تنفس بعمق، وتوقف، وتطلع إلى السماء، فإذا هي سوداء فاحمة أو تكاد، هابطة إلى الأرض، أشبه بسقف غرفة ضيقة خانقة، مسود بفعل الدخان، فقال له الشرطي:

- امش.

فمشى... وكانت البيوت قائمة على جانبي الطريق، كأنها الصخور الجسيمة، والوحل يبقبق تحت الأقدام، والطريق آخذة بالانحدار إلى جهة تسودها ظلمة أشد كثافة، وقد عثر إيليا بحجر فكاد يقع، وارتعشت في أعماق نفسه فكرة ملازمة له:

«وماذا سيكون بعد؟ محكمة بتروخا!».

ومثلت أمامه في الحال صورة المحكمة... غروموف المتلطف، وسحنة بتروخا فيليمونوف الحمراء.

ووجعته أصابع قدميه من الاصطدام بالحجارة، فأبطأ في مشيته، وراحت تطن في أذنيه الكلمات السريعة التي قالها الرجل الأسمر عن الناس الشبعانين:

«يفهمون كل الفهم، ولهذا يقسون».

ثم تذكر رنة صوت غروموف الطيبة:

«وهل تعترف بأنك مذنب؟».

أما النائب العام فيقول بصوت ممطوط:

«قل لنا، أيها المتهم...».

وتتجهم سحنة بتروخا الحمراء، وتتحرك عليها الشفتان الغليظتان.

وأحس إيليا بكآبة لا توصف بكلمات، حادة كالمدية، تنفذ إلى قلبه.

فوثب إلى أمام وانطلق يعدو بكل ما فيه من قوة، وقدماه يصطدمان بالحجارة. كان الهواء يصفر في أذنيه، وهو يلهث ويخفق بيديه، قاذفًا بجسمه إلى أمام، أبعد فأبعد، في قلب الظلام، ومن خلفه كان رجلا الشرطة يخبطان الأرض بأقدامهما في تثاقل، ويشق الهواء صفير منذر حاد، ويزعق صوت أجش:

- امسكوووووه.

كان كل شيء حول إيليا - الدور، والجادة، والسماء- يرتعش ويقفز ويزحف عليه في كتلة سوداء ثقيلة، وكان يندفع إلى أمام غير شاعر بتعب، فهو طائر بجناحين من الحرص على عدم رؤية بتروخا. وانتصب أمامه من العتمة شيء كالح مستقيم فبعث في نفسه اليأس؛ فقد تذكر أن هذا الشارع ينعطف يمينًا بزاوية تكاد تكون قائمة إلى شارع المدينة الرئيس... وهناك الناس، وهناك يقبضون عليه.

- إيه، القطوا! - أطلق هذه الصيحة بملء صدره، وأحنى رأسه إلى أمام، واندفع بمزيد من السرعة، وكان أمامه جدار حجري، بارد، كالح، وانطلق في عتمة الليل صوت ضربة، أشبه بصوت ارتداد موجة النهر على الشاطئ، فرن رنينًا خافتًا قصيرًا، وانقطع.

ثم دب شبحان قاتمان صوب الجدار، فانقضا على الشبح الثالث، الساقط عند سفح الجدار، وما لبثا أن انتصبا. ومن الرابية، كان لا يزال الناس يتراكضون، ويلعلع خبط أقدامهم، وصياحهم، وصفيرهم الحاد.

- قتل نفسه؟

- سأل شرطي، وهو يلهث.

وأشعل الآخر عود ثقاب، وقعد على الأرض، وعلى مقربة من رجليه، كانت يد منطرحة تنفرج أصابعها شيئًا فشيئًا، بعد أن كانت متقبضة تقبضًا شديدًا.

- نهائيًا، على ما يبدو.. رأسه انكسر.

- انظر... النخاع.

وراحت تتواثب من العتمة أشباح بشرية سوداء.

- أخ، يا جني...

- قال الشرطي الواقف بصوت خافت، ونهض رفيقه عن الأرض، فرسم إشارة الصليب على صدره بكلل، وقال بصوت لاهث:

- الله يرحمه... على كل حال.

Notes

[←1]

نهر في الشمال من منطقة «جوركي»، وهو رافد أيسر لنهر الفولجا.

[←2] تصغير ياكوف. المترجم.

[←3] باشكا: تصغير بافيل. المترجم.

[←4]
تصغير الأسماء بالروسية تحببًا، فيصبح ياكوف، مثلًا، ياشكا، وزيادة في التحبب يصبح ياشنكا. المترجم.

[←5]

اسم بيرفيشكا الأصلي. المترجم.

[←6]

من نتاج الأدب الشعبي المزعوم.

[←7]

باشكا، تصغير بافل. المترجم.

[←8]

من نتاج الأدب الشعبي المزعوم.

[←9]

بافلوخا، تصغير بافل. المترجم.

[←10]

تمثال غ. ر. ديرجافين.

[←11]

تصغير كارب. المعرب.

[←12]

تصغير ميخائيل. المعرب.

[←13] كلمة عامية سورية تعني (ابتدأ). المترجم.

[←14]

فيركا، شكل من أشكال اسم «فيرا». المترجم.

[←15]

فيرونكا: تصغير فيرا. المترجم.

[←16]

ليبوشكا: تصغير أولمبيادا. المترجم

[←17]

ليبا: تصغير أولمبيادا. المترجم.

[←18]

ياشا: تصغير ياكوف. المترجم.

[←19] مؤسس الفلسفة المادية اليونانية القديمة.

[←20] أحد الملحدين البارزين في التاريخ القديم.

[←21] فيلسوف مادي يوناني قديم.

[←22]

تصغير أولمبيادا. المعرب.

[←23]

مطلع أغنية روسية قديمة. المترجم.

[←24]

مجلة أسبوعية أدبية مصورة.

[←25]

مجلة أدبية شهرية مصورة.

[←26]

أحد الأسفار في التوراة.

[←27]

تصغير بافل. المترجم.

[←28]

حين قال لها إيليا «تقبلين»، استعمل ضمير الجمع المخاطب على الطريقة المتبعة في اللغات الأوروبية، وهو لا يستعمل عادة بين الأزواج والأصدقاء الصميمين والعشاق. المترجم.

[←29]

شراب وطني روسي مرد، غير كحولي. المترجم.

[←30]

تصغير ياكوف. المترجم.

[←31]

تصغير غافريك. المترجم.

[←32]

تصغير تاتيانا. المترجم.

[←33]

هذا التصغير لاسم تاتيانا عن الاحتقار. المترجم.